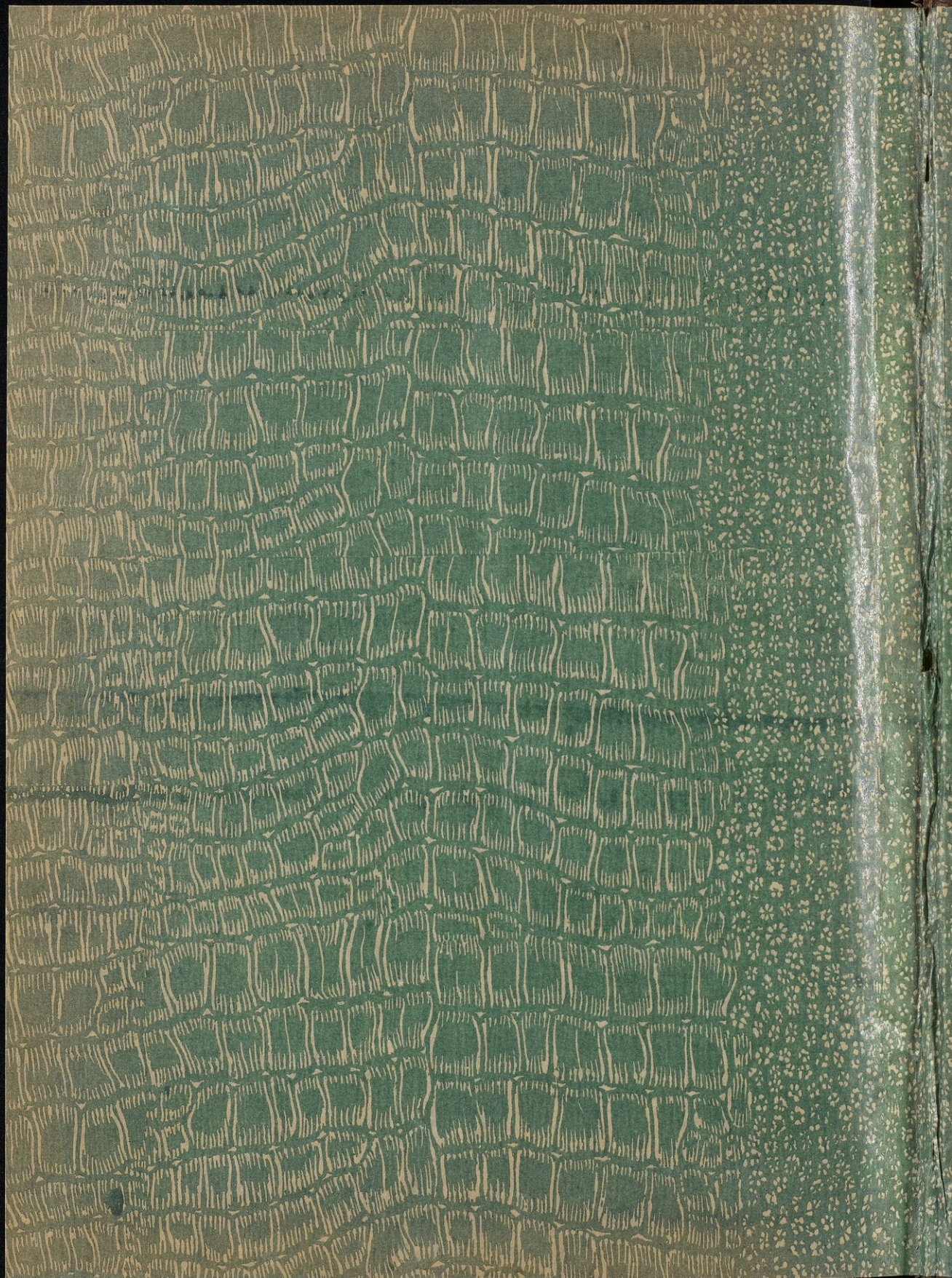
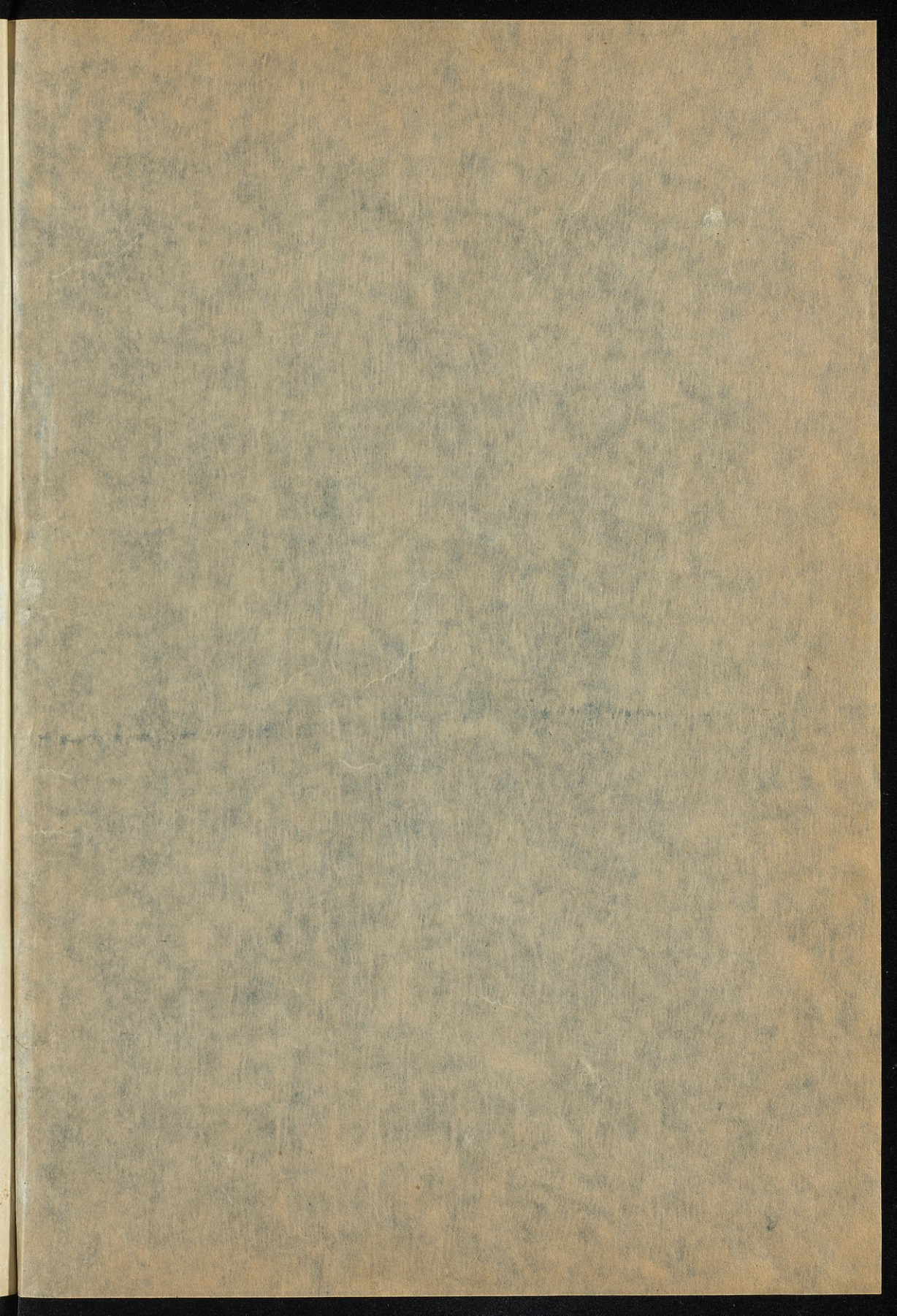


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







لص 26682

ح

تاريخ الحركة القومية

وتطور نظام الحكم

فمصر

بقلم

عبد الرحمن الراجحي بك

vol II

الجزء الثاني

(من إعادة الديوان في عهد نابليون إلى انتهاء الحملة الفرنسية)
(ومن جلاء الفرنسيين إلى ارتقاء محمد علي أريكة مصر بإرادة الشعب)

الطبعة الثانية

١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م

ثمان الجزء الثاني

٣٥

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة ، تليفون ٥١٣٩٤

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

962

R123

v. 2

26682

مقدمة الطبعة الثانية

هذه هي الطبعة الثانية للجزء الثاني من « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر » ، والجزء الأول يتناول ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث ، وبيان الدور الأول من أدوارها في عهد الحملة الفرنسية ، وتاريخ مصر القومي في ذلك العهد ، ويشتمل الجزء الثاني على تطور التاريخ القومي وحوادثه من إعادة « الديوان » في عهد نابليون إلى انتهاء الحملة الفرنسية ، وفترة الانتقال من جلاء الفرنسيين إلى ارتقاء محمد علي الكبير أريكة مصر بإرادة الشعب

وقد أخرجت بعد ظهور هذين الجزئين كتاب « عصر محمد علي » ، ثم كتاب « عصر اسماعيل » في جزئين ، أولهما عن عهد عباس الأول وسعيد وأوائل عهد الخديو اسماعيل ، والثاني وفيه ختام الكلام عن عهد اسماعيل

يلي ذلك كتاب « الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي » ، ويتضمن أسباب الثورة العربية ومقدماتها ، التي ترجع إلى أواخر عهد اسماعيل ، وما كانت ترمي إليه من تحرير البلاد من التدخل الأجنبي ومن الحكم المطلق معا ، ووقائع الثورة ومراحلها ، وما نالته من نجاح في الدور الأول من أدوارها ، ثم إخفاقها في الدور الثاني ، ووقائع الاحتلال الإنجليزي الذي رزنتُ به البلاد في أعقابها

وأفردت للسنوات العشر الأولى من الاحتلال كتاب « مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال » ، ويتناول تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ ، وما أصاب البلاد في خلالها من عدوان الاحتلال ، ووقائع هذا العدوان وترادفها في شمال الوادي وجنوبه ، وتراجع الروح القومية في تلك الفترة من الزمن

يلي ذلك كتاب « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية » ، ويتناول عهد البعث الوطني وتاريخ مصر القومي من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨

يليه كتاب « محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية » ، ويشتمل على تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩

ثم كتاب « ثورة سنة ١٩١٩ » في جزئين ، يشتمل أولهما على تاريخ مصر القومي في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ، وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية

والاجتماعية للثورة ، وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى اندلاع لهيب الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ، ووقائع الثورة وحوادثها في القاهرة والأقاليم ، ويتناول الجزء الثاني الحديث عن مهادنة الثورة ، واستمرارها ، ومحاميات الثورة ، ولجنة ملنر والحوادث التي لابتستها ، ومفاوضات سنة ١٩٢٠ ، واستشارة الأمة في مشروع ملنر ، والتبليغ البريطاني بأن الحماية علاقة غير مرضية ، ثم نتائج الثورة في حياة مصر القومية

يلي ذلك كتاب « في أعقاب الثورة المصرية » ، وقد أخرجتُ الجزء الأول منه في يولييه سنة ١٩٤٧ ، ويشتمل على تاريخ مصر القومي من ابريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة المغفور له « سعد زغلول » في ٢٣ اغسطس سنة ١٩٢٧

والله أرجو أن يوفقني إلى إتمام الجزء الثاني ثم الثالث من هذا الكتاب ، وبهما تكتمل هذه المجموعة بمشيئة الله ما

عبد الرحمن الرافعي

ابريل سنة ١٩٤٨

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الجزء الثاني

تقدّمتُ في العام الماضي لمواطنيّ الأعراب بالجزء الأول من تاريخ الحركة القومية، واليوم أتقدم بالجزء الثاني، حامداً الله على ما أسدى ويسّر، وعلى ما أعان ووفّق، وله الحمد أولاً وآخرأ

أفردتُ الجزء الأول لدراسة الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث، ومبدأ ظهورها، فرجعتُ بها إلى عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر، وبسطتُ الكلام في تأييد هذه الحقيقة وشرحها على ضوء الوقائع التاريخية، وسردتُ حوادث تلك المقاومة في مختلف أنحاء البلاد، من الاسكندرية إلى أسوان، وانتهيتُ إلى بيان وقائعها في الوجه القبلي، ثم وعدتُ القارئ في ختام الفصل السابع عشر أن تنتقل إلى القاهرة والوجه البحري، لمتابع الحوادث التي وقعت فيهما بعد إخماد ثورة القاهرة الأولى

وها هي تلك الحوادث مبسّطة في الجزء الثاني، فهو يتناول الكلام عن إعادة الديوان في عهد نابليون، ونظامه في دوره الثاني، ثم حملة نابليون على سورية، وحوادث المقاومة الشعبية التي وقعت في مصر أثناء غيبته، ثم سياسته إزاء الشعب حين عودته إلى مصر، حتى رحيله عنها، واستخلافه الجنرال كليبر في القيادة العامة، ووصف حالة مصر السياسية والاقتصادية والشعبية على عهد كليبر، ثم إبرام معاهدة العريش ونقضها، ونشوب ثورة القاهرة الثانية وإخمادها، ثم مقتل الجنرال كليبر، وتطور نظام الحكم على عهد خلفه الجنرال منو، وترادف الحوادث إلى جلاء الفرنسيين عن البلاد، وإلى هنا انتهينا من الكلام عن

نتائج بزوغ العامل القومي في أفق الحوادث السياسية خلال الحملة الفرنسية ، ثم أفضينا إلى الكلام عن نتائجه بعد انتهاء الحملة ، واستطردنا إلى ترجمة حياة زعماء الشعب في ذلك العصر ، مبتدئين بالسيد عمر مكرم ، الذي نعده أكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر في فجر النهضة القومية ، وبيننا وجه الارتباط بين ظهور تلك النهضة وظهور محمد علي باشا ، وبسطنا الحوادث التي تعاقبت على البلاد في السنوات التي أعقبت جلاء الفرنسيين ، وتأثير العامل القومي في تطورها ، وما كان من ثورة الشعب على حكم المماليك ، ثم ثورته على الوالي التركي ، وهما ختام الجزء الثاني ، وبتامه تم الحلقة الأولى من الكتاب ، ومن الجزئين الأول والثاني تتألف صفحة كاملة من حياة مصر القومية في تاريخها الحديث ، بدأت بظهور الحركة القومية ، وختمت بارتقاء محمد علي أريكة مصر بارادة الشعب

ولمناسبة ظهور الجزء الثاني ، أرى حقاً على أن أدون في مقدمته آية الشكر لمن تفضلوا بتعميدي في العمل ، وأخص بالشناء الصحافة وأعلامها ، فإن ما تفضلوا به عليّ من التنويه بكتابي والعناية به ، وبجته وتحليله ، وما أسدوه إليّ من العطف وجميل الرعاية ، كان له أحسن الوقع في نفسي ، فلهم عليّ بذلك فضل لا أنساه ، وإني لأعده منهم أكبر مشجع لي عليّ المضي في عملي ، ولا غرو فالصحافة من أكبر دعائم الحركة القومية وأقوى أركان النهضة السياسية والعلمية في البلاد

وكذلك أقدم شكري للذين تفضلوا عليّ وشجعوني برسائلهم الخاصة التي لم تنشر في الصحف ، وأحفظ تلك الرسائل ذخيرةً عندي وتذكيراً لشريف عواطفهم وكريم إحساسهم

وإذ يظهر هذا الجزء في يوم الذكرى الثانية لانتقال فقيد الوطن المرحوم أمين بك الرافعي إلى الرفيق الأعلى ، فإني أحيي ذكراه الجليلة ، وأرسل من أعماق قلبي إلى روحه الطاهرة آيات الحجة والإخاء ، فلتدم ذكراك المزيّنة يا أمين ، يحدّدها مرّ الأيام وكرّ السنين ، ولتخلد أعمالك في ما ترقومك ، ولتطئن نفسك في السماء بين الصديقين والشهداء « وَحَسَنَ أَوْلِيكَ رَفِيقًا ، ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا »

خلاصة الجزء الأول

نذكر هنا خلاصة فصول الجزء الأول لنضع أمام القارئ صورة موجزة منه قبل قراءة

الجزء الثاني :

مقدمة الكتاب واهدائه

الفصل الأول — يتناول الكلام عن نظام الحكم في عهد المليك . وفيه بيان لنظام الحكم السياسي ، ونظام الملكية والضرائب ، والنظام القضائي ، ونتائج تلك النظم في حالة مصر من اوجهة السياسية والاقتصادية والصحية ، والكلام في العلوم والآداب ، والحالة الاجتماعية والاقتصادية في مصر عند مجيء الحملة الفرنسية

الفصل الثاني — تطور نظام الحكم في عهد الحملة الفرنسية ، وفيه بيان أسباب الحملة ومقدماتها وتطورها في خلال العصور ، وإنفاذ الحملة على يد نابليون بونابارت ، وموقف إنجلترا ، ومعدات الحملة ووقائعها الأولى ، وسياسة نابليون اراء الشعب وقاعدة الحكم التي وضعها في منشوره إلى المصريين ، والمفاوضات بين نابليون وزعماء الشعب غداة معركة الأهرام

الفصل الثالث — نظم الحكم التي أسسها نابليون في مصر ، ديوان القاهرة ، دواوين

الأقاليم ، الديوان العام

الفصل الرابع — المجمع العلمي ، نظامه وأعضاؤه وداره ، طائفة من أعضاء المجمع ولجنة العلوم والفنون . علماء الرياضيات والمهندسون . علماء الطبيعيات . الاقتصاديون . القواد والضباط . الأطباء والجراحون . الأدباء والترجمون والفنانون . أعمال المجمع العلمي ، نظرة عامة في نظام الحكم الذي أسسه نابليون في مصر

الفصل الخامس — المقاومة الأهلية في عهد الحملة الفرنسية ، كلمة عامة . المقاومة في

الإسكندرية . الحالة النفسية للشعب عند مجيء العبارة الفرنسية . دفاع أهالي الثغر واحتلال الإسكندرية . سياسة نابليون في الإسكندرية وأوامره وتعليماته قبل مغادرته إيها . موقف الجنرال كليبر في الإسكندرية . مسألة السيد محمد كريم والقبض عليه ومحاكمته ثم إعدامه

الفصل السادس — في البحيرة . معركة شبراخيت . نهب القرى

الفصل السابع — في القاهرة . حالة الأفكار في القاهرة عند مجيء الحملة الفرنسية والنفير

العام . سوء استعداد المماليك وضعف وسائل الدفاع . واقعة امبابة أو معركة الأهرام ونصيب
المصريين فيها

الفصل الثامن — عود إلى الإسكندرية . واقعة (أبو قير) وتأثيرها في مركز الفرنسيين .
ديوان الإسكندرية

الفصل التاسع — في رشيد . احتلال رشيد . حادثة السالمية . حادثة شباس عمير
الفصل العاشر — عود إلى البحيرة ورشيد . الاضطرابات في البحيرة . حول رشيد
وفي دمهور

الفصل الحادى عشر — في القاويبية والشرقية . توزيع القوات الفرنسية في الوجه البحرى .
المعارك بين الخانكة وأبى زعبل . انسحاب الفرنسيين من الخانكة ثم احتلالها . احتلال بلديس .
معركة الصالحية . عودة نابليون إلى القاهرة . الاضطرابات في الشرقية

الفصل الثانى عشر — عود إلى القاهرة . سياسة الحفلات . مهرجان وفاء النيل . حفلة
المولد النبوى . تعيين أمير الحج . عيد الجمهورية الفرنسية
الفصل الثالث عشر — ثورة القاهرة الأولى

الفصل الرابع عشر — في المنوفية والغربية . المقاومة في غمرين وتتا . الحملة الكبرى .
الثورة في طنطا . احتلال عشا

الفصل الخامس عشر — في الدقهلية ودمياط . واقعة المنصورة . الحملة على سنباط وميت
غمر . فيضان الثورة . الحملة على البحر الصغير . حسن طوبار . سير الحملة على البحر الصغير .
معركة الجمالية . في دمياط . واقعة الشعراء . تقاوم الثورة وفضائع الجنرال فيال . الحملة الثانية
على البحر الصغير . سير الحملة والاستيلاء على المنزلة . احتلال المطرية . تحصين منطقة دمياط

الفصل السادس عشر — المقاومة في الوجه القبلى . احتلال بنى سويف . احتلال
البنهنا . تعقب أسطول المماليك إلى أسيوط . واقعة سدمنت . حادثة الفقاعى . احتلال أسيوط .

الثورة فيما بين أسيوط وجرجا . معركة سوهاج . معركة طهطا . معركة سمهود . وصول
الفرنسيين إلى أسوان . المقاومة في جزيرة فيله . تجدد القتال بين جرجا وأسوان . معركة
الردسية . معركة قنا . معركة (أبو مناع) . معركة اسنا

الفصل السابع عشر — استمرار المقاومة في الوجه القبلى . موقف المماليك . معركة
الصوامعة . كارثة السفن الفرنسية في النيل . من أسوان إلى قوص . معركة قفط . معركة

أبنود . حالة الشعب النفسية . رجوع ديزيه إلى قنا . معركة بئر عنبر . تجدد الثورة بين قنا وجرجا . واقعة برديس . واقعة جرجا . واقعة جهينة . الثورة في بني عدى . في المينا وبني سويف . واقعة (أبو جرج) . الثورة في المنيا . الثورة في اطفيح . حركات الجنرال ديزيه . مشروع الحملة على القصير . تنظيم البريد . اعتقال الرهائن . واقعة أسوان . احتلال القصير . الحالة النفسية للشعب

الفصل الثامن عشر — وثائق تاريخية

الفصل التاسع عشر — مراجع البحث

تمت خلاصة الجزء الأول ، ويليهما الفصل الأول من الجزء الثانى

الفصل الأول

إعادة الديوان

تعطل الديوان بعد اخماد ثورة القاهرة ، واشتدت وطأة الإرهاب فيها ، فضجّ الناس مما أصابهم من ترادف الظالم وتوالى المحن ، فكسدت الأسواق ، وبارت التجارة ، وانقبضت أيدي الناس عن العمل ، وبدأ نابليون يفكر في عواقب الغاء الديوان واستمرار حكم الأَرهاب وما يفضي إليه من تعطيل دولاب الحكومة وشلل الإدارة

كان من نتائج حكم الإرهاب أن شحّ المال وأخذ معينه ينضب في خزانة الحكومة والجيش ، وبدأ الارتباك يظهر في الإدارة وفروعها

كتب الميسوسوسي Sacy مدير مهمات الجيش إلى الجنرال (منو) Menou في هذا الصدد يقول : « إن الحوادث الأخيرة قد حبست ضرائب البيوت ، وصار إيراد الجمارك في حكم العدم » ، فهذه العبارة منبئة بما صارت إليه حالة الخزانة من الارتباك ، وبديهي أن هذه النتيجة لم تكن لنرضى نابليون أو تحقق آماله ، فأدرك أن استمرار حكم الإرهاب لا يضر الشعب وحده بل يعود بالوبال والخسران على المصالح الفرنسية ، وعلم من جهة أخرى أن تركيا تعيء جيشاً للزحف على مصر ، فرأى من الحكمة أن يعمل من جديد على استرضاء المصريين وأن يعيد إلى البلاد حالتها الطبيعية بقدر المستطاع ، وأدرك أن استمرار حكم الفرع والإرهاب في القاهرة يجعل البلاد كلها في هرج الثورة ومرآجها ، ويزعزع الاحتلال الفرنسي ، ويصمه بالعجز عن إقرار الخواطر وتهديتها ، ورأى بثاقب نظره أن ليس في مقدوره حكم البلاد بقوة السيف والنار ، وتبين له من تجربة تعطيل الديوان أن لا سبيل إلى حكم الشعب دون وساطة زعمائه وكبرائه ، فعاد يفكر في إعادة الديوان بعد أن استمر معطلاً أكثر من شهرين

على أن إرجاع الديوان لم يكن من شأنه إعادة السكينة والرجوع بالبلاد إلى حالتها الطبيعية ، لكنه كان بلا جدال وسيلة تخفف من هياج الخواطر وثورة النفوس قال (ريبو) في هذا الصدد : « لقد تجدد الشعور بضرورة إحداث هيئة نيابية تكون

سبيل التفاهم بين الفرنسيين والشعب المصري ، وظهر خطأ الفكرة القائلة بإبطال الديوان ، وكان نابليون أول من شعر بضرورة إعادته ، لقد تردد في ارجاعه أملا في أن يتعود المصريون اتصال علاقتهم مباشرة بالسلطات الفرنسية ، لكنه لاحظ أن شعور العداء والكراهية لا يزال يطغى ويزداد كل يوم قوة فيفسد العلاقات بين الفرنسيين والأهالي ، فغزم من ثم على الرجوع إلى برنامج القديم وإعادة الهيئة النيابية المصرية ، ولم يشأ أن يفهم الشعب أنه مكره على إعادة الديوان ولا أنه قد أعاده من ضغط واضطرار ، فاجتهد في أن يصنع عمله بصيغة الكرم والسخاء» (١)

هذا ما يقوله (ريبو) تعليلا لإعادة الديوان ، ويزيد عليه أن نابليون كان لا يفتأ يفكر في تحقيق مشروعاته العظيمة التي كانت الغرض من الحملة الفرنسية ، وأهمها ضرب السياسة الإنجليزية في الهند ، وإنشاء دولة عربية عظيمة تحقق أطاعه في الشرق ، وبالرغم مما أثارته ثورة القاهرة في نفسه من الحنق وخيبة الرجاء فإنه لم يفقد الأمل في أن يجتذب إليه قلوب المصريين ، وكان معتقداً أنه في حاجة إلى اكتساب رضاهم ليمضي مطمئنا في تحقيق مشروعاته الكبيرة ، وأول ذلك الحملة على سورية ، فلما اعترم إنفاذها رأى من الحكمة أن يتقرب إلى المصريين بإعادة الديوان قبل أن يغامر بجيشه في حملة بعيدة المدى منهكة للقوى ، وإذا قابلت تاريخ تلك الحملة بتاريخ إعادة الديوان وجدت بين الحادثتين تقاربا تستنتج منه أن نابليون أعاد الديوان اجتذبا لقلوب المصريين بعد أن اعترم الزحف على سورية حتى لا يدع وراءه أمة غاضبي ، فقد أمر بإعادة الديوان في ٢١ ديسمبر سنة ١٧٩٨ في الوقت الذي كان يعد فيه معدات الحملة ، ثم ارتحل إلى السويس في ٢٤ ديسمبر لاكتشاف موقعها وارتياح شبه جزيرة سيناء ، وكانت فكرة الزحف على سورية قد اختمرت في ذهن نابليون قبل رحلته إلى السويس بوقت طويل ، قال الجنرال (برتييه) رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية في كتابه (٢) : « إن معدات الحملة على سوريا دخلت في دور التنفيذ قبل رحلة نابليون إلى السويس » ، ويقول الجنرال كليبر في يومياته لمناسبة رحلة السويس هذه واستخلافه على القيادة العامة مدة غيبة نابليون : « لقد دار الكلام حول الحملة على سورية والاستعداد لها ، وكانت الفكرة السائدة أن قيادتها ستعهد لي ، لكن نابليون عزم على أن يتولى قيادتها بنفسه ، وقد عرض على الجنرال (كافربللي) يوم ٢ نيفوز (٢٢ ديسمبر سنة ١٧٩٨) قيادة تلك الحملة فأجبت

(١) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الرابع

(٢) ذكر حروب الجنرال بوناپارت في مصر وسوريا

بالقبول « ، ثم ذكر كليبر أن نابليون دعاه قبل رحيله إلى السويس أن يصحبه إليها فأجابه كليبر بأن الجنرال كافربيللي أخبره بقرب سفره إلى دمياط وقطية للزحف على سورية ، فكان جواب نابليون أن في الوقت سعة بعد عودتهم من السويس ، ثم رجاء كليبر في أن يبقى هو بالقاهرة إلى أن يرجع من رحلته ، فأقره نابليون وأتابه عنه في القيادة العامة (١) ، ويقول الكولونيل جا كوتان Jacotin إن الحملة على سورية كانت تهيأ معداتها قبل تحركها بنحو شهرين (٢) ، كل هذا يدل على أن نابليون قد أعاد الديوان بعد أن اعتزم تجريد الحملة على سورية ، وأنه أمر بإعادته قبل رحلته إلى السويس ، فلنقل إذن كلمة عن هذه الرحلة وعن أهمية السويس وعلاقتها بمشروعات نابليون

احتلال السويس

ورحلة نابليون إليها

كانت للسويس أهمية حربية كبيرة لم تفت نابليون ، وبخاصة لأن لها صلة وطيدة بمشروعاته في الشرق ، فقد كان بالرغم من تحطيم أسطوله في واقعة (أبو قير) لا ينفك يبتكر الوسائل ويرسم الخطط لينال من إنجلترا عدوته اللدودة ، ولم يفقد الأمل في تجريد حملة برية تحترق آسيا وتصل إلى الهند ، وكان يرى من جهة أخرى أن السويس تصلح لأن تكون قاعدة بحرية على شاطئ البحر الأحمر ، يصل منها إلى الهند ، وفكر كذلك في وصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر بقناة تجرى بينهما ، وجدّ في إنفاذ هذا المشروع وكان غرضه منه محاربة إنجلترا وزعزعة قواعمها في الهند ، لكنه لم يفلح في تحقيق فكرته ، وصرفه عنها سير الحوادث وتقلب الأحوال

فالسويس كانت إذن قاعدة لمشروعات حجة طافت برأس نابليون ، ولا غرو أن وجه عنايته إلى احتلالها عسكريا واكتشاف موقعها وارتياح الجهات المجاورة لها ، فعهد إلى الجنرال (بون) Bon أن يحتلها (٣) فسار هذا إليها من القاهرة سالكا طريق الحجاج وعسكر بها في أوائل شهر ديسمبر سنة ١٧٩٨

(١) يوميات الجنرال كليبر

(٢) كتاب (تخطيط مصر) الجزء السابع عشر

(٣) أمر نابليون المؤرخ أول ديسمبر سنة ١٧٩٨ . مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم

رواية الجبرتي

قال الجبرتي عن احتلال السويس : « إن أهل السويس لما بلغهم مجيء الفرنساوية هربوا واخلوا البلدة فذهبوا إلى الطور ، وذهب البعض إلى العرب بالبادية ، فهب الفرنسيون ما وجدوه بالبندر من البن والمتاجر والأمتعة وغير ذلك ، وهدموا الدور وكسروا الأخشاب وخوابى الماء ، فلما حضر كبيرهم وكان متأخراً عنهم كله التجار الذاهبون معه وأعلموه أن هذا الفعل غير صالح ، فاسترد من العسكر بعض الذى أخذوه ووعدهم باسترجاع الباقي أو دفع ثمنه بمصر وأن يكتبوا قائمة بالنهب »

وهذه الرواية تؤيدها رسالة الجنرال (بون) التى بعث بها من السويس بتاريخ ٧ ديسمبر سنة ١٧٩٨ إلى نابليون يبلغه فيها نبأ احتلاله إياها ، فقد ذكر فيها « أن بعض أغنياء المدينة قد هجروها عند اقترابنا وانسحبوا إلى السفن التى فى الميناء وعددها تسع » ، وقال فى موضع آخر من رسالته إنه أمر قوميسير الحرب « أن يفتش بيوت البكوات والأغنياء الفارين وأن يأخذ ما فيها من مواد الوقود وينقل ما بها من الدقيق والغلال إلى مخزن الجيش » ، وهذا هو النهب الذى أشار إليه الجبرتي ، وقال فى موضع آخر من رسالته إن الأخشاب القديمة كثيرة فى المدينة وهى تصلح للوقود ، وأنه أمر قوميسير الحرب أن يحملها إلى مخزن الجيش وأنه أصدر تعليماته مشددة بعدم التعرض لأخشاب البناء الموجودة بكثرة فى هذا البلد

اعتزم نابليون أن يرتاد بنفسه تلك المواقع التى كان يبني عليها آمالاً كبيراً ، فخرج من القاهرة يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ^(١) فى جماعة من كبار القواد والمهندسين وبعض الأعيان المصريين ، ذكر (ريبو) أسماءهم وهم : الجنرال برتويه ، وكافريللى ، ودوماران ، والكونتير أميرال جانتوم قومندان البحرية ، والقوميسير (دور) مدير مهمات الجيش ، ^(٢) والمسيو برتوليه ، والمسيو موج ، ولوير ، ودوترز ، وبورين ، وديكوتيل ، وكوستاز ، من أعضاء الجمع العلمى والسيد أحمد المحروق كبير تجار القاهرة ، وإبراهيم افندى كاتب جمرك البهار ، فبلغ نابليون وصحبه السويس يوم ٢٦ ديسمبر ليلاً ، وجاب نواحى طورسيناء وبرزخ السويس واستطلع آثار ترعة الفراغة القديمة وخليج أمير المؤمنين ، وعهد إلى المهندس لوير Le Père كبير مهندسى الطرق والجسور أن يدرس مشروع حفر ترعة تصل البحر الأبيض بالبحر

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٩٠

(٢) عينه نابليون بدلا من المسيو (سوسى) الذى رحل إلى فرنسا مستشفياً من الإصابة التى نالتها فى

أول عهد الحملة الفرنسية (أنظر الجزء الأول ص ٣١٧ من الطبعة الأولى)

الأحر وأن يضع تقريراً عنه^(١)، وعاد إلى القاهرة في اليوم السادس من شهر يناير سنة ١٧٩٩

رواية الجبرتي

قال الجبرتي عن رحلة نابليون إلى السويس : « وفي يوم الاثنين سادس عشر رجب سنة ١٢١٣ سافر سارى عسكر بونابرتة إلى السويس وأخذ صحبته السيد أحمد المحروق (كبير تجار القاهرة) وإبراهيم افندى كاتب (جمر ك) البهار وأخذ معه أيضاً بعض المدبرين والمهندسين والمصورين وجرجس الجوهري (كبير المباشرين) ، وأنطون أبو طاقية ، وغيرهم ، وعدة كثيرة من عساكر الخيالة والمشاة ، وبعض مدافع ، وعربات ، وتختروان ، وعدة جمال للملح الذخيرة والماء والقومانية (المؤونة) » ، وقال في موضع آخر : « وفي مدة إقامته بالسويس صار يركب ويتأمل في النواحي وجهات ساحل البحر والبر ليلاً ونهاراً »

منشور نابليون

بإعادة الديوان

قبل أن يغادر نابليون القاهرة إلى السويس أصدر منشوره بإعادة الديوان في ٢١ ديسمبر سنة ١٧٩٨ وبين فيه أنه عطل الديوان منذ شهرين عقاباً لأهل القاهرة على الثورة التي نهضوا فيها ، وأنه رأى بعد أن سكنت الأحوال وهدأت الخواطر إعادة الديوان سيرته الأولى ، وقد ملأ منشوره بمبارات جوفاء تعود أن يكررها في بياناته ومنشوراته إظهاراً لسطوته ، وأغرق في هذه المبارات حتى ادعى أنه اطلع الغيب وأنه يعلم أسرار النفوس وما تخفى الصدور ، وزعم أن احتلاله مصر مذكور في بعض آيات القرآن الكريم ...

أراد نابليون بهذا الأسلوب أن يشعر الناس شدة بأسه وقوته ويأتيهم من ناحية الخوارق التي اعتادوا أن يسمعوها في ذلك العصر ، لكنه في الحقيقة لم يؤثر في حالة الشعب النفسية ولم يغير من شعورهم حيال الفرنسيين بل زاد في كراهيتهم ، وهذا يفهم مما ذكره الجبرتي عن هذا المنشور فقد وصفه بقوله :

« وقد أوردت ذلك وإن كان فيه بعض طول للاطلاع على ما فيه من التموهيات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات التي تنادى ببطلانها بديهية العقل فضلاً عن النظر ، وهي مقولة على لسان بونابرتة كبير الفرنسيين »

(١) راجع ماكتبناه عن هذا المشروع بالجزء الأول ص ١٢٥ (من الطبعة الأولى)

أوردنا نص المنشور في قسم الوثائق التاريخية^(١) بصيغته العربية نقلاً عن الجبتي ، وقد رجعنا لمعرفة نظام الديوان إلى الأصل الفرنسي للمنشور الوارد في جريدة (كوربيه دليجبت)^(٢) التي كانت تصدر على عهد الحملة الفرنسية ، وهو يشمل أمر التأسيس الذي أصدره نابليون ثم المنشور الوارد تعريبه في الجبتي ونظام الديوان العمومي والديوان الخصوصي وأسماء أعضاء الديوان العمومي ، ورجعنا كذلك إلى مراسلات نابليون^(٣) فوجدناها مطابقة لما جاء في جريدة (كوربيه دليجبت) غير أنه لم يرد بها أسماء الأعضاء

نظام الديوان الجديد

وضع نابليون للديوان نظاماً جديداً أوسع نطاقاً من نظامه القديم ، فجعله مؤلفاً من هيتين : (الديوان العمومي) ويسميه نابليون الديوان الكبير ، و (الديوان الخصوصي)^(٤)

الديوان العمومي

فالديوان العمومي مؤلف من ستين عضواً عنهم الفرنسيون تعييناً من بين أعيان المصريين وممثلي طبقاتهم ، وهؤلاء ينتخبون من بينهم رئيس الديوان واثنين من السكرتيرين ، ويكون انتخابهم بالأغلبية النسبية ، ويجتمع الديوان العمومي بناء على دعوة حاكم القاهرة ، وموعد اجتماعه كما حدده أمر التأسيس في اليوم السابع من شهر نيفوز (يوافق اليوم الثامن عشر من شهر رجب - ٢٧ ديسمبر) الساعة التاسعة صباحاً ، فيبتدىء الديوان جلساته من هذا اليوم ويستمر انعقاده ثلاثة أيام ثم ينفذ ولا ينعقد بعد ذلك إلا بدعوة أخرى من حاكم العاصمة ، وعين للديوان قوميسير فرنسي وهو الميسو جلوتيه Gloutier وقوميسير مسلم وهو الأمير ذو الفقار ككتخدا (وكيل) نابليون

وقد اجتمع الديوان العمومي فعلاً يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، وإليك أسماء أعضائه الستين كما هي واردة في الأمر الصادر بتأسيسه :

من المشايخ والعلماء : السيد البكري ، الشيخ الدرناشي ، السيد حسن الرفاعي ، الشيخ عبد الله الشراوي ، الشيخ محمد المهدي ، الشيخ مصطفي الصاوي ، الشيخ موسى السرسى ،

(١) وثيقة رقم ١ (٢) العدد ٢٣ (٣) الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٨٥ (٤) عبارة (الديوان العمومي) و (الديوان الخصوصي) هي التسمية الواردة في الجبتي أى التي كانت معروفة في عصره فأبقيناها كما هي لأنها صارت من المصطلحات التاريخية لنظام الحكم في ذلك العصر ، وفي الجبتي أن (الديوان الخصوصي) يسمى أيضاً (الديمومي) ، ولعلها مأخوذة من كلمة دائم لأنه ينعقد دائماً وهذا يطابق اسمه بالفرنسية Divant permanent أى الديوان الدائم

الشيخ محمد الأمير ، الشيخ سليمان الفيومي ، الشيخ احمد العريشي ، الشيخ إبراهيم بن المفتي ،
الشيخ صالح الحنبلي ، ، الشيخ محمد الدواخلي ، الشيخ مصطفى المنهوري
من الواقيلية (الجهادية) : محمد أغا شوريجي فلاح ، علي نكيا المجدلي ، خليل أغا شوريجي
فلاح ، احمد ذو الفقار أوضاباشي فلاح

من الانكشارية : يوسف شوريجي باشجاويش التفكجية ، يوسف شوريجي باشجاويش
الهجانة ، مصطفى افندي الشركسي ، الأمير سليم شرابي
من وجاق العزب : مصطفى افندي عاصي ، مصطفى نكيا باش اختيار ، حسن شوريجي
ركاوي

من تجار الغورية : الحاج محمد العشوب شيخ الغورية ، الحاج محمد أبو النصر ، الحاج سيد
شيخ المغاربة

من تجار البهار والبن - الحاج احمد محرم ، الحاج احمد المحروقي ، ابراهيم افندي كاتب
جمرک البهار ، الحاج حسين جاد ابراهيم ، المعلم ميخائيل كحيل ، المعلم يوسف فرحات ، الحاج
احمد حسين

من تجار البضائع التركية - السيد احمد العقاد المحروقي ، الحاج مصطفى شيخ العقادين ،
الحاج أحمد القازانجي

من تجار العطاراة - السيد محمد شيخ العطارين

من تجار السكر - درويش عبد القادر البغدادي ، ابراهيم قرموط ، محمد الهمشري

من تجار النحاس - السيد مصطفى مصباح ، الحاج حسين النحاس

من الصاغة والجواهرجية - الحاج سالم الجوهرى ، محمد البغدادي

من تجار الورق - علي بن الحاج خليل الوراق

من تجار الأقمشة - الحاج ابراهيم المسيري ، علي السلاطجي

من تجار الصابون - السيد احمد الزرو ، السيد يوسف نخر الدين

من تجار الدخان والأقمشة السورية - أحمد نظام

من مشايخ الأخطاط - شيخ جزاري الحسينية ، شيخ العطوف

من الأقباط - المعلم لطف الله المصري ، المعلم ابراهيم جر العايط ، الشيخ ابراهيم مقار ،

الشيخ ابراهيم كاتب البصرة

من الأجانب - الميسو ولمار Wolmar ، الميسو كاف Caffé ، الميسو بودوف Baudeuf

يتبين من هذا الإحصاء أن الديوان العمومي كان يمثل طبقات الهيئة الاجتماعية فهمهم :

١٤	من العلماء والمشايخ
٢٦	من التجار والصناع
١١	من رجال العسكرية
٢	من مشايخ الأخطاط
٤	من الأقباط
٣	من الأجانب

٦٠

وكان نابليون يعني بجعل الديوان العمومي ممثلاً لسكان القاهرة على اختلاف طبقاتهم ، يدل على ذلك الأمر الذي أصدره بتاريخ ٢٨ يونيو سنة ١٧٩٩ إلى القوميسير الفرنسي لدى الديوان بأن يبلغه إذا كانت في الديوان مراكز خالية ليشغلها بأعضاء جدد لأنه ينبغي « أن يتألف الديوان من هيئة تكون ممثلة تمام التمثيل لسكان القاهرة بحيث إذا خاطبت الحكومة الديوان تتحقق أنها تواجه فيه الرأي العام ^(١) »

الديوان الخصوصي

قضى أمر التأسيس بأن ينتخب أعضاء الديوان العمومي من بينهم أربعة عشر عضواً يتألف منهم (الديوان الخصوصي) ويكون انتخابهم بالأغلبية النسبية ، ولا يكون انتخابهم باتا إلا بتصديق القائد العام ، وهذا الديوان يجتمع كل يوم « للنظر في مصالح الناس وتوفير أسباب السعادة والرفاهية لهم ومراعاة مصالح الجمهورية الفرنسية ^(٢) »

وينتخب أعضاء الديوان الخصوصي من بينهم رئيساً وسكرتيراً (كاتم سر) ، ويعينون التراجمة اللازمين لأعمال الديوان من غير أعضائه ، ومحضراً (شاويشاً) ومقدماً ، وعشرة قواصين (حجاب)

ورتب أمر التأسيس لرئيس الديوان الخصوصي وأعضائه رواتب شهرية فجعل مرتب الرئيس مائة ريال في الشهر وباق الأعضاء ثمانين ريالاً ولكل من المترجمين ٢٥ ريالاً ، والمحضر

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٢٨

(٢) عبارة « مراعاة مصالح الجمهورية الفرنسية » لم ترد في الجبرتي ، لكنها واردة في الأصل الفرنسي الذي نشر في جريدة « كوربيه دليجيت » وفي مراسلات نابليون ، والأصل أحق بالثقة من البيان الموجز الذي أورده الجبرتي

(الشاويش) ستين بارة كل يوم والمقدم ٤٠ بارة ولكل حاجب ١٥ بارة

أما أعضاء الديوان الخصوصى فهم :

من العلماء : الشيخ عبد الله الشرفاوى ، الشيخ محمد المهدي ، الشيخ مصطفى الصاوى ،
الشيخ خليل البكرى ، الشيخ سليمان الفيومى

ومن التجار — السيد احمد المحروقى كبير التجار ، السيد احمد محرم

ومن الأقباط — المعلم لطف الله المصرى ، المعلم ابراهيم جبر العايط

ومن السوريين — يوسف فرحات ، ميخائيل كحيل

ومن الأوروبين — المسيوكاف ، المسيو بودوف وهما من التجار الفرنسيين ، والمسيو ولمار

وهو طبيب سويدي الأصل كان يقيم بالقاهرة

وانتخب الديوان الشيخ الشرفاوى رئيساً ، والشيخ المهدي سكرتيراً

يتبين من أمر التأسيس أن انتخاب هيئة الديوان (الخصوصى) من حقوق أعضاء

الديوان العمومى ، ولا ندرى هل جرى الانتخاب بطريقة صحيحة أم أن نابليون هو الذى فرض

إرادته على أعضاء الديوان العمومى فى اختيار أولئك الأعضاء ، وهذا ما نرجحه لأننا نشك

كثيراً لو ترك لهم أمر الانتخاب فى أن يقع اختيارهم على أمثال كاف وبودوف وولمار ، إذ ما دخل

العنصر الأوروبى فى هيئة نيابية أهلية ، لذلك نميل إلى الاعتقاد بأن للسلطة الفرنسية دخلا

فى اختيار أعضاء الديوان الخصوصى وأن نابليون أراد تمثيل العنصر الأوروبى فى الديوان فى

أشخاص الأعضاء الثلاثة كاف وبودوف وولمار ليجعل منه هيئة مختلطة ، وأراد بتعيين المسيو

جلوتيه قوميسيراً فرنسياً للديوان أن يكون رقيباً على الأعضاء الوطنيين كما كان الشأن فى

الديوان الأول الذى أسسه فى يولييه سنة ١٧٩٨^(١) ، وأغلب الظن أن بعض الأعضاء

الأوروبين لم يكونوا معروفين أصلاً لأعضاء الديوان العمومى ، يؤيد ذلك أن الجبرتى نفسه

أخطأ فى كتابة أتمامهم فذكر أنهم رواجه الإنكليزى ، وبودنى ، وموسى كافر الفرنساوى ،

أما (رواحة الإنكليزى) فلم نجد له أثراً فى جميع المراجع الفرنسية ، وحقيقة الاسم ولمار Wolmar

الطبيب السويدي الذى أشرنا إليه ، وكلمة رواجه ليست من الأعلام الإنكليزية ولا الأوروبية ،

وأما (بودنى) فهو تحريف لاسم بودوف Baudeuf وهو تحريف يغتفر للجبرتى لأنه لا يأنس

بالأعلام الأوروبية ، وكذلك (موسى كافر) نعتقد أن المراد به المسيو كاف Caffé التاجر

الفرنسى ، فخرفه الجبرتى من كاف إلى كافر، وربما كان التحريف من ناقل النسخة الأصلية للجبرتى

هذا وقد أخذ الديوان الخصوصي ينعقد يومياً للنظر في مصالح الناس ، وأصدر بياناً للشعب في ٢١ شعبان سنة ١٢١٣ (٢٨ يناير سنة ١٧٩٩) يتضمن الحث على الهدوء والسكينة ويمتن أن نابليون قد عفا عفواً شاملاً عما وقع من الثوار وأعاد الديوان الخصوصي « لأجل قضاء حوائج الرعايا وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام وتنظيمها على أكل نظام وإحكام » ، ونوه أعضاء الديوان في بيانهم بما عمله نابليون من إيقاع القصاص بمن ارتكب التمديدات من الفرنسيين وما وعدهم من رفع الظالم وإجراء المشاريع التي تزيد من رفاهية البلاد ، وذكروا مشروع نابليون في إيصال البحر الأبيض بالبحر الأحمر وعبروا عنه « بفتح الخليج الموصل من النيل إلى بحر السويس » ، وبينوا مزاياه من تسهيل المواصلات مع الحجاز وفتح طرق التجارة مع بلاد الشرق ، وقد نشرنا هذا البيان في قسم الوثائق^(١) ليرجع إليه القارئ زيادة في البيان والآن فلندع الديوان يعمل « لأجل قضاء حوائج الرعايا » ، ولننتقل إلى الكلام عن الحملة على سورية

الفصل الثاني

الحملة على سورية

مقدمات الحملة

علم نابليون وهو في رحلته بالسويس أن عساكر أحمد باشا الجزائر والى عكا قد احتلت قلعة العريش يوم ٢ يناير سنة ١٧٩٩ ، فكان هذا الاحتلال نذيراً بزحف الجيش العثماني على مصر

لم تكن العريش في يد الفرنسيين من قبل ، لكنها كانت معتبرة من قدم العهد جزءاً من الأراضي المصرية ، فاحتلال الجنود العثمانية إيها كان عملاً عدائياً بالنسبة للفرنسيين ودليلاً قاطعاً على بدئهم الزحف على القطر المصري ، لذلك رأى نابليون أن يجعل بإنفاذ خطته في الحملة على سورية وأخذ يواصل الليل بالنهار ليأخذ تركيا قبل أن تبغته

كان نابليون يعمل جهده لتجنب الحرب مع تركيا ، وسعى بكل الوسائل في مودتها والتفاهم وإيها واجتذابها إلى صفه ، سعى إلى ذلك قبل أن يغادر فرنسا ، وعهد إلى السيوي (تاليران) وزير الخارجية الفرنسية أن يذهب إلى الإستانة لإقناع الباب العالي بأن الحملة الفرنسية لا تعدو على حقوق السلطان ومصالحه في مصر ، لكن (تاليران) لم يذهب إلى الإستانة وصرفته الحوادث الأوروبية عن القيام بهذه المهمة فعهد بها إلى السيوي (روفين) القائم بأعمال السفارة الفرنسية بالإستانة وكلفه التفاهم مع الباب العالي لاستبقاء العلاقات الودية بين فرنسا وتركيا وإقناعه بأن الحملة الفرنسية لا تنطوي على مقاصد عدائية حيال تركيا ، فلم يفلح (روفين) في مهمته ، واعتبر الباب العالي تلك الحملة كإعلان حرب ، واعتقل القائم بأعمال السفارة في قلعة «يدى قلعة» بالإستانة مع باقي موظفي السفارة ، واعتقل كذلك قناصل فرنسا ورعاياها بالإستانة وسائر مدن السلطنة العثمانية وصادر أملاكهم ، وبالرغم من ذلك فإن نابليون لم ييأس من التفاهم مع الحكومة العثمانية وأرسل الأجدودان جنرال (بوفوازان) Beauvoisins^(١) إلى أحمد باشا الجزائر برسالة مؤرخة ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ (١٠ ربيع الأول سنة ١٢١٣)

(١) القوميسير لدى الديوان ، انظر الجزء الأول ص ١٠١ (من الطبعة الأولى)

يعرب له فيها عن مُؤادته للدولة العثمانية وللمسلمين ويؤكد أنه لم يهبط مصر إلا لمحاربة المايك وأنه يحترم الأهالي والعلماء ثم يدعو إلى المفاوضة لفتح طريق التجارة بين البلدين مصر وسورية ، وقد سافر بوفوازان بهذه الرسالة ليقابل بها احمد باشا الجزائر ولكن الجزائر رفضت مقابلته وردة على عقبيه فرجع خائباً إلى مصر^(١) ، ثم أرسل نابليون رسولا آخر^(٢) برسالة أخرى يدعو فيها إلى الصلح ويطلب منه إبعاد ابراهيم بك ومماليكه واحترام حرية التجارة بين مصر وسورية ، ولكن الرسول كان جزاؤه على حمل هذه الرسالة أن اعتقله الجزائر ثم قتله أثناء الحملة الفرنسية على سورية

وكذلك أرسل نابليون غير مرة إلى الصدر الأعظم بالاستئانة يدعو إلى إعادة العلاقات الودية بين تركيا وصديقتها القديمة فرنسا ، ويؤكد في رسائله أن الجيش الفرنسي لم ينزل مصر إلا لمعاقبة المايك والاقتصاص منهم لمظالمهم وعدوانهم على التجار الفرنسيين ، ويعرب عن نيات الجمهورية الفرنسية الودية نحو تركيا ويدعوه أن يرسل إلى القاهرة مندوبا مفوضاً أو يرسل جوازاً لمندوب يوفده نابليون إلى الاستئانة للاتفاق على مصير مصر وعلى الأمور المعلقة بما يوافق مصلحة الدولتين

وقد سافر المسيو (بوشان) Beauchamps^(٣) بأحدى هذه الرسائل^(٤) إلى الاستئانة على ظهر السفينة التركية التي كانت راسية بالاسكندرية^(٥) ، فكان الجواب عنها اعتقاله مع موظفي السفارة الفرنسية

لقد وقفت تركيا في بدء الحملة الفرنسية وقفة المتردد فيما تتبعه حيالها ، إلى أن تحطم أسطول الأدميرال برويس في واقعة (أبو قير) ورجحت كفة إنجلترا في البحر الأبيض المتوسط ، فكانت هذه الواقعة من أهم الأسباب التي حدت بتركيا إلى رفض المساعي التي بذلتها فرنسا

(١) ذكر الجبرتي هذه الواقعة في حوادث شهر ربيع الأول سنة ١٢١٣ بقوله : « وفيه حضر القاصد الذي أرسله كبير الفرنسيين بمكاتبات وهدية إلى أحمد باشا الجزائر بعكا وذلك عند استقرارهم (الفرنسيين) بمصر وصحبه أنفار من النصارى الشوام في صفة تجار ، ومعهم جانب أرز ، ونزلوا من نغر دمياط في سفينة من سفن أحمد باشا ، فلما وصلوا إلى عكا وعلم بهم أحمد باشا أمر بذلك الفرنسيون فنقلوه إلى بعض النصارى (المراكب) ، ولم يواجهه ولم يأخذ منه شيئاً وأمره بالرجوع من حيث أتى ، وعوق عنده نصارى الشوام الذين كانوا بصحبته »

(٢) هو المسيو ماني Maily

(٣) أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون وكان قنصلا لفرنسا في مسقط

(٤) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٤٧

(٥) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٤٤ ورقم ٣٧٤٦

في سبيل التفاهم وإياها، وأعلنت عليها الحرب في ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨، وأخذت تحشد جيشين لفتح مصر، الأول في سورية ووجهته الزحف على القطر المصري من طريق برزخ السويس، والثاني في رودس لمهاجمة سواحل مصر الشمالية، لكن تركيا أبطأت في إنفاذ حملتها إلى مصر وتلكأت بسبب ارتباك أحوالها الداخلية وبعد المسافات، وأخذت في الوقت نفسه تولى وجهها شطر الدول العادية لفرنسا لتعاقدن في مخالفة دفاعية، فتم إبرام المحالفة بينها وبين روسيا في ٢٣ ديسمبر سنة ١٧٩٨^(١)، وعقدت محالفتها مع إنجلترا في ٥ يناير سنة ١٧٩٩^(٢)، ومنذ علم نابليون بمقدمات هذا التحالف عزم على أن يسبق خصومه إلى العمل ويهاجمهم قبل أن يهاجموه، ورأى أنه إذا تأخر في إنفاذ الحملة وانتظر اجتياز الجنود العثمانية برزخ السويس تخرج مركزه في وادي النيل بما يتجدد في نفوس الشعب من الأمل في هزيمة الجيش الفرنسي وسقوط هيئته في أنحاء البلاد، فبيّنت رأيه على مهاجمة الجيش العثماني في سورية

ففرض نابليون من الحملة السورية كان إذن تثبيت قدم الاحتلال الفرنسي في مصر وإبعاد خطر الحملة العثمانية عليها، وإكراه تركيا على الانفاق، وكان يرى كذلك إلى منع المعارة الإنجليزية في البحر الأبيض المتوسط من أن تزود من الثغور السورية، ولم يكن يقصد هزيمة الجيش التركي فحسب، بل كان يريد احتلال سورية واتخاذها موقعا حصينا للدفاع عن كيان مصر، وجعلها جزءا من الدولة العربية التي عزم على إنشائها على ضفاف النيل وشواطئ البحر الأبيض المتوسط، فقد رأى بثاقب نظره أن حدود مصر الطبيعية لا تنتهي بشبه جزيرة سيناء بل بجبال طوروس، وهكذا كانت سورية مطمح أنظار كل دولة قامت في مصر، لأن الاستيلاء عليها يضمن سلامة القطر المصري من كل اعتداء أو غارة تأتي من جهة آسيا، وكذلك فعل محمد علي الكبير عند ما أسس الدولة المصرية، فانه رأى أن لا غنى له عن سورية ليضمن سلامة مصر

وكان نابليون يرى إلى مطامع أكبر إذا ما نجحت الحملة على سورية بأن يواصل زحفه على الهند، وقد أرسل من قبل كتابا إلى (تیبو صاحب) سلطان ميسور المشهور بعدائه للإنجليز ينبئه بأنه جاء إلى مصر في جيش جرار وأنه عازم على إنقاذه من سيطرة الإنجليز^(٣)

(١) و (٢) مارتانس . مجموعة المعاهدات . الجزء السادس

(٣) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٠١، وقد قامت الحرب بين « تیبو صاحب »

والإنجليز وأغاروا على بلاده وظهروا عليه وحاصروا عاصمة ملكه وقتل أثناء الحصار في مايو سنة ١٧٩٩

ويطلب إليه أن يرأسه ليقف على الحالة السياسية في بلاده وأن يوفد إليه رسولاً أميناً ليفاوضه ، وفي رواية أخرى أنه كان ينوي إذا فتح عكا أن يزحف شمالاً فيحتل دمشق فخب ثم يزحف على الأناضول ثم يحتمل الأستانة ويقوض دعائم السلطنة العثمانية وينشئ على أنقاضها إمبراطورية شرقية عظيمة يكون أهلها ثم يزحف من الأستانة فأدرنه إلى النمسا فيكتسحها ثم يعود إلى باريس بعد أن يملك الشرق والغرب ، ولم تكن هذه الآمال بعيدة عن نفس نابليون الطموحة ، فإن حياته الحربية والسياسية تدل على أن مطامعه في الفتح والسلطان لم تقف عند حد

أخذ نابليون يدبر أمر الجنود الذين يزحف بهم على الشام ، وكانت فرقة الجنرال (ديزيه) في ذلك الحين منهمكة في الحملة على الصعيد كما فصلنا ذلك في الجزء الأول^(١) ، وكان لا بد له من ترك حاميات قوية من الجنود في القاهرة وفي الإسكندرية وفي مختلف العواصم لإخضاع مديريات الوجه البحري ، فاختار نابليون قسماً من الفرق التي تحت قيادة الجنرالات (رينيه) و (لان) و (كليب) و (بون) و (مورا) التي كانت موزعة في جهات مختلفة من القطر كلقاهرة ودمياط والصالحية وبلبيس بلغت عدتها نحو ١٣٠٠٠ مقاتل ، وتولى بنفسه قيادة الحملة ، وعهد بقيادة المدفعية إلى الجنرال (دومارتان) ، وبفرقة الهندسة إلى الجنرال (كافريللي)

احتياطات نابليون

وسياسته إزاء الشعب

كان نابليون يعلم أن نفوس الأهالي في القاهرة متحفزة للهيماج تبرص للانتفاض على السلطة الفرنسية ، وأدرك أن قيام ثورة في العاصمة أثناء الحملة على سورية يشعل نار الهيماج في سائر أنحاء القطر المصري ويؤدي إلى قطع خط الرجعة على الجيش الفرنسي ، لذلك اتخذ الاحتياطات الحربية لمنع وقوع أية ثورة ، فأمر بتقوية قلاع القاهرة وإحكام الاتصال بينها وإمدادها بالمدافع والذخائر والمهمات ، وجعلها في حالة منيعة من الدفاع ، وكلف الجنرال (كافريللي) و (دومارتان) بأن يكتبوا له تقريراً عن مركز الدفاع عن القاهرة في حالة نشوب ثورة فيها عقب ارتفاعه إلى سورية ، وعين الجنرال (دوجا) الذي كان قومنداناً لدمياط حاكماً

(١) الفصل السادس عشر والفصل السابع عشر

للقاهرة والوجه البحرى ووكيلا عنه في غيابه (ويسميه الجبرتي القاعمقام دوجا) ووحّد القيادة في بعض المديرات ، فجعل مديرتي الغربية والمنصورة تحت قيادة الجنرال فوجيير ، Fugières^(١) ، ومديرتي بني سويف والفيوم تحت قيادة الجنرال زايونشك^(٢) ، وجعل البحيرة ورشيد تحت قيادة الجنرال مارمون قومندان الاسكندرية

وعين الجنرال دستنج Destaing قومنداناً لموقع القاهرة ، وعهد إلى المسيو بوسليج مدير المالية تولى الشؤون الإدارية للحكومة ، وعين المسيو فوربيه سكرتير المجمع العلمى قوميسيرا (مندوبا) فرنسيا لدى الديوان بدلا من المسيو جالوتيه الذى صحبه في الحملة على سورية وأخذ نابليون يبائع في اجتذاب قلوب الأهالى والتودد إليهم ، فعزم على أن يصطحب معه نفراً من زعمائهم ممن لهم مقام محمود في البلاد ، فاختار أربعة من أعضاء الديوان ، وهم الشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ احمد العريشى ، والشيخ محمد الدواخلى ، ومعهم قاضى قضاة مصر التركى ابراهيم أدهم افندى وأمير الحج مصطفى بك نائب الوالى التركى ، ولعل نابليون قصد من اصطحابه هذا الوفد أن يفهم الشعب المصرى أن الحملة على سورية مرضى عنها من أعضاء الديوان ، أو لعله أراد أن يكونوا رسل التفاهم بينه وبين الشعب العربى في سورية لما لعلماء الأزهر من المقام والنفوذ في سائر أنحاء الشرق ، وكان يؤمل أيضاً أن يكونوا رسل التفاهم بينه وبين الحكومة العثمانية ، وخاصة لأنه صحب القاضى التركى ونائب الوالى التركى ، على أن منطلق الظروف وما جرى بعد ذلك من الحوادث يدلان يقيناً على أن أعضاء هذا الوفد لم يكونوا راضين عن الحملة على سورية ولا عن سيرهم في ركبها ، ولذلك انتهزوا أول فرصة عرضت لهم لينفصلوا منها كما سيجىء بيانه

اجتماع نابليون بأعضاء الديوان

دعا نابليون قبل أن يغادر القاهرة أعضاء الديوان (الخصوصى) للاجتماع به فلبوا الدعوة ، ولما اكتمل جمعهم^(٣) أنبأهم بعزمه على السفر وأفهمهم أن الغرض من الحملة على سورية هو محاربة المماليك وفتح طريق التجارة بين البلدين روى الجبرتي ما قاله نابليون في ذلك الاجتماع « للمشايع والوجاقلية » في بيان غرض

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٢٢

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٢٣

(٣) يوم ٨ فبراير سنة ١٧٩٩ — ٤ رمضان سنة ١٢١٣

الفرنسيين من هذه الحملة « أنهم قتلوا المماليك الفارين بالصعيد وأجلوا باقيهم إلى أقصى الصعيد
وانهم متوجهون إلى الفرقة الأخرى بناحية غزة فيقتصونهم ويمهدون البلاد الشامية لأجل
سلوك الطريق ومشى القوافل والتجارات براً وبحراً لعمار القطر وصلاح الأحوال ، واننا
نعيب عنكم شهراً ثم نعود ، وعند عودتنا نرتب النظام في البلد والشرائع وغير ذلك ، فعليكم
ضبط البلد والرعية في مدة غيابنا ، ونهوا مشايخ الأخطاط والحارات أن كل كبير يضبط
طائفته خوفاً من الفتن مع العسكر المقيمين بمصر » (١)

فتعهد له أعضاء الديوان بذلك ، وكتبوا في هذا المعنى منشوراً طبعوه كالعادة وألصقوه
بالأسواق ، ذكروا فيه أن بونابرت سيغيب ثلاثين يوماً لمحاربة ابراهيم بك الكبير وبقية
المماليك المصرية وأنه يقصد من هذه الحرب استتباب الراحة لمصر وأهلها وتطهيرها من دولة
المماليك ، ونصحوا في منشورهم إلى الأهالي بالإخلاء إلى الهدوء والسكينة حتى يعود بونابرت
وأوصى نابليون الجنرال دوجا قبل سفره أن لا يألو أعضاء الديوان إجلالا واحتراماً ،
لما لهم من النفوذ في نفوس الشعب ، وكلفه في حالة حدوث اضطرابات في القاهرة أن يستعين
بأعضاء الديوانين الخصوصي والعمومي وأن يضع فيهم ثقته ويكل إليهم تهديئة الخواطر ،
وألأيدع اتخاذ الاحتياطات العسكرية في المدينة ، وأوصاه في رسالته أن لا يلجأ إلى ضرب
المدينة بالمدافع إلا في حالة الضرورة القصوى ، قال في هذا الصدد (٢) : « يجب أن لا تأمر
بضرب المدينة بالمدافع من طابية ديبوى والقلعة إلا حين تعجزك الوسائل كلها ، فانك لتعلم
مبلغ الأثر السيئ الذي يحدثه هذا العمل في مصر وفي سائر أنحاء الشرق »

الاحتفال برؤية رمضان

وفي غضون ذلك حل موسم الرؤية لإثبات شهر رمضان (سنة ١٢١٣) ، فانهزها نابليون
فرصة طيبة وكانت قبا، سفره بأيام ، فأمر بالمبالغة في الاحتفال وتفخيم موكب الرؤية تليقاً
لإحساس الأهالي ، وكان الاحتفال عظيماً بالغاً ، سار فيه طوائف الصناعات كالمعتاد وذهب
المحتسب بهذا الموكب إلى بيت نابليون بالأركبية وأبلغوه رؤية الهلال ، فبالغ في الحفاوة بهم
قال الجبرتي يصف ذلك : « وفيه (٢٦ شعبان سنة ١٢١٣) عرض حسن أغا محرم

(١) الجبرتي الجزء الثالث

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٥٠

المحتسب لسارى عسكر أمرَ ركوبه المعتاد لإثبات هلال رمضان ، فرسم له بذلك على العادة القديمة ، فاحتفل لذلك المحتسب احتفالاً زائداً ، وعمل وليمة عظيمة في بيته أربعة أيام ، أولها السبت وآخرها الثلاثاء ، دعا في أول يوم العلماء والفقهاء والمشايخ والوجاقلية (الجهادية) وغيرهم ، وفي ثاني يوم التجار والأعيان ، وكذلك ثالث يوم ، ورابع يوم دعا أيضاً أ كبار الفرنسيات وأصاغرهم ، وركب يوم الثلاثاء بالأبنة الكاملة زيادة عن العادة ، وأمامه مشايخ الحرف بطبولهم وزمورهم ، وشقَّ القاهرة على الرسم المعتاد ، وصرا على قائم مقام وأمير الحج وسارى عسكر بونايرته ، ثم رجع بعد الغروب إلى بيت القاضي بين القصرين ، فأثبتوا هلال رمضان ليلة الأربعاء^(١) ، ثم ركب من هناك بالوكب وأمامه المشاعل الكثيرة والطبول والزمر والنقاير والمناداة بالصوم »

ولم يفت الجبرتى ملاحظة تودد الفرنسيين إلى الشعب في خلال تلك الأيام ، وانحاذه باللائمة على عامة الناس الذين غفلوا عما هم فيه من الضيق ورجعوا إلى البدع القديمة التي كانوا عليها ، وفي كلام الجبرتى في هذا الصدد عظة وعبرة ، وفيه إشارة إلى ضعف أخلاق لا يزال شيء منه مع الأسف موجوداً فينا إلى اليوم ، فتأمل فيما يقول : « وانقضى شهر شعبان وحوادثه ، فمنها أن أهل مصر جروا على عادتهم في بدعهم التي كانوا عليها وانكشوا عن بعضها خوفاً من الفرنسيين ، فلما تدرجوا فيها وأطلق لهم الفرنسيات القيد ورخصوا لهم وسايرهم رجعوا إليها وانهمكوا في عمل موالد الأضرحة التي يرون فرضيتها وأنها قرينة تنجيهم بزعمهم من المهالك ، وتقربهم إلى الله زلفى في المسالك ، فرحوا في غفلاتهم مع ما هم فيه من الأسر وكساد غالب البضائع وغلوها ، وانقطاع الأخبار ومنع الجالب ، ووقوف الانكليز في البحر وشدة حجزهم على الصادر والوارد ، حتى غلت أسعار جميع الأصناف المجلوبة من البحر الرومى (البحر الأبيض) وانقطع أثر كثير من أرباب الصنائع التي كسدت لعدم طلبها ، واحتاجوا إلى التمسك بالحرف الدينية كبيع الفطير ، وقلى السمك ، وطبخ الأطعمة والمأكولات ، والأكل في الدكاكين ، وإحداث عدة قهاوى ، وأما أرباب الحرف الدينية الكاسدة فأكثرهم عمل حماراً مكارياً حتى صارت الأزقة خصوصاً جهات العسكر مزدهمة بالحجير التي تكرر للتردد في شوارع مصر » ، وفي هذا الوصف صورة لناحية من نواحي الحياة الاجتماعية في ذلك العهد ، وفيه أيضاً بيان جلى لسوء الحالة الاقتصادية وتقهرها في عهد الحملة الفرنسية

(١) أول رمضان سنة ١٢١٣ (٦ فبراير سنة ١٧٩٩)

سير الحملة

بدأت الحملة تتحرك نحو الحدود السورية قبل أن يغادر نابليون القاهرة ، فقد عهد إلى الجنرال (لاجرانج) Lagrange أحد قواد فرقة الجنرال (رينيه) العسكرية بالشرقية باحتلال (قطية) في شبه جزيرة سيناء و تحصينها لتكون نقطة ارتكاز و تموين للجيش الزاحف ، فاحتلها الجنرال لاجرانج وقضى نابليون بقية شهر يناير يتم معدات الحملة ويصدر تعليماته لقواد الفرق بالزحف ، فسبقته قوات الجنرال (رينيه) والجنرال (كليبر) ، وارتحل هو من القاهرة يوم ١٠ فبراير (٥ رمضان سنة ١٢١٣)

قال الجبرتي عن سفر نابليون والترتيبات العسكرية التي أقرها قبل سفره : « وفي يوم الأحد خامس رمضان ركب ساري عسكر الفرنسي وخرج إلى العادلية وذلك في الساعة الرابعة وأبقى بمصر عدة من العسكر بالقلعة والأبراج التي بنوها على التلول ، وقاعمقام دوجا وبوسليك (المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية) وساري عسكر ديزيه بجملته من العسكر في الصعيد ، وكذلك سوارى عسكر الأقاليم كل واحد معه عسكر في جهة من الجهات ، وأخذ معه المدبرين وأصحاب المشورة والمترجمين وأرباب الصنائع منهم كالحدادين والنجارين ومهندسي الحرب وكبيرهم أبو خشبة (الجنرال كافريلي رئيس فرقة الهندسة) وأبقى أيضاً بعض أكابرهم ، ثم تراسل المتخلفون في الخروج كل يوم يخرج منهم جماعة »

احتلال العريش

كانت القوات العثمانية والماليك متمتعة في العريش ، فزحف عليها الجيش الفرنسي وواجه الجيش العثماني بها ودار قتال شديد بين الفريقين انتهى بهزيمة العثمانيين ليلة ١٥ فبراير ، واستمرت قلعة العريش تقاوم مقاومة شديدة إلى أن سلمت يوم ٢٠ فبراير سنة ١٧٩٩

احتلال يافا

ثم تابع الفرنسيون زحفهم على سورية ، فاحتلوا (خان يونس) وهي أول بلدة في فلسطين ، وساروا منها قاصدين (غزة) واستولوا عليها دون مقاومة تذكر ، واستراح الجيش بها عدة أيام ، ثم استأنف سيره يوم ٢٨ فبراير فاحتل (الرملة) ثم (اللد) ووصل تجاه يافا يوم ٣ مارس وكان الجيش العثماني بقيادة عبدالله باشا متمتعاً بها ، فحاصرها نابليون بجنوده واستولى عليها يوم ٧ مارس بعد معركة شديدة قتل فيها من الجنود العثمانية نحو ٢٠٠٠ قتيل ، ودخل الفرنسيون المدينة وأعملوا فيها السيف والنار

نهب الجنود الفرنسية يافا وارتكبوا فيها من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان باعتراف المؤرخين الفرنسيين ، واستمر النهب والقتل يومين متواليين ، واضطر الجنرال روبان Robin الذي عينه نابليون قومنداناً للمدينة أن يقتل بعض الجنود لإعادة النظام ، فذهب جهده عبثاً ، ولم ينقطع النهب إلا بعد أن كلَّ الجنود من الاعتداء وسفك الدماء ، ويقول بعض المؤرخين إن الدماء التي سفكت في يافا واشلاء الجثث التي تركت بها عدة أيام كانت من أسباب انتشار الوباء بين العسكر وهو الوباء الذي كان من العوامل الرئيسية لإخفاق الحملة على سورية

ظهرت أعراض هذا الوباء في دمياط بين جنود الفرقة المرابطة بها التي اشتركت في الحملة على سورية ، ثم أخذت عدواه تنتقل إلى الفرق الأخرى إلى أن تفتى بعد دخول الفرنسيين يافا ، وأحدث فزعاً بين الجنود ، وبذل نابليون قصارى جهده لمحاربته فذهب جهده سدى ، وعجز عن مقاومة تلك الآفة الرهيبة التي ألقت الرعب في جيشه ، واضطر ليرد إلى الجنود شجاعتهم أن يزور المرضى الذين أصيبوا بالوباء ويحاطبهم ويواسيهم ويعرض نفسه لخطر العدوى ليشدد عزائمهم ويقنع الجنود بأنه لا خوف عليهم من سريان العدوى اليهم

لم يكد ينقطع النهب حتى أعقبته مأساة أخرى أشد هولاً وفضاعة ، ذلك أنه بعد انتهاء المعركة ودخول الفرنسيين المدينة كان بها من الجنود العثمانية نحو ثلاثة آلاف مقاتل آثروا التسليم وإلقاء السلاح في يد الفرنسيين بشروط اتفقوا عليها مع اثنين من ياوران نابليون وهما بوهارنيه Beauharnais وكروازيبه Croisirs ، ومن هذه الشروط أن تضمن لهم أرواحهم بعد التسليم ، وتعهد الياوران بذلك باسم القائد العام وتلقاهم الفرنسيون كأسرى حرب ، ولكن نابليون بعد أن فكر طويلاً في أمرهم وتردد في شأنهم أمر بإعدامهم جميعاً رميةً بالرصاص ، وحبسته في ذلك أنه كان عاجزاً عن إطعامهم وحراستهم في بلاد نائية لم يستتب له فيها الأمر ، وهي حجة واهية تنطوي على نقض العهد وتفكرها المبادئ الإنسانية وقواعد الحروب ، فسيق أولئك الأسرى إلى شاطئ البحر وأعدموا جميعاً رميةً بالرصاص ، وكان إعدامهم بهذه الطريقة الوحشية من أسباب فشل الحملة الفرنسية في سورية ، لأنه أثار في نفوس الجنود العثمانية عوامل السخط وحب الانتقام ، وأدركوا أن مصيرهم إلى الإعدام إذا هم سلموا ، فاستبسلاوا في الدفاع عن عكا ، وردوا هجوم الجيش الفرنسي وأرجعوه عن أسوارها خائباً ، وبذلك أخفقت الحملة على سورية ، قال (ريبو) في هذا الصدد : « إن ثلاثة آلاف من الأعداء قتلوا مرة واحدة ولكن الجنود الباقين قد زاد عددهم وتضاعفت جهودهم المأخذ بالتأثر ، ورأوا في مصير إخوانهم

الذين ذبحهم الفرنسيون نموذجاً للإنسانية الفرنسية ، فأصبح القتال بينهم وبين الجيش الفرنسي صراعاً إلى الموت ، وحصد نابليون تحت أسوار عكا ما غرسه على شاطئ يافا^(١) »

المصريون في يافا

وكان في (يافا) عند احتلالها نحو أربعائة من المصريين استثناهم نابليون من القتل ، ومن بينهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف الذي هاجر من مصر بعد معركة الأهرام ، فأكرم نابليون مثواه وأعادته إلى القاهرة ، قال الجبرتي في هذا الصدد^(٢) ما خلاصته « ابن السيد عمر افندى نقيب الأشراف حضر إلى دمياط وصحبته جماعة من أفندية الروزنامة وغيرهم وذلك أنهم كانوا بقلعة يافا فلما حاصرها الفرنسيات وملكوا القلعة والبلد لم يتعرضوا للمصريين وطلبهم (نابليون) إليه وعاتبهم على نقلهم وخروجهم من مصر وأنزلهم في مركب وأرسلهم إلى دمياط من البحر »

وقال في حوادث شهر صفر سنة ١٢١٤ إنه في اليوم الثالث منه حضر السيد عمر افندى نقيب الأشراف سابقاً من دمياط إلى القاهرة « فحضر بعض الأعيان لملاقاته وركبوا معه بعد أن مكث هنيئة بزواية على بياك التي بساحل بولاق حتى وصل إلى داره وتوجه في ثاني يوم مع الشيخ المهدي وقابل ساري عسكر فبش له ووعدته بخير ورد إليه بعض تعلقاته ، واستمر مقياً بداره والناس تغدو وتروح إليه على العادة » ، وهذا يدل على ما كان للسيد عمر مكرم من المنزلة في قلوب الناس ، نقول هذا تمهيداً للكلام عما صار له من الشأن العظيم في سير الحوادث بعد جلاء الفرنسيين كما تراه في الفصل الرابع عشر

وقد سعى نابليون في إلحاق المصريين الذين أسرهم في يافا بصفوف جيشه ، ولكنه أخفق في سعيه ورفضوا الالتحاق بالجيش الفرنسي ، فأمر بإعادتهم إلى مصر غم الفرنسيون في يافا كثيراً من الذخائر والمهمات والأقوات والمدافع ، واستخدموا المدافع في حصار عكا ، وبادر نابليون بإرسال نبأ استيلائه على يافا إلى الجنرال (دوجا) ليخبر به الديوان ويذمعه في البلاد ، فوردت هذه الأخبار إلى القاهرة في ١٣ شوال ، فانعقد الديوان وتليت رسالة نابليون وأصدر الديوان منشوراً بذلك إلى الأهالي ، ويلاحظ أن نابليون في رسالته للديوان أشار إلى قتل أربعة آلاف من عسكر الجزائر في المعركة ، فهو إذن قد كتم

(١) كتاب التاريخ العالمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الرابع

(٢) في حوادث شهر شوال سنة ١٢١٣

عن المصريين ما أمر به من قتل أسرى الحامية بعد التسليم ، وفي هذا شعور منه بفضاعة إعدامهم بعد أن آمنهم على أرواحهم
وقد كان لاستيلاء الجيش الفرنسي على يافا تأثير معنوي كبير في مصر لأن الناس لم يكونوا يتوقعون أن يتم للفرنسيين هذا النصر بهذه السرعة ، ولكنهم قابلوا الخبر بالسكوت والتسليم

حصار عكا

والارتداد عنها

استأنف الفرنسيون زحفهم شمالا واحتلوا (حيفا) دون مقاومة ، ثم وصلوا تجاه (عكا) وهي بلدة محصنة ، عزم الجنود العثمانية بقيادة أحمد باشا الجزائر^(١) على الدفاع عنها بكل ما لديهم من قوة ، فجعلها نابليون هدفا لهجومه إذ كان الاستيلاء عليها يفتح أمامه طريق سورية ويقضي على نفوذ الجزائر في تلك الجهات ، وبدأ يضرب عليها الحصار يوم ١٩ مارس سنة ١٧٩٩ ، ثم جعل يعد المعدات لأخذها عنوة ، فضرب أسوارها وأبراجها بالمدافع ودارت معركة طاحنة بين الفرنسيين وجنود الحامية ارتدّ على أثرها الفرنسيون بعد أن نالتهم خسائر فادحة ، وكان نابليون يعتقد أن الاستيلاء على عكا لا يكلفه أكثر من من أخذ يافا ، ولكن تبين له من ارتداده عنها أنها ممتنعة حصينة وأنه في حاجة إلى جهود كبيرة لفتحها ، وكان ارتداده عنها أول هزيمة مُنى بها جيشه في الحملة على سورية ، فأثرت في نفسه تأثيراً كبيراً ، وخشى عواقبها في مصر ، فشدد الحصار على المدينة وأعد المعدات لهجوم ثان أقوى من الأول وحاول اقتحامها بقوة

(١) ترجمه الجبرتي في وفيات سنة ١٢١٩ هجرية ، فذكر عن تاريخه ما خلاصته أن أصله من بلاد البوشناق (البوسنة) وخدم عند علي باشا حكيم والى مصر وحضر معه إلى الديار المصرية سنة ١١٧١ هجرية (١٧٥٧ ميلادية) فتشوقت نفسه إلى الحج واستأذنت مخدومه فأذن له في ذلك وأوصى به أمير الحج صالح بك القاسمي ، وأخذته معه وأكرمه رعاية لعلى باشا ، ورجع معه فوجد على باشا قد انفصل عن ولاية مصر ، فاستمر الجزائر في مصر وتربى بزي المصريين وخدم عبدالله بك تابع الأمير على بك الكبير وتعلم الفروسية على طريقة المالك وحدث أن على بك أرسل عبد الله بك بتجريدة إلى عرب البحيرة فقتلوه ، فرجع المترجم مع باقي رجاله إلى القاهرة فقلده على بك كسوفية البحيرة وطلب منه أن يثأر لأستاذه ممن قتلوه فذهب إليهم وخادعهم وجمعهم في مكان واحد وقتلهم وهم نيف وسبعون رجلا ، ومن ذلك لقب بالجزار ، فالجزار هو إذن من أتباع على بك الكبير وكانت نشأته الأولى في مصر ، وذكّر الجبرتي أن على بك طلب منه أن يعاونه على الغدر بصالح بك القاسمي فلم تطاوعه نفسه وخرج من مصر هاربا ، ثم عاد إلى البحيرة وأقام مع عرب الهنادى وتزوج هناك ، ثم سار إلى بلاد الشام واشتهر أمره في تلك النواحي وقلد الوزارة وأقام في حصن عكا وعمر أسوارها وقلاعها واستكثر من شراء المالك ، واشتهر بالقسوة والظلم ومات سنة ١٢١٩ هجرية (١٨٠٤ ميلادية)

المدفعية والجنود يوم أول ابريل ، واستطاع أن يفتح ثغرة في أسوارها ولكن جنود الحامية دافعوا عنها دفاع المستميت ، فأمر نابليون جيشه بالارتداد عنها ، وخاب في اليوم مثل خيئته في هجومه الأول

قاومت عكا هجمات الجيش الفرنسى مقاومة شديدة ، واشتهر أحمد باشا الجزائر بحسن بلائه في الدفاع عنها ، وكان يظاهره من البحر الأسطول الإنجليزى بقيادة الكومودور السر سدنى سميث Sidney Smith ، فكان لمعاونته أثر أى أثر ، كما أنه منع وصول مدافع الحصار إلى الفرنسيين بطريق البحر ، ومما يؤثر عن نابليون أنه قال يوماً عن السر سدنى سميث : « لقد حرمنى هذا الرجل من حظى » ، وساعد الجزائر رجل آخر لا يقل كفاءة عن السر سدنى سميث وهو ضابط فرنسى من ضباط المدفعية اسمه الكولونل فيليبو Philippeaux كان زميلاً لبونابرت في الدراسة وكان ملكياً وخصماً للجمهورية الفرنسية ، فهاجر مع من هاجروا من فرنسا فراراً من فظائع اليعقوبيين ، وكان هذا الضابط على جانب عظيم من الكفاية الحربية ، فقدمه السير سدنى سميث إلى الجزائر ليشدّ به أزره في الدفاع عن عكا ، فأدى له أحسن الصنيع فى أثناء الحصار ، ومات قبل ارتداد الفرنسيين عنها

ومن الحوادث التى ساعدت الجزائر على الدفاع عن المدينة أن نابليون أصدر تعليماته بأن تنقل مدافع الحصار بجرأ على السفن الفرنسية التى نجت من كارثة (أبو قير) إلى يافا ، وكانت هذه المهمة شاقة تكتنفها المخاطر ، لأن بوارج الأسطول الإنجليزى ما فتئت تراقب الشواطئ مراقبة دقيقة ، فسارت السفن على فرقتين أبحرت إحداها من دمياط إلى شواطئ سورية فجاجتها المراكب الحربية الإنجليزية تجاه (حيفا) يوم ٢٢ مارس فأسرت منها سبعة كانت تحمل مدافع الحصار والذخائر واقتادتها إلى عكا فاستولى عليها الجزائر واستخدمها لمحاربة الفرنسيين وغنم الإنجليز السفن المأسورة ، ويقول نابليون فى مذكراته : « إن فقد هذه السفن كانت له عواقب وخيمة ولو أنها نجت وأزلت مدافع الحصار إلى شاطئ حيفا لاستولى على عكا قبل أول ابريل ولخلص لهم طريق (دمشق) وكان فى استطاعتهم احتلالها فى منتصف ابريل واحتلال (حلب) فى أول مايو »

أما الفرقة الأخرى فقد أقلعت من الإسكندرية بقيادة الكونتيرال بيرى Peerrée وهذه سلمت من الأسطول الإنجليزى ورسى فى يافا ثم أزلت ما كان على ظهرها من مدافع الحصار والذخائر ، وتسلمها الجيش الفرنسى واستعملها ولكنها لم تجهد فى منعة عكا ، وفى غضون هذه الحوادث أنفذ نابليون بعض قواته للإيقال فى سورية فاحتلت (صفد) و (صور)

و (طبرية) وأمكنة أخرى ، وانتصر الجيش الفرنسى بقيادة الجنرال كليبر على الجيش التركى فى واقعة جبل طابور (ابريل سنة ١٧٩٩) ولكن هذا النصر لم يغير الموقف الحربى لأن نجاح الحملة على سورية كان معلقاً على فتح عكا

استمر الحصار أكثر من شهرين وعجز نابليون عن اقتحام عكا ، فعقد مجلساً حربياً من قواده وتداولوا فى الأمر فاستقر رأيهم على رفع الحصار عنها ، وهكذا انتهى حصار طويل دام ٦٢ يوماً (من ١٩ مارس إلى ٢١ مايو سنة ١٧٩٩) بالإخفاق والفشل ، وكانت أهم الأسباب التى دعت إلى الارتداد عن عكا فداحة الخسائر التى نزلت بالجيش الفرنسى من المارك ومن فتك الوباء ، وفقد عدد كبير من الضباط والقواد ، واستحالة انتظار المدد من مصر ، ونقص الذخائر والمؤونة ، ووصول المدد إلى الجزائر ، واجتمع إلى هذه الأسباب وصول الأنباء المقلقة إلى نابليون عن شروخ تركيا فى تجريد حملة كبيرة على مصر ، فقد علم أن المدد العثمانى الذى جاء إلى عكا لم يكن سوى جزء يسير من الحملة التى أعدها الباب العالى ليقذف بها إلى الإسكندرية ، فتحارب الجنود الفرنسية الباقية بمصر فى الوقت الذى يحارب فيه الجزائر جيش نابليون بسورية ، وأن معظم الجيش العثمانى قد احتشد فى رودس وفى شواطئ الأناضول ينتظر الأمر ليتحرك صوب الشواطئ المصرية ، وجاءته فوق ذلك من القاهرة رسائل الجنرال دوجا والمسيو بوسليج تحمل إليه أنباء اضطراب الأحوال فى مصر وتجدد المارك فى الصعيد وانتقاض أمير الحج وثورة المهدي فى البحيرة وظهور البوارج الإنجليزية فى البحر الأحمر واقترابها من السويس ، ووصلته كذلك أنباء مزعجة عن الحالة فى أوروبا فتمين له من اجتماع ذلك أن الحالة أصبحت تحتم عليه الارتداد عن عكا والرجوع إلى مصر مهما كان فى ذلك من الغضاضة على نفسه وتصدع هيئته العسكرية

وهكذا صار لعكا شأن كبير فى مصير الشعوب ، لأنه لولا ثباتها فى وجه نابليون لاستطاع مواصلة زحفه فى سورية ولأجبر تركيا على أن تعقد الصلح معه وأن تدعن لشروطه ثم لأمكنه الزحف براً إلى الهند أو الوصول إلى القسطنطينية ، لكن عكا قضت على أحلامه فى إنشاء دولة شرقية عظيمة ، ولقد روى نابليون أنه قال عن هزيمة أمام عكا : « لم أكن أعلم عند ما أقلعت بى السفينة إلى مصر إذا كان وداعى لفرنسا سيكون أبدياً ، لكنى ما شككت لحظة فى أنها ستدعونى يوماً ما إليها ، على أن آمالى قد أتجهت إلى الشرق واستهوتنى فتوحاته العظيمة وصرفتنى عن التفكير فى أوروبا ، لكن هذه الأحلام والآمال قد دُفنت تحت أسوار عكا »

إن عكا كانت المدى الذي وصلت إليه فتوحات الفرنسيين في آسيا ، والقلمة التي ارتدوا عنها منهزمين ، فهذه الهزيمة قد تحت ما تركته انتصارات نابليون من الأثر في النفوس وتبين للناس أن الجنود الفرنسية التي تعودت الانتصار في المعارك الحربية قد تلاشت قوتها بازاء مدينة صغيرة لم يكن لها شأن يذكر

فالأثر المعنوي الذي أحدثته هزيمة نابليون أمام أسوار عكا كان عظيماً ومن شأنه أن يضع هيبة فرنسا في نظر المصريين والشرقيين عامة ويبعث في نفوسهم روح الأمل في القوة الكامنة في بلادهم ، وليس من المبالغة أن تعد هذه الهزيمة أكبر أثاراً في نفوس الشرقيين من كارثة الأسطول الفرنسي في معركة (أبو قبر) ، لأن سفن الأدميرال نلسن هي التي حطمت الأسطول الفرنسي في تلك المعركة الكبيرة ، أي أن العارة الفرنسية إنما حطمتها عمارة أوروبية ، أما هزيمة الفرنسيين أمام عكا فكانت هزيمة دولة أوروبية أمام قوات شرقية يقودها حاكم عماني من الطراز القديم ، ولم تكن كارثة (أبو قبر) لتؤثر في هيبة نابليون وعبقريته الحربية بمقدار ما أثرت فيها هزيمة عكا ، لأنه كان يتولى حصارها بنفسه ، فكأن تأثير هزيمته كبيراً ووقعها في نفسه ألماً وهو ذلك القائد الذي قهر الجيوش في أوروبا وفتح إيطاليا وأمل شروطه على النمسا ولم يألَف في الحروب التي خاض غمارها سوى النصر والظفر ! فهذا الفاتح العظيم رأى نفسه مضطراً بعد حصار شهرين أن ينقلب منهزماً عن مدينة صغيرة ، تاركاً تحت أسوارها عددا لا يحصى من القتلى والموتى

خسائر الفرنسيين في الحملة على سورية

إن الخسائر التي حلت بالجيش الفرنسي في الحملة السورية تشعر بعظم الهزيمة التي أصابت نابليون وجيشه ، فقد بلغ عدد القتلى الفرنسيين ٢٢٠٠٠ قتيل منهم ١٢٠٠ قتلوا في المعارك وخاصة في حصار عكا و ١٠٠٠ ماتوا من الأمراض ، وبلغ عدد الجرحى ٢٥٠٠ جريح ومرضى ، وهي خسارة فادحة خصوصا إذا لوحظ أنها أصابت خيرة جنود الحملة الفرنسية ، وفقد الجيش نخبة من قواده وضباطه منهم الجنرال (كافر يلى) رئيس فرقة الهندسة ، قُتل في حصار عكا ، فكان مقتله من أكبر النكبات التي حلت بالجيش الفرنسي (١).

(١) انظر ترجمته في الفصل الرابع من الجزء الأول ص ١٣٥ (من الطبعة الأولى) ، وقد حزن عليه نابليون حزناً شديداً ونعاه إلى الجيش بقوله : « إنه ذهب إلى القبر يحمل أسف الجميع فقد خسر الجيش في شخصه قائداً من أشجع قواده وخسرت مصر أحد متشرعيها العظام وفقدت فرنسا وطنياً من أخلص أبنائها وخسرت العلوم ركناً من أركانها » ، وعين بدله الجنرال سانسون Sanson

وُقُتِلَ أيضاً من القواد الجنرال بون Bon أحد قواد الفرق ، والجنرال لوجيميه ، والجنرال ديتروا ، والجنرال رامبو Rambeaud ، والكولونل هوراس ساي Say رئيس أركان حرب الجنرال كافريللي ، وُقُتِلَ معظم ضباط فرقة الهندسة فقد كان عددهم في بدء الحملة ١٧ ضابطاً فلم يسلم منهم عند انسحابها سوى ضابط واحد ومات تسعة وجرح سبعة منهم ، وقُتِلَ ثلاثون من ضباط أركان الحرب ، ومات معظم أطباء الجيش في مكافحتهم للوباء ، ومات المستشرق فانثور Venture كبير ترجمة الجيش ومستشار نابليون في المسائل الخاصة بالشرق والشرقيين وكانت وفاته بالدسنطاريا^(١).

موقف نابليون بعد هزيمة عكا

لم يدع نابليون اليأس يعمل في نفسه وفي نفوس الجند ، بل شدد عزائمهم بمنشوراته الساحرة ، وهكذا برهن على رباطة جأشه في أشد الأوقات خطراً ، وكذلك كان شأنه عندما وصله قبل تسعة أشهر ونييف نبأ الكارثة التي حطمت الأسطول الفرنسي في معركة (أبو قير) فقد اعتصم بشجاعته واستمر يعمل ويدبر الأمور ويبتكر المشروعات كأن لم تقع كارثة ، ولما دفنت آماله تحت أسوار عكا هيباً خطة الانسحاب على أن يدخل بمجنوده مصر دخول الفاتح المنتصر استبقاءً لهيئته في النفوس

أراد أن يبعث الحمية في قلوب جنده بعد الانسحاب فأذاع بينهم نداءً أشاد فيه بانتصاراتهم وأطنب في نتائج جهادهم ، خاطبهم فيه بقوله^(٢) : «أيها الجنود ، لقد طوئتم فدادن الصحراء التي تفصل بين أفريقية وآسيا بأسرع مما يطيقه جيش عربي ولد فيها ، والآن قد سحقتم الجيش الذي كان يزحف لاحتلال مصر وأسرتم قائده وغنمتم مهماته وأخذتم المواقع الحصينة التي تحمي آبار المياه ، ومزقتم في جبل طابور تلك الجموع التي أقبلت من سائر أنحاء آسيا لاقتناص مصر ، لقد شاهدتم منذ اثني عشر يوماً ثلاثين سفينة أقبلت إلى عكا ؛ فهذه السفن تحمل الجيش الذي كان معداً لاحتلال الإسكندرية ، ولكن هذا الجيش اضطر إلى العدول عن مقصده الأول وجاء إلى عكا لنجدتها ، وستزين الأعلام التي أخذتموها منه عودتكم إلى مصر

والآن بعد مواصلة القتال ثلاثة أشهر في قلب سورية وبعد أن غنمنا من العدو أربعين

(١) انظر ترجمته في الجزء الأول ص ١٣٩ (من الطبعة الأولى)

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤١٣٨

مدفعاً وخمسين راية وأسرا منه ٦٠٠٠ أسير (!!) ونسفنا استحكامات غزة ويافا وحييفا
وعكا سنعود إلى مصر لأن وقت الرحيل دنا

« لقد كان أملنا وطيداً في أن نأسر حاكم عكا (الجزار) في عقر داره ، ولكن الاستيلاء
على عكا في هذا الفصل لا يساوي ضياع عدة من الأيام تحت أسوارها ، واني في حاجة إلى
الجنود الشجعان الذين يمكن أن أفقدهم في هذا الهجوم ليقوموا بواجبهم في معارك أخرى
أهم وأكبر

« أيها الجنود ، لا يزال أمامنا مهمات شاقة وأخطار نستهدف لها ؛ والآن بعد أن صدنا
هجمات الشرق سنقف غداً لنكافح هجمات تأتينا من الغرب ، وستتاح لكم فرص جديدة
لاكتساب المجد والفخر ، وإذا كان كل يوم من أيام المعارك يفقدنا بطلاً فمن الواجب أن يحل
بدله شجعان آخرون يتقدمون بدورهم في ميادين القتال بين صفوف الأبطال الذين يواجهون
الأخطار ويحققون الفوز والانتصار »

هذا النداء مؤرخ ١٧ مايو سنة ١٧٩٩ ، وقد أمر نابليون بطبعه على المطبعة التي جلبها
معه في الحملة ، ولم يدعه بين الجنود إلا يوم ٢٩ مايو بعد أن أتم معدات الرحيل ، وذلك حتى
لا يصل خبر رفع الحصار إلى الجزار فيداهم الفرنسيين قبل رحيلهم الأخير

بهذا النداء البليغ أذكى نابليون نار الحماسة في نفوس الجنود الذين أهكتهم المتاعب
وأذوتهم الأمراض واكتنفهم الأخطار والأهوال ، والحق انه يصعب على غير نابليون أن يردّ
الروح المعنوية إلى نفوس الجنود بعد ما حل بهم من خيبة الآمال وما قاسوه من الأهوال
في حصار عكا

ولكن نابليون كان يعتمد على تأثيره الأدبي في جنده ، فلم يكن يشكّ في قوتهم المعنوية
إذا أذكتها كلماته الحماسية

وإذا تأملت في نداء نابليون واستثارتة لحمية جنوده واستفزازهم لخوض معارك جديدة في
القارة الأوروبية ، رأيت في عباراته ما يدل على شعوره باضطراب الأحوال السياسية في أوروبا ،
ولا غرو فإن هزيمة فرنسا في الحملة على سورية كانت من الأسباب التي شدت من أزر الدول
الملكية في أوروبا ، وحفزتها إلى التحرش بعدوتها القديمة كما سيحيى بيان ذلك فيما يلي

هذا هو موقف نابليون من جيشه ، أما موقفه من الشعب المصري فقد اجتهد في تعميته
بستر الفشل الذي أصابه أمام عكا والظهور بمظهر المنتصر الذي أدرك أغراضه من الحملة على
سورية ، والإعلان عن سطوته وقوته ، ولذلك بادر فهدياً رسالة بعث بها إلى ديوان القاهرة

بتاريخ ١٦ مايو ، حشأها بكثير من التموهيات ، وخلصتها الزعم أنه محق دار الجزار بعكا وهدم البلد بالقنابل ، وأن أهلها فروا إلى البحر وأن الجزار جريح في خطر الموت ، وقد وصلت هذه الرسالة إلى مصر في أول محرم سنة ١٢١٤ ، وقرئت بالديوان ، فلم يصدقها أحد

انسحاب الجيش الفرنسي إلى مصر

أنفذ نابليون خطة الانسحاب ، وبعث المرضى والجرحى إلى حيفا ، ثم رفع الحصار عن عكا فعلا يوم ٢٠ مايو سنة ١٧٩٩ الساعة العاشرة ليلا ، وبدأت فرق الجيش في الرحيل ليلة ٢١ مايو ، بحيث لم يشعر المدافعون عن عكا برفع الحصار إلا صباحاً بعد أن تم انسحاب الفرنسيين وصل الجيش في ارتداده إلى حيفا بعد منتصف الليل ، فكث قليلا ليحمل جرحاه الذين كانوا بها ، ثم أخلاها ، واضطر إلى ترك الجنود المصابين بالوباء خوفاً من انتقال عدوهم إلى الجيش ، وكان التراجع محفوفاً بالتعب والمشاق ، واضطر نابليون وقواده وضباطه أن يمشوا في السير على أقدامهم ، وترجلوا عن خيلهم ليركبها المرضى والجرحى ، ثم تابع الجيش طريقه جنوباً محاذياً شاطئ البحر فوصل إلى الطنطورة ظهر يوم ٢١ مايو وكان بها كثير من مدافع الحصار التي جلبها من مصر أو غنمها في يافا وأدرك صعوبة نقلها معه في انسحابه ، لأن طريق الصحراء وعمر لا يصلح لنقل المدافع الثقيلة ، وطريق البحر معرض لهجمات البوارج الإنجليزية ، فاضطر إلى إتلاف معظم تلك المدافع أو إغراقها في البحر ، وكذلك فعل بالقنابل والذخائر ، واستعمل عربات المدافع في حمل الجنود المرضى والجرحى ، ثم غادر الطنطورة يوم ٢٢ مايو ، وسار الجيش جنوباً فأخلى قيسارية ويافا والرملة وغزة ، وأمر نابليون بنسف حصون يافا وغزة ، وإتلاف المدافع والمهمات التي لم يستطع الجيش حملها معه ، وأحرق القرى الواقعة بين يافا وغزة ، ونهب مواشى الأهالي وخرب تلك الجهات تحريباً تاماً ليجعلها في زعمه عراقيل تعطل زحف الجيش العثماني على مصر

وبلغ الجيش في تراجعه (خان يونس) يوم ٢١ مايو سنة ١٧٩٩ ، وقام منها يوم أول يونيو قاصداً العريش ، وقطع في هذا اليوم المسافة من خان يونس إلى العريش ماراً برفح والشيخ زويل ، ووصل إلى العريش الساعة العاشرة ليلا وعسكر في حدائق النخيل ، وكانت هذه المسافة أشقّ مرحلة قطعها الجنود من يوم انصرفهم عن عكا ، فأمرهم نابليون أن يستريحوا في العريش يوم ٢ يونيو ، وقضى هو ذلك اليوم في تعهد قلعة العريش التي كانت مفتاح مصر من الجهة الشرقية ، وكان من يوم احتلاله العريش في بدء الحملة على سورية شديد

العناية بتحصينها لأهمية موقعها الحربى ولقربها من دمياط التى كانت ثغر مصر الشرقى ، وكانت عنايته بتحصينها دليلاً على نيته احتلال مصر إلى ما شاء الله ، ولكن الحوادث أخلفت ظنونه

كتب الميسيو كوستاز أحد مهندسى الحملة الفرنسية^(١) الذين رافقوا نابليون فى حملته على سورية رسالة^(٢) عن أهمية العريش قال فيها : « إن قلعة العريش تكسب من يحتلها مزايا عظيمة تضمن له الانتفاع بآبار المياه العذبة التى هى وإن لم تكن فى غدوبة ماء النيل أو السين إلا أنها صالحة جداً للشرب ، ووجود هذه الآبار يسهل إنشاء مخازن ومستودعات للجنود الذين يخترقون الصحراء من مصر إلى سورية أو من سورية إلى مصر ، وقد كانت العريش دائماً جزءاً من مصر وهى ضرورة لضمان الدفاع عنها ، ولذلك استثنى نابليون من انقلاع التى هدمها أثناء الحملة على سورية ، فاستبقاها وأمر بتقويتها ولم يقطع العمل فيها منذ أربعة أشهر لجعلها أكثر مناعة ، وأنفذ لها أخيراً طائفة من المهندسين وفرقة من العمال للإصلاح استحكاماتها وزيادة قوة الدفاع فيها »

ترك نابليون بالعريش حامية من الجنود وزودها بالمدافع والذخيرة ، وسار الجيش يوم ٣ يونيه سنة ١٧٩٩ قاصداً إلى قطية فوصلها يوم ٤ يونيه ومن هناك مضى إلى القاهرة ماراً بالصالحية فبليس فالمرج ، أما فرقة كلير فسارت إلى دمياط واستقرت بها ، وبذلك انتهت الحملة على سورية وقد دامت ١٢٥ يوماً ، وعادت إلى حيث بدأت دون أن يجنى منها الفرنسيون سوى الهزيمة والخسران

(١) انظر ما كتبه عنه بالجزء الأول ص ١٢٤ (من الطبعة الأولى)

(٢) نشرت بجريدة « كورنيه دليجيت » بالعدد ٣١ الصادر فى ٧ يوليه سنة ١٧٩٩

الفصل الثالث

الحالة في مصر

أثناء الحملة على سورية

كان معظم جنود نابليون موزعين في وقت واحد في ميدانين كبيرين تكنتفهما المشاق والمتاعب ، فكان نصف الجيش بقيادة نابليون منهمكا في الحملة على سورية ، حين كان جيش الجنرال ديزيه منصرفا إلى إخضاع الوجه القبلي^(١) ، وكلاهما كان يواجه المصاعب في طريقه ، فجيش الحملة يقا تل جيوشاً عديدة ويطاحن قلاعاً حصينة ، وجيش ديزيه يواجه ثورات ومعارك متتابعة

حالة الشعب النفسية

ولاجدال في أن تغيب نصف الجيش الفرنسي عن مصر كان له أثر كبير في حالتها الداخلية ، نعم إن إقدام نابليون على غزو الشام هو في ذاته عمل يدل على القوة والبأس ومن شأنه أن يلقي في نفوس المصريين حذراً وهيبة ، لأن القائد الذي يقامر بحيشه في مثل هذه الحملة الشاقة ويقطع تلك المراحل الطويلة ويمجتاز الصحارى والتفار لا بد أن يكون معتدداً بقوته مستصغراً شأن عدوه ، فهذه الظاهرة كان لها أثرها في الحالة النفسية للشعب ، أضف إلى ذلك أن إخماد ثورة القاهرة^(٢) وما شهد المصريون من فتك مدافع الفرنسيين وما أعقب الثورة من إنشاء القلاع المحيطة بالعاصمة لإخماد كل ثورة تقوم فيها ، كل ذلك قد جنح بالشعب إلى الهدوء والسكينة ، هذا فضلا عن أن قلاع الإسكندرية ورشيد والرحمانية ودمياط والصالحية وبلبيس كانت معدة لقمع الثورات في مختلف البلاد ، وقد ساعد على تهدئة الخواطر وقتاً ما في القاهرة والوجه البحري أن نابليون ترك مقاليد الأمور لرجلين اشتهرا بالحكمة والدهاء ، أحدهما الجنرال دوجا الذي استخلفه في إدارة الشؤون الحربية في القاهرة والوجه البحري ، والآخر المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية وقد ناط به التدابير الإدارية للحكومة ، فهذان الرجلان لم يدخرا

(١) راجع الفصل السابع عشر من الجزء الأول

(٢) راجع الفصل الثالث عشر من الجزء الأول

وسعاً في اتباع سياسة الحكمة والمحاسنة إزاء الشعب ومجاملة أعضاء الديوان واحترامهم ورعايتهم مما حبهما إليهم ، والمعلوم أن أعضاء الديوان هم كبراء البلاد وزعماء الشعب ، ولهم من النفوذ الأدبي والديني على الناس ما لا يخفى ، وموضعهم في ذلك موضعهم ، وكان لبوسليج خاصة الفضل الأكبر في استتباب الهدوء والسكينة في القاهرة ، فقد اكتسب بأناته وورزانتته احترام أعضاء الديوان ، فكان له من أنفسهم موقع وكان له عليهم نفوذ كبير ، واتصل بروابط الود مع المهدي والشرقاوي والسادات^(١) والبكري والصاوي والقاضي التركي ومحافظ المدينة (الأغا) ، وكانوا يلقيونه بالوزير بوسليج ، وهو من جهته لا يألو جهداً في اكتساب قلوبهم بالمودة والمجاملة والمباينة ، ورعاية الحرّيات ، ومبادلتهم الزيارة ، ومجالستهم في أنديةهم ، واقتباس بعض تقاليدهم وعاداتهم ، فقد شوهدهم مراراً في منزل السادات جالساً على الديوان يشرب القهوة على الطريقة المصرية ويدخن الشبّيك ويطارح جلساءه فنوناً من الحديث في شؤون العلم والعمران ونظام الحكومات في الغرب والشرق ، وكانت له مطارحات طويلة مع الشيخ المهدي الذي يعده الفرنسيون أكثر أعضاء الديوان علماً وفهماً ومعرفة

وهكذا اكتسب الديوان نفوذاً كبيراً في إدارة شؤون الحكومة بما كانت ترجع إليه السلطة الفرنسية في مهمات الأمور ، فلم يكن يبرم الجنرال دوجا والمسيو بوسليج شأناً من الشؤون المتعلقة بإدارة الأمن في القاهرة أو بكل ما له مساس بالشريعة وإدارة الضرائب أو بالتقاليد والعادات المرعية إلا بعد مفاخرة أعضاء الديوان واستشارتهم في تلك المسائل ، وكانت تسمع آراؤهم في معظم الشؤون ، وهذه سلطة لم يكن أحد من الحكام الأقدمين على عهد الحكم العثماني يخولها أية جماعة أو هيئة من علماء البلاد وأعيانها ، فالبكوات الماليك كانوا يقضون في الأمور بسياسة أهوائهم وإرادتهم ، ولم يكن مع أمرهم أمر ، ولا مع سلطتهم سلطة

وكان المسيو بوسليج يتوود كذلك إلى السيد المحروقي كبير تجار القاهرة وهو أيضاً من أعضاء الديوان ، فكان الشيخ المهدي بين زملائه والسيد المحروقي بين التجار واسطة التفاهم مع الأهالي ، ولا جدال أن هذه الظروف قد جعلت من الديوان أداة تهدئة الخواطر ، لكن عامة الناس والسواد الأعظم من الأهلين لم تصف قلوبهم يوماً للفرنسيين ، ولم يكن يحول دون انتقاضهم على الحكم الفرنسي سوى القوة الحربية المتسلطة على المدينة ، وقد اتهموا أعضاء

(١) لم يكن السادات عضواً بالديوان ولكن كان له من المكانة ما لم يتوافر لأعضائه

الديوان بمؤالة الفرنسيين وممالأتهم ، وعزوا مسلكهم معهم إلى ما كان ينالهم من المزايا
المادية والأدبية

وكان الأهالى يتوقعون لنابليون الانكسار فى حملته على سورية ، فلاذوا بالسكينة
وتربصوا حتى تتحقق تلك الأمانى ، ولكن انتصارات نابليون الأولى ملأت القلوب يأساً ،
وكان نابليون يفهم نفسية الأمة ويعرف أنها لا تصفو للفرنسيين ، فأراد أن يؤثر فيها بالمظاهرات
والإعلان عن انتصاراته ليشغلها بالأمر الواقع ، فلما تم له احتلال قلعة العريش أرسل كتيبة
من الجنود إلى القاهرة تحمل الأعلام التى غنمها فى تلك القلعة ، وكاف الجنرال دوجا أن يرفعها
على منارات الجامع الأزهر كإعلان لانتصار الفرنسيين فى العريش ، وكتب إليه فى هذا
الصدد يقول^(١) : « إنى أرى أن تقابلوا الشيخ المهدي وأعضاء الديوان فتنفقوا وإياهم على إقامة
حفلة صغيرة لاستقبال الأعلام المرسله اليكم ، وإذا لم يكن من حرج فضعوها فى الجامع
الأزهر إيدانا بالانتصار الذى حازه جيش مصر على عساكر الجزائر وأعداء المصريين »

بهذه العبارة الرقيقة أراد نابليون أن يجتذب إليه قلوب المصريين وأن يشعرهم السرور
بانتصار الفرنسيين ، ولذلك تراه يعبر عن جيشه بأنه « جيش مصر » وأنه انتصر على الجزائر
وعلى « أعداء المصريين » ، ولا يمكن أن يعبر بأحسن من هذا الأسلوب لمحاولة اكتساب
قلوب الشعب ، ولكن هيهات أن ينخدع الشعب عن ذات نفس بذات لسان

وكان ضمن الأسرى فى قلعة العريش بعض المصريين والماليك ، فأمر نابليون بإعادتهم
إلى مصر صحبة ضابط فرنسى ، وتسريح المصريين حين وصولهم إلى بلادهم ، وأوصى الجنرال
دوجا فى شأن الماليك أن يستقبلهم فى القاهرة ويرجعهم إلى منازلهم ويحسن معاملتهم مع
وضعهم تحت رقابة المحافظ والديوان

وفى أول مارس سنة ١٧٩٩ وصل الضابط الذى أوفده نابليون إلى القاهرة ومعه كوكبة
من الجنود يحملون أخبار فتح العريش والأعلام التى غنمها الفرنسيون ومعهم الأسرى الماليك ،
فاستقبلهم فى اليوم التالى الأغا (المحافظ) وبرتلى الرومى (وكيل المحافظ) وثلة من الشرطة ،
ودخلوا المدينة من باب النصر ومشوا معهم تتقدمهم الطبول إلى الأزبكية حيث مقر القيادة
العامة ، ودخلوا بالأسرى الماليك على الجنرال دوجا ، فأطلق سراحهم بعد أن أخذ أسلحتهم
وسمح لهم بالذهاب إلى بيوتهم ، واحتفل الفرنسيون ذلك اليوم بانتصارهم فى العريش وأطلقوا
المدافع من القلعة والأزبكية ابتهاجاً بهذا النصر ، ثم احتفل الجنرال دوجا برفع الأعلام على

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٨٧

منارات الأزهر عصر يوم الخميس ٧ مارس (ليلة عيد الفطر) ، فاصطفت شرادم الجنود رجالاً وركبائاً تلقاء باب الجامع ودعوا الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان وسلموه الرايات التركينة ليرفعها على منارات الأزهر ، فأمر بنصب رايتين على المنارة الكبيرة وراية ثالثة على منارة أخرى ، ولما رفعت هذه الرايات أطلق الفرنسيون المدافع من القلعة إظهاراً لسرورهم وأطلقوا المدافع كذلك عند الغروب إيداناً بعيد الفطر

واجتمع الديوان صباح هذا اليوم وقرئت عليه رسالة الجنرال (برتية) رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية باستيلاء الفرنسيين على خان يونس وغزة ، فأصدر الفرنسيون منشوراً بالخبير وأذاعوه على الجمهور

وانقضى شهر على غياب نابليون والسكينة سائدة في القاهرة

قال الجبرتي يصف حالة العاصمة في خلال هذا الشهر :

« انقضى شهر رمضان ^(١) ووقع به قبل ورود هذه الأخبار (أخبار انتصار الجيش الفرنسى) من السكون والطمأنينة ، وخلو الطرقات من المسكر ، وعدم مرور المتخلفين منهم إلا في النادر ، واختفائهم بالليل جملة كافية ، وانفتاح الأسواق والدكاكين ، والذهب والمجىء ، وزيارة الاخوان ليلاً ، والمشى على العادة بالفوانيس ودونها ، واجتماع الناس للسهر في الدور والقهاوى ، ووقود المساجد ، وصلاة التراويح ، وطواف المسحرين ، والتسلى بالرواية والفقول ، وترجى المأمول ، وانحلال الأسعار ، فيما عدا المجلوبات من الأقطار ، وصار الفرنسيون يدعون أعيان الناس والمشايخ والتجار للإفطار والسحور ، ويعملون لهم الولائم ، ويقدمون لهم الموائد على نظام المسلمين وعاداتهم ، ويتولى أمر ذلك الطباخون والفراشون من المسلمين تطميناً لخواطهم ، ويذهبون هم أيضاً ويحضرون عندهم الموائد ويأكلون معهم في وقت الإفطار ، ويشاهدون ترتيبهم ونظامهم ويحذون حذوهم ، ووقع منهم من المسيرة للناس وخفض الجانب ما يتمجب منه والله أعلم »

وذكر الجبرتي أنه لما كان يوم العيد أطلقت المدافع وركب أكبر الفرنسيين وطافوا على أعيان البلد وهنأوهم بالعيد « وجاملهم الناس بالمدارة أيضاً »

وجاءت أنباء احتلال الفرنسيين يافا فعقدوا الديوان وقرءوا فيه رسالة الجنرال برتية ، ونشروا بياناً على لسان الديوان بتفصيل الرسالة وأذاعوها في القاهرة فتقبل هذا النبأ بالدهشة

لاستيلاء الفرنسيين على يافا بتلك السرعة ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « فلما تحقق الناس هذا الخبر تعجبوا وكانوا يظنون بل يتيقنون استحالة ذلك خصوصاً في المدة القليلة ، ولكن المقضى كائن »

واحتفل الفرنسيون برفع الرايات العثمانية التي غنمها نابليون في يافا على باب الجامع الأزهر ليراها الناس و يتيقنوا صحة الخبر ، وسادت السكينة وقتاً ما في أنحاء مصر

بوادر الثورة

على أن هذا السكون الذي شمل البلاد كان وقتياً ، فما لبث أن ترعزت أركانه في الأقاليم ، وأخذت بوادر التمرد والانتفاض تظهر من حين إلى آخر وتنتقل من ناحية إلى أخرى ، فالنفوس كانت متحفزة للثورة ، وكانت القوة الحربية هي الركن الركين لتوطيد دعائم السكينة في البلاد ، فابتعاد أكثر من نصف الجيش الفرنسى عن مصر ، وتغيب نابليون الذى كان له من الهيبة ما لم يكن لغيره من قواد الجيش الفرنسى ، كل ذلك من شأنه أن يحدث مع الزمن تغييراً في حالة الشعب النفسية ويعرى النفوس بالجنوح للثورة ، وخاصة إذا وقعت حوادث تشعل نار الهياج والاضطراب

الثورة في الشرقية

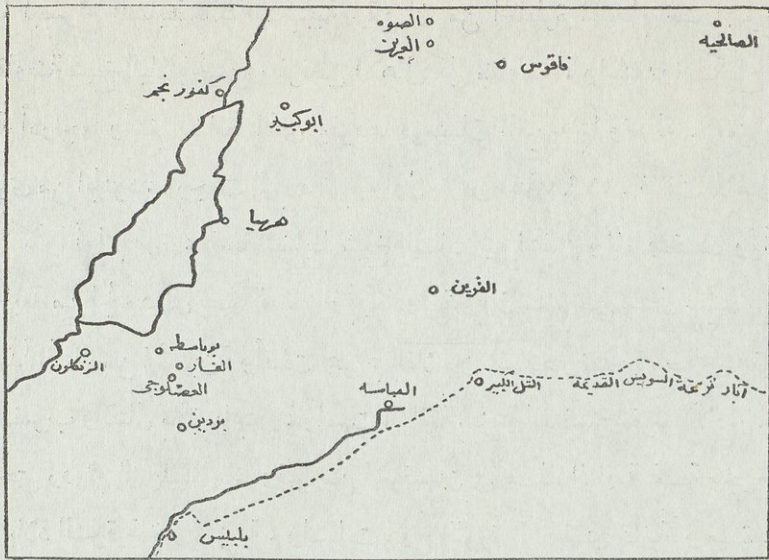
(مارس سنة ١٧٩٩)

بدأ هاتف الثورة يطيف بالنفوس في أواخر فبراير ، فظهرت بوادرها في الشرقية ، وكانت مظالم الفرنسيين سبباً في اشتعال جذوتها ، ذلك أنهم أخذوا يفرضون الإتاوات على البلاد وأخذ جنودهم يخوضون القرى لمصادرة الجمال والحير والماشية ، فثارت نفوس الأهالي ، ووقعت حوادث ومصادمات في جهات عدة وخاصة في بردين والصلوجى والغار والزنكلون^(١) كادت تفضى إلى ثورة عامة

واقعة بردين

خرجت كتيبة من الجنود من بلبيس (التي كانت في ذلك الحين عاصمة الشرقية) يوم ٢٨ فبراير سنة ١٧٩٩ ، وأخذت تطوف القرى لمصادرة الجمال والحير ، فلما نزلت تجاه بردين حمل الأهالي السلاح استعداداً لمقاومة النهب ، وانضم سكان البلاد المجاورة إليهم ، فاجتمع مئات من الناس مسلحين متحفزين للقتال

(١) بمركز الزقازيق الآن



بين بليس والصلحية (تخطيط سنة ١٨٠٠)
وفيها مواقع البلاد التي ورد ذكرها بالصفحة ٤٢ وما بعدها



مصطفى بك أمير الحج سنة ١٧٩٨ (انظر ص ٤٤)

فلما أبصرهم الضابط قائد الكتيبة أيقن أن من المخاطرة اقتحام تلك الجموع الثائرة وأراد مفاوضة شيخ البلد بالحسنى ، فرفض الأهالي كل مفاوضة ، واستعدوا للكفاح ، فعادت الكتيبة أدراجها وأبلغ الضابط الذي يقودها قومندان المديرية بما وقع له ، فعزز الكتيبة بقوة أخرى من الجنود ، ورجعت إلى بردين يوم أول مارس سنة ١٧٩٩ ، فألفت الأهالي معدّين للقتال كما كانوا أول مرة ، فدعا الضابط شيخ البلد إليه ليتفاهم وإياه فتخلف ولم يذعن ، فذهب أربعة من الجنود إلى باب القرية ، ولم يكادوا يقتربون منها حتى انهال عليهم الرصاص ، وعندئذ بدأ القتال من الجانبين ، وأقبلت جموع الفلاحين المسلحين تقتحم رصاص الفرنسيين ، واستمر الضرب والقتال مدة ساعتين ، وانتهت الواقعة بهزيمة الفرنسيين فولوا الأدبار ، وتعقبهم الأهالي حتى ردوهم إلى بلبليس ، وقتل من الفرنسيين في هذه الواقعة خمسة وجرح اثنان ، فذاع في بلاد الشرقية خبر الهزيمة ، وانساب روح الثورة إلى القرى دانيةً وبعيدةً ، واعتزم الثائرون الزحف على بلبليس للاستيلاء عليها

ولما بلغت هذه الأنباء الجنرال دوجا في القاهرة عهد إلى الكولونيل ديرانتو Duranteau أن ينتقم من القرى الثائرة وخاصة بردين والزنكلون ، ويمنع اندلاع الثورة إلى البلاد الأخرى ، فانتقل ديرانتو إلى بردين يوم ١٦ مارس ومعه الجند والأسلحة والمدافع ، فدار القتال بين الفريقين ، وانتهى باستيلاء الفرنسيين على بردين ونهبها وإضرار النار فيها وسفك دماء عدد كبير من أهلها^(١) ، ورجع ديرانتو إلى بلبليس وانتقل يوم ١٧ مارس إلى (الزنكلون) لينكل بها مثل ما فعل ببردين ، فوجد أهلها قد أخلوها قبل حضوره تفاديا من أن يحمل بهم مثل ما حل ببردين

كان لواقعة بردين من الشأن ما جعل الجنرال برتنيه Berthier رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية يذكرها في كتابه^(٢) ضمن الحوادث الهامة التي وقعت في مصر أثناء الحملة على سورية ، فقال : « ثارت قرية (بردين) بمديرية الشرقية فسار إليها الكولونيل ديرانتو ، وهو ضابط كفاء ، على رأس كتيبة من الجنود فأخذ ثورتها وأضرم النار فيها »

ثورة أمير الحج

استمرت الاضطرابات بالشرقية إلى أن ظهرت بها ثورة أمير الحج ، وبيان ذلك أن

(١) قدره الجنرال دوجا في رسالته إلى نابليون بتاريخ ١٣ يونيه سنة ١٧٩٩ بثلاثمائة قتيل

(٢) ذكر حروب الجنرال بوناپرت في مصر وسورية

نابليون كما علمت عين في أوائل عهد الحملة الفرنسية مصطفى بك نائب الوالى التركى القديم أميراً للحج وقربه إليه^(١) ، وبالغ في الحفاوة به ليكسب نفوذه الأدبى وينتفع بتأثيره في الجماهير ، وقد طلب منه قبل ارتحاله عن القاهرة أن يصحبه في الحملة على سورية كما طلب ذلك من القاضى التركى وأربعة من أعضاء الديوان وهم الفيومى ، والصاوى ، والعريشى ، والدواخلى ، فأذعنوا له ، وسار مصطفى بك صحبة القاضى وأعضاء الديوان ليأخذوا بالجيش فبلغوا بلبليس ، وهناك تخلفوا عن السير لأن الفرنسيين احتاجوا إلى مجالهم وأخذوها ، فأقام المشايخ ومصطفى بك بالعرين^(٢) عدة أيام بحجة الزاد والمؤونة ، فأرسل نابليون إلى مصطفى بك من قطية يستحثه على اللحاق به ، فبعث إليه يمتذر بأن جماله فقدت وأن الطريق مخوفة لا أمن فيها ، ولم يلبث أن أعلن تمردده وانتفاضه على السلطة الفرنسية ، وكشف زملاءه أعضاء الديوان والقاضى التركى بعزمه على شق العصا وإعلان الخروج على الفرنسيين ، وطلب منهم أن يؤيدوه في دعوته ، لكنهم خافوا العاقبة وحسبوا حساباً لا تنتقام الفرنسيين منهم كما انتقموا من زعماء ثورة القاهرة ، فلم يوافقوه على دعوته ، وشد منهم الشيخ سليمان الفيومى فإنه أقر أمير الحج على رأيه ، وكذلك القاضى التركى ، ولما رأى أمير الحج أن ثلاثة من أعضاء الديوان أنكروا عليه ، تظاهر بالتسليم ، وفي الوقت نفسه أخذ يعد العدة لنشر الدعوة إلى الثورة في أنحاء البلاد ، فبدلاً من أن يتابع سيره إلى قطية حيث كان ينتظره نابليون عاد إلى داخلية البلاد فسار من العرين إلى كفور نجم^(٣) يصحبه القاضى التركى والشيخ الفيومى ، وأما أعضاء الديوان الثلاثة الدواخلى ، والصاوى ، والعريشى ، فقد انفصلوا عنه وذهبوا إلى القرين (بالقاف)^(٤) ، ورجع الشيخ محمد الدواخلى إلى القاهرة مريضاً

رواية الجبerty

ذكر الجبerty هذه الواقعة في حوادث شوال سنة ١٢١٣ فقال :

« قدم الشيخ محمد الدواخلى من ناحية القرين متمرصاً ، وكان بصحبته الصاوى والفيومى (صح العريشى) متخلفين بالقرين ، وسبب تخلفهم أن كبير الفرنسيين لما ارتحل من الصالحية

(١) ص ٢٧٠ الجزء الأول (الطبعة الأولى)

(٢) بمركز فافوس بين أبو كبير وفاقوس

(٣) بمركز كفر صقر على بحر موسى

(٤) بالقرب من التل الكبير بمركز الزقازيق الآن

أرسل إلى كتخدا الباشا (مصطفى بك) والقاضي والجماعة الذين بصحبتهم يأمرهم بالحضور إلى الصالحية لأنهم كانوا يباعدون عنه مرحلة ، فلما أرادوا ذلك بلغهم وقوف العرب بالطريق فخافوا من المرور فذهبوا إلى العرين فأقاموا هناك وأخذ عسكر الفرنسيين جماهم فأقاموا بمكانهم ، فقلق هؤلاء الثلاثة وخافوا سوء العاقبة ففارقوهم وذهبوا للقرين وتحلف عنهم الفيومي فأقام مع كتخدا الباشا والقاضي ، فحصل للدواخلي توعك فحضر إلى مصر وبقى رفيقاه في حيرة »

امتداد الثورة

علم المسيو بوسليج بما حدث من أمير الحج ، فالتقى بالجنرال دوجا وتداولوا معا في اتخاذ الأسباب السريعة لقمع الثورة قبل أن يستفحل أمرها ، فأرسل إلى أمير الحج وإلى الشيخ سليمان الفيومي يستوضحهما الحقيقة ويطلب منهما بيان الأسباب التي دعتهما إلى التخلف عن اللحاق بالقاء العام ، فردّ أمير الحج على رسالة بوسليج منكرًا ما نسب إليه ولكنه في الوقت نفسه أخذ يدعو إلى الثورة في الجهات التي مر بها ، فانضوى الأهالي تحت علم الثورة وعلى رأسهم مشايخ البلاد (العمد)

بدأت فكرة الثورة في الشرقية وانتقلت إلى الدقهلية من بلد إلى بلد ، وانضمت الجوع من الأهالي إلى أمير الحج ، فسار من كفور نجم ومعه الآلاف الحاشدة من الناس ، ومضى قاصداً إلى دقادوس وميت غمر ، وكان عدد رجاله يزداد بمن ينضم إليهم في الطريق من المتطوعين ، فوصل يوم ٢٥ مارس سنة ١٧٩٩ تجاه ميت غمر ، وكانت فكرة الثورة قد اختمرت في الأذهان ، ولم يكن إلا أن تسنح لها الفرصة فتظهر بشكل فعلي ، وقد سنحت الفرصة بمرور بعض المراكب الفرنسية في النيل تحرسها سفينة حربية ، كانت هذه المراكب قادمة من القاهرة تحمل الذخائر والأقوات والمدافع لإمداد الجيش الفرنسي في سورية بطريق دمياط ، فهجم أهالي ميت غمر والبلاد المجاورة على المراكب واستولوا عليها وقتلوا من فيها من الفرنسيين ، وأخذوا ما بها من الذخائر والمدافع ، وارتدت السفينة الحربية التي كانت تحرسها إلى القاهرة بعد أن عجزت عن رد النايرين وجرح قبطانها وعدة من رجالها جروحا بليغة .

رواية الجبرتي

نقلنا هذه الواقعة عن المراجع الفرنسية ، وإليك ما ذكره الجبرتي في حوادث شوال سنة ١٢١٣ عن ثورة أمير الحج : « اجتمعوا بالديوان وتفاوضوا في شأن مصطفى بك كتخدا الباشا

المولى أمير الحج ، وهو أنه لما ارتحل مع سارى عسكر وصحبته القاضى والمشايع الذين عينوا للسفرا والوجاقلية والتجار وافترق منهم عند بلبيس وتقدم هو إلى الصالحية ثم إنهم انتقلوا إلى العرين فحضر جماعة من العساكر المسافرين فاحتاجوا إلى الجمال فأخذوا جمالهم فلما وصل سارى عسكر إلى قطية أرسل يستدعيهم إلى الحضور ، فلم يجدوا ما يحملون عليه متاعهم ، وبلغهم أن الطريق مخيفة من العرب ؛ فلم يمكنهم اللحاق به ، فأقاموا بالعرين (بالعين المهملة) عدة أيام وأهمل أمرهم سارى عسكر ، ثم إن الشيخ الصاوى والعريشى والدواخلى وآخرين خافوا عاقبة الأمر ففارقوهم وذهبوا إلى القرين (بالقاف) وحصل للدواخلى توعك وتشويش فحضر إلى مصر كما تقدم ذكر ذلك ، وانتقل مصطفى بك المذكور والقاضى وصحبهم الشيخ الفيومى وآخرون من التجار والوجاقلية إلى كفور نجم ، وأقاموا هناك أياما ، واتفق أن الصاوى أرسل إلى داره مكتوبا وذكر في ضمنه أن سبب افتراقهم من الجماعة أنهم رأوا من كتحدا الباشا أمورا غير لائقة ، فلما حضر ذلك المكتوب طلبه الفرنساوية المقيمون بمصر وقرءوه ، وبجثوا عن الأمور الغير اللائقة ، فأولها بعض المشايخ انه قصر فى حقهم والاعتناء بشأنهم ، فسكتوا ، وأخذوا فى التفحص ، فظهرت لهم خيانتة ومخامرتة عليهم ، واجتمع عليه الجبالى وبعض العرب العصاة وأكرمهم وخلع عليهم ، وانتقل بصحبتهم إلى منية غمر ودقدوس وبلاد الوقف وجعل يقبض منهم الأموال ، وحين كانوا على البحر (النيل) مرت بهم مراكب تحمل الميرة والدقيق إلى الفرنسيس بدمياط ، فقاطعوا عليهم وأخذوا منهم ما معهم قهراً ، وأحضروا المراكبية بالديوان فحكوا ما وقع لهم معه ، فأثبتوا خيانة مصطفى بك المذكور وعصيانه ، وأرسلوا هجانا بإعلام سارى عسكرهم (نابليون) بذلك ، فرجع إليهم بالجواب يأمرهم فيه بأن يرسلوا له عسكراً ويرسلوا إلى داره جماعة يقبضون عليه ويختمون على داره ويحبسون جماعته »

خطورة الثورة

كان لهذه الثورة خطرهما ، فقد ظهرت أول شرارة لها فى الشرقية ، وامتد لهيها إلى وسط الدلتا بين بلاد أهلة بحيث كان من المحتمل أن يتسع مداها وتقلب إلى حركة عامة تهدد الجيش الفرنسى فى قت انهماك نابليون فى الحملة على سورية ، وكانت الشرقية مجردة فى ذلك الحين من القوات الحربية الكافية ، لأن فرقة الجنرال (رينيه) التى كانت تحتلها من قبل دخلت فى الفرق التى ساقها نابليون فى حملته على سورية ولم يترك منها سوى فصيلة من

الجنود بقيادة الضابط جوفروا Gesfroy^(١) وسوى الفصيلة الأخرى التي أوفدها
الجنرال دوجا بقيادة دبرانتو لقمع ثورة بردين والزنكلون ، فلم يكن في الاستطاعة أن تقمع
الثورة بهذا العدد الضئيل من الجنود

عزل أمير الحج

أدرك الجنرال دوجا والسيو بوسليج أن الحالة خطيرة وأن الثورة التي شبت في الشرقية
قد تخرج إلى عواقب لا يستهان بها ، فاستخدما لمكافحتها كل ما أوتيا من مهارة وحزم ،
وارتأى بوسليج أن يستعين بالديوان لتجريد مصطفى بك من امارة الحج حتى تسقط منزلته
التي كانت له في النفوس من توليه امارة الحج ونقل كسوة الكعبة الشريفة وكانت هذه
الكسوة لا تزال في مصر لدى وكيل مصطفى بك

فاوض السيو بوسليج في هذا الشأن الشيخ محمد المهدي سكرتير الديوان وصاحب النفوذ
الأكبر بين أعضائه ، وعرض أمر عصيان مصطفى بك على الديوان ، فلم يستطع الديوان أمام
البيئات التي قدمها الفرنسيون سوى تجريده من امارة الحج ، وفي الوقت نفسه ألقى الأغا
(محافظة المدينة) القبض على وكيل مصطفى بك الذي كان ناظراً للكسوة وعلى ابن أخيه وباقي
أتباعه وسجنوا بالجيزة ، وتمت كل هذه الأحداث في يوم ٣٠ مارس سنة ١٧٩٩ ، وأعلن في
اليوم التالي عزل مصطفى بك من امارة الحج على أن تستمر مراسم الحج كما كانت

رواية الجبرتي

يقول الجبرتي في هذا الصدد :

« وفي يوم الأحد الرابع والعشرين من شهر شوال عينوا عسكرياً وأرسلوا إلى داره (دار
مصطفى بك) جماعة ومعهم وكلاء فقبضوا على كتخدائه (نائبه) الذي كان ناظراً على الكسوة
وعلى ابن أخيه ومن معهم وأودعواهم السجن بالجيزة ، وضبطوا موجوداته وما تركه مخدومه
بكر باشا (الوالي التركي) بقائمة وأودعوا ذلك بالقلعة فوجدوا غالب أمتعة الباشا وبرقه وملابسه
وعبي الخيل والسروج وغيرها شيئاً كثيراً ، ووجدوا بعض خيول وجمال أخذوها أيضاً —
فانقبضت خواطر الناس لذلك ، فانهم كانوا مستأنسين بوجوده ووجود القاضي يتوسلون

(١) هو ضابط من ضباط فرقة الهندسة وأخو جوفروا سان هيلير العالم الطبيعي الشهير أحد
أعضاء الجمع العلمي ، وقد مات في معركة استرلتر سنة ١٨٠٥ وأسف عليه نابليون أسفاً كبيراً

بشفاعتهم عند الفرنسيين وكنتمهما عندهم مقبولة وأوامرها مسموعة ، ثم إنهم أرسلوا أماناً للمشايخ (أعضاء الديوان الذين تخلفوا في القرين) والوجاقلية والتجار بالحضور إلى مصر مكرمين ولا بأس عليهم ، وقال في موضع آخر إنهم بعد أن سجنوا وكيل مصطفى بك الذي كان ناظراً على الكسوة عهدوا بإتمامها إلى السيد اسماعيل الوهبي المعروف بالخشاب « أحد العدول بالمحكمة » ، فنقلها لبيت أيوب جاويش بجوار جامع السيدة زينب وتموها هناك ، وقال في ختام كلامه عن حوادث سنة ١٢١٣^(١) . « وانقضت هذه السنة وما حصل بها من الحوادث التي لم يتفق مثلها ومن أعظمها انقطاع سفر الحج من مصر ولم يرسلوا الكسوة ولا الصرة وهذا لم يقع نظيره في هذه القرون ولا في دولة بني عثمان والأمر لله وحده »

إخماد الثورة

فلما نجح الجنرال دوجا والسيو بوسليج في تجريد مصطفى بك من امارة الحج أخذ دوجا يعد المعدات الحربية لقمع الثورة ، فكلف الجنرال لانوس Lanausse قومندان المنوفية بالمسير إلى الشرقية التي كانت منبع الهياج ، فقصدها على رأس قوة مؤلفة من ستمائة جندي ، وتعقب مصطفى بك ، وعاونه في مهمته الكولونل ديرانتو والجنرال فوجيير Fugieres الذي كان مرابطاً بمجنوده في سمود ، وأخذوا يطاردون مصطفى بك في مختلف البلاد ، فلما آنس أنه لا قبل له على مقاومتهم زاع من طريقهم وأخذ يفر من بلد إلى آخر حتى أفضى إلى الجهات الصحراوية بالشرقية ، فغاب فيها ولم يعلم الفرنسيون مقره ، ولم يلبث أن تشتت أنصاره وسقط نفوذه

قال الجبرتي في هذا الصدد إن مصطفى بك « لم تعلم عنه حقيقة حال ، قيل إنه ذهب إلى الشام » ، ويقول نيقولا الترك في كتابه^(٢) إنه لجأ إلى الجزائر فراه أمره وأمر بقتله

على أن الثورة قد تجددت في أواخر شهر مايو سنة ١٧٩٩ في القليوبية ومنطقة ميت غمر والبلاد المجاورة لها ، فاحتشد بها عدد كبير من الثوار وانضم اليهم جماعة من المماليك وهجموا يوم ٣٠ مايو على سفينة حربية فرنسية قادمة بالنيل من سمود ، فاستولوا عليها وغنموا أربعة مدافع كانت بها وقتلوا نوتيتها وخمسة من جنودها وجرحوا منهم اثنين

(١) توافق سنة ١٧٩٨ — ١٧٩٩ ميلادية

(٢) ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية

معركة كفور نجم (٥ يونيه سنة ١٧٩٩)

تعطلت الملاحة في النيل تجاه ميت غمر ، فسار الجنرال لانوس من منوف إلى ميت غمر لإخماد الثورة ، فانسحب الثوار منها قاصدين إلى كفور نجم ، فتعقبهم بجنوده ودارت معركة شديدة يوم ٥ يونيه سنة ١٧٩٩ بين الفريقين بالقرب من كفور نجم على شاطئ بحر موسى انتهت بهزيمة الثوار وخسروا عدداً من القتلى قدرهم الجنرال لانوس بمائة وثلاثين قتيلاً^(١) ولما عاد نابليون من الحملة على سورية أمر بإقامة قلعة في ميت غمر وأخرى في المنصورة لحماية الملاحة في النيل ووقع الثورات في جهات البلدين^(٢) ويقول الجنرال (رينيه) في كتابه^(٣) إنه قد أقيم فعلا بالمنصورة وميت غمر ومنوف حصون لحماية الملاحة ووقع الثورات أخذ الجنرال لانوس يتنقل لإخماد الثورة ، ولما وصل إلى ميت غمر أراد أن يقتصر منها انتقاما لما حل بالفرنسيين والسفن الفرنسية تجاهها ، فأمر بإحراقها وتدميرها « حتى لم يبق فيها حجر على حجر » كما يقول ريبو^(٤) ، ثم سار في البلاد لقمع الميماج وإرهاب الأهالي ، على أنه لم يلبث أن علم بأن الثورة انتقلت إلى غرب الدلتا في مديرية البحيرة ، فاضطر أن يسوق جنوده إليها تاركا بالشرقية كتيبة منها بقيادة الكولونل ديرانتو

الثورة في غرب الدلتا

كانت الأقاليم الواقعة غرب الدلتا (الاسكندرية ورشيد والبحيرة) مسرحا للقلاقل والثورات ، فاستهدفت سلطة الفرنسيين فيها للهجمات الخارجية والاضطرابات الداخلية أخذ الأسطول الإنجليزي من أوائل فبراير سنة ١٧٩٩ يطلق قنابله على مواقع الفرنسيين في الاسكندرية ورشيد ، واستمرت السفن الإنجليزية عدة أيام تضرب قلاع الاسكندرية ومواقع الفرنسيين في رأس التين والميناء الشرقية وما جاورها ، وخفت وطأة الضرب في أواخر شهر فبراير ولم ينقطع إلا في أوائل مارس إذ أقلعت السفن الإنجليزية إلى مياه سورية لمقاومة الحملة الفرنسية هناك

وكذلك ظهرت السفن الإنجليزية قريبا من بوغاز رشيد وأطلقت قنابلها على البوغاز

(١) رسالة الجنرال لانوس إلى الجنرال دوجا من الهجارسة بتاريخ ٦ يونيه سنة ١٧٩٩

(٢) رسالة نابليون إلى الجنرال سانسون بتاريخ ٢٢ يونيه سنة ١٧٩٩

(٣) مصر بعد واقعة عين شمس

(٤) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الخامس

والجهات القريبة منه ، فكان لهذه الحوادث تأثير في نفوس الأهالي حفزهم إلى الهياج ،
وظهرت أعراض الثورة في الإسكندرية ورشيد والبلاد المجاورة لها

كتب الجنرال (منو) Menou من رشيد إلى نابليون بتاريخ ٧ فبراير سنة ١٧٩٩
يقول : « إن ظهور السفن الإنجليزية قد أحدث شيئاً من الهياج بين الشعب ، واستفاضت
الاشاعات بقرب قدوم الأتراك » ، وكتب إليه في رسالة أخرى بتاريخ ١٥ فبراير يقول :
« قد بدأنا نشعر باختار فكرة الثورة في البلاد المجاورة لرشيد ، وأخذ أهالي بعض القرى الثائرة
يتهددون الملاحه في النيل ، وقد هاجموا سفينة تحمل البريد فاضطرت أن تعود أدرجها ،
ولا بد لنا أن نحميها بسفينة حربية لتستأنف سيرها »

واشتد الهياج في منطقة رشيد وما حولها في شهر مارس ، ذلك أن الجنرال (مارمون)
قومندان الإسكندرية فرض سلفة إجبارية على مديرية رشيد موزعة على بلادها وقرائها
وكفورها ، فدفعت مدينة رشيد قسطها في السلفة ، ودفعت (فوة) ثلثي المفروض عليها ،
وامتنعت باقي البلاد عن الدفع ، فجرد الكولونل جوليان^(١) Julien عليها حملة عسكرية مسلحة
بالمدافع لإجبارها على دفع ما خصها في الاتاوة ، وعمت الثورة جهات (برنبال) و (مطوبس)
وكفر (شباس عمير) و (القنى) و (السعده)^(٢) وغيرها ، فسارت الحملة من رشيد وأخذت
تجوب بلاد هذه المديرية لإخماد الاضطرابات وتحصيل الاتاوات ، وشباس عمير هي التي قاومت
الجنرال (منو) في أوائل عهد الاحتلال الفرنسي^(٣) ، وكانت معقلاً للثورة وملجأً للثوار من
القرى المجاورة ، وموقعها على جانب من المناعة وخاصة بعد أن رمم أهلها السور المحيط بها
وأصلحوا الأبراج التي تتخلله ، فلم تستطع الحملة أن تستولى عليها وطلبت المدد من رشيد ،
فأجدها الكولونل جوليان بفصيطة من الجنود وعادت القوة إلى قتالها وضربتها بالمدافع ،
فهدمت البلدة عن آخرها وجلا أهلها عنها ، وانتقلت القوة الفرنسية إلى بلدة السعده فضربتها
بالمدافع وتخرب جزء منها وأخلاها أهلها ونجوا بمتاعهم ومواشيهم ، وكذلك أخلى أهل
برنبال بلدتهم وأقفرت من السكان

(١) عين حاكماً لرشيد أثناء الحملة على سورية بدلا من الجنرال منو الذي عينه نابليون قومنداناً

فلسطين لكنه لم يذهب لسورية كما سيجيء بيانه بالفصل الحادى عشر

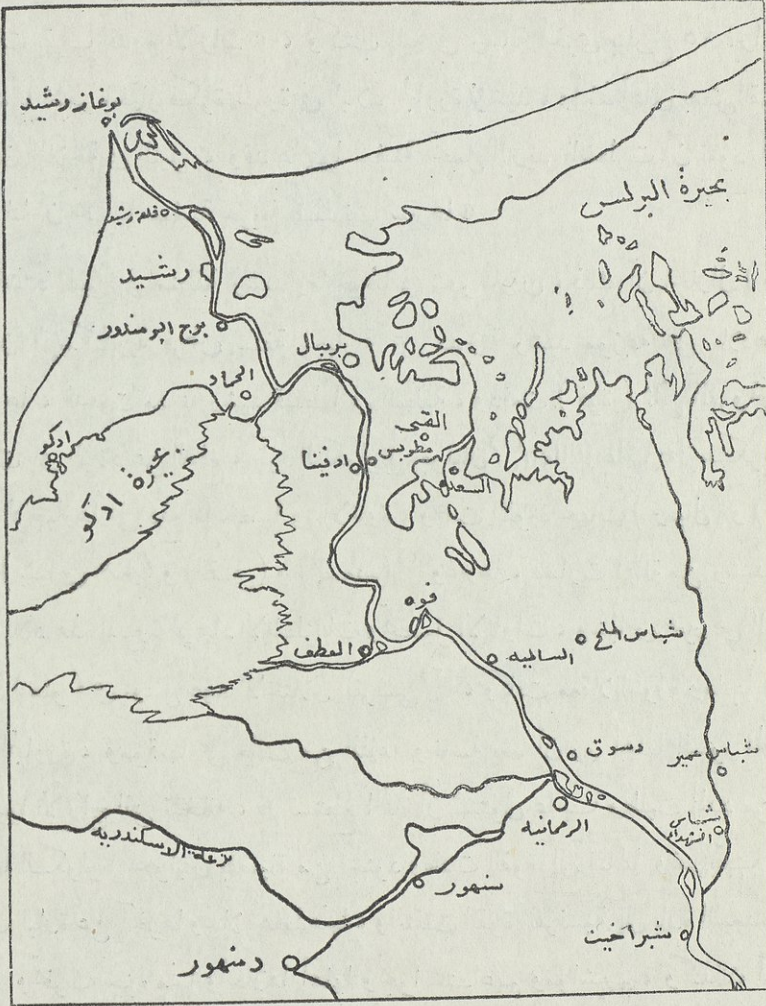
(٢) هذه البلاد هي الآن في مديرية الغربية وكانت في ذلك الحين من أعمال مديرية رشيد ، وتقع

(القنى) شرق مطوبس و (السعده) جنوب القنى بشرق

(٣) انظر الجزء الأول ص ٢٥٠ (من الطبعة الأولى)

الثورة في البحيرة

في أواخر شهر أبريل سنة ١٧٩٩ شنت في البحيرة ثورة أوسع مدى وأعظم خطراً من ثورة الشرقية ، ذلك أنه ظهر فيها رجل جاء من (درنه) ^(١) ادعى المهدي ودعا الناس إلى قتال



بين رشيد وشبراخيت (تخطيط سنة ١٨٠٠)

الفرنسيين ، فأقبلوا عليه أفواجا ، وضم اليه رجال القبائل من أولاد علي والهنادى وغيرهم ، وانحاز اليه سكان القرى التي مر بها ، فسار بهذه الجموع المسلحة حتى وصل إلى دمنهور ليلة ٢٤ - ٢٥ أبريل ، وكان بها حامية من الجنود الفرنسيين تحت قيادة الضابط مارتان Martin

(١) بطر ابلس الغرب

فأمر المهدي رجاله بالهجوم على هذه الحامية فهجموا عليها وقتلوا رجالها جميعا
أشار الجبرتي إلى هذه الحادثة بقوله: « ومن حوادث شهر (ذى القعدة سنة ١٢١٣ -
ابريل سنة ١٧٩٩) أن طائفة من عرب البحيرة يقال لهم عرب الفز جاءوا وضربوا دمنهور
وقتلوا عدة من الفرنسيس وعاثوا في نواحي تلك البلاد حتى وصلوا إلى الرحمانية ورشيد ، وهم
يقتلون من يجدونهم من الفرنسيس وغيرهم »

كان لانتصار المهدي تأثير كبير في مديرية البحيرة فهرع اليه الناس من كل صوب وزاد
عدد أتباعه وقوى اعتقاد الناس في قوته وخوارقه ، وسار برجاله قاصداً إلى النيل ليعبره إلى
مديرية الغربية

وكان بالبحيرة في ذلك الحين كتيبة طوافة من الجنود بقيادة الكولونل لفيفر Lefebvre
تطوف بالبلاد لجباية الأموال ، فوصلت إلى دمنهور بعد قتل الحامية الفرنسية ورحيل المهدي ،
ورأت من المخاطرة أن تتمقبه ، فأسرعت إلى الرحمانية وامتنت بالحصن الذي أقامه الفرنسيون
في نقطة تفرع ترعة الإسكندرية^(١) من النيل ، وانتظرت وصول المدد آتاهم المهدي ، ولما
علم الجنرال (مارمون) قومندان الإسكندرية بنبا الكارثة التي حلت بالحامية الفرنسية بدمنهور
أفد قوة من الجنود مزودة بالمدافع بقيادة الضابط ريدون Redon لتتمقب جيش المهدي
وتتصل بكتيبة الضابط لفيفر بالرحمانية

سارت القوة من الإسكندرية يوم ٢٧ ابريل ، والتقت برجال المهدي غير بعيد عن دمنهور
قبل أن تصل إلى الرحمانية ، ودار قتال شديد بين الفريقين دام خمس ساعات انتهى بانسحاب
ريدون إلى الإسكندرية ، فهدد الجنرال مارمون إلى الكولونل جوليان في إيجاد الرحمانية
بما لديه من الجنود والمدافع فأرسل المدد واستبق في رشيد العدد الكافي لإخضاع المدينة

معركة دمنهور

٣ مايو سنة ١٧٩٩
وصل المدد إلى الرحمانية وانضم إلى الجنود الذين بها ، وسارت القوات الفرنسية مجتمعة ،
فالتقت رجال المهدي يوم ٣ مايو بسنهور البحيرة على مقربة من دمنهور ودارت معركة من
أشد المارك هولاً ، قال ريبو^(٢) في وصفها إن عدد رجال المهدي كانوا خمسة عشر ألف

(١) ترعة المحمودية الآن . انظر ما كتبناه عنها بالجزء الأول ص ١٧٠ (من الطبعة الأولى)

(٢) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الخامس ص ١١١

مقاتل من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان ، وإن القتال استمر سميع ساعات كان فيها أشبه بحجزة نظيمة ، وهذه الواقعة من أشد الوقائع التي واجهها الفرنسيون في القطر المصري ، أظهر فيها اتباع المهدي من الفلاحين والعرب شجاعة كبيرة واستخفافا بالموت لا نظير له ، وبذل الكولونيل ليفير أقصى ما أنتجه العلم والفن في القتال ، جعل جيشه على شكل مربع على الطريقة التي ابتكرها نابليون وهجم على الجموع القتالة عشرين مرة ، فكان يحصد صفوفهم حصدا بنيران البنادق والمدافع ، وكان أتباع المهدي قد غنموا في دمنهور مدفعا فرنسيا فاستخدموه في المعركة وركبوه على مركبة تجرها الثيران وأخذوا يطلقون منه النار على الفرنسيين ، واستمر القتال حتى جن الليل ، وكان الجنود الفرنسيون قد خارت قواهم من القتال ، ففكر ليفير في الانسحاب من الميدان والاتجاه إلى الرحمانية ، ولكن جموع المهدي لكثرة عددها كانت تسد الطريق أمامه ، فأمر رجاله أن يضموا صفوفهم ويحترقوا الجموع التي طوقتهم وركب المدافع على رؤوس المربع لافتحام هذه الجموع ، وانسحبوا من ميدان القتال بعد أن فدحتهم الحسائر ، ويقول « ريبو » إن الفرنسيين خسروا في هذه المعركة ستين قتيلًا بينما يقدر خسائر المصريين بألفي قتيل منهم إبراهيم الشوربجي وعبد الله باشي من مشايخ دمنهور ومراد عبد الله شيخ قبيلة الهنادي ، وبالرغم من هذه الخسارة فإن المعركة انتهت بفوز المهدي وارتداد الفرنسيين إلى الرحمانية

وقد أغراه هذا الفوز الجديد بمواصلة القتال وضم إليه أنصارا وأتباعا آخرين سدوا الفراغ الذي أحدثته معركة سنهور ، فسار بمجموعه قاصدا الرحمانية ، ولكنه اضطر للارتداد عنها أمام مناعة موقع الفرنسيين فيها وعاد إلى دمنهور التي اتخذها معسكره العام

احتلال الفرنسيين دمنهور

وفي غضون ذلك عهد الجنرال دوجا إلى الجنرال لانوس Lanausse الذي كان يحارب أمير الحج أن يتجه بقواته إلى البحيرة لإنقاذ ثورة المهدي التي استفحل شأنها ، فقاد ميت غمر يوم ٥ مايو سنة ١٧٩٩ وقصد إلى البحيرة ، وفي طريقه إليها ضم جنود الجنرال فوجيير Fugières الذي كان يربط في الغربية ، ولما وصل إلى الرحمانية سار بقواته جميعها صوب دمنهور ، فهزم رجال المهدي ودخل دمنهور فاتحا ، فأعمل فيها السيف والنار ودمرها جنوده تدميرا وحشيا وأبادوا من وجدوه فيها من السكان الأمنيين

قال ريبو يصف هذه الفظائع : « بعد أن احتل الجنود دمنهور قتلوا من صادفوه من رجال المهدي جميعا ، ولما كان أهل دمنهور هم أول من اتبع المهدي من سكان البحيرة فقد أراد الفرنسيون أن يطعموا هذه المدينة بطابع الغضب والانتقام ، فأحرقوا مساكنها بالنار ، وقتلوا كل من وجوده من الشيوخ والنساء والأطفال بحمد السيف ، وفي اليوم التالي كانت دمنهور ركاما من الأحجار السوداء اختلطت بها أشلاء الجثث ودماء القتلى »^(١)

وذكر الجنرال (لانوس) في رسالة بعث بها من الرحمانية إلى الجنرال دوجا شيئا من الفظائع التي أمر بارتكابها في دمنهور قال : « كانت مدينة دمنهور وأهلها هدفا لانتقام الجنود ، فقد قتلوا من الأهالي نحو ٢٠٠ أو ثلثمائة ، وبعد ذلك أمرت بتسليم المدينة لفظائع النهب وسفك الدماء ، والآن لم يعد لدمنهور وجود ، وقد قتل من أهلها نحو ١٢٠٠ أو ١٥٠٠ ماتوا قتلا أو حرقا »

وقال الضابط (لفيفر) في رسالة له إلى الجنرال دوجا في ١٠ مايو : « لقد حاصرنا دمنهور وأحرقناها ونهبناها واستولى جنودنا فيها على غنائم وأسلاب عظيمة »

ويقول الجبوتي في هذا الصدد في حوادث شهر ذي الحجة سنة ١٢١٣ : « تجمع الكثير من الفرنسيين وذهبوا إلى جهة دمنهور وفعالوا بها ما فعلوا في بني عدى^(٢) من القتل والنهب لكونهم عصوا عليهم بسبب أنه ورد عليهم رجل مغربي يدعى المهدي ويدعو الناس ويحرضهم على الجهاد وصحبته نحو الثمانين نفرا فكان يكاتب أهل البلاد ويدعوهم إلى الجهاد ، فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم وحضروا إلى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنسيين ، واستمر أياما كثيرة تجتمع عليه أهالي تلك النواحي وتفترق ، والمغربي المذكور تارة يغرب وتارة يشرق »

تعقب الجنرال لانوس فلول المهدي ولحق بهم في حدود مديرية البحيرة ، واختلفت الروايات في خاتمة المهدي ، فقال بعضهم إنه قتل في هذا اليوم ، وقال البعض إنه ظهر بعد ذلك في ثورة القاهرة الثانية ، ويؤيد نابليون في مذكراته الرواية الأولى ويقول إن جثة المهدي وجدت بين القتلى في دمنهور

لكن الجنرال رينييه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية يقول في كتابه إن المهدي المذكور ويسميه (مولاي محمد) ظهر في ثورة القاهرة الثانية وكان يحرض الناس على القتال وإنه لحق بجيش الصدر الأعظم بعد إخماد الثورة ثم عاد إلى مصر في أواخر سنة ١٨٠٠ عند

(١) التاريخ العالمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الخامس

(٢) انظر ما كتبناه عن ثورة بني عدى بالجزء الأول ص ٤٢٠ (من الطبعة الأولى)

الفصل الرابع

سياسة نابليون في مصر

بعد عودته من سورية

عاد نابليون إلى مصر بعد إخفاق الحملة على سورية، وأراد أن يستر هزيمته بدخوله القاهرة دخول الظافر المنتصر ليؤثر في نفسية الشعب ويشعره قوته، ولكن هيهات أن يكون الوهم إلا وهما، فإن الحقائق لا تلبث مع الزمن أن تنكشف وتتغلب على الأوهام والأباطيل أحاط نابليون دخوله القاهرة بمظاهر النصر والظفر، ففي ١٢ يونيه سنة ١٧٩٩ بدأت طلائع الجيش الفرنسي تدخل المدينة ومعها جماعة من الأسرى الأتراك ذوى المكانة وعدة من الرايات التي غنمها الفرنسيون أثناء الحملة، فاستقبلها على حدود القاهرة الجنرال دوجا والجنرال دستنج والسيو بوسليج والأغا (المحافظ) وأعضاء الديوان وشقوا المدينة في موكب مهيب إلى ميدان الأزبكية ومنه إلى القلعة ليشاهد الجماهير الأسرى الأتراك والرايات العثمانية كدليل على فوز الفرنسيين، قال الجبرتي في هذا الصدد في حوادث شهر محرم سنة ١٢١٤ (١):

« وفي يوم الثلاثاء حضر جماعة من العسكر بأثقالهم وحضرت مكاتبه من كبير الفرنسيين (نابليون) أنه وصل إلى الصالحية، وأرسل دوجا الوكيل ونبه على الناس بالخروج للاقائه بموجب ورقة حضرت من عنده يأمر بذلك »

وكان يوم الجمعة ١٢ يونيه (١٠ محرم سنة ١٢١٤) موعد دخول نابليون في جيشه إلى القاهرة، فأعدت السلطة الفرنسية لاستقباله احتفالا كبيرا دعت إليه أعضاء الديوان والأعيان والوجاقية وغيرهم، ففي صباح هذا اليوم قرعت طبول الحرب في أحياء المدينة وحضر قواد الجيش وكبار موظفي الحكومة وأعضاء الديوان وأعيان القاهرة إلى ميدان الأزبكية بدار القيادة العامة، ومن هناك ساروا وعلى رأس هذا الجمع الجنرال دوجا والجنرال دستنج والسيو بوسليج إلى (القبة) لاستقبال نابليون خارج المدينة والدخول في موكبه الحافل، فقابل جماعة المهينين، وأهداه الشيخ خليل البكري جواداً مطهما يقوده المملوك رسم الذي اصطفاه نابليون واستصحبه من بعد في رحيله إلى فرنسا وصار خادمه الأمين ولازمه في عهد القنصلية

والامبراطورية ، وأهداه المعلم جرجس الجوهري كبير المباشرين هجينين جميلين عليهما سرجان بديمان ، وبعد تلقى التهاني دخل القاهرة من (باب النصر) يتبعه الجيش بنظام عسكري مهيب ، فاخترق الموكب شوارع المدينة حتى وصل إلى ميدان الأزبكية بين قصف المدافع وقرع الطبول ، وكأما أراد نابليون بهذه المظاهرة العسكرية أن يثبت لسكان القاهرة كذب الإشاعات التي ذاعت عن القضاء على الجيش الفرنسي وموت نابليون نفسه في سورية وأن يبرهن لهم أن الجيش ما زال في قوته وغنفوانه

روى الجبرتي أن الموكب استمر خمس ساعات متوالية يسير في شوارع القاهرة إلى أن وصل إلى القيادة العامة في الأزبكية

ويقول المسيو جومار Jomard^(١) إنه شهد هذا الموكب « ورأى مرور الجنود متواصل طول النهار لأن نابليون أمر بأن تدخل الجنود المدينة من باب وتخرج من باب آخر ثم تعود فتدخل المدينة ثانياً من الباب الأول لتؤثر في نفسية الشعب الذي كان يتحرش بالفرنسيين أثناء حصار عكا »

ولم يفث الجبرتي ملاحظة ما حل بالجنود من الإعياء وما بدا عليهم من علائم الفشل ، وفي ذلك يقول : « وقد تغيرت ألوان العسكر القادمين واصفرت ألوانهم وقاسوا مشقة عظيمة من الحر والتعب وأقاموا على حصار عكا أربعة وستين يوماً حرباً مستقيماً ليلاً ونهاراً »

منشور أعضاء الديوان

وبعد أن استقر بنابليون المقام في القاهرة استكتب أعضاء الديوان منشوراً دعوا فيه الشعب إلى الإخلاق للسكينة ، وهو منشور طويل خلاصة ما احتواه إعلام الناس برجوع نابليون وأن رجوعه يكذب الإشاعات التي أذاعها المرجفون عنه وزعمهم أنه مات بسورية ، وتضمن ذكر بعض وقائع الحملة السورية مزورة مشوهة ، وأوضح السبب في عودة نابليون إلى مصر فزعم أن ذلك راجع أولاً إلى وعده قبل سفره « بالرجوع بعد أربعة أشهر والوعد عند الحر دين !! » ، والسبب الثاني أنه بلغه « أن بعض المفسدين من المماليك والهربان يحركون في غيابة الفتن والشُرور في بعض الأقاليم والبلدان » فلما حضر سكت الفتنة ونكص الأشرار ، وختم المنشور بتحذير الشعب عواقب الفتن والانتفاض ونوّه بفضل نابليون في احترام القرآن والشماز الإسلامية واجراء خيرات الأوقات وعزمه « على إقامة مسجد عظيم لا نظير له في الأقطار ودخوله في دين النبي المختار » وغير ذلك من التموهيات التي كان يذكرها في منشوراته تارة على لسانه وطوراً على لسان أعضاء الديوان دون أن يأبه لها أحد

(١) عضو المجمع العلمي المصري انظر ما كتبه عنه بالجزء الأول ص ١٢٦ (من الطبعة الأولى)

تغيير نظام القضاء
وانتخاب قاضى قضاء مصر

لما احتل الفرنسيون القاهرة في أوائل عهد الحملة اضطرت الأحوال في العاصمة وكان من نتائج ذلك الاضطراب أن أفقلت بعض المحاكم أبوابها واعتزل القضاة الحكم بين الناس، ولما هدأت الأحوال نوعاً استأنف القضاة أعمالهم وأقر نابليون السابقين منهم في مناصبهم، واستمر القضاء على نظامه القديم، وبقى القضاة السابقون يتولون القضاء وعلى رأسهم القاضى التركى (قاضى قضاء مصر) المولى من قبل السلطان، فلما خرج القاضى على السلطة الفرنسية أثناء الحملة على سورية وانضم إلى أمير الحج في ثورته^(١) عزم نابليون على أن يحدث تغييراً حاسماً في نظام القضاء، وكان الجنرال دوجا قد أقام ابن القاضى السابق « ملا زاده » في مكان أبيه فلم يرق ذلك نابليون وأراد أن يقطع كل صلة بين مصر وتركيا ويجعل قاضى القضاء من علماء مصر، فأمر في ٢٢ محرم سنة ١٢١٤ بالقبض على ملا زاده واعتقاله وأبلغ أعضاء الديوان في اليوم التالى نبأ القبض عليه وعزله وطلب اليهم أن « يختاروا شيخاً من العلماء يكون من أهل مصر ومولوداً بها يتولى القضاء ويقضى بالأحكام الشرعية كما كان الملوك المصريون يتولون القضاء برأى العلماء^(٢) »، فلما قرئت رسالة نابليون بالديوان استاء الأعضاء من اعتقال « ملا زاده » وشفعوا له في أن يطاق سراحه، ودافعوا عنه بأنه إذا كان أبوه قد انضم إلى أمير الحج فلا يؤخذ هو بما أخطأ أبوه، فقبل نابليون شناعة العلماء، غير أنه طلب اليهم أن ينتخبوا قاضياً غيره فجرى الانتخاب بطريقة نظامية واشترك فيه العلماء مع أعضاء الديوان، فقال أغلبية الأصوات الشيخ احمد العريشى الحنفى أحد علماء مصر في ذلك العصر وأحد أعضاء الديوان، قال الميسو فوريه Fouriet القوميسير الفرنسى لدى الديوان وقد حضر عملية الانتخاب إن الأصوات التى أعطيت في الانتخاب بلغت ٢٣ صوتاً نال منها الشيخ احمد العريشى ١٦ صوتاً، ونال الشيخ مصطفى الجداوى خمسة ونال عالمان آخران كل منهما صوتاً واحداً، فولى الشيخ العريشى قضاء مصر باغلبية آراء العلماء، وكتب العلماء بذلك إلى نابليون، فأمر بإقامة حفلة لتولية الشيخ احمد العريشى قضاء مصر دعا إليها أعضاء الديوان العمومى والشيخ

(١) انظر الفصل الثالث ص ٤٤

(٢) الجبرتي الجزء الثالث ومراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢١٧ المؤرخة ٢٦ يونيه سنة ١٧٩٩

السادات^(١) وبعض العلماء والأعيان من غير أعضائه ، وخلع على القاضي الجديد خلمة ثمينة وحفه بموكب حافل سار به إلى دار المحكمة الكبرى بين القصرين ثم أمر نابليون بالإفراج عن « ملازاده » إجابة لطلب العلماء

كانت هذه أول مرة ولي فيها قاضي القضاة بانتخاب علماء مصر ، ولا شك أن جعل منصب قضاء مصر بانتخاب العلماء هو خطوة كبرى في سبيل تقدم النظام القضائي ، لأن حكومة الاستانة لم تكن ترسل إلى مصر سوى قضاة أكثرهم جهلاء لا يعرفون لغة البلاد وليس لهم قدم راسخة في العلم ولا في القضاء ، فانتخاب قاضي القضاة من بين علماء البلاد من شأنه أن يرفع منزلة القضاء ، هذا إلى أنه يكسب علماء مصر حقاً لم يكن لهم من قبل ، وقد أصدر نابليون أمراً آخر في ٤ يولييه سنة ١٧٩٩^(٢) بتحديد رسوم التقاضي باثنين في المائة من قيمة النزاع ، فانتخاب قاضي القضاة مضافاً إلى تحديد رسوم الدعاوى هو تطور في إصلاح النظام القضائي في مصر

أراد نابليون أن يستغل هذا الإصلاح ليكسب قلوب الشعب ، فأصدر منشوراً بعث به إلى أعضاء الديوان أوضح فيه موقفه حيال القاضي التركي وابنه ، وسوغ عمله بقوله إنه لم يعزل القاضي ولكنه هرب من مصر وترك أهله وأولاده « وخان عهد المعروف والإحسان » وإن ابنه لا يصلح لتولية القضاء لصغر سنه وعدم كفايته فأصبح مركز القاضي شاغراً ولذلك رأى اتباعاً لروح القرآن أن « يعهد إلى العلماء اختيار القاضي من بينهم وأن الشيخ العريشي الذي نال اختياركم أصبح متقلداً منصب القضاء ولاغرو فإن الخلفاء الذين كانوا يعملون بروح القرآن كانوا يتولون الخلافة بانتخاب جمهور المؤمنين^(٣) » وأنه لم يعتقل ابن القاضي التركي إلا منغماً للفتن ، وصارح أعضاء الديوان في منشوره بأن مظاهر الحكم العثماني قد انقضت وبطلت ، وهذا المنشور من أهم الوثائق التي أوضح فيها نابليون سياسته في مصر ورغبته في التودد إلى المصريين^(٤)

(١) لم يكن السادات من أعضاء الديوان وقد ذكرنا في الجزء الأول ص ١٩٨ (من الطبعة الأولى) أنه رفض عضوية الديوان ولكن نابليون كان يجمله ويحترمه فأمر أن يدعى إلى الاحتفال ، انظر الوثيقة رقم ٤٢٢١ من مراسلات نابليون

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٥١

(٣) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٢٤

(٤) نشرنا نص هذا المنشور في (قسم الوثائق التاريخية) وقد عبرناه عن الأصل الفرنسي ونشرنا معه الصيغة الواردة في الجبرتي لأنها الوثيقة التي تليت في الديوان

وأرسل أيضا إلى حكام المديرية يكلفهم أن يبلغوا دواوين الأقاليم نبأ انتخاب جمعية العلماء الشيخ العريشي لتولى قضاء مصر ، وأنه ينبغي أن يلقى قضاة الأقاليم تقليد القضاء ، من قاضي القضاة ، قال في هذا الصدد : « على حكام المديرية أن يفهموا أعيان البلاد بأن قد آن إبطال الحكم العثماني ذلك الحكم الذي هو أظلم من حكم المماليك ، وأنه مما ينافي روح القرآن إن يتولى القضاء في مصر رجال من الاستانة لا يعرفون لغة البلاد ، وأن الاستانة لم تعرف الإسلام إلا بعد ثلاثة أو أربعة قرون من وفاة الرسول ، وأنه لو بعث الرسول من جديد فلا يختار الاستانة لرسالته بل يختار القاهرة تلك المدينة المقدسة على ضفاف النيل ، وأن الرئيس الديني للإسلام هو صديقنا شريف مكة ، كما أن علماء القاهرة هم بلا منازع أعلم علماء الإسلام ، وأن القائد العام ينبغي أن يكون القضاة كلهم من أبناء مصر اللهم إلا أن يكونوا من أشرف مكة والمدينة^(١) »

عود إلى المجمع العلمي

تعطلت أعمال المجمع العلمي أثناء الحملة على سورية بسبب انصراف الأفكار إلى حركات الحملة وانتظار نتائجها ولغياي جماعة من أقطاب المجمع الذين رافقوا الجيش الفرنسي في سورية أمثال (مويج) رئيس المجمع و(برتوليه) و(كوستاز) والجنرال كافريللي (الذي مات تحت أسوار عكا) وغيرهم ، فلما رجع نابليون إلى القاهرة استأنف عقد جلسات المجمع وعين بعض الأعضاء مكان الذين ماتوا في سورية أو زحوا إلى فرنسا وبدأ المجلس أعماله بالبحث في الوفاء الذي فتك بالجنود أثناء الحملة وبيان أسبابه ومنشئه وتطوره ووسائل الوقاية منه ، ، وأبدى أعضاء المجمع نشاطا في استئناف أبحاثهم وأعمالهم ، وأخذ نابليون من جهته يستأنف أعمال الاستعمار في القاهرة ، فوجه نظره أولا إلى إتمام بناء الحصون حتى يطمئن إلى إخضاع المدينة إذا شبت فيها نار الثورة واستأنفت الأعمال الصحية بنشاط ، واستأنف كذلك العمل في مصنع البارود بالروضة ، وشرع نابليون في تجديد ملابس الجنود واستعمل في ذلك منسوجات البلاد القطنية والأجواخ الواردة من خارجها ، فاكتفى الجيش إلى حد ما بموارد البلاد بفضل كفاية المسمو كونتي والمسمو شامبي^(٢) وإدارة المسمو دور Daure مدير مهمات الجيش ، وهكذا أثبتت التجربة أن مصر تستطيع في أي وقت أن تكتفي بمواردها الطبيعية

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٣٨

(٢) انظر ترجمتهما بالجزء الأول من ١٣٢ و ٢٣٤ (من الطبعة الأولى)

خرطة مصر

كاف نابليون في الأشهر الأولى من الحملة الفرنسية بعض المهندسين الجغرافيين وضباط أركان الحرب ومهندسى الرى والقناطر والجسور برسم خرطة تفصيلية عن أنحاء القطر المصرى ، وعهد إلى المسيو (تستفيود) Testevuide كبير المهندسين الجغرافيين وضع خرطة عامة للقطر المصرى ، ولكنه قتل في ثورة القاهرة الأولى ، فبطل العمل في رسمها ، ولما عاد نابليون من سورية عزم على توحيد جهود المهندسين وضباط أركان الحرب فأصدر أمراً في ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٩^(١) بضم المهندسين الجغرافيين التابعين للجيش إلى هيئة أركان الحرب ، وعين الكولونل جاكوتان Jacotin رئيساً للمهندسين الجغرافيين بدلا من تستفيود ، وعهد إلى رأسه أركان الحرب وضع خرطة تفصيلية كبيرة للقطر المصرى ، فأخذ المهندسون وضباط أركان الحرب يعملون لها بنشاط ، ومن المهندسين الذين كانت لهم يد طولى في تخطيطها جاكوتان وسميونيل Simonel وشوانى Schouani وجومار Jomard وكورابوف Corabeuf وجالوا Jallois ودفيليه Devilliers والمسيو لو بير Le Père كبير مهندسى الرى جمعت الرسوم والتخطيطات والبيانات اللازمة لهذه الخرطة خلال الحملة الفرنسية ، ونقلها مهندسو الحملة معهم عند رحيلهم إلى فرنسا (في شهر سبتمبر سنة ١٨٠١) وهناك أمر نابليون جماعة المهندسين بوضع الخرطة التفصيلية لمصر ، فتولى الكولونل جاكوتان رئاسة العمل واشترك فيه المهندسون والضباط الذين رسموا وخططوا حين كانوا في مصر ، وتم وضع الخرطة وإفراغها ، وقدمت إلى نابليون (وكان قفصلا أول) في شهر أكتوبر سنة ١٨٠٣

اكتشاف الآثار المصرية القديمة

وَألف نابليون لجنتين للكشف عن آثار الفراعنة في الصعيد ورسمها ودراستها ، فاللجنة الأولى برئاسة المسيو فوريه سكرتير المجمع العلمى الدائم ، والثانية برئاسة المسيو كوستاز أحد مهندسى الحملة ، وكانت مهمتهما التنقيب عن آثار مصر القديمة في الوجه القبلى إلى الشلالات ، وقد سبقتهما في تعرف آثار الصعيد المسيو فيفان دينون الذى رافق حملة الجنرال ديزيه ، والمهندسون جومار وجالوا ودفيليه

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٢٢٧ في تاريخ مصر القديمة لجانبا (٧)

(١) سافر أعضاء اللجنتين من القاهرة إلى الصعيد في ٢٠ أغسطس سنة ١٧٩٩ أى بعد يومين من رحيل نابليون إلى الإسكندرية ، ونقبوا على الآثار المصرية وبدلوا جهوداً عظيمة في اكتشافها ، فأزاحوا الستار عن عظمة مصر القديمة ، ودرنوا أبحاثهم في كتاب تخطيط مصر ، فكانت أعمالهم وأعمال أعضاء المجمع العلمي هي الخالدة من آثار الحملة الفرنسية « وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض »

الموقف السياسي

وتجدد القتال

شمل السكون الظاهر أنحاء القطرى المصرى في منتصف شهر يونيه سنة ١٧٩٩ ، وكانت الظواهر تدل على هدوء الحالة واستقرارها ، فقد أخذت الثورات في الوجه البحرى ، وانتهت المعارك العنيفة في الوجه القبلى ، وتوطدت السكينة في القاهرة ، لكن هذه الظواهر كانت تشبه السكون الذى يسبق العواصف ، فقد كانت الأفكار في غليان ، ونفسية الشعب متحفزة للهياج ، واللغظ يزداد ويكثر ، والإشاعات عن اكفهار الجو يتناقلها الناس في أودية القاهرة وشوارعها وقهواتها ، ومن هناك تستطير إلى القرى والأرياف مكبرة مجسمة ، وكان نابليون يرقب هذه الحالة وهو عالم بأن هذا السكون الظاهر الذى شمل البلاد لم يكن إلا غشاء لا تلبث الحوادث أن تمزقه ، فهو يعلم أن إنجلترا وتركيا تعدان المعدات لتجريد حملة كبيرة لإخراج الفرنسيين من مصر ، ويعلم أن سكون الشعب وتربسه لم يكن إلا إذعانا لحكم القوة المساحة ، فإذا هنت هذه القوة انفجرت الثورات وتجددت الاضطرابات كدأبها وأشد ، وكانت الأنباء ترد من كل مصدر بحشد الجنود التركية في رودس والثغور العثمانية لتبحر إلى سواحل مصر ، وفي الوقت نفسه كانت قوات تركية أخرى تهيأ للزحف على مصر من طريق برزخ السويس بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا ، وكان نابليون يلحظ تحفزاً من الأهالى للانتفاض ، وعلم أن دعاة الثورة يخوضون القرى والبلاد يستنفرون الناس للهياج

وقد وقعت حوادث ومناوشات من زعماء المالك في تلك الفترة من الزمن ، فتحرك مراد بك من الفيوم إلى وادى النظرون قاصداً شمال البحيرة متوقفاً أن يلتقى بالجنود التركية عند زولها إلى البر ، وتحرك عثمان بك الشرقاوى قاصداً إلى برزخ السويس لملاقاة ابراهيم بك لكن نابليون لم يدع للحوادث أن تفاجئه ، بل أسرع فأعد لمقابلة الهجوم المنتظر ،

فعمد إلى تشتيت قوات مراد بك وعثمان بك وعهد إلى الجنرال (دستنج) والجنرال (مورا) منع مراد بك من التقدم إلى شمال البحيرة فخالا دونه ولم يلبث أن انقلب إلى الصعيد، وهاجم الجنرال (لاجراج) Lagrange عثمان بك في السبع آبار^(١) فهزمه واستولى على معسكره وناط نابليون بالجنرال (كلير) قيادة القوات والمواقع الكائنة على السواحل الشمالية من الاسكندرية إلى العريش، واستأنف أعمال التحصين في الصالحية وبليس ودمياط ورأس البر وأبو قير والاسكندرية، وجعل هذه المواقع صالحة للدفاع، وكان الجنرال كلير والجنرال مارمون قومندان الإسكندرية ما برحا يحصنان قلاع الإسكندرية وأبو قير من قبل، فزاد نابليون في تحصينها وخاصة طابية العجمي غربي الإسكندرية وقلعة قايتباي وبرج السلسلة وكانت الحاميات العسكرية موزعة على الثغور والمواقع التي تعتبر مفاتيح البلاد، فكان بقلعة العريش حامية من ستمائة جندي بقيادة الابدونات جنرال كامبيس Cambis، وبقطية حامية من ستمائة جندي بقيادة جونو Junot، والجنرال رينييه Reynier يتولى قيادة الجنود في الشرقية، والجنرال (منو) في رشيد، ولانوس في المنوفية

مقتل الجنرال دومارتان

توقع نابليون بثاقب نظره أن ترسو السفن العثمانية الآتية بالجنود على شواطئ (أبو قير) بين الإسكندرية ورشيد، فأنفذ إليها الجنرال (دومارتان) قومندان المدفعية ليتدبر حالة الدفاع في تلك الجهة

غادر دومارتان القاهرة يوم ١٩ يونيه سنة ١٧٩٩ على سفينة مسلحة بالدفاع وعليها جماعة من الجنود، وأبحرت السفينة ببطء وصعوبة لهبوط النيل، فلما كانت بازاء طنوب والزعيرة^(٢) هجم عليها جمع من الأهالي المسلحين بالبنادق ودارقتال عنيف بين الفريقين قتل فيه عشرة من الفرنسيين وجرح أربعون، وكان الجنرال دومارتان ضمن الجرحى، فنقل إلى رشيد ومات بها في يوليه سنة ١٧٩٩ متأثراً من جراحه، وعهد نابليون بعد مقتله إلى الجنرال سوبجي Songis في قيادة المدفعية

نزول الجنود العثمانية في (أبو قير)

لم تكن استعدادات نابليون لملاقاة الحملة العثمانية على غير جدوى، فقد أقبلت العهارة

(١) غربي بحيرة (التمساح) شمال السويس وتسمى (السبع آبار)

(٢) بلدتان بالمنوفية بالبر الشرقي لفرع رشيد (بمركز تالا الآن)

التركية تجاه الإسكندرية يوم ١١ يوليه سنة ١٧٩٩ متجهة شمالاً بشرق قاصدة شواطئ (أبو قير) لإزالة الجيش العثماني الذي أنفذته تركيا بقيادة كوسه لي مصطفى باشا سر عسكر الروملي ، ثم وصلت إلى خليج (أبو قير) في اليوم التالي فأرسل الجنرال (مارمون) إلى نابليون ينبئته بالخبر وينتظر ما يأمره به

نزل الجنود العثمانية إلى شاطئ (أبو قير) يوم ١٤ يوليه وكان عددهم في أول يوم عشرة آلاف مقاتل ، فحاصروا قلعة أبو قير^(١) وكانت الحامية الفرنسية ممتنعة فيها بقيادة القومندان

جودار Godard

وكان موقع القلعة في ذاته منيماً لأنها قائمة على صخرة صعبة المنال في رأس شبه جزيرة (أبو قير) تحميها من الداخل استحكامات في مدخل شبه الجزيرة^(٢) فتحصن القومندان جودار في المدخل وناط بالكابتن فيناش Vinache الدفاع عن القلعة

احتلال الأتراك قلعة (أبو قير)

بدأ حصار (أبو قير) يوم ١٥ يوليه ، وكان هجوم العثمانيين شديداً فاحتلوا الاستحكامات وقتلوا الفرنسيين الذين دافعوا عنها ، وقتل من بينهم القومندان جودار ، ثم احتلوا القرية ولم يبق أمامهم سوى القلعة فأثر الكابتن فيناش التسليم هو وجنوده فأسرهم العثمانيون ونقلوا على ظهر بارجة انجليزية من عمارة الكومودور السير سدني سميت الذي جاء صحبة المهارة التركية واحتل الأتراك القلعة يوم ١٧ يوليه سنة ١٧٩٩

تعليمات نابليون

علم نابليون بهذه الحوادث ، فأدرك خطورة الموقف ، لكنه كمادته لم تبد عليه علام الاضطراب وبادر إلى وضع خطة سريعة محكمة التدبير لمواجهة الحملة العثمانية كان من مواهب نابليون التي أ كسبته النصر في ميادين القتال السرعة في وضع خططه الحربية ، ومفاجأة خصومه قبل أن يدع لهم الوقت الكافي لمباغتته ، بهذه الميزة ، وبثلك العبقرية ، قابل الحملة التركية عند نزولها بأبو قير ، لقد هاله احتلال الأتراك للقلعة لأنه كان يقدر أنها تستطيع المقاومة مدة طويلة لمناعة موقعها وما بها من المدافع ومعدات الدفاع ،

(١) هي القلعة القائمة إلى اليوم في نهاية شبه جزيرة أبو قير والمعروفة بطابية البرج ، ولا تزال آثار أنبئتها وأبوابها باقية إلى اليوم كما بنيت ، وبنائها على الراجح في عهد السلاطين البحرية
(٢) تقع قرية (أبو قير) بين الاستحكامات والقلعة

وحسب أنها تعطل الجيش العثماني وتمنع عليه طويلاً ، ولم يخطر له قط أن تسقط في يد الأتراك بهذه السرعة ، على أنه مع ذلك لم يضطرب ولم يضيع الوقت ولم يتردد في وضع خطته الحاسمة ، ففي ليلة واحدة رسم خطته وأصدر تعليماته وأرسل رسائله إلى قواده ليلتقوا إليه بالرحمانية حيث قرر جعلها قاعدة الهجوم على الجيش العثماني ، فكلف الجنرال « مورا » بالتحرك من الجزيرة على رأس قوة الفرسان والكشافة لتكون بمثابة طلائع الجيش

وكلف الجنرال لان Lanne أن يعبر النيل ليلاً ويسير بفرقته رأساً إلى الرحمانية ، وأمره بأن يلحق به الجنرال رامبون Rampon بجنوده وينقل معه مدفعية الجيش ، واستدعى الجنرال لانوس من المنوفية ، وأصدر تعليماته إلى الجنرال ديزيه بالصعيد أن يهبط إلى الجنرال فريان Friant بتعبق مراد بك وأن يترك القوة والذخائر الكافية في قلعة قنا وقلعة القصير ويرسل نصف قوته من الفرسان إلى الرحمانية ويحجى إلى القاهرة ليتولى بالإنفاق مع الجنرال دوجا إخضاعها في أثناء غياب الجيش عنها

وكلف الجنرال دوجا أن يظل بالقاهرة متأهباً للقتال وأن يرسل الكتائب الطوافة لاستطلاع حالة البلاد المجاورة للعاصمة وإمداد الحصون بالذخائر لتكون على أهبة الدفاع ، وأمره إذا جدت به الحوادث أن يتحصن في القلعة

وكلف الجنرال (رينيه) قومندان الشرقية أن يمد قلاع العريش وقطية والصالحية وبلبيس بالذخائر وأن يقمع بمن معه كل حركات الثورة والاضطرابات التي تقع في أنحاء المديرية ويقاوم كل هجوم محتمل للجنود العثمانية القادمة من سورية ، ثم أمره في حالة اشتداد الهجوم أن يمتنع بجنوده في القلاع وينشئ بالباقي إلى القاهرة ، وأن يكون على استعداد لإرسال قواته إلى الرحمانية ، وكلف الجنرال كليبر قومندان دمياط أن يتجه بجنوده صوب رشيد ليدافع عنها ويصد هجوم العثمانيين إذا زحفوا عليها ، وأن يبق الحاميات الكافية لإخضاع الأهليين في مديرتي دمياط والمنصورة ، وكان الجنرال (منو) في ذلك الوقت متغيباً عن رشيد يكشف جهات وادي النطرون فأمره نابليون بأن يعود لفوره إلى الرحمانية ليلتقي به بعد أن يترك بوادي النطرون حامية من الجنود لمنع مراد بك من التقدم شمالاً ، وبهذه التعليمات استطاع نابليون أن يجمد جيشاً مؤلفاً من عشرين ألفاً من المشاة وثلاثة آلاف من الفرسان ضرودين بالدفاع الكافية

أصدر نابليون هذه التعليمات وأرسلها إلى قواده ، وسار هو قاصداً الرحمانية فبلغها يوم ١٩ يولييه ، أي أنه أعد معداته ووصل إلى قاعدته الحربية بعد خمسة أيام من زول الجنود العثمانية إلى (أبو قير) ، وهي سرعة ليس لها نظير في تاريخ الحروب في ذلك العصر

لم تكن القيادة التركية في هذا الوقت قد رسمت أية خطة حربية لمواجهة الجيش الفرنسي ، بل كانت جنودهم لا تزال ترسو إلى البر جماعات مفككة لا يربطها نظام ، وكأنما مثل الأتراك بنشوة الانتصار الأول في احتلال قلعة (أبو قير) فلم يحسبوا حساباً للوقت ولم يقدرُوا قوة جيش نابليون ، وظلت الجيوش العثمانية نزل إلى البر حتى بلغ عددهم ١٥٠٠٠ (١) مقاتل ، ولم يفكر مصطفى باشا في احتلال الإسكندرية أو رشيد ليتخذها قاعدة عسكرية للزحف منها إلى داخل البلاد ، بل ظل جامداً في شبه جزيرة أبو قير واكتفى بقطع المواصلات بين الإسكندرية ورشيد ، وكانت تنقصه قوة الفرسان والمدفعية ، كما كانت تعوزه الكفاءة الحربية للقيادة ، فبقى في موقف الانتظار والتردد لا يدري كيف يأخذ في أمره ، وترك لنابليون الفرصة لمهاجمته قبل أن يرسم لنفسه أي خطة حربية

فلما علم نابليون بجمود مصطفى باشا عزم على مهاجمة الجيش العثماني في شبه جزيرة (أبو قير) ، واختار قرية بركة غطاس (٢) قاعدة ليمبدأ فيها الهجوم لأنها نقطة ارتكاز يسهل الوصول منها إلى الإسكندرية ورشيد وأبو قير ، وكانت خطته أن يهجم من هذه النقطة جاعلاً غايته حصر الجيش العثماني في شبه الجزيرة ومنع اتصاله بالإسكندرية ورشيد وداخلية البلاد ، وعهد إلى الجنرال مارمون قومندان الإسكندرية بالاتصال بفرسان الجنرال مورا لاكتشاف موقع الأتراك من أبو قير ، فقام الضابط بيكو Picot بهذه المهمة بسهولة تامة ، لأن مصطفى باشا حشد جيشه في شبه الجزيرة حشداً دون أن يجعل له نقطاً أمامية أو مخافر تمنع اكتشاف مواقم

معركة أبو قير البرية

٢٥ يوليه سنة ١٧٩٩

علم نابليون بمواقع الجيش العثماني ، فأمر جيشه بالانتقال من الرحمانية إلى بركة غطاس ، فاستقر بها يوم ٢٣ يوليه ، وفي ليلة ٢٤ يوليه انتقل الجيش من (بركة غطاس) وعسكر جزئاً

(١) أخذنا هذا الإحصاء عن رسالة الجنرال (برتييه) رئيس أركان الحرب إلى الجنرال (دوجا) وهو الإحصاء الرسمي عمل عقب الواقعة مباشرة فهو أقرب إلى الثقة ، وقدرهم الجنرال دوجا بهذا العدد في رسالة إلى أعضاء الديوان بتاريخ ٢ ربيع الأول سنة ١٢١٤ ، لكن نابليون يقدرهم في مذكراته بـ ٢٨ ألفاً ، والظاهر أن في إحصائه مبالغة

(٢) من بلاد مركز أبو حمص

منه في كفر سليم^(١) والجزء الآخر في المكريشة^(٢)، واتخذ نابليون الإسكندرية مقراً للقيادة العامة فانتقل إليها في تلك الليلة

لم يضيع نابليون وقتاً في الإسكندرية، فمن ساعة وصوله إليها أنفذ الجنرال دستنج على رأس كتيبة من الجيش ليستطلع الجهات المجاورة التي تفصل بينه وبين أبو قير ويحتل آبار المياه ليرتوي منها الجنود، ثم أصدر أمره بالزحف، فأخذت فرق الجيش تنتقل إلى (البيضاء) وواصلت السير على السد بين بحيرة أبو قير وترعة الإسكندرية، ثم انعطفت شرقاً متجهة إلى أبو قير، ووردت الأخبار من رشيد بقدم طلائع فرقة الجنرال كليبر قادمة من دمياط، فعهده إليه بالتقدم ليكون بمثابة احتياطي للجيش القاتل

قضى نابليون يوم ٢٤ يولييه بالإسكندرية، وفي مساء هذا اليوم انتقل منها هو وأركان حربيه وقوة الفرسان الذين كان يقودهم مورا، واتخذ معسكره على مسافة سبعة كيلومترات غربى أبو قير وقضى الليل يرتب مواقع جنوده استعداداً لخوض المعركة في صباح اليوم التالي. نشبت المعركة صبيحة يوم ٢٥ يولييه، فهجم الجنرال مورا بفرسانه ومعه كتيبة من جنود الجنرال دستنج من القلب، واندفع الجنرال لانوس من اليسرة، والجنرال لان من اليمين، وفرقة الجنرال كليبر تؤلف الاحتياطي، وكان هجوم الفرسان شديداً في بدء المعركة، فأحدث ثغرة في صفوف الجيش العثماني، واشتد القتال واستبسل الفريقان، وهجم الجيش الفرنسي غير مرة على مواقع الجيش العثماني، فأصلاهم العثمانيون ناراً حامية من مدافعهم المركبة في مواقعهم المنيعة، ولكن الفرنسيين تفوقوا بتدبير قيادتهم وحسن نظامهم وإحكام هجومهم وكثرة عددهم ولاسيما الفرسان، فتمكنوا من سحق خطى الدفاع الذين أقامهما الجيش العثماني، وفتكوا بالجنود الذين كانوا يرابطون عليهما، وبذلك بدأت هزيمة العثمانيين، فالتجأ مصطفى باشا إلى قرية (أبو قير) ليستند إلى القلعة، ولكن الجنرال مورا هجم بفرسانه وحال بين القرية والقلعة، فحصر مصطفى باشا وجنوده في قرية أبو قير، وهجمت فرقة الجنرال لان على القرية وأقبل مورا بفرسانه مقتحماً معسكر مصطفى باشا فأخذه في خيمته، ووقع مصطفى باشا ورجاله في أسر الجيش الفرنسي

كانت هزيمة العثمانيين في هذه الموقعة أشبه بكارثة، فقد فقدوا من القتلى والفرق والجرحى نحو ثمانية آلاف، وبلغ عدد الأسرى نحو ثلاثة آلاف، وغنم الفرنسيون مدافع الجيش العثماني وذخائره، وفقد الفرنسيون ٢٥٠ قتيلًا، وجرح منهم سبعة وخمسون

(١) و (٢) من بلاد مركز كفر الدوار

حصار القلعة

انتهت معركة أبو قير بهزيمة الجيش العثماني ، على أن القلعة ظلت تقاوم هجمات الفرنسيين ، وامتنع بها نحو ثلاثة آلاف من الجنود العثمانية بقيادة ابن مصطفى باشا الذي أبي أن يسلم كما فعل أبوه ، فعهد نابليون إلى الجنرال لان Lanne في حصار القلعة ، ثم جرح « لان » في معارك الحصار ، فعين مكانه الجنرال منفو وعاونه الجنرال دافو ، واستمر الحصار قائماً والحرب مستمرة إلى أن نفذت ذخائر العثمانيين فاحتل الفرنسيون القلعة يوم ٢ أغسطس

رواية الجبرتي عن معركة أبو قير

أشار الجبرتي إلى واقعة أبو قير في حوادث شهر صفر سنة ١٢١٤^(١) بقوله :
« وفي ليلة الأربعاء عشرينه أسمع أن الفرنسياتة تحاربوا مع العساكر الواردين على أبي قير وظهروا عليهم وقتلوا الكثير منهم ونهبوهم وملكوا منهم قلعة أبي قير وأخذوا مصطفى باشا أسيراً ، وكذلك عثمان خجا وغيرها ، وأخبر الفرنسيين أنه حضرت لهم مكاتبة بذلك من أكبرهم ، فلما طلع النهار ضربوا مدافع كثيرة من قلعة الجبل وباقي القلاع المحيطة وبصحن الأذربكية ، وعملوا في ليلتها أعنى ليلة الأربعاء حراقة بالأذربكية من نفوط وبارود وسواريح تصعد في الهواء ، وفي يوم الخميس ثامن عشرينه وصلت عدة مراكب وبها أسرى وجرحى ، وكذلك يوم الجمعة تاسع عشرينه حضرت مكاتبة من الفرنسيين بحكاية الحالة التي وقعت لم أفق على صورتها ، وفي ثاني ربيع الأول وصلت مراكب من بحرى وفيها جرحى الفرنسياتة »
وقد أسر الفرنسيون من بقى من الحامية العثمانية بقلعة (أبو قير) ، منهم نجل مصطفى باشا وكتبخده (وكيله) ومحمد رشيد افندى^(٢) أحد كتاب الديوان المهابوتى وعثمان خوجه افندى وعثمان خوجه هذا من المماليك الذين تولوا الأحكام في عهد مراد بك ، وكان متوليا إمارة رشيد من قبل صالح بك (أمير الحج عند قدوم الفرنسيين) وحج معه ورجع صحبته إلى الشام ، فلما توفى صالح بك سافر عثمان خوجه إلى الرومللى وحضر صحبة مصطفى باشا وحيشه ، وقد حقد عليه الفرنسيون وأبى نابليون اعتباره أسير حرب واتهمه بالاشتراك في التحريض على الثورة في الوجه البحرى ، فأمر بنقله إلى رشيد وقتله ، قال الجبرتي في هذا الصدد :
« فدخلوا به البلد وهو مكشوف الرأس حافى القدمين وطافوا به في البلد يزفونه بطبولهم حتى

(١) يولييه سنة ١٧٩٩

(٢) الذى صار له شأن في مفاوضات الصلح كما سيحىء بيانه

وصلوا به إلى داره ، فقطعوا رأسه تحتها ثم رفعوا رأسه وعلقوها من شبك داره ليراها من
عمر بالسوق » ، وكذلك عامل الفرنسيون مثل هذه العمالة عثمان نخيما الشاويش حاكم برنبال
ورفض نابليون اعتباره أسير حرب وأمر بضرب عنقه بالاسكندرية

وقد كافأ نابليون الجنرال (مورا) قائد الفرسان على ما أبداه من البسالة وما كان له من
الفضل في فوز الفرنسيين ورفاهه إلى درجة قائد فرقة ، وكذلك الجنرال (لان)

وأمر بأن تسمى ثلاث قلاع من قلاع الاسكندرية بأسماء كريتان Crettin ، ودوفييه
Duvivier ، ولتتورك Leturcq ، تذكراً لأولئك القواد الذين قتلوا في المعركة ، فأطلق اسم
« كريتان » على قلعة كوم الدكة ، واسم « لتتورك » على قلعة القمرية (غربي القبارى) ،
وسميت قلعة الركنة باسم قلعة دوفييه

وتعد واقعة أبو قير البرية فوزاً كبيراً لنابليون لأنها بمثابة فتح جديد لمصر ، كما كانت
واقعة الأهرام من قبل ، وقد ابتهج لها الفرنسيون ابتهاجا عظيما وطربوا لأخبارها وأقاموا
الحفلات والزينات في القاهرة ثلاثة أيام متواليات .

حالة الأفكار

في القاهرة والأقاليم

عاد نابليون إلى القاهرة يوم ١١ أغسطس سنة ١٧٩٩ بعد أن غاب عنها زهاء عشرين
يوماً هزم في خلالها الجيش التركي بسرعة لا نظير لها في الحروب
كانت القاهرة والأقاليم أثناء هذه المدة في سكون رهيب بعد أن ذاع خبر نزول الجنود
العثمانية في (أبو قير) ، وعلمه الناس كافة ، وانصرفت قلوب الشعب تتمنى هزيمة الفرنسيين
وتتوقع انكسارهم في ميدان القتال ، لكن القوة المسلحة في القاهرة كانت كافية لقمع كل
حركة تحدث فيها ، فضلا عن أن ذوى الرأي وجمهور الأهالي لم يكونوا يعرفون على من
تكون الهزيمة ، فلزم الأهالي الصمت والسكون ، وكذلك فعل الفرنسيون المقيمون في القاهرة
فأخذوا يرتقبون نتيجة القتال وقلوبهم واجفة لأن حياتهم كانت معلقة على انتصار الجيش
الفرنسي في المعركة

وكان الفرنسيون قد بالغوا في كتمان خبر قدوم الحملة العثمانية ، وسافر نابليون قاصداً
الرحمانية دون أن يعلم الناس السبب ، ولكنهم علموا بقدوم الجيش العثماني من المكاتبات
والرسائل التي وافي بها السعاة من الاسكندرية وأبو قير وفيها أخبروا بمجيء العهارة العثمانية ،

فتناقل الناس هذه الأخبار بسرعة البرق ، وعلّموا السر في سفر نابليون وجنده ، وكانت الأخبار تأتي مبالغاً فيها ، فمن ذلك ما رواه الجبرتي في حوادث شهر صفر سنة ١٢١٤ « أنه وردت أخبار وعدة مكاتيب لكثير من الأعيان وكلها نسق واحد تزيد عن المائة مضمونها أن المسلمين وعسكر العثمانيين ومن معهم ملكوا الاسكندرية ، فصار الناس يحكى بعضهم لبعض الخ... » ، مع أن الجيش العثماني لم يقترب من الاسكندرية كما رأيت

ولما سار نابليون من الجزيرة بعث برسالة إلى أعضاء الديوان يوصيهم فيها بالمحافظة على الأمن وضبط البلد والرعية كما فعلوا في غيبته السابقة (أثناء الحملة على سورية) ، ولم يكتف بذلك بل بعث من الرحمانية برسالة طويلة إلى الديوان من رسائله التي كان يملؤها بالأوهام والعبارات الجوفاء ، ذكر فيها نبأ وصوله إلى الرحمانية وعفوه عن أهالي البحيرة ، وكأما أراد أن يكتف عن أعضاء الديوان أن الحملة القادمة حملة عثمانية ، مع أن الخبر قد شاع وذاع بوصول الجنود الأتراك ، فذكر في رسالته وصول العمارة المقلّة للجنود دون أن يعين جنسية المراكب ولا جنسية الجنود ، وزعم أن العمارة قصدت ثغر الاسكندرية وأرادت النزول بها فصدمتها قنابل المدافع ، ولم يكن هذا صحيحاً لأنه لم يحصل ضرب ولا قتال بثغر الاسكندرية بل اتجهت العمارة مباشرة صوب (أبو قير) لترسو هناك ، وقال إن السبب في قدوم هذه العمارة « الاجتماع بالماليك العربان لأجل نهب البلاد وخراب القطر المصري وإن فيها خلقاً كثيراً من الموسكو والافرنج » ، مع أنه لم يكن بها جنود من الموسكو (الروس) ، وقد ضرب على نعمة عداء الروس للمسلمين ليستميل قلوب الأهالي ، وأشار إلى أنه إذا كان بالعمارة جماعة من المسلمين - يقصد العثمانيين - فإنهم يكونون أعداء للإسلام ، وطلب في ختام رسالته من أعضاء الديوان أن يبلغوا هذه الرسالة إلى دواوين الأقاليم ليخلد الناس للهدوء والسكينة ، وحذرهم عواقب الهياج والثورة ، متوعداً كل بلدة ثور بأن يحل بها من القصاص ما حل بدمهور من الإحراق والتدمير

على أن هذه الرسالة لم تتخذ أحداً من الأهالي ، ولم يكن لتلك العبارات الجوفاء التي ملأ بها رسالته أثر ما في أذهان الناس ، وقد اعترض المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية على هذه الخطة ونصح لنابليون قبل سفره أن يعدل عنها في رسائله للشعب ، وأوضح له أن هذه الأكاذيب لا يمكن أن تتخذ أحداً وأنها قد تتخذ دليلاً على ضعف الفرنسيين فتكون مدعاة إلى الثورة بدلا من أن تكون وسيلة لمنعها ، ويقول ريبو^(١) إن نابليون أصغى لملاحظات المسيو

بوسليج وترك له قبل رحيله إلى الرحمانية أن يتخذ في غيابه خير الوسائل بالاتفاق مع الديوان لمنع الهياج في العاصمة

استدعى المسيو بوسليج أعضاء الديوان وصارحهم بالأمر فقال لهم : إن الأتراك قد نزلوا في أبو قير ، وأنتم لا شك تعلمون ذلك ، وقد سافر نابليون لقتالهم ، ونحن لا نعرف ولا أنتم تعرفون نتيجة المعركة ، ولكني أعتقد أنه في انتظار نتيجة القتال يحسن بسكان العاصمة أن يلزموا الهدوء والسكينة ، لأن النتيجة لا تحلو من واحد من أمرين ، فإما هزيمة للفرنسيين وعندئذ يجلون عن البلاد ، وإما نصر لهم وفي هذه الحالة تستهدف العاصمة لأشد أنواع الانتقام إذا شئت فيها الثورة

وقد أدرك أعضاء الديوان صواب هذا الرأي فأعلنوا أنهم لا يألون جهدا في النصح للشعب بالاخلاد للسكينة

على أن الخواطر كانت في هياج أثناء القتال ، وبالرغم من أن السكينة كانت محيية على القاهرة فإن الشعب قاطبة كان يتظاهر بعواطفه العدائية نحو الفرنسيين ، وبدت هذه العواطف حتى على أعضاء الديوان الذين كانت مراكزهم تقتضي منهم مجاملة الفرنسيين ، وظهرت عليهم علامات الابتهاج عند ما وصلت أخبار انتصار العثمانيين في بدء الحملة ، فقد وردت الأنباء باحتلال مصطفي باشا قلعة أبو قير وأسر حاميتها الفرنسية ، فلما تحققت هذه الأخبار كثر اللفظ بين الناس وتجاهروا بالبشر والابتهاج ، ولاحظ الفرنسيون في العاصمة تغير الحالة النفسية لأعضاء الديوان ، بعكس ما كانوا عليه أثناء غياب نابليون في الحملة على سورية ، واستمرت هذه الحالة إلى أن وردت الأنباء بانتصار الفرنسيين في المعركة وأسر القائد التركي مصطفي باشا ، فأطلقت المدافع من قلعة الجبل وباقي القلاع ابتهاجا بهذا النصر ، وكاد الناس لا يصدقون الخبر لولا أن تواترت الروايات على صحته ، فقابل أعضاء الديوان النبأ بالفتور والإعراض ، وكانت تبدو منهم من حين لآخر دلائل الروح العدائية للفرنسيين

فن ذلك أنهم كانوا يعارضون الأغا (محافظ المدينة^(١)) في بعض تصرفاته ، وكان معروفا عنه أنه نصير للفرنسيين ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « إن الأغا كان يريد أن يقتل في كل يوم أناسا بأدنى سبب ، فكان المهدي والصاوي يعارضانه ويتكلمان معه في الديوان ويوبخانه ويخوفانه سوء العاقبة ، وهو يرسل إلى ساري عسكر (بونابرت) فيطالعه بالأخبار ويشكو منهما »

(١) هو مصطفي أغا الذي عينه الفرنسيون بعد أن عزلوا المحافظ السابق محمد المسلماني الذي كان معينا بإشارة أعضاء الديوان ، انظر الجزء الأول ص ٣٠٢ (من الطبعة الأولى)

وقد اشتد الخلاف بين الديوان والأغا حتى اضطر قومندان المدينة الفرنسي إلى التدخل بينهما ، وآتهم الفرنسيون أعضاء الديوان بأنهم على اتصال بالجيش التركي ، ونقموا عليهم حالتهم النفسية

قال ريبو في هذا الصدد :

« في كل يوم كانت تقع حوادث تم عن تغير مسلك الديوان حيال السلطة الفرنسية ، فتارة كان يتعدى اختصاصه ويفتات على سلطة الهيئات الأخرى بحالة لا يمكن الصبر عليها ، وطوراً كان ينازع رؤساء الشرطة سلطتهم ويشدد الخلاف لإخلاء سبيل بعض الأهالي المدنيين ، وآونة كان ينقص الضرائب المفروضة على مشايخ البلاد ، وفي كل ظرف كانت تبدو على أعضائه روح جديدة مشربة بالعداء للفرنسيين ، وكان المسمو بوسليج يرقب بثاقب نظره هذه الأحوال ويطالع بها نابليون أثناء غيابه في معركة أبو قير ، فقد كتب إليه بتاريخ ٦ أغسطس سنة ١٧٩٩ يطمئنه عن الحالة في القاهرة ويقول إنه لا خوف من ثورة تكون بها ، لأن الرهبة تغشاها ، ولا يخشى إلا من وقوع هزيمة ، وكتب له عن مسلك كبار الأعيان وأعضاء الديوان فقال إنه راض عن سلوك السيد السادات ، وإن سلوك السيد عمر مكرم لا بأس به ، وإن السيد البكري متهيب وجليل ، والباقون «خونة ومنتصبون» ، وقال عن الشيخ محمد المهدي «إنه رجل يطمع في الشهرة والتزلف للجماهير ، وإنه يضحي بجميع الفرنسيين في سبيل الاحتفاظ بمزنته بين الناس ، ومع ذلك فإنه مثابر على مقابلتنا (١)»

وقد أورد الجبرتي في كتابه موقفاً للشيخ المهدي يتفق ورأى المسمو بوسليج عنه ، فقد كانت الخواطر في هياج أثناء غياب نابليون في أبو قير ، فاتهم سكان القاهرة بالعمل على إثارة الفتنة ، واستدعى القائم مقام دوجا الشيخ المهدي وتكلم في شأن ذلك ، فحاجبه المهدي وانعقد الديوان في اليوم التالي « فقام الشيخ المهدي خطيباً ، وتكلم كثيراً ، ونفى الريبة وكذب أقوال الخصوم واشتد في تبرئة المسلمين مما نسب إليهم »

قال الجبرتي : « وهذا المقام من مقاماته المحمودة ، ثم جمعوا مشايخ الأخطا والحارات وحبسوهم »

وهذا يدل على تخوف الفرنسيين من هياج الخواطر في العاصمة وتوقعهم حدوث الاضطرابات فيها ، ولولا ذلك لما لجأوا إلى اعتقال مشايخ الحارات والأخطا

تلك كانت حالة الأفكار في القاهرة أثناء غياب نابليون عنها إلى أن رجع إليها

(١) مراسلات بوسليج وبونابارت الواردة في ريبو الجزء السادس

رجوع نابليون إلى القاهرة

جاء نابليون إلى القاهرة ونزل بدار الألفي بك بالأزبكية، وكان في ركابه جماعة من أسرى الجيش التركي، ولما استقر به المقام علم من الميؤوس بوسليج تفصيل ما أجمله في رسائله من ظهور الروح العدائية على أعضاء الديوان والشعب، فاستدعى الأعضاء، واشتد عليهم في الكلام، وأنحى باللائمة على المهدي والصاوي خاصة لمعارضتهما محافظ المدينة في أحكامه، ذكر الجبرتي نص الحديث الذي دار بينهم قال: « ولما استقر ساري عسكر بونا برته في منزله ذهب للسلام عليه المشايخ والأعيان وسلّموا عليه، فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان إن ساري عسكر يقول لكم إنه لما سافر إلى الشام كانت حالتكم طيبة في غيابه، وأما في هذه المرة فليس كذلك، لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيين لا يرجعون بل يموتون عن آخرهم، فكنتم فرحين مستبشرين، وكنتم تعارضون (الأغا) في أحكامه، وأن المهدي والصاوي ما هم بونو^(١) أي ليسوا بطيبين ونحو ذلك، فلاطفوه حتى أنجلي خاطرهم، وأخذ يحدّثهم عما وقع له من القادمين إلى أبي قير والنصر عليهم وغير ذلك »

ولما استفاض خبر حضور نابليون إلى القاهرة ومجيء الأسرى الأتراك ذهبت الجماهير إلى الأزبكية ليتحققوا الخبر على جليته، فشاهدوا الأسرى وهم وقوف في وسط الميدان يستعرضهم الناس، ثم ساروا بهم في شوارع القاهرة ليؤثروا في نفسية الجماهير ويقنعوهم بفوز الفرنسيين في معركة أبوقير، ووزعوا هؤلاء الأسرى على أماكن عدة، فأسكنوا بعضهم جامع الظاهر (قلعة سلكوسكي)، وأصعدوا باقيهم إلى قلعة الجبل، أما مصطفى باشا قائد الجيش فانهم لم يأتوا به إلى مصر بل أرسلوه هو وابنه إلى الجيزة وأحسنوا معاملتهما، وكان نابليون يريد أن يتخذ مصطفى باشا وسيطاً للصلح بينه وبين تركيا، وأمر بإقامة الحفلات في القاهرة ابتهاجاً بالنصر الذي ناله، وعرض الجنود في شوارع العاصمة وميادينها، وكانت الطواهر تدل على أن سلطة الفرنسيين أصبحت راسخة ودولتهم باقية

(١) كذا في الجبرتي، وكلمة (بونو) مأخوذة من الكلمة الفرنسية bon أي طيب وقد فسرها الجبرتي

في سياق الكلام

الفصل الخامس

اضطراب الأحوال في فرنسا

ورحيل نابليون

لكن الظواهر ما لبثت أن تبددت ، وبدأ الجو يكفهر ، والسماء تتقلب بالغيوم ، والأنباء
رزد من كل صوب باضطراب الأحوال وتجدد الأحداث
إن نابليون قد فاز بسحق الجيش العثماني في معركة أبو قير ، لكن تركيا كانت تحشد
جيشاً آخر في سورية بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا ، وجاءت الأنباء بأن هذا الجيش
قد تم استعداده وأن الصدر الأعظم قادم بعدد عظيم من المقاتلة لفتح مصر من طريق برزخ
السويس ، فلم يكن انتصار الفرنسيين في معركة أبو قير سوى هدنة وقتية سنحت للجيش
الفرنسي ليستريح من عناء القتال وأهواله ، فأخذ نابليون يستعد لصد حملة العثمانيين القادمة ،
وتمت شواغل أخرى أقلقته باله وأفضت مضجعه ، ذلك أن الجيش الفرنسي كان ينتظر من يوم
لآخر أن تضع الحرب أوزارها أو يصله المدد من فرنسا ، وكانت هذه الفكرة تبعث الصبر
والأمل في نفوس الجنود ، وما فتى نابليون يحيي هذا الأمل في نفوسهم حتى لا يدع للكلال
والياس سييلا إلى قلوبهم ، لذلك كان في شكره للجنود بعد معركة (أبو قير) يقول لهم في
صراحة : « إن النصر الذي ناله الجيش سيمجل بعودته إلى فرنسا ، وها نحن أولاء قد وضعنا
في يد الحكومة الفرصة التي تمكنها من إجبار إنجلترا غم انتصاراتها البحرية على عقد صلح
شريف مع الجمهورية »

فنا بليون إذن كان يعتمد على أن الحوادث في أوروبا تهبي السبيل لصلح مشرف لفرنسا ،
وتضع حداً للحرب في مصر ، لكن الأنباء التي تلقاها بعد معركة أبو قير قد أخلفت ظنونه
وأوقعت في ارتباك كبير ، لقد تلقى هذه الأنباء عن طريق السير سدني سميث قومندان
الأسطول الانجليزي الذي جاء صحبة العمارة العثمانية ، ذلك أنه بعد انتهاء المعركة أرسل نابليون
اثنين من ضباطه لمقابلة السير سدني سميث في شأن تبادل بعض الأسرى ، فتلقاها السير
سدني سميث على ظهر بارجته الحربية « تايجر » (النمر) ، وناولها في أثناء المقابلة بعض نسخ من
الصحف الأوروبية الصادرة لنهاية يونيه من تلك السنة ، فلما تصفحها نابليون علم منها

أخبار انخزال الجيوش الفرنسية في النمسا وإيطاليا، وأدرك خطورة الحالة في فرنسا، وعلم أن لا سبيل إلى تلقي المدد لأن فرنسا نفسها كانت في خطر بسبب تألب الدول الأوروبية عليها، ولعل السير سدنى سميث تعمد إيصال هذه الصحف إلى نابليون وقواد الجيش الفرنسي ليقطع عليهم كل أمل في انتظار المدد

علم نابليون من مطالعة الصحف أن فرنسا قد تخرج مركزها وتضععت هيبتها في البلاد التي فتحتها من قبل، فشبت الثورة في البيمونت وفقدت أملاكها في المانيا وإيطاليا، واشتد السخط في فرنسا على حكومة الديركتوار، وألقى الشعب على عاتقها تبعه هذه الهزائم المتوالية، وأخذت إنجلترا تشن الغارة في البحار على أملاك فرنسا وتمد حلفاءها بالعون والمساعدة، فشددت الحصار على جزيرة (مالطة)، وحاصرت روسيا باتفاقها وتركيا جزيرة (كورفو)، وجلا عنها الفرنسيون، فكانت فرنسا مهددة من الخارج والداخل، كان الحلفاء يتوعدونها من الخارج، والاضطراب الداخلي يهدد كيائها من الداخل، تلك هي الحالة التي وقف نابليون على حقيقتها عقب انتصاره في معركة أبو قير

ولا جدال أن نابليون كان يعرف شيئاً من هذه الحالة إجمالاً من الرسائل التي كانت تصله بين حين وآخر من فرنسا، لكن مراقبة الأسطول الإنجليزي لشواطئ مصر كانت تحول دون وصول معظم رسائله إليه، إذ كانت السفن الإنجليزية تضبط كثيراً من الكتب المرسلة من فرنسا إلى مصر أو من مصر إلى فرنسا، ولم يكن يخفى على فطنة نابليون أن الحالة في فرنسا قد اضطرت أثناء غيابه، لكنه لم يكن واقعاً على كل تلك التفاصيل التي قرأها في الصحف أو عرفها من سكرتير السير سدنى سميث الذي قابل نابليون بالإسكندرية وعلم منه مبلغ ما وصلت إليه الأحوال في فرنسا من الاضطراب، وبالرغم من أنه كتم عنه ما في نفسه من القلق والشعور بخطورة الحال، إلا إنه أخذ يفكر ملياً في تدارك الخطر، فاستقر رأيه على وجوب الرحيل إلى فرنسا لإنقاذها من الأخطار التي تهددها

كانت هذه الأفكار تساوره بين حين وآخر، وما فتئ منذ عدة أشهر يصرح في رسائله إلى الديركتوار بأنه لا يتردد في العودة إلى فرنسا في حالة وقوع حرب أوروبية، فلما علم بحقيقة الموقف السياسي رأى الفرصة سانحة لتنفيذ فكرته القديمة، والواقع ان الظروف كانت تدعوه إلى الرجوع لفرنسا، فقد صارت الجمهورية في خطر، وأخذ نجمها الحربي الذي بالته بعد جهاد عدة سنوات في الأفول، ورأى نابليون أنها في حاجة إلى رجل يعيد إليها هيبتها ويرد إليها أملاكها التي فقدتها، ورأى من جهة أخرى أن إنقاذ فرنسا أهم بكثير من

توطيد سلطتها في مصر ، وأن مصير فرنسا هو على شاطئ الرين لا على ضفاف النيل ، وأن أوروبا هي الميدان الذي يبت فيه في مصير الجمهورية الفرنسية ، ورأى برغم انتصاره في أبو قير أن آماله الكبيرة في إنشاء دولة شرقية عظيمة قد تبددت يوم أخفقت حملته على سورية وأصبح محصوراً في مصر ، وأن الأحوال تقضى أن يتجه إلى الغرب ، بعد أن فشلت آماله في الشرق

وكانت الأفكار في فرنسا متجهة نحو نابليون ، ناظرةً إليه كمنقذ للبلاد من الأخطار المحدقة بها ، ورأت حكومة الديركتوار نفسها عاجزة عن تدارك الحال شاعرة بضعف مركزها أمام الرأي العام الفرنسي ، ففكرت في استدعاء نابليون ، وكتبت إليه بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٧٩٩ تستدعيه إلى فرنسا ، على أن الرسالة التي بعثت بها إليه لم تبلغه لأن الإنجليز صادروها في البحر ، فلم يكن لها بطبيعة الحال تأثير في اعتزامه السفر إلى فرنسا ، لكنها تدل في ذاتها على أن الأحوال كانت تؤيد فكرته ، وحسبك أن تتأمل عبارات الرسالة لتعرف مبلغ اضطراب الأحوال في فرنسا ، وإليك ما جاء فيها :

« إلى الجنرال بونابرت القائد العام لجيش الشرق

« إن الجهود الحارقة للعادة التي تبذلها النمسا والروسيا ، والحالة الحرجة الخطيرة التي وصلت إليها ، تستدعي أن تجمع الجمهورية قواتها الحربية ، لذلك أصدرت حكومة الديركتوار أوامرها للأدميرال بروي Bruix ليتخذ كل الوسائل التي في مقدوره لتكون له السيادة في البحر الأبيض المتوسط وليصل إلى مصر فيعود بالجيش الذي تحت قيادتكم ، وهو مكلف أن يتفق معكم على الوسائل الواجب اتخاذها لنقل الجيش ، ولكم أن تقدروا يا مواطننا الجنرال إذا كان مضموناً أن تركوا بمصر فيلقاً من الجنود ، وحكومة الديركتوار تصرح لكم في هذه الحالة بأن تكلوا قيادة هذا الفيلق لمن تختارونه من القواد ، ويسرها أن تراكم على رأس جيوش الجمهورية التي توليتم إلى الآن قيادتها بكل جدارة ونخار » ، وقد وقع على هذه الرسالة رؤساء حكومة الديركتوار

الاستعداد للرحيل

استقر إذن عزم نابليون وهو في الإسكندرية على الرحيل إلى فرنسا ، على أنه كتم عزمه حتى عن أقرب الناس إليه ، وأخذ يعد معدات الرحيل سراً ويصدر التعليمات ويرتب النظام الذي يتبع في غيابه دون أن يعلم أحد ممن صدرت إليهم أوامره بعزمه الذي أسره في نفسه

وجه نابليون عنايته إلى تحصين شواطئ مصر وبرزخ السويس لصعد المهجمات المنتظرة ، فكلف الجنرال (كليبر) العودة إلى دمياط ، والجنرال (رينييه) الرجوع إلى بليس ، وأمر بزيادة تحصين برزخ السويس ، وكلف الجنرال (سانسون) Sanson تمهيد أعمال التحصين وخاصة في قلعتي العريش والصالحية ، وزاد في تحصين الإسكندرية ، وأمر بترميم قلعة أبو قير التي خربتها المدافع أثناء المعركة

ولما عاد إلى القاهرة انتهر فرصة الأيام السبعة التي قضاها بها قبل رحيله ليصدر تعليماته بشأن تنظيم الإدارة العليا للبلاد والقيادة العامة للجيش ، ولم يكن خافياً أن القاهرة كانت مركزاً للإدارة العليا كما كانت مقرراً للقيادة العامة

ووجه نظره كذلك إلى الوجه القبلي ، فعين المواقع التي يجب التحصن فيها والحركات التي يقوم بها الجيش في حالة هجوم العثمانيين من جهة السويس أو على شواطئ البحر الأحمر ، وأوصى الجنرال (ديزيه) في هذه الحالة بإبقاء القوة الكافية في القصير لمقاومة نزول أى حملة عسكرية وإبقاء قوة أخرى في (قنا) للامتناع بها والتوجه بمعظم جيشه إلى القاهرة

وشرع نابليون منذ رجوعه إلى القاهرة يعد سراً معدات سفره دون أن يكشف أحداً حتى ولا الذين اختارهم ليرافقوه في رحلته ، وكان مُحققاً في تكتمه ، لأن البوارج الإنجليزية كانت تمخر عباب البحر ، فلو ذاع خبر سفره لاتخذ الأسطول الإنجليزي الاحتياطات الكافية لرصده ، ولوقع أسيراً في قبضة الإنجليز ، هذا فضلاً عن أن إعلان رحيله يحدث استياءً في نفوس الجنود وربما أدى إلى انتفاضهم وتمردهم فتتضعض هيبة الجيش وتتحرك روح الثورة في نفوس الشعب ، لذلك لم يبد عليه في الأيام التي قضاها في القاهرة ما يشير إلى اقتراب رحيله ، وصادف في هذه الفترة يوم المولد النبوي الشريف ١١ ربيع الأول سنة ١٢١٤ (١٣ أغسطس سنة ١٧٩٩) ، فاشترك في الاحتفال كما احتفل به في العام السابق ، وحضر الحفلة التي أقامها السيد خليل البكرى نقيب الأشراف يصحبه مصطفى باشا قائد الحملة العثمانية وباقي كبار الضباط الأتراك الذين أسروا في معركة أبو قير ، ولم يعلم أحد من سكان القاهرة بأنه بعد أيام معدودات راحل عن مصر رحيلاً نهائياً ، وأصدر أمراً عسكرياً في ١٦ أغسطس بتكليف القواد في المديرية إذاعة منشور باللغة العربية على البلاد والقرى لإبلاغ الشعب نبأ احتفاله بالمولد النبوي

قال الجبرتي عن هذا الاحتفال :

« وفي يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول سنة ١٢١٤ عمل المولد النبوي بالأزبكية ودعا

الشيخ خليل البكرى سارى عسكر الكبير (نابليون) مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده
وضربوا بركة (ميدان) الأركبية مدافع و عملوا حراقة وسوارخ و نادوا في ذلك اليوم بالزينة
وفتح الأسواق والدكاكين ليلا وإسراج قناديل واصطفاع مهرجان «

سفر نابليون من القاهرة

ارتحل نابليون عن القاهرة نهائياً يوم ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٩ ، وأشاع أنه يقصد
الذهاب إلى منوف بحجة التفتيش على أحوال البلاد

وفي ليلة سفره ترك رسالة باسم المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية ينبئها بأنه
مسافر غداً إلى منوف ويوصيه ببذل الجهد في تحصيل الأموال المتأخرة ويطلب منه أن
يكتب إليه في منوف ، كتب ذلك وهو يعلم أنه لن يصله شيء في منوف لأنه إنما اعترم
المضي إلى الإسكندرية ، لكنه أراد أن يبالغ في كتمان رحيله إلى فرنسا حتى عمن كانوا
موضع ثقته

وكتب رسالة إلى الديوان يقول فيها :

« إني مسافر غداً إلى منوف ، ومن هناك أذهب إلى بعض بلاد الدلتا لأتحقق بنفسى
المظالم التي يشكو منها الناس ، وأتعرّف حالة الأهالي والبلاد ، وإني أوصيكم بضبط الأمن
والمحافظة على طمأنينة الشعب ، قولوا لهم إني أحب المسلمين وأعمل على إسعادهم ، وعرفوهم
أني قادر على حكم الناس إما بالرضا وإما بالقوة ، فبالرضا أكسب الأصدقاء ، وبالقوة أسحق
الأعداء ، وأرجو أن تكتبوا لي دائماً عن أخباركم وأن تطلعوني على ما يجري »

وهكذا اتخذ نابليون كل الوسائل ليكتم عن الناس مشروع رحيله إلى فرنسا ،
واصطحب معه في سفره من القاهرة الجنرالات (برتنيه) و (لان) و (مورا) ،
و (اندريوسى) و (العالمين) (مويج) و (برتوليه) و (المسيو (فيفان دينون) و ٢٥٠ من حرس
القائد العام بقيادة قائد اللواء بسير^(١) Bessières

وتدل رواية الجبرتي على مبلغ تكتم نابليون مشروع سفره إلى فرنسا ، قال في
حوادث ربيع الأول سنة ١٢١٤ (أغسطس سنة ١٧٩٩)

« أشيع أن كبير الفرنسيين سافر إلى جهة بحرى ولم يعلم أحد أى جهة يريد ، وسئل
بعض أكابرهم فأخبر أن سارى عسكر المنوفية (الجنرال لانوس) دعاه لضيافته بمنوف حين

(١) هو الذى صار الدوق ديستري Duc d'Istrie في عهد امبراطورية نابليون

كان متوجهاً إلى ناحية أبو قير ووعده بالعودة إليه بعد وصوله إلى مصر ، وراج ذلك على الناس وظنوا صحته ، ولما كان يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول^(١) خرج مسافراً آخر الليل وخفي أمره على الناس »

عرض الصلح على تركيا

وقبل أن يغادر نابليون القاهرة عزم على مفاخرة تركيا في إنهاء حالة الحرب بينها وبين فرنسا وعقد الصلح ، واتخذ انتصاره في معركة أبو قير فرصة لطلب صلح مشرف ، وكان مصطفى باشا قائد الجيش العثماني الذي وقع أسيراً في هذه المعركة مقبياً في الجيزة ، يعامل معاملة احترام ، فكلفه نابليون أن يبلغ الصدر الأعظم رسالة مطولة يعرض فيها الصلح على تركيا ، فأرسلها مصطفى باشا صحبة محمد رشيد افندي أحد كتّاب الديوان الهايوني الذي كان أسيراً معه ، وهذه الرسالة مؤرخة ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٩ ، أعرب فيها نابليون عن مقاصد فرنسا الودية نحو تركيا ، وذكر الصدر الأعظم بصداقة فرنسا القديمة للباب العالي وعداء روسيا والنمسا لتركيا وسعيهما المتواصل من قديم الزمن في القضاء على السلطنة العثمانية ، وأوضح أن فرنسا باحتلالها مصر لم تكن ترمي إلى نيات عدائية نحو تركيا ، وأنها إنما كانت تحارب المماليك ولم تكن تقصد إلى فصل مصر عن تركيا ، وكانت غايتها السياسية من الحملة محاربة إنجلترا في الهند وأنها كانت من بدء الحملة تحترم حقوق السلطان ورعاياه وسفنه وأعلامه ، وأبدى نابليون أسفه من تعجل تركيا في إعلان الحرب على فرنسا في الوقت الذي أرسلت فيه حكومة الديركتوار سفيرها ديكورش^(٢) Descorches إلى الاستئانة لتسوية كل خلاف بين البلدين ، ولم يفت بونا بارت في رسالته أن يشير إلى قوته الحربية وأنه قادر على صد كل هجوم على مصر ولكنه يؤثر الإبقاء على الصداقة التي تربط فرنسا وتركيا من قديم الزمن ، وعرض الصلح على الباب العالي ، وطلب في رسالته من الصدر الأعظم أن يفوض لسفيره في باريس المفاوضة في قواعد الصلح أو يوفد مندوباً إلى مصر لهذا الغرض ، ثم سافر نابليون دون أن ينتظر نتيجة هذا السعي في الصلح ، وقد أرسل كذلك من قبل إلى بعض الملوك والأمراء الشرقيين كسلطان مرا كش

(١) يوافق ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٩ وهذا يطابق ما ذكرته المراجع الفرنسية

(٢) كان السكرتير (روفين) هو القائم بأعمال السفارة الفرنسية بالاستئانة من عهد وفاة سفيرها الجنرال دوباييه Dubayet ، ثم عينت الحكومة الفرنسية السفير ديكورش في سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وهو الذي يشير إليه نابليون في رسالته إلى الصدر الأعظم ، وكان على أهبة السفر للاستئانة ، لكن تركيا أعلنت الحرب على فرنسا فعدل عن السفر

وحاكم طرابلس وشريف مكة وأمراء دارفور وسنار والحبشة رسائل ودية تتضمن الدعوة إلى توطيد علاقات المودة معهم

من القاهرة إلى الإسكندرية

وصل نابليون إلى منوف في طريقه إلى الإسكندرية ، فتلقي رسالة من الجنرال (كليبير) ينبئته فيها بأن أربعا وعشرين سفينة عثمانية ظهرت بالقرب من دمياط وأنه يتوقع نزول الجنود التركية إلى البر ، فتردد نابليون أمام هذا النبأ في أى الطرق يسلكه ، ولكنه بعد أن فكر ملياً اعتقد أن هذه السفن لا بد أن تكون جزءاً من العمارة العثمانية التي كانت تقل جنود مصطفى باشا في أبو قير ، وأنها تقل الجنود الذين نجوا من المعركة ، فلم يحسب لهم حساباً ولم يتوجس من جانبهم خطراً ، وقد كان حسابه صحيحاً ، وكتب إلى الجنرال كليبير يدعوه إلى موافاته في رشيد ، وحدد له يوم ٢٤ أغسطس للمقابلة وقال له في الرسالة : « إن لدى مسائل غاية في الأهمية يجب أن أبحثك فيها »

والواقع ان نابليون كان قد استقر رأيه على اختيار كليبير ليخلفه في قيادة الجيش ، وكان يريد الاجتماع به قبل إقلاعه إلى فرنسا ليفضى إليه بأرائه ويصدر إليه تعليماته ، لكن الظروف حالت دون هذا الاجتماع ، وذلك أن نابليون تلقى رسالة مستعجلة من الكونت اميرال جانتوم (١) منذ ١٢ أغسطس من ميه الاسكندرية ، وأن السفن الكشافة الفرنسية قد تجولت في البحر فلم تر أثراً لسفن الإنجليز والأتراك على بعد عدة أميال ، فأدرك نابليون في الحال أن مثل هذه الفرصة قد لا تسنح في المستقبل القريب ، وأنه إن تأخر عن السفر فقد تعود السفن الإنجليزية إلى شواطئ الاسكندرية ، فتشدد الحصار عليها ، ورأى ضرورة الإسراع بالسفر للاسكندرية ليركب البحر في أقرب فرصة ، فاضطر في هذه الحال إلى العدول عن مقابلة الجنرال كليبير في الموعد الذي حدده له وسار توجاً إلى الاسكندرية ولم يدخلها حتى لايلفت إلى سفره الأظفار بل نزل بالمكان الذي كان معروفاً بقصر القياصرة (٢) على شاطئ البحر ، وقضى الوقت في انتظار السفن ، وهناك وافاه الجنرال (منو) ليفضى إليه بتعليماته الأخيرة ، فأخبره بعزمه على السفر إلى فرنسا ، وذكر له الأسباب التي دعت به إلى ذلك ، وأنه عين الجنرال

(١) هو رئيس أركان حرب العمارة الفرنسية وقد عهد إليه نابليون بقيادة البقية الباقية منها بعد معركة أبو قير البحرية (مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٦٢٤)
(٢) موضعه الآن بين سيدى جابر ومحطة مصطفى باشا برملا الاسكندرية

كليبير ليخلفه في قيادة جيش الشرق ، وسامه عدة رسائل ، منها رسالة للديوان ، وأخرى إلى الجنود ، والثالثة وهي الأهم للجنرال كليبير ، وثلاث رسائل للجنرال دوجا والمسيو بوسليج والجنرال جونو

رسالة نابليون إلى الديوان

ذكر الجبرتي مضمون هذه الرسالة بقوله :

« في ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢١٤ ورد من بونا بارتة سارى عسكرالفرنساوية كتاب من الاسكندرية خطابا لأهل مصر وسكانها ، فأحضر قائممقام (دوجا) الرؤساء المصريين وقرأ عليهم الكتاب ، ومضمونه أنه سافر يوم الجمعة حادى عشرين الشهر المذكور إلى بلاد فرنساوية لأجل راحة أهل مصر وتسليك البحر ، فيغيب نحو ثلاثة أشهر ويقدم مع عساكره ، فإنه بلغه خروج عمارتهم ليصفو له ملك مصر ويقطع دابر المفسدين ، وأن المولى على أهل مصر وعلى رياسة فرنساوية جميعاً كليبير سارى عسكرالدمياط »

قال الجبرتي : « فتحير الناس وتعجبوا في كيفية سفره ونزوله البحر مع وجود مرآكب الانجليز ووقوفهم بالثغر ورصدهم فرنساوية من وقت قدومهم الديار المصرية صيفاً وشتاء ، ولكيفية خلاصه وذهابه أبناء وحيل لم أقف على حقيقتها »

وقد رجعنا إلى المصادر الفرنسية ، فوجدنا رسالة نابليون إلى الديوان بنصها الفرنسى تتفق في معناها مع الخلاصة التى نشرها الجبرتي ، وقد آثرنا نقل خلاصة الجبرتي لأنها هى التى تليت في الديوان دون الأصل الفرنسى ولأنها لا تختلف عنه في مجموعها ، والرسالة كما ترى كلها تضليل وإنكار للحقائق ، فلا عمارة تنتظره ، ولا هو ذاهب لفرنسا لأجل راحة أهل مصر ، ولا هو قادم مع عساكره ، ولا هو عازم على العودة إلى الديار المصرية

رسالته إلى الجيش

أما رسالته إلى الجيش فهذا تعريبها :

« العسكر العام بالإسكندرية في ٥ فركتيدور من السنة السابعة للجمهورية (٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩)

« أيها الجنود ، إن الأخبار الواردة من أوروبا تحتم على السفر لفرنسا ، وقد تركت قيادة الجيش للجنرال كليبير ، وسيتلقى الجيش قريباً أخبارى ، ولا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك ،

يمز على أن أفارق الجنود الذين ارتبطت بهم بأوثق الروابط ، لكن هذا الفراق ليس إلا وقتيا ، والقائد الذي تركته لهم حائزا لتمام ثقة الحكومة وثقتي بونا بارت (١) »

رسالته إلى الجنرال كليبر

عن الحالة في مصر

أما رسالته إلى الجنرال كليبر ، فهي وثيقة على جانب عظيم من الأهمية ، كتبها بإمعان وتفكير ، وصف فيها حالة مصر السياسية وصفا دقيقا ، وشرح فيها الخطه التي عهد إلى كليبر باتباعها ، وهي رسالة مطولة (٢) أشبهه بتقرير واف ، لذلك رأينا أن نعرّبها مع شيء من الشرح والبيان

ذكر في مقدمة الرسالة أنه ترك للجنرال كليبر أمرا بإسناد القيادة العامة إليه ، وأنه عجل بالسفر بحرا قبل الموعد الذي كان حدده لمقابلته بيومين أو ثلاثة تفاديا من عودة السفن الإنجليزية إلى الشواطئ ، قبل سفره ، وأنه اصطحب معه القواد (برتبيه) و (لان) و (مورا) و (اندريوسى) و (مارمون) و العالمين (مونج) و (برتوليه) وترك له مجموعة الصحف الأوروبية التي تتضمن ما حل بفرنسا من الأحداث والنكبات ، كضياع إيطاليا وحصار (مانتو) و (تورينو) و (وتورتون) (٣) ، وأن هذه الأسباب قد دعت إلى الرحيل إلى أوروبا ، وأنه يأمل أن تستمر مانتو على المقاومة لغاية نوفمبر وأن يصل هو إلى أوروبا قبل أول أكتوبر ، وترك له بيانا بالشفرة ليراسل الحكومة ، وبيانا آخر لمراسلته ، وعهد إليه أن يكلف الجنرال (ديزيه) بالسفر إلى فرنسا في شهر نوفمبر ما لم تحل دون سفره موانع قهرية ، وأن يسهل على أعضاء لجنة العلوم والفنون الرحيل بعد أن يتموا مهمتهم التي يؤدونها في الصعيد وهي التنقيب عن الآثار القديمة ، وأن يستبق منهم من يرى ضرورة الانتفاع بهم ، وكلفه أن يوفد الأندى (٤) الذي أسر في واقعة أبو قير رسالته التي كتبها إلى الصدر الأعظم في عرض الصلح على تركيا

وأراد نابليون أن يبعث في نفس كليبر الأمل في إمكان وصول المدد إليه ، فقال في رسالته إن وصول الأسطول الفرنسي من ميناء (برست) الواقعة على الاقياونوس الأعظم إلى طولون

(١) مراسلات نابليون وثيقة رقم ٤٣٨٠

(٢) واردة في مراسلات نابليون وثيقة رقم ٤٣٧٤

(٣) من المدن الإيطالية

(٤) يريد رشيد افندى أحد كتاب الديوان الهيايوني الذي أسر مع مصطفى باشا في واقعة أبو قير البرية

(بالبحر الأبيض المتوسط) ووصول أسطول اسبانيا حليفة فرنسا في ذلك الحين إلى قرطاجنة ، كل ذلك لا يدع شكاً في إمكان إرسال الذخائر والمدد من فرنسا إلى مصر بطريق البحر ، ووعده بأن تبغله الحكومة مقاصدها وأن يمده هو بالرسائل والأخبار

رأى نابليون في الجلاء عن مصر

على أن نابليون كان مدركاً حرج موقف الجنرال كليبر ، فأجاز له في رسالته بأن يتفاوض مع تركيا في عقد الصلح ، وأوضح آراءه عن موقف مصر السياسي وموقف فرنسا حيالها ، قال : فإذا حالت ظروف قهرية دون إمدادكم ، وحل شهر مايو المقبل (سنة ١٨٠٠) دون أن تتلقوا المدد من فرنسا أو يصلكم نياً منها ، واستمر الطاعون هذا العام يفتك بالجنود رغم الاحتميات الصحية وزادت ضحاياه عن ١٥٠٠ جندي ، فعليك في هذه الحالة ألا تنفصم بالجيش في الحرب والقتال ، ولك أن تعقد الصلح مع تركيا ولو كان شرطه الأساسي الجلاء عن مصر ، ولكن في هذه الحالة يجب بقدر المستطاع تأجيل تنفيذ هذا الشرط إلى أن يعقد الصلح العام ، إنك تقدر مثلي أهمية امتلاك فرنسا للديار المصرية ، وتعلم أن السلطنة العثمانية التي يهددها الفناء من كل جانب قد أخذت تنهار دعائمها وتفكك أوصالها ، فجلأؤنا عن مصر يكون نكبة ، وسندرك عظم هذه النكبة عندما نرى هذه البلاد الجميلة تحتلها دولة أوروبية أخرى ، ولا بد أن يدخل في حسابك أثناء مفاوضات الصلح أبناء انتصارات الجمهورية في ميادين القتال أو هزائمها ، فإذا لبي الباب العالي دعوة الصلح التي وجهتها إليه ودخلتم في مفاوضات الصلح قبل أن تأتيكم أبناء فرنسا فعليكم أن تصرحوا بأن لديكم السلطة التي كانت لي في إجراء المفاوضات وأن تؤيدوا وجهة النظر التي أبديتها في دعوة الصلح وأن فرنسا لم تكن تقصد في أي وقت انتزاع مصر من السلطنة العثمانية ، وعليكم أن تطلبوا من تركيا أن تخرج من التحالف الإنجليزي وأن تجمل لنا حرية الملاحة والتجارة في البحر الأسود وتطلق سراح الفرنسيين المسجونين في بلادها وأن تعقد هدنة ستة أشهر يوقف فيها القتال ويجري فيها تبادل التصديق على معاهدة الصلح ، وإذا رأيتم أن الظروف تقضي بإبرام تلك المعاهدة مع الباب العالي فعليكم أن تبرهنوا أن ليس في مقدوركم تنفيذ المعاهدة قبل التصديق عليها ، وأنه يجب عقد هدنة بعد إمضاء المعاهدة ريثما يتم التصديق عليها »

رأيه في حالة مصر الداخلية

ثم تكلم نابليون عن حالة مصر الداخلية ومعالجة الشعب المصري ، فنصح كليبر بأن يستميل إليه العلماء . قال في هذا الصدد :

« إن من يكسب ثقة كبار المشايخ في القاهرة يضمن ثقة الشعب المصري ، وليس بين رؤساء هذا الشعب من هم أقل خطراً من مشايخه ، لأنهم قوم هيابون لم يألفوا خوض غمار القتال ، على أنهم رض للتعصب ولو أنهم ليسوا متعصبين ، فهم من هذه الوجهة يشبهون القسس »

حصون مصر

ونوه في رسالته باستحكامات مصر وقال عن مواقع الإسكندرية والعريش إنها مفاتيح البلاد المصرية وإنه كان عازماً على أن يقيم في الشتاء المقبل استحكامات وخطوطاً محصنة من جذوع النخيل بحيث يكون بين الصالحية وقطية خطان من الاستحكامات ، وبين قطية والعريش خطان آخران ، وأوصى الجنرال كليبر بالاعتماد على الجنرال (سانسون) قائد فرقة الهندسة والجنرال (سونجي) قومندان المدفعية في إقامة الاستحكامات والأعمال الداخلة في اختصاص كل منهما ، وأوصاه ببناء حصن في البرلس لأن البوارج الإنجليزية لا يفوتها أن تقترب من شواطئ الإسكندرية والبرلس ودمياط

الإدارة المالية ومشروعات أخرى

وأوصاه بالاعتماد على المسيو بوسليج في إدارة الشؤون المالية وقال عنه : « إنى عرفت فيه رجل عمل وكفاية جيداً بأن يقدر قدره وقد بدأ يعرف حقائق الأمور في فوضى الإدارة المصرية »

ونصحه بالتريث والاناة في إصلاح نظام الضرائب وتحصيلها في مصر ، وتعرض في رسالته إلى مشروعات استعمارية ومسائل ثانوية لم يفته التفكير فيها في تلك الأوقات العصبية ، فأوصاه باعتقال خمسمائة أو ستائة من المالك أو من رهائن العرب ومشايخ البلاد (العمد) وإرسالهم إلى فرنسا في حالة استئناف المواصلات البحرية ليقوا بها سنة أو سنتين ، وغاية نابليون من ذلك « أن يروا عظمة الأمة الفرنسية و يقتبسوا عاداتنا وأخلاقنا وأفكارنا ولغتنا ويعودوا إلى مصر فينشروا هذه المقتبسات بين مواطنهم »

ثم وعد الجنرال كليبر بأن يرسل له فرقة من الممثلين كان قد أوصى عليها من قبل « لتسد حاجة الجيش وتلأف البلاد شيئاً جديداً من العادات الغربية »

ختم الرسالة

وختم رسالته بكلمات مؤثرة أراد أن يكسب بها قلب الجنرال كليبر ويرغبه في المهمة التي ألقاها على عاتقه ، قال :

« إن المركز الرئيسى الكبير الذى ستشغله سيتيح لك أن تستخدم مواهبك التى حَبَّتْك بها الطبيعة ، فان ما يقع فى مصر سيكون له نتائج عظيمة المدى فى تقدم التجارة وارتقاء المدينة والحضارة ، وسيكون هذا العصر مصدراً للانقلابات الكبيرة ، أما أنا فإنى أغادر مصر والأسف يملأ قلبى ، على أنى ما تعودت أن أنتظر الجزاء الأوفى على متاعبى وجهودى فى الحياة إلا فى حكم الأجيال المقبلة ، وإن مصلحة الوطن ، ومجده ، وواجب الطاعة لندائه ، والحوادث المحزنة التى وقعت أخيراً ، كل ذلك يلجئنى إلى أن أغامر بنفسى وسط أساطيل الأعداء لأصل إلى أوروبا ، على أنى سأكون معك بقلبي وفكرى ، وستكون انتصاراتك عزيزة فى نفسى أبتهج بها كما لو كانت لى ، وسأعد من أيام النحس كل يوم لا أعمل فيه شيئاً لمصلحة الجيش الذى تركت لك قيادته ولا أبذل فيه جهداً لتوطيد البناء الذى أقيمت قواعده

« إن الجيش الذى عهدت إليك بقيادته مؤلف كله من جنود هم أبناء لى ، وقد شعرت فى كل لحظة حتى فى أوقات الحزن بدلائل تعلقهم بى ، فلتدم هذه العواطف لك ، ولتعمل على توكيدها ، فهذا واجبك حيال ما لك فى نفسى من المحبة والاحترام وما بينى وبينهم^(١) من الروابط التى لا انفصام لها « بوناپارت »

بهذه العبارات الرقيقة ختم نابليون رسالته إلى كليبر ، ثم أردف هذه الرسالة بأمر عسكري واجب الطاعة هذا نصه :

« أمر إلى الجنرال كليبر بأن يتولى القيادة العامة لجيش الشرق بناء على استدعاء الحكومة إياى لأكون بجانبها « بوناپارت »

أما رسائل نابليون إلى الجنرال دوجا والمسيو بوسليج والجنرال جونو فلا تخرج عن إنباؤهم بسفره واستخلافه الجنرال كليبر فى قيادة الجيش سلم نابليون هذه الرسائل إلى الجنرال (منو) وكلفه توصيل كل رسالة إلى من كتبت

(١) قوله (وبينهم) يطابق الأصل الفرنسى الوارد فى مراسلات نابليون . أما الصيغة الواردة فى كتاب (ريبو) الجزء السادس فقيها (وبينك) أى أن الخطاب هنا لكليبر ، ولكننا اعتمدنا الأصل الوارد فى مراسلات نابليون لأنه أحق بالثقة

له ، على أنه أوصاه بالألا يذبح أمر سفره ولا يبعث برساته إلى الديوان إلا بعد ثمان وأربعين ساعة من إقلاع السفن المقلّة له ولرفاقه ، وعين الجنرال (منو) قومنداناً للاسكندرية ورشيد والبحيرة

إقلاع السفن

كانت السفن المعدة لسفر نابليون ورفاقه على أهبة الإقلاع ، ففي ٢٢ أغسطس في منتصف الساعة العاشرة ليلا ركب نابليون السفينة لامويرون La Muiron التي كانت راسية بالقرب من برج السلسلة بطرف الميناء الشرقية وتولى قيادتها الكونتر اميرال جانتوم وأبحرت السفن الأربع^(١) قاصدة شواطئ فرنسا ، وكان رفاق نابليون في تلك الرحلة هم بورين Bourienne سكرتيره الخاص ، ومن القواد برتبيه Berthier رئيس أركان حربه وأندريوسى Andreossi ومورا Murat ولان Lanne ومارمون Marmont وهم صفوة المخلصين له ومن أعضاء المجمع العلمى موجج Monge وبرتوليه Berthollet ودينون Denon وبرسيغال دى جرانميزون ، ومن الياوران لافاليت Lavalette وديروك Duroc وبوهارنيه Beauharnais (صهره) ومرلين Merlin ولويليه L'Huilier ومونتيسى Montessy وظلت السفن تمخر عباب البحر الأبيض والمخاوف تكتنفها مدة ثمانية وأربعين يوماً إلى أن رست في خليج فريجوس Frejus جنوبي فرنسا يوم ٩ أكتوبر سنة ١٧٩٩^(٢) ، فنزل إلى البر الرجل العظيم الذى كانت تنتظره فرنسا لتسلم إليه مقاليدها

الاحتفال بوفاء النيل

بعد سفر نابليون

وجرى الاحتفال بوفاء النيل في تلك السنة (أغسطس سنة ١٧٩٩ - ربيع الأول سنة ١٢١٤) بعد سفر نابليون كالمعتاد ، ورأس الاحتفال الجنرال دوجا ، ولم يلحظ أحد غياب نابليون لأن دوجا كان معروفاً بأنه « القاءمقام » ، وكتب الشيخ أحمد العريشى قاضى قضاة مصر حجة الوفاء ، وقد ترجم علماء الحملة الفرنسية هذه الوثيقة إلى لغتهم ونشرت في كتاب تخطيط مصر^(٣) Description de L-Egypte ، وهى لا تخرج عن حجة وفاء النيل

(١) سفينتان حربيتان من نوع الفرقاطة وسفينتان كشافتان

(٢) اعتمدنا في هذا التاريخ على ماورد في مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة ٤٣٨٣ فقد ورد

فيها أن رسو السفن يوم (١٧ فاندميمير) من السنة الثامنة وهذا يوافق ٩ أكتوبر سنة ١٧٩٩

(٣) الجزء الخامس عشر

التي تحرر كل سنة إلى اليوم ، وقد تضمنت بيان أسماء العلماء والأعيان الذين جرى الاحتفال بحضورهم ، وإليك أسماءهم بترتيب ذكركم في الحجة : الشيخ أحمد العريشى قاضى قضاة مصر ، السيد خليل البكرى الصديق ، الشيخ عبد الله الشرفاوى ، الشيخ محمد الحفناوى^(١) الشهر بالمهدى ، الشيخ مصطفى الصاوى ، الأمير مصطفى أغا عبد الرحمن أغا الانكشارية (محافظ القاهرة) ، الحاج أحمد العقاد الشهر بالحرقى كبير التجار ، الأمير حسن أغا المحتسب ، الأمير على أغا الشعراوى والى الشرطة ، الأمير يوسف شوربجى باشجاويش التفكجية ، الأمير يوسف شوربجى باشجاويش المهجانة ، الأمير مصطفى أغا باش اختيار و جاق المتفرقة^(٢) ، الأمير مصطفى أفندى عاصى كاتب أول و جاق المتفرقة ، الأمير إبراهيم نخيا عزبان ، إسماعيل أفندى كاتب الأحوال

وأضافت الحجة إلى من ذكرتهم بالاسم « وبحضور جمهور كبير عدا هؤلاء من الاعيان ذوى المسكنة والاعتبار ممن لا يتسع المقام لذكركم »

وذكر في الحجة أن الاحتفال جرى بحضور الجنرال دوجا قائممقام القاهرة ، وإليك خلاصة ما ذكره الجبرتى في هذا الصدد :

« وفي يوم الاثنين رابع عشرينه^(٣) الموافق لتاسع مسرى القبطى كان وفاء النيل المبارك فنودى بوفائه على العادة . . . وأكثر الفرنسيين في تلك الليلة وصباحها من رى المدافع والسوارىخ من المراكب والسواحل وباتوا يضربون أنواع الطبول والزماير ، وفي الصباح ركب دوجا قائممقام ومحبيته أكابر الفرنسيين وأكابر أهل مصر ، وحضروا إلى قصر السد وجلسوا به واصطفت العساكر بين الروضة وبر مصر القديمة بأسلحتهم وطبولهم وبعضهم في المراكب لضرب المدافع المتتالية إلى أن انكسر السد وجرى الماء في الخليج فانصرفوا » والتاريخ الذى أورده الجبرتى عن وفاء النيل يختلف عن كتاب تخطيط مصر ، فالجبرتى يقول إن وفاء النيل كان يوم الاثنين ٢٤ ربيع الأول الموافق ٩ مسرى ، لكن حجة الوفاء المترجمة في كتاب تخطيط مصر تتضمن أنه يوم الجمعة ٢١ ربيع الأول الموافق ١٩ أمشير ، ويلوح لنا أن رواية الجبرتى أحق بالثقة ، فقد رجعنا إلى كتاب (التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنجية والقبطية) لمؤلفه اللواء المصرى محمد مختار باشا فوجدناه قد أثبت أن وفاء النيل سنة ١٢١٤ هجرية كان يوم ٩ مسرى ، وهذا يؤيد رواية الجبرتى ، وأغلب الظن أنه وقع تحريف في ترجمة حجة الوفاء الواردة بكتاب تخطيط مصر

(١) كذا في كتاب تخطيط مصر ، والصواب الحفنى

(٢) باش اختيار هو أقدم ضباط الوجدان (الفرقة) انظر الجزء الأول ص ١٣ من الطبعة الأولى

(٣) ربيع الأول سنة ١٢١٤ الموافق ٢٦ أغسطس سنة ١٧٩٩

الفصل السادس

قيادة الجنرال كليبر

إن الرجل الذي أقيمت إليه مقاليد القيادة العامة لجيش فرنسا في مصر واحتمل تبعه مواجهة الشعب المصري ومعالجة الحالة السياسية والحربية في البلاد ، هذا الرجل جدير بأن نذكر شيئاً عنه وعن شخصيته

شخصية كليبر

ولد الجنرال كليبر في مدينة (ستراسبورج) عاصمة الألزاس سنة ١٧٥٣ ، فهو الزاسي المولد والنشأة ، ظهرت مواهبه الحربية في حروب الثورة الفرنسية وخاصة في ميادين القتال في (شامبانيا) و (الفانديه) وفي معارك (شارلروا) و (فلوروس) و (مايستريك) وغيرها ، وهو معدود من خيرة قواد الجيش الفرنسي وأكفهم ، وله في نفوس الجنود والضباط وقواد الجيش منزلة كبيرة لما اتصف به من الصراحة والشجاعة والإقدام ، إلى ما امتاز به من النزاهة وعلو النفس ، وكان من خاصة أصدقاء نابليون الذي كان يقدر فيه صفاته العسكرية العالية ، وقد اجتمعا في ميادين القتال فارتبطا بأوثق صلات المودة ، وهبطا مصر صديقين حميمين ، غير أن علاقتهما قد اعترها في عهد من الزمن شيء من الفتور والجفاء ، ويرجع ذلك إلى ما اتصف به كليبر من الأنفة والشمم ، فكان من بين قواد الحملة الفرنسية القائد الوحيد الذي عارض نابليون في بعض أفكاره ومواقفه ، ولم يكتم معارضته بل صارع بها قواد الجيش وضباطه

الجفاء بين كليبر ونابليون

ظهرت هذه المعارضة حينما كان كليبر قومنداناً للاسكندرية ، فكان يعترض على بعض أوامر نابليون ، مما أدى إلى حنقه واستيائه ، وتبادل القائدان رسائل في العتاب تجلت فيها نفس كليبر العالمية التي لا تحتل الضيم ولا تقيم على الذل ، فهو كما قدمنا^(١) لم ير فائدة في إنفاق المال على إحياء البحرية الفرنسية بعد أن اندثرت في واقعة «أبو قير» ، وكان يعتقد أن موارد

(١) انظر الجزء الأول ص ٢٤١ من الطبعة الأولى

الجيش محدودة وحاجاته كثيرة ومهما أنفق من المال على البحرية فهو عبث ضائع لأن السفن الباقية من العمارة الفرنسية لا يمكن مهما زادت قوتها أن تثبت أمام الأسطول الإنجليزي ، وكان (قبل أن يتولى القيادة العامة) يكره الالتجاء إلى فرض الغرامات والقروض الإجبارية في تدبير المال ، فحدث أن نابليون أرسل مائة ألف فرنك إلى الإسكندرية لينفق منها القوميسير (لروا) مدير مهمات الأسطول على إصلاح البحرية ، لكن الجنرال كليبر دفع منها رواتب الجنود وعطاءهم المتأخر ، وأرسل بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ إلى نابليون يمتنر إليه بأن الضرورة الملجئة اضطرته إلى هذا التصرف لأن خزانة الجيش كانت خالية من المال ، ولأنه ليس من حسن السياسة الالتجاء إلى فرض الغرامات أو القروض الإجبارية

فأرسل له نابليون (بتاريخ أول سبتمبر سنة ١٧٩٨) خطابا شديدا للهجة يعنفه فيه على تصرفه في المائة ألف فرنك ، وطلب إليه أن يرد لفقوره المبلغ إلى مدير المهمات لينفقه في إصلاح البحرية ، وألا يخالف الأوامر التي يصدرها ، لأن لها أسباباً فوق معرفته وإحاطته ، ولم يكتب نابليون بذلك بل رماه بأنه ينفق على القوة الحربية في الإسكندرية ضعف ما ينفق على قوات الجيش في المدن الأخرى ، وأن نفقات المستشفى العسكري بالشر تزيد عن نفقات جميع المستشفيات ، يريد نابليون التعريض بنزاهة كليبر ، فلم يطق هذا صبراً ولم يقر على هذه الإهانة ورد عليه برسالة يستعفيه بها من منصبه ، ويقول فيها :

« لقد كنت أتوقع ألا تقروا تصرفي في مبلغ المائة ألف فرنك لأسد حاجات الجيش ، مع أن الضرورة الملجئة يمكن أن تبرر عملي ، على إني ما كنت أتوقع أن أستهدف للوم في إدارة أموال الجيش ، فإذا كان صحيحاً أن الإسكندرية قد كلفت الخزانة ضعف ما تتكلفه المواقع الأخرى ، وبصرف النظر عن أن هناك غرامات فرضت في جهات أخرى ولم تفرض في الإسكندرية وأن جزءاً من نفقات الإسكندرية دفع لقسم الهندسة والمدفعية والبحرية ، فعنى ذلك أني متهم بتبديد أموال الجيش ، لذلك أبادر بطلب إجراء تحقيق عن تصرفاتي

« إنك نسيت يا مواطني الجنرال عند ما كتبت خطابك أنك تمسك في يدك زمام التاريخ ، وأنت تكتب إلى كليبر ! على أني أستبعد أن يكون من قصدك السوء بسمعتي ، فليس من أحد يصدقك في ظنني بي ، وإني منتظر يا مواطني الجنرال في رجوع البريد أمراً منك يوقفي عن العمل لا في الإسكندرية فقط بل في الجيش أيضاً حتى يتبين لك حقيقة ما يجري وما جرى هنا ، لأنني لم أهبط مصر طمعاً في الثروة ، فلقد عرفت إلى الآن كيف أحترق المال ، ولا أقبل أن تحوم حولي أية ريبة »

وصلت هذه الرسالة إلى نابليون ، فتأثر من لهجة كليبر الدالة على التبرم والألم ، فكتب إليه يسترضيه بقوله :

« تلقيت الساعة يامواطني الجنرال رسائلك القيمة ١٩ و ٢٠ و ٢١^(١) ، ولقد عزّ على أنك أولت خطابي المؤرخ ١٥ إلى غير المعنى الذى يؤديه ، وإذا كنت ممسكا بيدي زمام التاريخ فأنت أولى الناس بالأىضيره ذلك »

على أن كليبر لم يتقع بهذا الخطاب ، وألح فى إقالته من منصبه ، واعتذر بضعف صحته ، وأن الجرح الذى أصابه فى فتح الإسكندرية يحول دون بقاءه ، ثم طلب أن يؤذن له بالعودة إلى فرنسا ، ، ولما بلغ الجفاء هذا الحد دخل الجنرال (كافريللى) بين القائدين لاستلال هذه الضعيفة ، وإزالة سوء التفاهم ، وكان نابليون يقدر صفات كليبر ومواهبه ويرى أنه فى حاجة إلى كفاءته ، فكتب إليه بتاريخ ٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ يسترضيه بالخطاب الآتى :

« مواطني الجنرال ، أخبرنى الجنرال كافريللى برغبتكم ، ويسوءنى كثيراً أن حالتك الصحية قد ألم بها الانحراف ، على أنى أرجو أن يكون فى هواء النيل ما يعيدها إليك على ما كانت ، وانك إذا تحولت عن رمال الإسكندرية فستجد مصرنا (تأمل !) أقل رداءة مما كنا نظنه من قبل ، تقبل منى تمنياتى لك بالشفاء العاجل ، وتأكد من تقديرى وصدقتى لك ، إنى لأخشى أن يكون قد وقع جفاء بيننا ، وانك لتظلمنى إذا شككت فى مبلغ تألمى من وقوع هذا الجفاء ، يقولون إن السحاب إذا تراكم فى سماء مصر لا يلبث أن يتقشع فى ست ساعات ، أما من جهتي فإذا نشأ سحاب يعكر من علاقتنا فإنه يتقشع فى ثلاث ، ان تقديرى لك يعادل على الأقل ما أبديته نحوى من المواطف ، فارجو أن أراك قريباً فى القاهرة كما أخبرك الجنرال كافريللى ، وأختم باهدائك تحياتى وعواطف محبتي واخلاصى . بونا بارت »

هذا هو الخطاب الذى كتبه نابليون إلى كليبر ترضية له ، وهو كما ترى يتضمن أرق أنواع الاعتذار والثناء ، فلم يسع كليبر إلا أن يتقبل هذه الترضية ويمدل عن استقالته ، وسافر إلى القاهرة تلبية لطلب نابليون فدخلها يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨ أثناء شوب الثورة فيها أزال كتاب نابليون سوء التفاهم بينه وبين الجنرال كليبر ، ولعلك تذكر من أمر نابليون أنه عندما ارتحل إلى السويس فى شهر ديسمبر سنة ١٧٩٨^(٢) استخلف كليبر فى القاهرة مدة غيبته^(٣) ، ثم اختاره ضمن القواد الذين اصطحبهم فى الحملة على سورية وعينه فى الوقت نفسه

(١) من شهر فركتيدور (٥ و ٦ و ٧ سبتمبر سنة ١٧٩٨)

(٢) انظر ص ١٣ (٣) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٩٨

(١٧ يناير سنة ١٧٩٩) حاكما لدمياط وقومنداننا للفرقة التي بها^(١) وهي فرقته القديمة التي كان يتولى قيادتها قبل أن يجرح يوم احتلال الإسكندرية^(٢)، وقد ظهرت مواهبه ومزاياه الحربية في فتح (يافا) وفي معركة (جبل طابور)، ولما عاد الجيش الفرنسي من سورية ذهب كليبر إلى دمياط مقر فرقته وبقى بها إلى أن سافر نابليون إلى فرنسا واستخلفه على القيادة العامة، كل هذا يدل على ثقته به

على أن الجفاء القديم قد ترك أثرا في نفس كل منهما، ولو تأملت فيما كتبه نابليون عن كليبر في مذكراته لطالعتك عباراته بروح ذلك الجفاء الذي كان يشعر به كلاهما نحو الآخر، وكذلك تنتهي إلى هذه النتيجة إذا قرأت مذكرات كليبر ويومياته، وليس من موضوع كتابنا أن نحوض في هذه ولا في تلك، وبحسبنا أن نستنتج منهما مبلغ ما كان بين القائدين من النفرة وأن هذا الجفاء ظهرت آثاره في مذكرات نابليون التي أملاها في منفاه بعد أكثر من خمسة عشر عاما لقتل كليبر، فإذا تركنا هذه الاعتبارات جانبا، فإنه مما يجدر ملاحظته أن كليبر بعد اخفاق الحملة على سورية لم يقلع عن التصريح بتخطئة نابليون في بعض تصرفاته أثناء تلك الحملة، لذلك كان اختيار نابليون إياه ليخلفه في القيادة العامة عملا منطويا على صدق الوطنية، لأنه ضحى بالاعتبارات الشخصية في سبيل مصلحة فرنسا وأسند إلى كليبر هذا المركز الخطير مع ما كان بينهما لأنه رأى فيه أليق قواد الجيش للاضطلاع بهذه المهمة^(٣) واستشف بثاقب نظره أنه كذلك يجمع إلى المواهب العسكرية صفات الحزم والأناة والكفاية الإدارية، وكانت منزلة كليبر عند الجيش كبيرة وخاصة في نظر الجنود التي حاربت من قبل في ميادين الرين، لأنها كانت تقدر كفاية القائد الاثراسي تقديرا عاليا، فرأى فيه نابليون خير من يستطيع كسب ثقة الجيش ومحبته

كان الجنرال كليبر مرابطا في دمياط مع فرقته حينما أرسل إليه نابليون يستدعيه لمقابلته في رشيد، فلما بلغته الدعوة أسرع إليها فدخلها يوم ٢٤ أغسطس، ولشد ما كانت دهشته حينما علم بأن القائد العام نزع إلى فرنسا ولم يفكر حتى في الحضور لرشيد برا بالوعد الذي واعده، وكان كليبر يجهد حتى تلك اللحظة أن نابليون قد اختاره ليخلفه في القيادة العامة،

(١) مراسلات نابليون وثيقة رقم ٣٨٦٧ (٢) لما جرح كليبر في حصار الاسكندرية تنحى عن قيادة الفرقة للجنرال دوجا فعرفت حيثئذ بفرقة دوجا
(٣) جاء في مذكرات نابليون إن الجنرال ديزيه يفوق كليبر في الكفاءة ولكن نابليون أراد الانتفاع بالجنرال ديزيه في فرنسا فاستدعاه إليها وسافر بعد التوقيع على معاهدة العريش كما سيحيىء بيانه

فكبر عليه الأمر وحسب نابليون يهزأ به في استدعائه إلى رشيد لمقابلته في حين أنه سافر إلى فرنسا قبل الموعد المضروب ، وتحرك في نفسه الجفاء القديم ، وأظهر حنقا شديداً على صاحبه ، يئد أنه ما لبث أن تلقى عهد نابليون إليه ورسالته للجيش وللدوان ، فتغيرت حالته النفسية واستشعر عظم التبعة التي ألقيت على عاتقه ، وأخذ يفكر فيما يستقبل من أمره

موقف كليبر

بعد إسناد القيادة العامة إليه

أكبَّ الجنرال كليبر على رسائل نابليون وتعليماته ووصاياه يطالعها ويتأملها ، ويكتنه أسراها ، فشرع في وضع الخطة التي يسير عليها ، واعتزم أن يتم العمل الذي بدأ به سلفه ، ولأجل أن يمهد السبيل لاستمرار العمل دون التواء أو اضطراب في الأفكار أذاع بين قواد الجيش منشورا سوَّغ فيه رحيل نابليون وأهاب بوطنية القواد ودعاهم إلى معاونته في مهمته الجديدة ، قال فيه :

« إن القائد العام قد سافر إلى أوروبا ليلة ٥ - ٦ فركتيدور (٢٢ - ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٩) وإن الذين يعرفون منكم مبلغ اهتمامه بنجاح الحملة الفرنسية في مصر يجب أن يقدروا الأسباب القوية التي دعت به إلى السفر وأن يعتقدوا في الوقت نفسه أننا سنكون على الدوام موضع عطفه ، وسيكون لنا بين مشروعاته وأعماله العظيمة حظ كبير من عنايته ، فهو القائل لي : « إنى سأكون معك بقلبي وفكري وستكون انتصاراتك عزيزة في نفسى أبتهج بها كما لو كانت لي ، وسأعد من أيام النحس كل يوم لا أعمل فيه شيئاً لمصلحة الجيش الذي تركت لك قيادته » ، فيجب علينا أن نستشعر السرور لسفر القائد العام بدلا من أن نتوجع لذلك ، إن الفراغ الذي تركه بونايرت في الجيش وفي حالتنا المعنوية فراغ عظيم ، ولا يسعنا أن نملأه إلا بمضاعفة الجهد والنشاط والتعاون على العمل ليخف العبء الملقى على عاتق خلفه ، وإنكم مدينون بهذا الواجب لوطننا ولجهدكم ولما أشعر به من الإخلاص في تقديركم ومحبتكم »

بهذا المنشور بدأ كليبر عمله الجديد ، وتلاقى في رشيد بالجنرال (منو) قادما من الاسكندرية ، فأقره في المركز الذي عينه فيه نابليون ، وفي يوم دخوله القاهرة أذاع بلاغا بين الجنود بتاريخ ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٩ أبلغهم فيه نبأ سفر نابليون وتعيينه خلفاً له ودعاهم إلى الاستمرار في واجبه والاطمئنان على مصيرهم

وكان الجيش في القاهرة قد تلقى نبأ سفر نابليون فاضطربت الأفكار وكثر اللفظ ونشر الجنرال (دوجا) قومندان القاهرة بلاغا رسمياً في ٢٩ أغسطس برحيل نابليون وتعيين الجنرال كليبر خلفاً له ، وجمع أعضاء الديوان في جلسة رسمية وأبلغهم تعيين الجنرال كليبر قائداً عاماً للجيش ، ولم يحدث سفر نابليون في أذهان المصريين تأثيراً كبيراً لأن انتصار الجيش الفرنسي في معركة (أبو قير) كان قد أكسب الفرنسيين قوة معنوية بحيث لم يكن تغيير القائد العام ليزعزع من نفوذهم ، فقابل الشعب سفر نابليون وتعيين كليبر خلفاً له بعدم الاكتراث

مقابلته لأعضاء الديوان

جاء كليبر القاهرة ، واستقر في بيت الألفي بك الذي كان يسكنه نابليون في الأزبكية ، فاستقبل كبار الفرنسيين ثم أعضاء الديوان ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « ذهب أكبر البلد من المشايخ والأعيان لمقابلة ساري عسكر الجديد للسلام عليه ، فلم يجتمعوا به ذلك اليوم ، ووعدوا إلى الغد فانصرفوا ، وحضروا في ثاني يوم وقابلوه ، فلم يروا منه بشاشة ولا طلاقة وجه مثل بونابرتة فإنه كان بشوشاً يماسط الجلساء ويضحك معهم » وملاحظة الجبرتي جديرة بالنظر ، لأن كليبر كانت تنقصه حقيقة ميزة نابليون في كسب القلوب ومباشرة جلسائه ، وهي ميزة كبيرة كانت من أخص مزايا نابليون في حياته ، وكانت من الأسباب التي حبيته إلى قلوب الرجال والجمهير ، فقد كان يأسر القلوب ببساطته ودعابته ، أما كليبر فقد شرع في إحاطة نفسه بمظاهر الأبهة والجبروت متخيلاً أنها تؤثر في الشرق وفي نفوس الشرقيين ، قال ريبو في هذا الصدد :

« إن بونابرت كان يمتاز بأساليبه البسيطة المألوفة وعاداته البعيدة عن الفخفخة والأبهة ، أضف إلى ذلك قامته القصيرة وقوامه الضئيل ، ومع ذلك فقد كان المصريون يقدرون عظمة بونابارت فيقولون عنه « بونابارت الكبير » بينما كانوا يقولون عن خلفه « كليبر الطويل »^(١) وسواء أصححت رواية ريبو أم كانت من تصورات الخيال فإنها تدل على مبلغ الفرق بين نابليون وكليبر في الميول والنزعات

ويقول ريبو أيضاً إن كليبر حتم أن يؤدي له الناس ما كان يؤدي للباشوات الولاية والبكوات المهالك من مظاهر الإجلال والتكريم ، وغنى عن البيان أن مثل هذه الأوامر لم يكن من شأنها أن تحبب إليه نفوس الناس ولا أن تجتذب إليه القلوب

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية (ريبو) الجزء السادس

قال الجبرتي في وصف موكب كليبر وفي مروره بالمدينة :

« وفي يوم الجمعة سادس ربيع الثاني سنة ١٢١٤ ركب سارى عسكر الجديد من الأزبكية ومشى في وسط المدينة في موكب حافل حتى صعد إلى القلعة ، وكان أمامه نحو الخمسمائة قواس وبأيديهم النبايت وهم يأمرون الناس بالقيام والوقوف على الأقدام لمروره ، وكان صحبته عدة كثيرة من خيالة الافرنج وبأيديهم السيوف المسلولة والوالى (رئيس الشرطة) والاعا (المحافظ) وبرطلمين (برتلى وكيل المحافظ) بمواكبهم وكذلك القلقات والوجاقلية وكل من كان موثى من جهتهم ومنضاً إليهم»

وذكرت جريدة (كوربيه دليجبت^(١)) مقابلة كليبر لأعضاء الديوان ووصفت هذه المقابلة في حينها ، قالت : « قابل القائد العام كليبر يوم ١٦ فركتيدور هيئة الديوان وأكابر العلماء وأعيان البلاد ، فتكلم الشيخ محمد المهدي بالنيابة عن هيئة الديوان وأبدى أسفه لسفر الجنرال بونابارت ، وأعرب عن أمله في عدالة خلفه واستقامته ، فأجابهم الجنرال كليبر بقوله : « أيها العلماء إنى أريد أن أحييكم على تمنياتكم بأعمالى لا بأقوالى ، على أن الأعمال تأتى بطيئة ، ويظهر أن الشعب متشوف إلى معرفة المصير الذى ينتظره في عهد الرئيس الجديد ، فقولوا للشعب إن الجمهورية الفرنسية بإسناد حكومة مصر إلى كلفتنى على الأخص بأن أسهر على سعادة الشعب المصرى ، وإن هذه المهمة هى من بين مهمات مركزى أحبها إلى قلبى » ، ووعدهم باحترام الدين وتمجيده ، وتوعد الأشرار بأشد أنواع الأذى ، ثم قال : « إن بونابارت قد كسب محبة العلماء والشايخ وأكابر البلد باتباعه خطة النزاهة والعدل ، وسأتابع خطة سلفى وأترسم خطاه ، وسأكون جديراً بما أوليتم بونابارت من محبة » ، هذا ما ذكرته جريدة (كوربيه دليجبت) وهى الجريدة شبه الرسمية للحملة الفرنسية ، ولم ترد هذه التفاصيل والأقوال فى الجبرتي ، وقد لا تكون فى مجموعها بعيدة عن الواقع ، لأن الجبرتي قد فاته أن يذكر كثيراً من الوقائع المدونة فى المراجع الفرنسية

أعضاء الديوان فى عهد كليبر

ولعلك تذكر أسماء الأعضاء الذين تتألف منهم هيئة الديوان (الخصوصى) فى عهد نابليون^(٢) ، ونزيد على ذلك أنه حصل تعديل فى بعض الأعضاء خلال هذه المدة فصار الديوان مؤلفاً على النحو الآتى :

(١) العدد ٣٨

(٢) انظر ص ١٨

الشيخ عبد الله الشرفاوى رئيساً ، الشيخ محمد المهدي سكرتيراً ، الشيخ مصطفى الصاوى ،
الشيخ خليل البكرى ، الشيخ سليمان الفيومى ، السيد احمد المحروق ، على كتبخدا المجدلى ،
يوسف باشجاويش ، لطف الله المصرى ، يوسف فرحات ، جبران سكروج ، فضل الله الشامى ،
بودوف ، ولمار ، وعددهم أربعة عشر

وقد أخذنا هذا البيان عن تقويم الجمهورية الفرنسية الذى وضعه علماء الحملة عن السنة
الثامنة من التقويم الجمهورى (١٨٠٠) على عهد الجنرال كليبر ، وأورد التقويم المذكور أسماء
موظفى الديوان من غير الأعضاء ، وهم : المسيو جلوبتييه القوميسير الفرنسى لدى الديوان ،
وذو الفقار كتبخدا القوميسير المسلم ، والشيخ على الكاتب السكرتير المعين ، وجرجس نصر
المرجم ، والشيخ حسن العساس المحضر ، والحاج محمد رئيس الحجاب

التقسيم الإدارى للمديريات

وأدخل الجنرال كليبر تعديلاً فى التقسيم الإدارى للمديريات فأصدر أمراً فى ١٤ سبتمبر
سنة ١٧٩٩ بجعل مديريات القطر المصرى ثمانية أقاليم وهى :

- ١ - إقليم طيبة أو قنا ويتبعه جرجا وأسيوط ، وحاضرتة أسيوط
- ٢ - إقليم المنيا ويتبعه بنى سويف والفيوم ، وحاضرتة بنى سويف
- ٣ - القاهرة ويتبعها الجيزة والقليوبية وأطفيح
- ٤ - الشرقية ويتبعها السويس والعريش وحاضرتها بلبيس
- ٥ - الإسكندرية ويتبعها البحيرة ورشيد وحاضرتها الإسكندرية
- ٦ - إقليم دمياط والمنصورة وحاضرتة دمياط
- ٧ - الغربية وحاضرتها سمندود
- ٨ - المنوفية وحاضرتها منوف

الحالة فى القاهرة والأقاليم

اقتربت أيام كليبر الأولى باستتباب الهدوء فى القاهرة والأقاليم ، ولعل أهم سبب لذلك
أن انتصار الفرنسيين على الجيش العثمانى فى معركة أبو قير كان لا يزال ماثلاً أمام الأذهان
كبرهان على مبلغ قوة الجيش الفرنسى ، وتواردت الأنباء من قواد الجنود الفرنسية فى الأقاليم
بأن الحالة مستقرة

هدأت الحالة هدوءاً نسبياً في أنحاء القطر ، خففت ثورة النفوس في القاهرة ، ووقفت حركات الهياج في الوجه البحري ، وسكنت العاصفة في الصعيد ، فانهز كليب هذه الفرصة وقضى أيام قيادته الأولى في العناية بشؤون الجيش وتقويته وتمهيد إدارات الحكومة ، فتفقد قلعة الجبل والحصون التي أنشأها بونابرت حول العاصمة ، وتفقد استحكامات بولاق والجيزة والروضة ، والمستشفيات والسجون ، ومعمل البارود والذخائر ، وزار المدرسة التي أنشأها نابليون حديثاً لتعليم أبناء الفرنسيين في مصر ، و (المطبعة الأهلية) التي كان يديرها المستشرق مارسيل Marcel ، والمصنع الميكانيكي الذي أسسه الميوس كوتني ، وحضر عدة جلسات للمجمع العلمي ، وعرض الجيش لمناسبة الاحتفال برأس السنة الثامنة للجمهورية الفرنسية الأولى (٢٣ سبتمبر سنة ١٧٩٩)^(١) وأخذ يفكر في تجديد ملابس الجنود وتموين مخازن الجيش وتكبير المستشفيات وتقوية الحصون وإمدادها بالذخيرة واصلاح الادارات التابعة للجيش

كانت الظواهر والمقدمات تدل على أن لدى كليب متسعاً من الوقت يزيد فيه من مناعة الاحتلال الفرنسي في مصر ، ويوطد مركزه ، وذلك أن تركيا لم تكن أتمت بعد استعدادها للقتال ، بعد النكبة التي حاقت بها في معركة أبوقير ، والجوع التي كانت تحسدها في سورية بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضياء كان ينقصها النظام وبراعة القيادة ، فضلاً عن أن أحوال تركيا كانت في اضطراب وتضعف بسبب الفتن الداخلية ، مما اضطر الباب العالي إلى استدعاء جزء من الجنود الذين أعدهم لفتح مصر ، وكان أمل كليب معقوداً بأن يفضى اقتراب فصل الشتاء وما يقترن به من هياج البحر إلى تعسير اقتراب السفن الحربية ومراكب نقل

(١) وصف الجبرتي هذا الاحتفال بقوله : « اهتم الفرنسيين بعمل عيدهم المعتاد وهو عند الاعتدال الحريفي وانتقال الشمس لبرج الميزان ، فنادوا بفتح الأسواق والدكاكين ، ووقود القناديل ، وشددوا في ذلك ، وعملوا عزائم وولائم وأطعمة ثلاثة أيام آخرها يوم الاثنين ، ولم يعملوه على هيئة العام الماضي من الاجتماع بالأزبكية عند الصاري العظيم المنتصب والكيفية المذكورة ، لأن ذلك الصاري سقط وامتلأت البركة (الميدان) بالماء ، فلما كان يوم الأحد نهوا على الأمراء والأعيان بالكور إلى بيت ساري عسكر ، فاجتمع الجميع في صباح يوم الاثنين فركب ساري عسكر معهم في موكب كبير وذهبوا إلى قصر العيني ، فكثروا هناك حصة وعرضت عليهم العسكر جميعها على اختلاف أنواعها من خيالة ورجالة وهم بأسلحتهم وزيبتهم ، ولعبوا لعبهم في ميدان الحرب ، وخلع ساري عسكر على الشيخ الشرفاوي والقاضي وأغات الينكجيرية (المحافظ) خلع سمور ، ثم رجعوا إلى منازلهم ، ثم نودى في الأسواق بوقود أربعة قناديل على كل دكان في تلك الليلة ، ومن لم يفعل ذلك عوقب (يعني أن الأهالي أكرهوا بالقوة على الاشتراك في الحفلة) ثم عملوا بالأزبكية حرقاً نفوط ومدافع وسوارخ ، ولعبوا في المراكب طول ليلهم »

الجنود من شواطئ مصر ، وبدأ هياج البحر فعلا في تلك الأيام حتى اضطر السفن الإنجليزية إلى الابتعاد عن الشواطئ ، كل هذه الأسباب كانت تدعو للاعتقاد بأن الحملة على الجيش الفرنسي في مصر لا يمكن أن تكون قريبة ، أضف إلى ذلك أن فشل الإنجليز في إنزال جنودهم بالقصير قد طأ أن الفرنسيين على مركزهم في الوجه القبلي وأضعف أمل مراد بك في محاربتهم ، فقد عزم الإنجليز على احتلال (القصير) في شهر أغسطس قبل أن يرحل نابليون عن مصر ، وأرسلوا بارجتين حربييتين إلى ذلك الثغر ، فكانتا بازائه في صباح يوم ١٤ أغسطس سنة ١٧٩٩^(١) وضربتا القلعة بالمدافع تمهيداً لإنزال الجنود إلى البر ، وفي عصر ذلك اليوم حاولت بعض مراكب النقل أن تنزل الجنود إلى الشاطئ ولكن الحامية الفرنسية أرجعتهم وأحبطت مسعاهم ، واستمر الضرب بالمدافع طول الليل ، وفي اليوم التالي استؤنف الضرب بشدة ، ونزلت كتيبة من الجنود البريطانية إلى الشاطئ تحت حماية المدافع ، وكان الادمودان جنرال Donzelot يتولى قيادة حامية القصير ، فرتب جنوده لمقاومة الاحتلال الإنجليزي ودارت معركة شديدة بين الفريقين انتهت بانسحاب الإنجليز والرجوع إلى مراكبهم بعد أن تركوا كثيراً من القتلى والجرحى ، واستمرت البارجتان الإنجليزيتان تضربان القلعة بالمدافع وحاول الإنجليز أن ينزلوا جنودهم في ذلك اليوم بعيداً عن القلعة ففشلوا ، وفي يوم ١٦ أغسطس أعادوا كرة الهجوم فباءوا بالفشل واستولى الفرنسيون على مدفع كان الإنجليز أنزلوه إلى الشاطئ ، وهكذا رجع الإنجليز عن محاولة احتلال القصير بعد قتال ثلاثة أيام وأقلعت سفنهم إلى عرض البحر

وحاول مراد بك في خلال شهر أكتوبر أن يجدد مناوشاته فيما بين أسيوط وجرجا ، فجرد عليه الجنرال (ديزيه) حملة من الهجاة انتهت بانسحابه في الصحراء فانسحاب الإنجليز من سواحل القصير ، وهزيمة مراد بك في الصعيد ، قد بعثا الطمأنينة في نفوس الفرنسيين ، كما أن الهزيمة فتتت في ساعد مراد بك وجعلته يخلد إلى السكينة ، وقد دارت الأيام دورتها ، فأخذ يتقرب من الفرنسيين إلى أن عقد وإياهم معاهدة الصلح كما سيجيء بيان ذلك فيما يلي

حقيقة الموقف الحربي في مصر

على أن هذه المقدمات وهاتيك الظواهر لم تكن لتصرف الجنرال كليبر عن تبين حقيقة

(١) رسالة الجنرال كليبر إلى حكومة الديركتوار بتاريخ ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٩ الواردة في كتاب الكونت باجول (كليبر — حياته ومراسلاته) وكتاب المسيو روسو (كليبر ومنو في مصر)

الموقف الحربى فى مصر ، ذلك الموقف الذى يجعل بقاء الاحتلال الفرنسى فى وادى النيل
أمراً مستحيلاً ، فالحملة الفرنسية كانت محصورة من طريق البحر ولا منفذ لها إلى فرنسا أو
أى بلد تستند إليه فى توطيد سلطتها ، هذا فضلاً عن أن القوات الفرنسية ترابط وسط أمة
معادية لها ، فكانت من هذه الوجهة مقضياً عليها بالفشل ، عاجلاً أو آجلاً ، لأن الجنود
الفرنسية كانت موزعة فى مثلث كبير يمتد طرفاً قاعدته بين الاسكندرية والعريش ويقع رأسه
فى أسوان ، فهذا المثلث الفسيح المدى المتباعد الأطراف كان مطلوباً من الجيش الفرنسى أن
يوطد فيه سلطة فرنسا فى وجه دولتين متحالفتين (وهما تركيا وانجلترا) وعلى المراغمة من
شعب لم يدع فرصة تمر إلا قاوم فيها الاحتلال الفرنسى بكل الوسائل

ولا يفغيب عنك أن الجيش الفرنسى لم يكن يومئذ فى قوته الأولى ، لأن المعارك والأمراض
والتعاب التى قاساها قد أهدكت قواه ونقصت عدد رجاله ، وأفرغت من صفوفه
قدر الجنرال داماس Damas الذى عينه كبير رئيس أركان الحرب عدد الجنود فى شهر
سبتمبر سنة ١٧٩٨ بثلاثة وثلاثين ألف مقاتل ، وقدر عددهم فى أول عهد قيادته كبير ب ٢٢٠٠٠
مقاتل ، فيؤخذ من هذه المقابلة أن عدد الجنود نقص بمقدار الثلث ، وفقد الجيش الفرنسى فى المعارك
والثورات نخبة من خيرة قواده أمثال الجنرال (كافربيللى) قائد فرقة المهندسين و (دومارتان)
قائد المدفعية و (بون) و (رامبولت) و (ديبوى) وغيرهم ، ومعظم ضباط فرقة المهندسين ،
واصطحب نابليون معه نخبة أخرى من القواد ، وسرى الللل واليأس إلى نفوس الجنود
والقواد الباقين فى مصر لاستحالة ورود المدد والذخائر من فرنسا ، فأثرت هذه الحالة فى
نفوسهم تأثيراً كبيراً ، وتضعفوا لها فضعفت حالتهم المعنوية ، ثم زادت الحالة نفاقاً لافتقار
الجيش إلى كثير من حاجياته وضروراته ، فقد أسلفنا أن نابليون أصلح ترسانة مراد بك
بالجزيرة^(١) وأنشأ بها معمل لصنع المدافع ، لكن هذا المصنع لم ينجح لعدم ورود الآلات
والمواد الأولية اللازمة لإدارته ، وكذلك أنشأ فى الروضة مصنعاً للبارود ، لكنه لم يكن
وافياً بحاجة الجيش ، وكان بالقاهرة مصانع لإصلاح الأسلحة ولكن تعذر عليها إصلاح
ما يتلف من البنادق بالسرعة التى تتطلبها الظروف لعدم توافر الآلات والوسائل اللازمة ،
وبليت ملابس الجنود لكثرة الاستعمال ، ووجد كبير صعوبة كبيرة فى تجديدها لقلة الأقمشة
والأجواخ التى تكفى الجيش وقلة الموارد المالية التى تسمح بشرائها من الخارج ، وكانت رداءة

الملابس وقدمها والمتاع التي لقيها الجنود من الأسباب التي أدت إلى سوء حالة الجيش الصحية وانتشار الأمراض والرمد بين أفرادها

ثم كانت ثغور البلاد ومفاتيحها على جانب كبير من الضعف ، فالعريش وهي مفتاح مصر من الشرق لم تكن في حالة تسمح بصد هجمات جيش كبير وذلك لإيغالها في الصحراء وصعوبة تموينها وإمدادها بالذخائر والمؤونة ، كما أن الإسكندرية وهي مفتاح مصر من جهة الغرب قد ضعفت مناعتها الحربية بعد أن جردها نابليون أثناء الحملة على سورية من كثير من مدافع الحصار وبما سلح به السفن التي أقلته في رحيله إلى فرنسا

ولم يكن الجيش العامل الذي يعتمد عليه في المعارك مرابطا في ساحة واحدة ، بل كان موزعا بين البلاد المحصنة أو المدن المهمة التي تقيم بها حاميات من الجنود الفرنسية ، وهي : القاهرة ، والاسكندرية ، وأبو قير ، ورشيد والرحمانية ، والبرلس ، ودمياط ، وعزبة البرج ، والعريش ، وقطية ، والسويس ، والصالحية ، وبلبيس ، والمنصورة ، وميت غمر ، ومنوف ، وسمنود ، والجزيرة ، وبنى سويف ، ومدينة الفيوم ، والمنيا ، وأسيوط ، وجرجا ، وقتنا ، والقصير ، وأبنود ، وإسنا ، وأسوان

فكل هذه الاعتبارات هي أجزاء وألوان في الصورة التي تتبئك عما آل إليه الجيش الفرنسي في مصر من الضعف والأحلال

الحالة المالية والاقتصادية

أما الحالة المالية والاقتصادية فقد ساءت عما كانت عليه قبل الحملة الفرنسية ، فإن توالي الضرائب والغرامات والمصادرات والنهب والتخريب والإحراق والتدمير قد أتلث الزراعة والتجارة والصناعة وأفقر البلاد وزادها ضنكا على ضنك ، ومع أن كليبر كان يعارض نابليون في فرض الضرائب والمصادرات فإنه لجأ إليها في عهد قيادته ، فقد فرض على الصيارفة الأقباط مائة وخمسين ألف ريال فرنسي في مقابل بواقي سنة ١٢١٣ وأقساط أخرى لم تستحق بعد ، وفرض على الأقاليم غرامات فادحة ، ولجأ الفرنسيون إلى طريقة الاحتكار ليستصفوا من المحتركين مبالغ طائلة يرجع بها هؤلاء أضعافا مضاعفة على الجمهور ، واتبعوا طريقة السندات على الخزينة في تأدية ما عليها من الديون ، وهذه الطريقة نذير الإفلاس والخراب ، أضف إلى ذلك أن الحصار البحري الذي ضربته إنجلترا على شواطئ مصر قد عطل المواصلات وشل المعاملات التجارية وأدى إلى كساد الأحوال ووقوف حركة الأخذ والمطاء ،

وزاد الحالة سوءاً نقصان القليل في تلك السنة (سنة ١٧٩٩)، فبار كثير من الأراضي الزراعية وانكسر ما عليها من الضرائب

ولم يكن يخفى على الجنرال كليبر سوء الحالة الاقتصادية والمالية في البلاد، وكان يعلم أن إرهاق الشعب بضرائب وغرامات جديدة لا يمكن أن يوطد السلطة الفرنسية بل يقضى حتماً إلى تجدد الثورات والاضطرابات، فبعث إلى حكومة الديركتوار برسالة^(١) في هذا الصدد وصف فيها سوء الحالة التي يعانها، قال في رسالته:

« إن الجنرال بوناپارت قد استنفد جميع موارد البلاد المالية في الشهور الأولى من الحملة، وضرب على البلاد من الغرامات والمصادرات ما بلغ جهد الطاقة، فالرجوع اليوم إلى هذه الوسائل في الوقت الذي نحن فيه محاطون بالأعداء من كل جانب هو دفع بالبلاد إلى الثورة في أول فرصة ممكنة، على أن بوناپارت حينما غادر مصر لم يترك درهماً في الخزانة ولا شيئاً مما يعوضنا عن المال، بل ترك ديوناً ومتأخرات على الخزانة تبلغ اثني عشر مليون فرنك وهو يكاد يساوي إيراد الحكومة سنة كاملة في الأوقات الحاضرة»

وقال كليبر في هذه الرسالة يصف سوء حالة الجباية:

« إن الفيضان يمنع في الوقت الحاضر جباية البواقي عن السنة التي انتهت، ومع ذلك لو حصلنا هذا الباقي لما كفى إلا نفقات شهر واحد، ويجب أن ننتظر إلى شهر فريمير (أكتوبر - نوفمبر) حتى يمكننا أن نعود فنجبي الضرائب، ولا شك أنه يتعذر علينا عندئذ أن نستخلص شيئاً لأننا سنكون منهمكين في القتال، وقد زاد الحالة سوءاً أن النيل قد شح في هذا العام، وسيؤدي ذلك إلى تلف الزراعة في مديريات عدة، وهذا يقضى إلى نقص الغلات، وبالتالي إلى نقص الضرائب»

فتأمل في قول الجنرال كليبر إن إيراد الحكومة مدة سنة كاملة في العهد الذي كتب فيه رسالته (سنة ١٧٩٩) يبلغ اثني عشر مليون فرنك، فانك تستنتج من ذلك أنه بالرغم من زيادة الضرائب في عهد الحملة الفرنسية فإن دخل الحكومة قد نقص عما كان في عهد المالك، ويزداد هذا الاستنتاج وضوحاً وثبوتاً إذا رجعت إلى ما أحصاه أقطاب الحملة الفرنسية عن دخل الحكومة في عهدهم ودخلها على عهد المالك

(١) هذه الرسالة مؤرخة ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٩٩، ولم تصل إلى فرنسا لأن السفن الإنجليزية ضبطتها في عرض البحر كما ضبطت كثيراً من الرسائل المتبادلة بين فرنسا ومصر ونشرت في إنجلترا ليطلع عليها الجمهور، وكانت هذه الرسالة بمثابة شكوى مرة من نابليون وتركه إياه يحتفل بتعبه قيادة الجيش في ظروف حرجة

فالجنرال (رينيه) أحد قواد الحملة يقدر إيراد الحكومة قبل الاحتلال الفرنسي بمبلغ يتراوح بين ٣٥ وأربعين مليون فرنك^(١)، وهو تقدير يزيد قليلاً عن إحصاء الميسو (استيف) مدير الخزانة في عهد الحملة فإنه يقدرها بـ ١٠٦.١٩٩.٣١٠ فرنك (٦٧.٤٣٠.٣١٠ جنيتها^(٢)) أما في عهد الحملة الفرنسية فقد هبط الإيراد هبوطاً محسوساً، فأحصى الجنرال (رينيه) دخل الحكومة إجمالاً في ذلك العهد بمبلغ يتراوح بين ٢٠ و٢٥ مليون فرنك، وعلل هذا النقص بقلة إيراد الجمارك واضطراب جباية الضرائب، وقد أورد إحصاء مفصلاً لهذا الدخل في عهد كليبر ومنو، فحدده بمبلغ ٢١ مليون فرنك (أى ٧٥.٠١٠.٠٨١ جنيتها تقريباً) وورد من الأبواب الآتية:

الخراج الذى كان يجبى من أطيان الوجه البحرى وجزء من أطيان الوجه القبلى بعد إسقاط المنطقة التى ترك لمراد بك حكمها بناء على اتفاقية كليبر - مراد	١٣.٠٠٠.٠٠٠ فرنك
الضرائب غير المباشرة	٣.٠٠٠.٠٠٠ فرنك
الإتاوات على التجار وأرباب الحرف	» ٢.٠٠٠.٠٠٠
إيراد دار الضرب (الضربخانة)	» ٥.٠٠٠.٠٠٠
إيراد الجمارك	» ١.٠٠٠.٠٠٠
إيراد أطيان الوسية والأملاك التابعة للحكومة	» ١.٥٠٠.٠٠٠
مال الأملاك الشخصية والخراج المفروض على مراد بك	» ١.٠٠٠.٠٠٠
	<u>٢١.٠٠٠.٠٠٠</u>

وللميسو (استيف) إحصاء آخر يزيد عن إحصاء الجنرال (رينيه)، فإنه يقول إن دخل الحكومة سنة ١٧٩٩ وهى السنة الثانية من سنوات الحملة الفرنسية بلغ ٣٥.٥٠٢.٨٥١ فرنكاً (٣٦٩.٥٢٩ جنيتها)

ونعتقد أن فى هذا الإحصاء مبالغة إذا قابلناه بإحصاء الجنرال (رينيه) وبالإحصاءات الأخرى الواردة فى المزاجع الفرنسية

فنا بليون يقول فى مذكراته إن دخل الحكومة فى مدة أربعين شهراً وهى مدة الحملة الفرنسية بلغ ثمانين مليون فرنك، أى بمعدل ٢٧ مليون فرنك كل سنة^(٣)

(١) كتاب (مصر بعد واقعة عين شمس)

(٢) أنظر الجزء الأول ص ٣٤ (من الطبعة الأولى)

(٣) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين

ويقول المسيو (تيمير) المؤرخ الفرنسى فى كتابه (١) إن دخل الحكومة فى عهد الحملة يتراوح بين ٢٥ و ٢٠ مليون فرنك

والمسيو بوسليج مدير الشؤون المالية فى عهد نابليون وكبير إحصاء تفصيلى عن دخل الحكومة يقل كثيراً عن إحصاء المسيو استيف

فقد كتب تقريراً مستفيضاً فى سبتمبر سنة ١٧٩٩ عن حالة مصر المالية ، انتهى فيه إلى أن إيراد الحكومة فى زمن السلم لا يزيد عن ١٩٢٠٠٠٠٠٠ فرنك ، يتألف تفصيلاً من الأبواب الآتية:

٣٣٠٠٠٠٠ ر فرنك

مال اليرى

٣٣٠٠٠٠٠ ر فرنك

ضريبة (الفائظ) وهى ما يستولى عليه الملتزمون بعد وفاء اليرى يدخل فى ذلك ما يجبيه الملتزمون وما يجبيه الحكومة عن أملاكها

٦٤٠٠٠٠٠ ر فرنك

ضريبة (المضاف) وهى ما يفرضه الملتزمون والحكومة على الأطيان عدا اليرى والفائظ ويدخل فى ذلك الاتاوات التى يفرضونها على الفلاحين

١٣٠٠٠٠٠ ر فرنك

ضريبة (الكشوفية) وهى التى تؤول لحكام المديرىات

١٤٠٠٠٠٠ ر فرنك

الجملة

٣٣٠٠٠٠٠ ر فرنك

يخصم من ذلك ٣٢٠٠٠٠٠ ر فرنك مقدار ما يخص الملتزمين من (الفائظ) عن الأراضى التى يملكها الأفراد وهى ثلث أراضى مصر الزراعية لأن ثلثى أراضى مصر كانت ملكاً للحكومة أو للحكام من عهد المماليك فيكون الباقى

١٠٨٠٠٠٠٠ ر

يضاف إلى ذلك صافى ما ينتج من ضريبة الفائظ التى

تجى نوعاً من الحبوب وهذه الطريقة كانت متممة فى

٢٦٥٠٠٠٠ ر فرنك

ومقداره

الوجه القبلى

(١) تاريخ القنصلية والامبراطورية الجزء الثالث

٥٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك

إيراد الجمارك والضرائب غير المباشرة

٠٧٥٠٠٠٠٠ فرنك

إيراد الضرائب

١٩٢٠٠٠٠٠ فرنك

صافي الدخل

ويقول المسيو (بوسليج) في تقريره إن إيراد الجمارك والضرائب غير المباشرة في سنة الحرب وهي السنة التي وضع فيها تقريره (سنة ١٧٩٩) هبط إلى ١٥٠٠٠٠٠٠ فرنك بسبب وقوف دولاب الأعمال والحصار الحربي الذي ضربته إنجلترا على شواطئ مصر ، وهبط كذلك مقدار الحبوب التي تجي نوعاً من أطيان الوجه القبلي لعدم إمكان بيعها في جهاتها وقلّة وسائل المواصلات التي تسمح بنقلها إلى الوجه البحري ، فلم يحصل من صافي ثمنها سوى مليون فرنك ، ونقص كذلك دخل الضرائب العقارية بمقدار مليون ونصف مليون فرنك لتلف بعض الأراضي الزراعية التي لم تروها مياه النيل ، يضاف إلى هذا العجز مبلغ ثلاثة ملايين فرنك وهي النفقات التي التزمت بها الحكومة ومرتبات عمالها فيكون صافي دخل الحكومة بعد النفقات من تسعة إلى عشرة ملايين فرنك وهو المخصص للإنفاق على الجيش الفرنسي

وذكر المسيو (بوسليج) ما ابتكره نابليون من الضرائب علاوة على ما كان يجبي من قبل في عهد المماليك ، فقال إنه فرض على مختلف الملاك والتجار نحو أربعة ملايين فرنك من الضرائب غير الاعتيادية وهي التي فرضها على البيوت والتجار والصناع ، وإنه جبي مقدماً خمس المفروض على الأملاك العقارية عن سنة مقبلة ، فحصل من هذا الباب وحده على ١٢٠٠٠٠٠٠ فرنك ، وإن هذه الوسائل الشاذة قد استنفدت موارد البلاد بحيث لا يمكن الاستمرار في اتباعها لأن التجارة كسدت وبارت ومعين المال قد نضب في يد الأفراد بحيث يخشى أن تؤدي جباية أموال جديدة إلى الثورة ، وأصبح سكان المدن يؤثرون الإرهاق والسجن بل والقتل على دفع ما يطلب منهم ، والفلاحون لا يدفعون ما يطلب منهم إلا بالقوة والإكراه ، فكانوا لا يؤدون ما يفرض عليهم حتى تصل إليهم القوة المسلحة التي تطوف كل مديرية لجباية الأموال الأميرية ، ولا يتأخرون عن مقابلة القوة بمثلها إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وكثيراً ما يلوذون بالفرار إذا عجزوا عن مقاومتها ، وكثيراً ما سجن مشايخ البلاد (العمد) لإجبار أهل بلادهم على دفع الضرائب ، على أن هذه الحالة تستلزم تخصيص قوة مسلحة من الجنود في كل مديرية من الست عشرة مديرية التي يتألف منها القطر المصري لتحصيل الضرائب ،

وكثيرا ما كان الجنود الفرنسيون يعتدون على الأهالى بحجة تحصيل الأموال ويرتكبون كثيرا من المظالم

أما جباية الضرائب فيقول المسيو بوسليج إن الأمر فيه أشق وأنكى ، فإن القرى كانت لا تسلم غلالها إلا بالقوة ، وكان لابد من خزن هذه الغلال في مخازن خاصة قريبة من شاطئ النيل ثم شحنها على السفن إلى القاهرة ، على أن عدد السفن قد قلّ في عهد الحملة الفرنسية بسبب غرق كثير منها وتحطيم الفرنسيين لجزء آخر بقصد استعمال أخشابه لوقود لقلة الوارد من الأخشاب للقطر المصرى ، فضلا عن أن اضطراب الأحوال في الوجه القبلى والوجه البحرى كان يضطر السلطة الفرنسية إلى استعمال معظم السفن في نقل الجنود ، ومن جهة أخرى فإن النيل لم يكن صالحاً للملاحة في الوجه القبلى إلا مدة أربعة أشهر في السنة ، فكل هذه العوامل مجتمعة كانت تعطل نقل الغلال إلى القاهرة ، وقد أثرت هذه الحالة في التجارة فأفضت بها إلى الكساد ، وهذا الكساد عطل تحصيل الضرائب نقداً ووعينا لأن الأهالى لم يكن في مقدورهم بيع غلاتهم للتجار لوقوف حركة الأخذ والعطاء ، ومع ذلك كانت السلطة تطالبهم بدفع الضرائب المفروضة عليهم ، وبذلك كان الضيق يشتد بالأهالى وتستحكم حلقاته وكانت السلطة الفرنسية عاجزة عن سد حاجات الجيش من المال لأن الجيش كان يقتضى كل شهر ١٣٠٠٠٠٠٠ فرنك ولم تكن موارد البلاد تسمح بتحصيل أكثر من ٣٠٠٠٠٠٠ فرنك في الشهر

يتبين من كل ما تقدم أن حالة مصر الاقتصادية والمالية قد ساءت على عهد الحملة الفرنسية ، وتقهقرت الزراعة وكسدت الصناعة وبارت التجارة ، وبالرغم من زيادة الضرائب والأتاوات والمصادرات فقد نقص دخل الحكومة عما كان قبل الحملة وعانت البلاد من كل ذلك أشد ما يمكن تصوره من الضيق والفاقة ، وأخذ الضنك يشتد بالناس يوما بعد يوم ، وابتدع الفرنسيون إتاوات وغرامات جديدة في عهد كليبر ومنو كما استراه فيما يلى

حالة الشعب النفسية

ولا جدال أن اشتداد الضيق بالشعب وشعور الناس بأن حالتهم الاقتصادية قد ازدادت سوءا في عهد الفرنسيين كان من البواعث التي زادت من سخطهم على الحكم الفرنسى ، وليس في مقدور القوة المسلحة إخضاع شعب ينفر بفطرته من تحكيم دلة أجنبية في شؤونه ، ويرى اشتداد الضيق في عهد حكمها ، فالقاومة الشعبية التي لقيها الفرنسيون من بدء الحملة كان من

شأنها أن تزداد على مرور الأيام ، ويكفيك لتتبين حالة الشعب النفسية أن ترجع إلى أقوال
أقطاب الحملة الفرنسية في هذا الصدد

قال الجنرال كليبر يصف هذه الحالة في عهد قيادته^(١) :

« إن مصر بالرغم من السكون الظاهري الذي شملها لا تعتبر إلا مدعنة لحكم القوة ،
والشعب المصرى موزع الفكر قلق على مصيره ، ولا يرى فينا مهما فعلنا إلا أعداء ملكه
وماله ، وقلبه متجه دائماً إلى الأمل في حدوث الانقلاب الذى يتوقعه »
وقال المسيو بوسليج في هذا الصدد^(٢) :

« إن الشعب المصرى بالرغم من ثوراته العديدة ضدنا يمكن اعتباره شعباً وديعاً ، على أنه
يكرهنا ، وهيهات أن يجبننا ، مع أننا نعامله بأحسن ما يمكن أن تعامل بلاد محتلة ، إن اختلاف
العادات ، وأهم منه اختلاف اللغة ، وخاصة اختلاف الدين ، كل ذلك من العقبات التى
لا يمكن تذليلها والتى تحول دون إيجاد صلات الود بيننا وبين المصريين ، إنهم يفتنون حكم
الماليك ، ويرهبون نير الاستانة ولا يحبون حكمها ، ولكنهم لا يطيقون حكمنا ولا يصبرون
عليه إلا بأمل التخلص منه »

فهذه الحالة النفسية للشعب كانت أكبر عقبة تحول دون توطيد سلطة فرنسا على ضفاف
النيل ، وكانت وحدها نذيراً كافياً بزوال هذه السلطة وانقراضها

مساعى كليبر فى عقد الصلح

ورأيه فى مركز مصر السياسى

بعد أن درس الجنرال كليبر حالة مصر ونفسية الشعب وأمعن النظر فى موقف الجيش
الفرنسى فيها وعرف إجمالاً الحالة العامة فى أوروبا وفى فرنسا اقتنع بأن لا فائدة تُرجى من
استمرار الاحتلال الفرنسى فى مصر وأن هذا الاحتلال مهما بق فمصيره إلى الفشل ، لذلك
أخذ يعمل الفكرة فى إنهاء هذا الاحتلال بطريقة تنقذ شرفه العسكرى ، لأنه لم يكن خافياً
أنه وقد ولاء نابليون القيادة العامة لجيش الشرق أصبح يحمل تبعه مصير هذا الجيش وسمعته ،
لذلك فكر فى فتح باب المفاوضات مع تركيا لعقد صلح على قاعدة الجلاء عن مصر

(١) من رسالته إلى حكومة الديركتوار فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٧٩٩

(٢) فى تقريره إلى حكومة الديركتوار

وكانت حجته في الدخول في مفاوضات الصلح أن نابليون فاتح الصدر الأعظم في هذا الصدد بالرسالة التي بعث بها إليه قبل رحيله إلى فرنسا ، وأنه فوض إلى كبير إمام هذه المفاوضات وخوله سلطة عقد الصلح مع تركيا ولو كانت قاعدته الجلاء عن مصر ، فلم يكن عليه غبار إذا هو نفذ هذه الفكرة خصوصاً إذا كانت ظروف الموقف السياسي والحربي تقضي بالمفاوضة وتجعل استمرار القتال عقياً

كتب الجنرال كبير في رسالة منه إلى حكومة الديركتوار يبرر مفاوضاته في سبيل الصلح بقوله :

« إنى أعتز بأهمية احتلالنا مصر ، وقد كنت أقول في أوروبا إن مصر بالنسبة لفرنسا كنقطة الارتكاز التي نستطيع بها أن نقبض على ناصية التجارة ونتولى زمامها في سائر أنحاء العالم ، ولكن يجب لذلك أن يكون لفرنسا محرك قوى ، وهذا المحرك هو البحرية ، ولقد كانت لنا بحرية ، ثم ضاعت ، فتغير كل شيء ، وتغيرت المسألة من كل وجه ، ولم يعد لنا فيما يظهر لى سوى عقد صلح مع تركيا لنمهد لأنفسنا طريقاً شريفاً نخلص به من حملة لا يمكن أن تتحقق أغراضها التي دعت إليها »

وكتب السيو بوسليج في هذا الصدد يقول :

« إن مصر بلاد بديعة ، ومركزنا فيها يجب أن يتبع الظروف ، وقد دلت هذه الظروف على أننا جئنا مصر قبل الأوان ، وليس من شك في أننا لو كنا حكام مصر لأنقذناها من الآفات التي تفتك بها وأحيينا زراعتها وتجارها بحيث تعود تلك البلاد إلى عظمها القديمة وتصبح أجمل بلاد الدنيا ، ولا تلبث أن تحمل في يدها ميزان التجارة في العالم ، ولكن مصر يحيط بها بحران وصحراوان ، فالوصول إليها يستلزم بحرية قوية ، وهذه البحرية ضرورية لاستثمارها وحماية تجارتها ومواصلاتها ، والآن ليس للجمهورية الفرنسية بحرية ، ولا بد لها من زمن طويل لتنشئ عمارة تضارع عمارة خصومها ، فالبقاء في مصر بدون وسائل فعالة للاتصال بها وإرسال المدد إليها يؤدي إلى تمكين روسيا أو إنجلترا من احتلالها والبقاء فيها بحجة طردنا منها »

هذا ما كتبه السيو بوسليج في ٢٣ سبتمبر سنة ١٧٩٩ ، فتأمل في عباراته ، وارجع بفكرك إلى الماضي القريب والبعيد ، واستعرض الحوادث التي تعاقبت على البلاد في خلال نيف ومائة عام ، تجد أنها قد أيدت بعض هذه التنبؤات ، فان إنجلترا أخذت من ذلك الحين ترقب الفرص لتضع يدها على مصر ، ولقد سعت في إخراج الفرنسيين لتحل محلهم ،

واستعانت على ذلك بقواتها البحرية والبرية ، وأرادت أن تحقق أطباعها في وادي النيل فلم تفجح ،
وجردت في أوائل عهد محمد على حملتها المعروفة بحملة الجنرال (فيزر) لاحتلال البلاد ،
لكنها وجدت في مصر القوة التي صدمتها وقاومت عدوانها ، فارتدت عن البلاد سنة ١٨٠٧
خائبة ، وجسّت جنودها عن أرض الكنانة ، على أنها ما لبثت بعد ذلك ترقب فريستها السنين
الطوال إلى أن سنحت لها الفرصة لتحقيق أطباعها سنة ١٨٨٢ فانهزت الحرب الداخلية التي
وقعت فيها والضعف المعنوي الذي سرى إلى نفوس أبناءها واحتلت البلاد بجنودها ، ولم تجد
فيها القوة التي تصدها عنها مثلما وجدت عام ١٨٠٧ ، فما أقوى العظة ! وما أبلغ الاعتبار !
اعتزم إذن كليبر أن يفاوض تركيا في عقد صلح معها على قاعدة الجلاء عن مصر ، فبعث
إلى الصدر الأعظم رسالة مطولة ذكّره فيها برسالة نابليون له قبل سفره ، وجدد طلب إنهاء
حالة الحرب بين الدولتين ، وأعرب عن مقاصد فرنسا الودية نحو تركيا قائلاً إن فرنسا لم تقصد
مصر إلا لمحاربة إنجلترا وأنها لم تقا تل إلا المماليك ، وأنها تركت الإدارة المدنية في مصر لهيئة
العلماء وكبار الأعيان ، واحترمت رعايا السلطان وأملاكهم ، وأبقت على الوجود والسيادة
السلطان ، وأنها لا تنازع حقوق تركيا في مصر ، وطلب إليه في ختام رسالته أن يوفد إليه
مندوباً للمفاوضة في قواعد الصلح ، والظاهر أن هذه الرسالة والرسالة التي تقدمتها من نابليون
ألقنا في روع تركيا أن مركز فرنسا أصبح من الحرج والضعف بحيث اضطرت إلى طلب
الصلح ، فتلكأت في الرد واستمرت في تعبئة جيوشها للزحف على مصر

تجدد القتال وهزيمة الأتراك في عزبة البرج

أول نوفمبر سنة ١٧٩٩

استمرت تركيا تعي جيوشها للحملة على مصر براً وبحراً ، وأعدت حملتها البحرية قبل
أن تتم حشد جيشها في سورية ، وبدأت تهاجم مصر من شواطئها الشمالية قبل أن يزحف
جيشها من طريق برزخ السويس ، وهكذا وقعت في الخطأ الذي وقعت فيه من قبل في شهر
أغسطس سنة ١٧٩٩ بإنزال جيشها إلى شواطئ (أبو قير) قبل أن يزحف جيشها الآخر
من طريق البر ، وكانت نتيجة ذلك الخطأ هزيمة الجيش العثماني في معركة أبو قير ، ومع ذلك
زلت فيه مرة أخرى في أواخر شهر أكتوبر سنة ١٧٩٩ ، وهذا راجع إلى ما كانت عليه
القيادة العثمانية من ضعف الكفاية

أقبلت العهارة العثمانية تجاه شواطئ دمياط في أواخر شهر أكتوبر سنة ١٧٩٩ وكانت مؤلفة من ثلاث وخمسين سفينة تقل سبعة آلاف من خيرة الجنود الانكشارية بقيادة السيد علي بك تصحبها البارجة الإنجليزية « تايجر » (النمر) وعليها الكومودور السير سدني سميث قائد الأسطول البريطاني

نزل الجنود العثمانيون إلى شاطئ البحر بالقرب من بوغاز دمياط فاحتلوا برج البوغاز الذي كان يحمي مصب النيل بالبر الشرقي، وكانت الجنود الفرنسية معسكرة بين عزبة البرج وشاطئ البحر الأبيض بقيادة الجنرال فردييه Verdier، فسار بجنوده يوم أول نوفمبر سنة ١٧٩٩ للقاء الجنود العثمانية الذين رابطوا على شاطئ البحر بين بوغاز دمياط وبحيرة المنزلة، وهاجمهم في مواقعهم ونشبت بينهم معركة انتصر فيها الجنرال فردييه انتصاراً كبيراً، ويقول الفرنسيون إنه قتل في أثناء هذه المعركة زهاء ثلاثة آلاف من الأتراك وأسر منهم ثمانمائة^(١)، وعلم كليبر وهو في القاهرة نبأ نزول العثمانيين إلى الشاطئ والمهزيمة التي حلت بهم، فشدد هذا الانتصار عزائم الفرنسيين وأعاد إليهم الاطمئنان على مصيرهم

أعمال كليبر العلمية

أعاد انتصار الجنرال فردييه إلى نفس كليبر روح الأمل في البقاء في مصر وتوطيد سلطة الفرنسيين فيها وإمكانه رد هجمات العثمانيين، فأخذ يعنى بتنظيم الإدارة، واستأنف الأبحاث العلمية التي بدأها نابليون من قبل، فقد أسلفنا أن نابليون الف قبيل رحيله عن القاهرة لجنتين علميتين من أعضاء المجمع العلمي لاكتشاف الآثار المصرية في الوجه القبلي^(٢)، فعزم كليبر أن يقفو آثار سلفه، فألف^(٣) لجنة علمية ثالثة لدرس حالة مصر الحديثة من ناحية نظام الحكم فيها وشرائعها وقوانينها وعاداتها ودينها وحالتها الاجتماعية وعلومها وتجارتها وصناعاتها وزراعتها وجغرافيتها، وكان غرضه من تأليفها أن تكمل عمل اللجنتين الأوليين ليتاح للجان الثلاث دراسة الحضارة المصرية القديمة وتخطيط مصر الحديثة، وعين لعضوية تلك اللجنة جماعة من أقطاب المجمع العلمي ولجنة العلوم والفنون، فأخذت اللجنة توالى اجتماعها وأبحاثها، ووضعت خطة العمل ووزعت مواضيع البحث على الأعضاء وعلى غيرهم من علماء الحملة الفرنسية ومهندسيها، ومن أبحاث هؤلاء العلماء يتألف شطر كبير من كتاب «تخطيط مصر» الذي تكلمنا عنه في الفصل التاسع عشر من الجزء الأول

(١) رسالة الجنرال كليبر إلى الديركتوار بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٧٩٩

(٢) انظر الفصل الرابع

(٣) في شهر نوفمبر سنة ١٧٩٩

الفصل السابع

معاهدة العريش

كان الجنرال كليبر مع استعداداته الحربية يسمى سعيًا حثيثًا في عقد الصلح على قاعدة الجلاء عن مصر ، وبالرغم من انتصار الفرنسيين على الجنود التركية في عزبة البرج فإن كليبر كان مقتنعًا بضرورة الصلح وبإنهاء حالة الحرب التي كانت تركيا تعد المعدات لاستئنافها ، فقد أخذت قوات الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا ترابط في غزة تمهيدًا للزحف على مصر ، وكانت بوارج الأسطول الإنجليزي بقيادة السير سدننى سميت تجوب البحر من يافا إلى الاسكندرية وتراقب سواحل مصر مراقبة دقيقة ، فاتخذ كليبر مصطفى باشا قائد الحملة التركية في معركة (أبو قير) البرية وسيطًا في فتح مفاوضات الصلح ، فحرت مفاوضة مبدئية بينهما في الشروط التي تكون أساسًا للمعاهدة ، وانفق الطرفان على جعل قاعدة جلاء الفرنسيين عن مصر أساسًا للصلح وأن تترك شروط الجلاء للمفاوضات الرسمية ، وفي غضون ذلك عاد رشيد افندى يحمل جواب الصدر الأعظم على رسالة نابليون^(١) ، وخلاصة هذا الجواب أنه أعد جيشًا جرارًا لطرده الفرنسيين من مصر ولكنه تلقاء دعوة نابليون فإنه مستعد لإعداد السفن اللازمة لرحيل الفرنسيين إلى فرنسا وأنه يضمن ألا يتعرض لهم الروس والإنجليز في الطريق ، وإذا تم جلاء الفرنسيين فإنه يقبل المفاوضة في إعادة الصلح بين تركيا وفرنسا ، والكتاب مكتوب بلهجة التهديد والوعيد

وصل هذا الجواب بعد رحيل نابليون بما ينيف على شهرين ، وبالرغم من أنه لم يكن مرضيًا فإن الجنرال كليبر أعاد طلب المفاوضة في سبيل الصلح وبعث برسالة جديدة إلى الصدر الأعظم وكان السير سدننى سميت يميل من جهته ولو ظاهراً إلى عقد الصلح على هذا الأساس ويؤثر هذه الوسيلة على إجبار الفرنسيين بقوة القتال على تسليم أنفسهم كأسرى حرب ، لأنه كان يعتقد في قوة الجيش الفرنسي وكفاية قواده، ولا يثق بفوز الجيش العثماني إذا دارت رحى الحرب ثانية ، وكان كليبر من ناحيته يرفض بتاتاَ التسليم الذي يضر بسمعته العسكرية ويؤثر استمرار الحرب على التسليم بلا شرط ولا قيد ، أما الصدر الأعظم فكان متصلباً في قبول

الصلح معتراً بعدد جنوده ومحالفة إنجلترا والروسيا مع الباب العالي راغباً في سحق الجيش الفرنسي وأسرّه في ميدان القتال

لكن السير سدني سميث تدخل في الأمر لإقناع الصدر الأعظم بقبول فكرة الصلح ، وتبادل هو والجنرال كليبر الرسائل لفتح باب المفاوضات الرسمية والاتفاق على هدنة يكف فيها الفريقان المتحاربان عن القتال ، وكان يعتقد أن هذه الهدنة تنفع تركيا لأنها تمكن الجيش العثماني من إتمام استعداده للزحف على مصر ، وقد دلت الحوادث المقبلة على حقيقة هذا الغرض

مفاوضات الصلح في دمياط وغزة

أوفد الجنرال كليبر إلى السير سدني سميث الادمودان جنرال موران Morand للاتفاق على وضع خطة لإجراء المفاوضات ، فالتقى به في يافا ووضعت الخطة ، وهي التقاء مندوبي الدول المتحالفة الثلاث : تركيا وإنجلترا والروسيا بمندوبي فرنسا للشروع في المفاوضات ، وعين السير سدني سميث عن إنجلترا ، والصدر الأعظم يوسف باشا ضيفاً عن تركيا ، والقنصل فرانكيني Franchini عن روسيا ليُدافع كل عن وجهة نظر دولته في المفاوضات ، وعاد موران إلى القاهرة ليعرض على كليبر اختيار مندوبه لإجراء المفاوضة الرسمية ، فعين الجنرال ديزيه قائد الجنود الفرنسية في الصعيد والمسيو بوسليج مدير الشؤون المالية مندوبين عنه في المفاوضات وفوضهما في قبول الشروط التي ارتضاها أساساً للصلح

ابتدأت مفاوضات الصلح على ظهر البارجة الإنجليزية (تايجر) Tigre التي رست في عرض البحر تجاه بوغاز دمياط وكانت أول مقابلة بين المندوبين الفرنسيين والسر سدني سميث يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ ، وكان سدني سميث يتكلم بالنيابة عن إنجلترا وحلفائها ، أما الصدر الأعظم يوسف باشا فكان منهمكاً في الزحف على مصر ، واستمرت المفاوضات عدة أيام عرض الجنرال ديزيه والمسيو بوسليج في خلالها شروط الفرنسيين لجلاتهم عن مصر ، وأهمها أن تعاد إلى فرنسا أملاكها في البحر الأبيض المتوسط^(١) ، وتقسخ تركيا معاهدة التحالف التي عقدها مع روسيا وإنجلترا ، وتعقد صلحاً نهائياً مع فرنسا بحيث تعود العلاقات بين تركيا وفرنسا كما كانت قبل الحرب ، وأن تمضى إنجلترا تعهداً جديداً بالمحافظة على كيان السلطنة العثمانية ، وأن يجلو الجيش الفرنسي عن مصر بأسلحته وأمتعته على أن يكون له مطلق الحرية

(١) هي الجزائر الأيونية وقد آلت لفرنسا بمقتضى معاهدة (كامبو فورميو) ثم احتلتها الجنود الروسية والتركية أثناء القتال فطلب كليبر أن تعاد إلى فرنسا وطلب أيضاً أن يضمن لفرنسا امتلاك مالطة

في اختيار الثغر الذي ينزل به في أوروبا . ولم يكن السير سدنى سميت يتوقع من مندوبى فرنسا مثل هذه الشروط لأنه كان يرجوا أن يتم الجلاء بلا شرط ولا قيد ، فأبدى اعتذاره بأن ليس لديه سلطة تخوله البت في مثل هذه الشروط وأنه ليس إلا وسيطاً بين فرنسا وتركيا ، ووعد بالتوسط إلى الصدر الأعظم لوضع شروط للجلاء يقبلها الطرفان ، وعرض على المندوبين الفرنسيين أن تبحر البارجة (تايجر) إلى مياه سورية كي يتمكن من مقابلة الصدر الأعظم الذى كان معسكراً بالقرب من غزة ، فرضى المندوبان الفرنسيان وأبحرت السفينة إلى يافا ، وهناك وصل إلى علم المندوبين الفرنسيين نبأ كان له وقع أليم في نفوسهم وأثر كبير في سير المفاوضات ، وهو سقوط قلعة العريش في يد العثمانيين

زحف الجيش العثماني واحتلال قلعة العريش

٣٠ ديسمبر سنة ١٧٩٩

ذلك أنه في خلال المفاوضات التي جرت بين كليبر والسير سدنى سميت في سبيل الصلح كان الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا قد آتم معداته للزحف على مصر من طريق سورية وبدأ يتقدم من غزة قاصداً العريش في منتصف شهر ديسمبر فوصل تجاهها يوم ٢٢ ديسمبر فحضر الحصار عليها وطلب من حاميتها تسليم القلعة

كانت حامية العريش مؤلفة من ٤٥٠ جندياً فرنسياً بقيادة الكابتن جازلاس Gazlas من ضباط فرقة الهندسة ، وقد عني الفرنسيون بتحسين القلعة وتزويدها بالمدافع والذخائر لتستطيع رد هجوم الجيش العثماني وتعطل زحفه مدة طويلة من الزمن ، لكن فريقاً من حامية العريش دبت فيهم روح التمرد والخروج على النظام واعتبروا إرسالهم إلى العريش عقوبة لهم فاشتد سخطهم وتمردهم ، وسرت بين الجنود فكرة الانتفاض والتمرد ، فضعفت روحهم المعنوية وجعلوا يرقبون أول فرصة لإلقاء السلاح والكف عن القتال ، فلما وصل الجيش العثماني وضرب الحصار عليهم تمرد فريق من الحامية وطلبوا من القومندان تسليم القلعة فلم يجبهم إلى طلبهم وتهدد التمردين بأشد العقاب ، فعاد النظام مؤقتاً بين صفوف الجنود واستمرت المقاومة عدة أيام ، ولكن روح التمرد بقيت كامنة في النفوس إلى أن انفجرت يوم ٢٩ ديسمبر لمناسبة هجوم شديد من الجنود العثمانية على القلعة فامتنع التمردون عن المقاومة وسلموا القلعة وسهلوا للعثمانيين دخولها فاحتلوها يوم ٣٠ ديسمبر وأعملوا في حاميةها السيف وقتلوا منهم ٢٣٠ وأسروا الباقين ومنهم الكابتن جازلاس

وصل نبأ احتلال الأتراك للعريش إلى القاهرة فعجل الجنرال كليبر بالانتقال بمعسكره إلى الصالحية ليكون على استعداد لرد هجومهم إذا لم يتم الصلح

علم الجنرال ديزيه والمسيو بوسليج بهذه الأنباء وهما على ظهر البارجة (تايجر) ، وبديهي أنها كانت من بواعث تساهلهما في قبول شروط الصلح ، وقد التقى السير سدنى سميث بيوسف باشا واتفقا على أن يجتمعا بالمدوبان الفرنسيين في معسكر الصدر الأعظم بالعريش لوضع شروط الصلح ، فوصل المدوبان الفرنسيان إلى العريش يوم ١٣ يناير سنة ١٨٠٠ ، وهناك بدأت المفاوضات النهائية ، فكان يتولى المفاوضات عن تركيا مصطفى رشيد أفندي دفتردار الصدر الأعظم ، ومصطفى راسخ أفندي رئيس الكتاب ، وعن فرنسا الجنرال ديزيه والمسيو بوسليج ، وعن إنجلترا السير سدنى سميث ، وعن روسيا القنصل فرنكينى Franchini

المجلس الحربى الفرنسى لإقرار الصلح

استمرت المفاوضات عدة أيام كان الجنرال كليبر فى خلالها مرابطاً بالصالحية يستعد للقتال ، ذلك أنه بعد احتلال العثمانيين للعريش اعتقد أنهم ينوون استمرار الحرب ، فحشد قواته استعداداً للمقاومة ، واتخذ الصالحية معسكره العام واجتمع بقواد جيشه يتداولون فى الخطة التى يجب اتباعها ، وكان كليبر يميل إلى الصلح ، لكنه لم يشأ أن ينفرد باحتمال هذه التبعة فجمع مجلساً حربياً فى الصالحية من نخبة قواد الجيش ليقرر رأيه فى قبول الصلح أو استمرار القتال ، وكان المجلس مؤلفاً من الجنرال كليبر رئيساً ، والجنرال داماس رئيس أركان حرب الجيش ، والجنرال رينيه Reynier وفران Friant من قواد الفرق ، ودافو Davout ورامبون Rampon ولاجرانج Lagrange وروبان Robin من قواد الأورط ، والجنرال سونجى Songis قائد المدفعية والجنرال سانسون Sanson قومندان فرقة الهندسة أعضاء ، والقوميسير دور Daure مدير مهمات الجيش سكرتيراً للمجلس

اجتمع المجلس فى المعسكر العام بالصالحية يوم ٢١ يناير سنة ١٨٠٠ ، فعرض عليهم كليبر خلاصة المفاوضات التى بدأها نابليون قبل سفره واستأنفها وبيان الشروط المعروضة لعقد الصلح ، وطلب من المجلس أن يبدى رأيه فيما يجب اتباعه حيال الموقف الحربى فى مصر ، فتكلم القواد وبحثوا الموقف من كافة وجوهه ، ثم اتفق رأيهم بالإجماع على وجوب قبول الصلح والجلاء بدلا من المغامرة فى قتال لا ينتهى إلى نتيجة صالحة حتى ولو انتصر الجيش الفرنسى ، إذ كان الانتصار لا يؤدى إلى تحسين موقف الفرنسيين ، ونصح القواد فى قرارهم

بوجوب التعجيل بعقد الصلح حتى لا يضطر الجيش بعد شهرين إلى قبول شروط أقل ملاءمة لشرفه ، وطلبوا من المفاوضين أن يهتموا في شروط الصلح بأن يكون الجلاء عن القاهرة في أبعد زمن ممكن ، وتركوا لحكمة المفاوضين أخذ الضمانات لتنفيذ شروط المعاهدة وسلامة الجيش

وقد استند القواد في قرارهم على أن عدد الجنود الذين يمكن للجيش الفرنسي أن يحشدهم لمقاومة الحملة العثمانية ثمانية آلاف مقاتل للدفاع عن قطية والصاحية وبلبيس والقاهرة (وهذا العدد دون الحقيقة) ، في حين أن عدد الجيش العثماني الزاحف يبلغ ٢٥٠٠٠٠ مقاتل عدا الاحتياطي المرابط في غزة ، وأن تسليم قلعة العريش في الظروف التي حصل التسليم فيها يدل على روح الملل الذي دب في نفوس الجنود ، وأنه يخشى في حاله انتصار الجيش العثماني وقيام ثورات في داخلية البلاد أن تستهدف حياة العشرين ألف فرنسي من عسكريين وملكيين للخطر ، وأن عدم ورود تعليمات من الحكومة الفرنسية إلى القيادة العامة مع مضي نحو خمسة أشهر على رحيل بونابرت إلى فرنسا دليل على موافقة الحكومة ضمناً على الجلاء

وقد أرسل الجنرال كليبر نتيجة قرار المجلس الحربي إلى المفاوضين في العريش ، وكلفهم التعجيل بإتمام الصلح ، ولفت نظرهم إلى تفصيلات الجلاء كاشتراط مواعيد لتنفيذه ، وتدير وسائل النقل والاتفاق على خط سير الجيش وتسليمه المواقع الحصينة عند الجلاء

التوقيع على المعاهدة

انتهت المفاوضات بتوقيع معاهدة الصلح التي عرفت في التاريخ باسم (معاهدة العريش) يوم ٤ بلوفيز من السنة الثامنة للجمهورية (٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ — ٢٧ شعبان سنة ١٢١٤) ، وقعتها بالنيابة عن الصدر الأعظم كل من مصطفى رشيد افندى الدفتردار ومصطفى راسخ افندى رئيس الكتاب ، وعن القائد العام للجيش الفرنسي كل من الجنرال (ديزيه) والسيو بوسليج ، ولم يوقع عليها أحد من قبل الحكومة الإنجليزية

وقد تضمنت المعاهدة بيان الفرض منها ، وهو جلاء الفرنسيين عن مصر ، فجاء فيها أن الجيش الفرنسي لرغبته في وضع حد لسفك الدماء وإنهاء النزاع القائم بين الجمهورية الفرنسية والباب العالي قد قبل أن يجلو عن مصر على النحو الوارد في هذه المعاهدة مؤملاً أن يكون هذا النزول منه تمهيداً للصلح العام في أوروبا

شروط المعاهدة

تقضى معاهدة العريش بجلاء الجنود الفرنسية عن مصر بأسلحتهم وأمتعتهم وأثقالهم ، وإقلاعهم بحراً من ثغور الإسكندرية ورشيد وأبو قير على السفن الفرنسية والسفن التي تعدها الحكومة العثمانية ، ولهذا الغرض ترسل الحكومة العثمانية إلى الاسكندرية بعد شهرين من التصديق على المعاهدة قوميسيراً ومعه خمسون شخصاً لإعداد السفن التي تقل الجنود ، ويتم الجلاء في مدى ثلاثة أشهر تكون بمثابة هدية لتنفيذ شروط المعاهدة ، وفي حالة عدم ورود السفن التركية لنقل الجنود في خلال هذه المدة تمد الهدية إلى أن يتم رحيلهم ، وتعهد الطرفان بالمحافظة على سلامة الجنود والأهالي أثناء الجلاء ، ويتم نقل الجنود في السفن بحسب النظام الذي يوضع بمعرفة قوميسيرين يعينهما الباب العالي والجزرال كليبر ، وإذا وقع خلاف بين القوميسيرين في حالة نقل الجنود يعين السير سدني سميت قوميسيراً من قبله لحسم الخلاف طبقاً للوائح البحرية البريطانية

مواعيد الجلاء --- نصت المعاهدة على أن يكون جلاء الجنود الفرنسية في المواعيد الآتية :

قطية والصالحية — بعد ثمانية أيام أو عشرة على الأكثر من التصديق على المعاهدة المنصورة — بعد خمسة عشر يوماً

دمياط وبلبيس — بعد عشرين يوماً

السويس — قبل الجلاء عن القاهرة بستة أيام

القاهرة — بعد أربعين أو على الأكثر خمسة وأربعين يوماً من التصديق على المعاهدة

المدن الواقعة بالبر الشرق للنيل — بعد عشرة أيام

بلاد الدلتا — بعد خمسة عشر يوماً من الجلاء عن القاهرة

المدن الواقعة بالبر الغربي للنيل — يجلو عنها الجيش عند الجلاء عن القاهرة ، ومع ذلك

للجنود الفرنسية احتلالها إلى أن تصل الجنود القادمة من الوجه القبلي ، ويمكن مد هذا الموعد إلى آخر يوم من أيام الهدنة

وتسلم المواقع التي يجلو عنها الفرنسيون إلى الجيش العثماني بالحالة التي هي عليها وقت التوقيع

على المعاهدة ، مع المحافظة على سلامة الجنود الفرنسية ، ومع اتخاذ الوسائل لجعل مواقع الجنود

العثمانية بعيدة عن الجنود الفرنسية أثناء الجلاء منعاً للتصادم بينهما ، ونصت المعاهدة على وجوب

إطلاق سراح المعتقلين من الجانبين في فرنسا أو في مصر أو في تركيا ، والمحافظة على سلامة

وأموال من أظهروا الولاء من المصريين نحو فرنسا أثناء الاحتلال الفرنسي ، وإعطاء جوازات

مهور للجيش الفرنسى من قبل الحكومة العثمانية وحليفاتها (انجلترا والروسيا) لضمان وصول الجيش إلى فرنسا وعدم التعرض له فى البحر لامن جانب تركيا ولا من جانب حلفائها ، وصرح لتركيا أن ترسل توا بعد التصديق على المعاهدة مندوبين من قبلها إلى القاهرة والمدن المحتملة لدفع نفقات ترحيل الجنود وتوفير المؤونة اللازمة لهم ، وتعهد الفرنسيون بعدم جباية أموال بعد التصديق على المعاهدة ، ويبدأ سريان المعاهدة من يوم التصديق ، ويتم التصديق فى خلال ثمانية أيام من التوقيع عليها ، وكتبت المعاهدة باللغتين الفرنسية والتركية ، وقد صدق الجنرال كليبر على المعاهدة فى معسكر الصالحية يوم ٢٨ يناير سنة ١٨٠٠ ، وأرسل صورتها إلى الجنرال دوجا بالقاهرة ليبلغها إلى الديوان

قال الجبترى فى هذا الصدد :

« تم عقد الصلح على اثنين وعشرين شرطاً رسمت وطبعت فى طومار^(١) كبير ، وورد الخبر بذلك إلى مصر وفرح الناس بذلك فرحا شديداً ، وأرسل سارى عسكر الفرنسية (كليبر) مكاتبه بصورة الحال إلى دوجا قائم مقام ، فجمع أهل الديوان وقرأ عليهم ذلك ، ولما ورد ذلك الطومار المتضمن عقد الصلح والشروط عربوه (لأنه كان محرراً بالفرنسية والتركية) وطبعوا منه نسخاً كثيرة فرقوا منها على الأعيان وألصقوا منها بالأسواق والشوارع »

وقد نشر الجبترى فى تاريخه صيغة الترجمة العربية للمعاهدة كما وزعت فى القاهرة فى ذلك العهد وطبعت على المطبعة الفرنسية العربية التى أنشأها الفرنسيون فى مصر ، لكن هذه الترجمة سقيمة ، وفيها أغلاط كثيرة جداً ، فأثرنا أن نعرب المعاهدة عن الأصل الفرنسى وقد لخصنا فيما تقدم أهم شروطها ونشرناها بنصها فى قسم الوثائق التاريخية^(٢) ليرجع إليها القارىء إذا شاء زيادة البيان

نظرة فى معاهدة العريش

إن معاهدة العريش تتحصل فى كلمة وجيزة وهى جلاء الفرنسيين عن مصر بلا قيد ولا شرط ، وهى أول وثيقة من الوثائق الدولية الحديثة اعترفت فيها الدولة المحتلة مصر فى أواخر القرن الثامن عشر بفشل احتلالها وتعهدت بجلأها عن البلاد ، فهى بهذا الاعتبار خطوة فى سبيل تكوين مصر المستقلة ، لأن تركيا وإن كانت قد تولت عقد هذه المعاهدة على

(١) الطومار كما فى لسان العرب (الجزء السادس) معناه الصحيفة

(٢) وثيقة رقم ٤

أنها صاحبة الولاية على مصر وقتئذ إلا أنها في الواقع لم تستطع أن تسترجع حكمها القديم على ضفاف وادي النيل ، أو تضع يدها على البلاد ، وبذلك خلصت البلاد لأهلها وأسلم الشعب مقاليد الحكم إلى محمد علي الكبير كما سنفصل ذلك في موضعه ، فمعاهدة العريش هي الوثيقة الرسمية التي تعهدت فيها فرنسا بالجلء عن مصر ، فهي إذن من أهم الوثائق الرسمية في تاريخ مصر الحديث

وقد شعر الجنرال كليبر بأن هذه المعاهدة قضت نهائياً على أحلام الفرنسيين في إنشاء مستعمرة في وادي النيل ووضعت حداً للحملة الفرنسية التي كان نابليون يبني عليها الآمال الكبار ، ومع أن كليبر كان من أشد أنصار الجلاء ، إلا أنه أحس الذلة بعد التصديق على المعاهدة لأن اسمه قد اقترن بانسحاب الفرنسيين من مصر ، وقد أفضى بشعوره إلى أخصائه وصرح به كتابة في رسالة إلى المسيو بوسليج بتاريخ ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ ، قال فيها :

« إن هذه المعاهدة لم تسيء إلى أي أحد سواي ، فإن مصلحتي كانت تقضى علىّ بأن أكسب فخر منازلة الصدر الأعظم في ميدان القتال ، وأن أقدم هذا الفخر على كل الاعتبارات الأخرى ، لكنني لا أكون قد قمت بواجبي الوطني إذا أنا ضحيت حياة عشرين ألف فرنسي في سبيل مجدى الشخصى ، وسأستهدف الآن لمطاعن من كانوا حتى اليوم أكثر الناس خوفاً من نتائج استمرار القتال ، فهم الآن سينادون بأنه كان يجب أن نواصل الحرب ، على أنى وطئت نفسى على ألا تعربى السدأح كما لا تؤثر في نفسى المثالب القائمة على الإفك والبهتان مادام ضميرى يشهد بأنى قد أديت واجبي »

طوت معاهدة العريش صحيفة القتال وقتياً ، وعاد الجنرال كليبر من الصالحية إلى القاهرة يصحبه المندوبان المنفوضان اللذان وقعا على المعاهدة ، فوصلوا إلى القاهرة يوم ١٨ فبراير ، وأخذوا يعدون معدات الجلاء

الاستعداد للجلاء

عاد كليبر إلى القاهرة وأخذ يستعد لجلاء الجنود الفرنسية عن مصر ، وألف لجنة لإنفاذ الجلاء في المواعيد المحددة في المعاهدة ، وكان جاداً في تنفيذ شروط الصلح غير حاسب أن في الجوف مفاجآت أدت بعد ذلك إلى نقض المعاهدة ، فقد كان كليبر في عودته إلى القاهرة يصحبه أحد الرؤساء العثمانيين من حاشية يوسف باشا اسمه « محمد أغا » ليمتولى إدارة الحكومة ، فساعده

الجنرال كليبر في عمله وأمر حسن أغا نجاتي المحتسب بأن يتلقاه في بيته ويبالغ في إكرامه ،
قال الجبرتي في هذا الصدد :

« فلما كان بعد العشاء ، دخل ذلك الأغا إلى مصر في موكب ، فحصلت بين الناس ضجة
عظيمة ، وازدحموا لمشاهدته والفرجة عليه »

مظالم الحكم التركي

لكن مندوب تركيا أدى مهمته بطريقة نفرت قلوب المصريين وكانت أعماله نموذجاً
سيئاً جعلت المصريين ينظرون بعين السخط إلى الحكم التركي ، وسترى من الحوادث المقبلة
التي وقعت بعد جلاء الفرنسيين أثر هذه الحالة النفسية في تطورات الحوادث في مصر
دعا مندوب الدولة في صباح تلك الليلة كبراء البلد من العلماء والأعيان والوجاقلية
والتجار ، فلما اجتمعوا به تلا عليهم أمراً من الصدر الأعظم بتعيينه مديراً لمجارك القاهرة
وبولاق ومصر القديمة ، ويقضى هذا الأمر باحتكار جميع الواردات من أصناف الأقوات ،
فيشتريها مدير الجمارك المذكور بالثمن الذي يسعره (بمعرفة المحتسب) ويودعها المخازن ، وتلا
أمراً آخر يقضى بتعيين مصطفى باشا الذي سبق أن أسره الفرنسيون في معركة أبو قروكيلا
عنه وقام مقاماً بمصر إلى حين حضوره ، وإلزام السيد أحمد المحروقي كبير تجار القاهرة بتحصيل
ثلاثة آلاف كيس^(١) لسد نفقات ترحيل الجنود الفرنسية ، ولا جدال أن مثل هذه التصرفات
وما فيها من احتكار الأقوات وفرض الاناوات والفرامات لم تكن فاتحة سارة لأعمال المندوب
العثماني ، بل كانت نذير الظلم والاعتساف ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « أخذ السيد أحمد
المحروقي في تحصيل ذلك القدر من الناس وفرضوه على التجار وأهل الأسواق والحرف ،
وشرعوا في تحكير الأقوات فغلت أسعارها وضاعت مؤن الناس ، ودعى الناس من أول
أحكامهم (الأتراك) بهاتين الداهيتين ، وكان أول قادم منهم أمير المكوسات (مدير الجمارك)
ومحكر الأقوات ، وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم »

ومع ذلك فقد جبي السيد المحروقي هذه الغرامة من سكان القاهرة واجتهد في توزيعها
توزيعاً عادلاً ، ودفع الناس ما طلب منهم عن طيب خاطر لعلهم أن ذلك لجلاء الفرنسيين
ولم يكتف يوسف باشا بذلك بل أصدر أوامره إلى البلاد « بتعيين المعينين والمباشرين
لطلب المال والغلال والكاف من الأقاليم ، وأرسل إلى البنادر وجعل في كل بندر أميراً ووكيلاً

(١) الكيس خمسمائة قرش من عملة ذلك العصر

لجمع الغلال والمطلوبات من الذخيرة وخزنها بالحواصل « ولا يخفى ما فى ذلك من الإرهاق والظلم

وقال الجبرتى أيضا : « إن العثمانيين تدرجوا فى دخول مصر ، وصاروا فى كل يوم يدخل منهم جماعة بعد جماعة ، وأخذوا يشاركون الناس فى صناعاتهم وحرفهم مثل التهجوية والحمامية والخياطين والمزنيين وغيرهم ، فاجتمع العامة وأصحاب الحرف وذهبوا إلى مصطفى باشا قائم مقام وشكوا إليه ، فلم يلتفت لشكواهم لأن ذلك من سنن عساكرهم وطرائقهم العقيمة »
هذا ما كتبه الجبرتى فى بيان مساوى الحكم التركى فى ذلك العهد ، وهو قول لا غبار عليه ، وقد أيدت الحوادث التى تتابعت بمد ذلك حكم الجبرتى

ولم تقف المغارم عند هذا الحد ، بل أخذ المالك الذين جاءوا فى ركاب يوسف باشا بأمرهم وينهون ويشمخون بأوفهم ويعودون إلى أساليبهم ومظالمهم القديمة ويفرضون على الأهالى ما شاءت أهواؤهم من الجمالات والاناوات

أما الفرنسيون فقد انهمكوا فى إعداد معدات الرحيل وشرعوا فى بيع أمتعتهم وما بقى من سلاحهم ودوابهم ، وسلموا غالب الثغور والقلاع ، وبادر جماعة من أقطاب الحملة إلى السفر لفرنسا دون انتظار رحيل الجيش ، وكان الجنرال (ديزيه) أحد الموقعين على معاهدة العريش أول من بادر إلى السفر وصحبه فى سفره الجنرال دافو والقوميسير (ميو) Miot ومعهم بعض الضباط فأقلعوا من الإسكندرية قاصدين فرنسا ، لكن أوامر الأدميرال اللورد كيث Keith قومندان القوات البحرية الإنجليزية فى البحر الأبيض المتوسط صدرت إلى بوارج الأسطول بالغاء العمل بشروط معاهدة العريش ، فضبط الجنرال ديزيه ورفاقه ولبثوا فى نعر (ليفورن)^(١) رهن الاعتقال وهم يحتجون على هذه المعاملة وما فيها من نقض معاهدة العريش إلى أن سمح لهم بمواصلة السفر إلى فرنسا فوصل ديزيه إلى طولون يوم ٢٤ أبريل سنة ١٨٠٠^(٢)

وكذلك جرى للمسيو بوسليج والجنرال دوجا وغيرها فان السفن الإنجليزية صادرت سفرهم ولم يصلوا إلى فرنسا إلا بعد عناء كبير

(١) من ثغور إيطاليا

(٢) علم ديزيه عند نزوله إلى طولون أن نابليون فى إيطاليا يحارب النمسيين فلحق به وحارب إلى جانبه فى معركة (مارنجو) التى انتصر فيها نابليون وقتل فيها ديزيه (١٤ يونيه سنة ١٨٠٠) ، ومن غرائب الأقدار أنه قتل فى نفس اليوم الذى قتل فيه الجنرال كبير بالقاهرة

الفصل الثامن

نقض المعاهدة

وممركة عين شمس

لم تقع هذه المصادر عفوا ، بل كانت نتيجة خطة اتبعتها الحكومة الانجليزية حيال معاهدة العريش ، فانها لم تقر هذه المعاهدة وأعلنت أنها لا ترتبط بشرطها ، وأصدرت أوامرها إلى اللورد كيث بالأذن للجنود الفرنسية باجتياز البحر والوصول إلى فرنسا

والواقع أن السير سدني سميث لم يوقع على المعاهدة مع أنه كان وسيط الاتفاق بين الفرنسيين والعثمانيين والمتولى لسير المفاوضات والواضع لشروط الصلح ، ولعله لم يوقع عليها لترك حكومته حرة في تنفيذ ما يروق لها من نصوص المعاهدة ورفض ما لا يروقها ، فالحكومة الانجليزية لم تقبل أن يبصر الجنود الفرنسيون بأسلحتهم إلى بلادهم وأصرت على أن يسلموا أسلحتهم ويسلموا أنفسهم كأسرى حرب وألا يسمح لهم بالذهاب إلى فرنسا ، وكانت العقوبات التي لقيها ديزيه وبوسليج ودوجا في سفرهم نتيجة هذه التعليمات

أدرك الجنرال كليبر أن الحكومة الانجليزية قد عبثت به في مفاوضات العريش فتركته يتعهد بالجلء عن مصر واعتزمت أن تأخذ جنوده كأسرى حرب ، وفي الوقت نفسه كان يوسف باشا الصدر الأعظم يتقدم بجنوده في داخلية البلاد تنفيذاً للمعاهدة ، فاحتلت جنوده قطية والصالحية وبلبيس والسويس والمنصورة وعزبة البرج ودمياط بدون قتال ، واستقر في بلبيس ، وتقدم القسم الأول من الجيش العثماني بقيادة ناصف باشا إلى الخانكة ثم إلى المطرية ، وعين الصدر الأعظم درويش باشا واليا على الصعيد ، فضى إلى الوجه القبلي ليمتولى حكمه

فشعر كليبر بحرج موقفه ، وأخذ يستعد لاستئناف القتال ، وكان بعض الجنود العثمانيين قد دخلوا القاهرة أفراداً ، وحدثت بينهم وبين الجنود الفرنسية بعض مشاجرات ، فأصدر كليبر أمراً بالألا يدخل القاهرة أى جندي عثماني ، وأعاد تحصين القلاع المحيطة بالمدينة وأرجع الذخائر والمهمات إلى المعسكر العام ، واستدعى كتائب الجيش من الرحمانية ورشيد والوجه القبلي ، فاحتشد الجيش وربط بالقبعة استعداداً للالقاء الجيش العثماني القادم ، وأرسل كليبر إلى الصدر الأعظم الذي كان لم يزل ببلبيس يذكر له ما كان من نقض الانجليز للمعاهدة ، فأرسل

الصدر الأعظم إلى السير سدنى سميث يطلب إليه احترام شروط الصلح ، وأخذ هو يزحف ببقية الجيش على القاهرة ، فوصل إلى الخانكة ثم تقدمت جنوده بقيادة ناصف باشا نحو القبة فصارت وجهاً لوجه أمام القوات الفرنسية ، وفي ذلك الحين وصل إلى القاهرة مندوب من قبل الأميرال اللورد كيث يحمل خطاباً أشبه ببلاغ نهائي إلى الجنرال كليبر ينذره بأنه تلقى من حكومته أمراً بالأيقبل أى اتفاق مع الجيش الفرنسي إلا إذا قبل أن يلقى السلاح من يده ويسلم ما لديه من الأسلحة والذخائر والأمتعة والسفن ويسلم الجنود أنفسهم كأسرى حرب ، والأيسمبح بوصول الجنود إلى فرنسا إلا على قاعدة تبادل الأسرى ، وأعلنه أنه سيضبط في البحر كل سفينة تقل جنوداً فرنسية ولو كانت تحمل جواز مرور من أحد الحلفاء (يقصد تركيا) ويعتبرها غنيمة حربية ويعتبر الجنود الذين على ظهرها كأسرى حرب

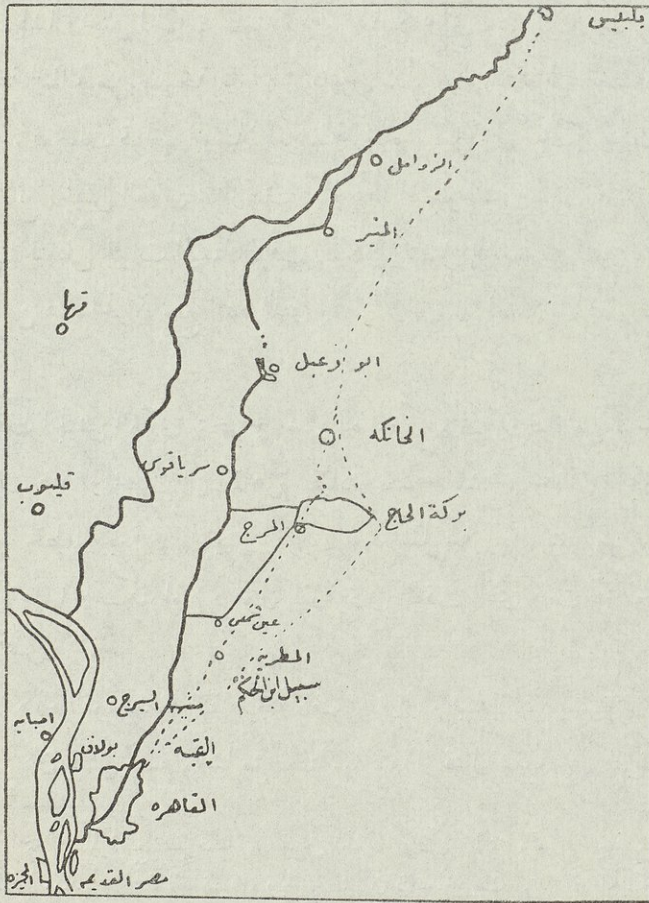
كان هذا الإنذار نقضاً صراحاً لمعاهدة العريش ، فهو بمثابة إعلان لحرب جديدة عقيمة ، لأن جلاء الجنود الفرنسية عن مصر كان أمراً مقضياً وكان الفرنسيون جادين في تنفيذ المعاهدة ، ومصر لم يكن يهمها إلا الجلاء ، لكن الحكومة الإنجليزية كانت تريد إذلال فرنسا بسبب العداء الذي كان قائماً بين الدولتين ، ولم تقبل أن يعود الجيش الفرنسي إلى بلاده كي لا يشترك في الحروب الأوروبية بين فرنسا من جانب وإنجلترا وحلفائها من جانب آخر ، وهكذا نفخت نار القتال في مصر بغير جدوى بعد أن خمدت جذوتها واستعد الفرنسيون للجلاء ، واتق الشعب المصري في ميدان الحرب الجديدة من الولايات والكوارث ما كان عنه بمنجاة ، ففي خلال هذه الحرب ثارت مدينة القاهرة ثورتها الثانية فسفكت فيها الدماء وأحرقت المدينة وتهدمت الدور وضاعت الأرواح وتفاقت الخطوب ، كل ذلك لأن السياسة الإنجليزية أبت أن تنفذ معاهدة اشتركت في وضعها

اعتبر الجنرال كليبر إنذار اللورد كيث بمثابة إعلان للحرب ، فأخذ يستعد لقتال الجيش العثماني ، وكان معظم جنوده قد اصطفوا للقتال في سهول (القبة) فطلب وهو في القاهرة إلى الصدر الأعظم أن ينسحب بجنوده إلى بلبليس ثم إلى الصالحية ثم إلى حدود سورية وإلا أكرمه بقوة جيشه على الانسحاب ، وكان كليبر قد جعل هذا الإنذار مقدمة للهجوم الذي أعد له عدته

معركة عين شمس

٢٠ مارس سنة ١٨٠٠

لم يضيّع كبير وقته ، وانتقل من القاهرة إلى القبة ليلة ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ ، وهناك قضى الليل في تعبئة جنوده استعداداً للقتال ، تمت هذه الاستعدادات وقواد الجيش العثماني لا يدرون من أمرها شيئاً ولا يحسبون حساباً لما سيأتي به الغد ، ذلك أن الجيش العثماني كانت تفقده القيادة الصالحة ، كما كان يعوزه النظام وحسن الترتيب



بين القاهرة وبلقيس (تخطيط سنة ١٨٠٠)
وفيها بيان ميدان معركة عين شمس

نظم كبير صفوفه على أربعة مربعات على الطريقة الفرنسية وجعل على صفوف اليمينه الجنرال (فريان) ، وعلى اليسرة الجنرال (رينيه) وتحت إمرتهما قواد المربعات (بليار)

و (دزولو) ويتبعان فريان ، والجنرال (روبان) و (لاجراج) ويتبعان رينيه ، ووضع المدفعية

بين المربعات ، والفرسان في القلب بقيادة الجنرال لكايك Leclerk

وكان عدد الجنود الذين حشدهم كبير في ميدان القتال عشرة آلاف مقاتل ، وترك في

القاهرة التي جندي لحمايتها من ثورة الأهالي والدفاع عن الحصون المشرفة على المدينة

أما الجيش العثماني فكانت قواته الأمامية بقيادة ناصف باشا تحتل المطرية وعددها ستة

آلاف من الجنود الانكشارية ، وكانت طلابئها تمتد يمنة إلى النيل ويسرة إلى سبيل ابن

الحكم^(١) وكانت جموع الجيش العثماني ترابط بغير نظام خلف هذه المواقع بقيادة الصدر

الأعظم يوسف باشا وتحتل الجهات الممتدة بين الخانكة وأبي زعبل

ففي الساعة الثالثة من صبيحة يوم ٢٠ مارس بدأ كليبر يتحرك قاصدا مواقع ناصف

باشا في المطرية ، فوصلت قوات اليمين الفرنسية تجاه سبيل ابن الحكم حيث كانت ترابط

كتيبة من طلابع الجيش العثماني ، فارتدت أمام هذا الهجوم ، ووصلت قوات اليسرة أمام

المطرية ووقفت لتعطى قوات اليمين الوقت الكافي لتصل إلى ما بين عين شمس والمرج ،

وكان الغرض من هذه الحركة منع المدد الذي ينتظر أن يرسله الصدر الأعظم لشد أزر جنود

ناصر باشا

ابتدأ موقف الجيش العثماني يتحرج بعد هذه الحركة ، على أن قوة من فرسان هذا الجيش

ومشاته انفصلت عنه واتجهت إلى القاهرة بقيادة ناصف باشا ، وخشى الجنرال كليبر أن

تقطع هذه القوة خط الرجعة على الجيش الفرنسي ، فأرسل لمحاربتها كتيبة من الجنود ، ولكن

العثمانيين تغلبوا عليها وتمكنوا من دخول القاهرة في الوقت الذي كانت نار المعركة مستعرة في

المطرية وعين شمس

ترك كليبر هذه القوة تدخل القاهرة وكلف الجنرال رينيه قائد اليسرة أن يهاجم بجنوده

قرية المطرية التي كان جيش ناصف باشا متحصنا بها ، فدار قتال شديد بين الفرنسيين والأتراك

(١) ورد اسمه في المراجع الفرنسية (سبيل الحم) وذكر اسمه بالعربية بهذا الوضع في الخريطة

التفصيلية التي خطتها مهندسو الحملة الفرنسية ، ويلوح لنا أن ذلك تحريف من (ابن الحكم) ، وقد لاحظنا

على موضعه بهذه الخريطة أنه ينطبق على الميدان الذي يعرف الآن بميدان (ابن الحكم) بحماية الزيتون

(خط مصر — المرج) والرسوم بخريطة مصلحة المساحة الحديثة عن القاهرة وضواحيها ، وقد استفسرنا من

صديقنا الأستاذ المحقق مصطفى بك منير أدهم الذي تولى وضع أسماء خطط القاهرة وأحيائها وشوارعها وإرجاعها

إلى أصولها ومناسباتها التاريخية عن حكمة تسميته ذلك الميدان والشارع الذي يصل إليه من محطة الحامية

(ميدان ابن الحكم) و (شارع ابن الحكم) فأخبرنا أنه سماها بهذا الاسم لأن بهذه الجهة وقعت المعركة

المشهورة بين مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن عتبة بن جندم سنة ٦٤ هجرية

انتهى بفوز الفرنسيين واستيلائهم على معسكر العثمانيين بالمطرية^(١) وكان لمدافع الفرنسيين تأثير كبير في سير المعركة .

انتصر الفرنسيون على جيش ناصف باشا واحتلوا المطرية ، ولكن قوات الصدر كانت صرابطة كما قدمنا خلف مواقع ناصف باشا ، فلما علم بهزيمة ناصف باشا أقبل بمجموعه لهماجمة الجيش الفرنسي ، ووصل الجنرال رينييه بفرقة قريبا من مسلة عين شمس ، فتقدم الصدر الأعظم بجنوده واصطفوا على المرتفعات الكائنة بين (المرج) و (سرياقوس) ، وأخذ يتأهب للهجوم ، لكن الجنرال كليبر لم يترك له فرصة لترتيب هجومه فأصدر أوامره بهجوم عام على مواقع العثمانيين الجديدة ، وانتقل ميدان القتال من المطرية إلى ما بين المرج وسرياقوس (انظر الخرطة) ، وكانت المدفعية الفرنسية تحكم الرماية فتناق قنابلها وسط معسكر العثمانيين وتحصد صفوفهم حصدا وتوقع بهم خسائر جسيمة ، فأدرك الصدر الأعظم أن موقفه أصبح هدفا للخطر ، فأخلى مواقعه وارتد إلى (الخانكة) وبذلك تم الفوز للجنرال كليبر

انهزم الجيش العثماني شمالا وتقهقر بغير نظام بعد أن فدحته الخسائر الجسيمة ، على أن ناصف باشا تمكن من الانسحاب من ميدان القتال في رهط من الجنود واتجه إلى القاهرة ليد القوات العثمانية التي قصدت إليها بقيادة نصوح باشا عند بدء القتال .

تعقب كليبر فلول الجيش العثماني في الخانكة ، ولكن الصدر الأعظم لم يبق بها واستمر في انسحابه شمالا إلى بلييس واحتلها بجنوده فأدركه فيها الجنرال كليبر مساء ذلك اليوم واستعد العثمانيون للامتناع بها ولكنهم رأوا الدفاع عنها عبثا فأخلوها وتقهقروا إلى الصاحية .

رواية الجبرتي

قال الجبرتي عن معركة عين شمس ما يلي : « اليوم الثالث والعشرين من شوال سنة ١٢١٤ (٢٠ مارس سنة ١٨٠٠) ركب سارى عسكر كليبر قبل طلوع الفجر بمساركه وحمبتهم المدافع وآلات الحرب ، وقسم عساكره طوابير فمنهم من توجه إلى عرضى (جيش) الوزير (يوسف باشا) ومنهم من مال على جهة المطرية فضربوا عليهم فلم يسعهم إلا الجلاء والفرار وتركوا خيامهم ووظاقهم ، وركب نصوح باشا ومن كان معه وطلبوا جهة مصر فتركهم

(١) يتبين من ذلك أن أكبر شطر من المعركة وقع في المطرية ، ولذلك يسميها بعض المؤرخين معركة المطرية ، على أن اسمها الشائع معركة (عين شمس) لأن المطرية قائمة بالقرب من أطلال عين شمس القديمة

الفرنساوية ولحقوا بالذاهبين من إخوانهم إلى جهة العُرَضَى بالخانكاه بعد أن نهبوا ما في عُرَضَى
ناصف باشا من المتاع والأغنام وسمروا أفواه المدافع وتركوها وساروا إلى جهة العُرَضَى فلما
قاربوه أرسلوا إلى الوزير يأمرونه بالرحيل بعد أربع ساعات ، فلم يسهه إلا الارتجال والفرنساوية
في أثره وغالب عساكره مفرقون ومنتشرون في البلاد والقرى والنواحي لجمع المال ومقررات
الفرض^(١) وظلم الفقراء »

استمر الجيش التركي في ارتداد من الصالحية حتى حدود فلسطين ، وبذلك تمدد الجيش ،
المرصم الذي جاء يقوده الصدر الأعظم ليتسلم مقاليد الحكم في البلاد بعد إبرام معاهدة العريش ،
وجرت الأمور على غير ما يتوقعه الصدر وعادت السلطة مؤقتاً إلى يد الفرنسيين

(١) جمع فرضة أى ضريبة

الفصل التاسع

ثورة القاهرة الثانية

٢٠ مارس - ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠

كانت الحامية الفرنسية في القاهرة أثناء احتشاد الجيش الفرنسي في معركة عين شمس مؤلفة من ٢٠٠٠ مقاتل بقيادة الجنرال (فرديه) Verdier موزعة على القلاع المحيطة بالمدينة والمسكر العام بالأزبكية ، وقد أصدر الجنرال كليبر أوامره إلى فرديه قبل انتقاله إلى (القبة) أن يتمتع بالقلاع متى أحس بوادر الثورة في المدينة ، وأن يحافظ على المواصلات بين قصر العيني وقلعة الجبل وقلعة قنطرة الليمون ،^(١) وكان الجنرال زاينوشك مرابطاً بالجيزة مدداً لحامية المدينة عند الحاجة ، واعتقد الجنرال كليبر أن هذه الاستعدادات كافية لإخضاع القاهرة في غيبته لقتال الجيش العثماني

على أن انفصال الكتيبة المؤلفة من المقاتلة العثمانيين والماليك بقيادة نصح باشا عن ميدان معركة عين شمس ودخولها القاهرة ، قد غيّر وجه المسألة ، لأن هذه الكتيبة من شأنها أن تشجع روح الثورة في نفوس الشعب المستعد في كل لحظة للمقاومة ، كما أن ناصف باشا قد انسحب بعد المعركة كما علمت واتجه إلى القاهرة في عدد حاشد من رجاله^(٢) واندس جماعة منهم في مختلف البلدان والأقاليم يحرضون الناس على الثورة ، فذهب فريق إلى دمياط وفريق إلى الصعيد يستنفرون الناس لقتال الفرنسيين ، وكانت النفوس متحفزة من قبل لمقاومتهم ، فتجددت حركات الثورة والمقاومة في القاهرة وفي مختلف النواحي والجهات ، وهكذا لم يكف يخرج الجنرال كليبر ظافراً من معركة عين شمس حتى واجه في القاهرة ثورة جديدة أشد وأعظم من ثورتها الأولى ، وتجددت حركات الهياج في الوجه البحري ، فاصدر تعليماته إلى الجنرال (رامبون) في منوف بأن يتجه بجنوده إلى دمياط ، وعهد إلى الجنرال (بليار) بمعاونته في مهمته ، وكان الجنرال (لانوس) يجوب أنحاء الدلتا لإخماد الهياج ، ثم اتصل بالجنرال (رامبون) بالقرب من سمونود في طريقه إلى دمياط

(١) هي القلعة التي أنشأها الفرنسيون بقنطرة الليمون وسموها قلعة (كامان) Camin ، انظر خريطة القاهرة ص ٣١٢ الجزء الأول (الطبعة الأولى)

(٢) انظر ص ١٢٤

شبت نار الثورة إذن في القاهرة يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ ومعركة عين شمس قائمة ، وكان من زعماء هذه الثورة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، والسيد احمد المحروقي كبير التجار ، والشيخ الجوهري ابن الشيخ محمد الجوهري^(١)

بدء الثورة

لم يكذب يسمع سكان العاصمة قصف المدافع في ميدان المعركة حتى بدأت الثورة في حي بولاق ، وفي ذلك يقول الجبرتي : « أما بولاق فإنها قامت على ساق واحد ، وتحزم الحاج مصطفى البشتيلي وأمثاله (من دعاة الثورة) وهيجوا العامة وهينوا عصيهم وأسلحتهم ، ورمحوا وصفحوا ، وأول ما بدءوا به أنهم ذهبوا إلى وطاق الفرنسيين الذي تركوه بساحل البحر (النيل) وعنده حرس منهم فقتلوا من أدركوه منهم ونهبوا جميع ما به من خيام ومتاع وغيره ، ورجعوا إلى البلد وفتحوا مخازن الغلال والودائع التي للفرنساوية وأخذوا ما أحبوا منها وعملوا كرانك حوالى البلد ومتاريس »

والحاج (مصطفى البشتيلي) الذي ذكره الجبرتي هو من أعيان بولاق ، سمي البشتيلي نسبة إلى (بشتيل) من أعمال الجيزة ، وقد تكلم عنه الجبرتي لمناسبة اعتقاله قبل حوادث هذه الثورة بعدة أشهر ، فذكر أن الفرنسيين اعتقلوه ثانی ربيع الأول سنة ١٢١٤ (٤ أغسطس سنه ١٧٩٩) لما بلغهم من بعض الوشاة أن بوكالته قدوراً مملوءة باروداً ، فقتلوا الوكالة ووجدوا البارود في القدور ، فضبطوها واعتقلوه ، ولم يذكر الجبرتي متى أفرجوا عنه قبل نشوب الثورة ، وظاهر من منطق الحوادث أنهم أطلقوا سراحه بعد إبرام معاهدة العريش لما عزموا على الجلاء ، فلما نقضت المعاهدة وتجددت الحرب كان البشتيلي من دعاة الثورة في بولاق

ثار أهل بولاق ، وحمّلوا ما وصلت إليه أيديهم من السيوف والبنادق والرماح والعصى ، واتجهوا بمجموعهم صوب قلعة قنطرة الليمون (قلعة كامان) لاحتحامها ، ولكن حامية القلعة ردت هجومهم بنيران المدافع ، فأعاد الثوار صفوفهم واستأنفوا الهجوم ، فأرسل الجنرال (فردييه) مدداً من الجنود إلى الحامية فشتتوا جموع الثائرين بنيران المدافع والبنادق ، وقتل في هذا الهجوم ثلثمائة من الثوار

(١) ذكر الجبرتي الاثنين الأولين ، أما ابن الشيخ الجوهري فقد ذكره الجنرال كليبر في يومياته ، وكتب كليبر كذلك في مذكراته أن الشيخ السادات كان من المحرضين على الثورة

أثارت هذه الحركة نائرة الأهمالي في الأحياء الأخرى من المدينة ، وزاد في روح الثورة دخول ناصف باشا إلى القاهرة على النحو الذي عرفته . وكان يصحبه عثمان بك كتحدا الدولة وهو من كبار موظفي الباب العالى ، وجماعة من البكوات المماليك كإبراهيم بك ومحمد بك الألفى وحسن بك الجداوى ، ومع أن ناصف باشا كان في الواقع فاراً من ميدان القتال ، وبالرغم من أن وصوله كان بعد أن حلت الهزيمة بالجيش العثماني ، فإن الإشاعات قد طارت في المدينة بأن الجيش الفرنسي قد انهزم في ميدان القتال ، وزاد في تأييد هذه الإشاعات رؤية الناس جماعة من فرسان العثمانيين والمماليك بجيوبون شوارع القاهرة وهم الذين تركوا ميدان معركة عين شمس

هجوم الثوار على معسكر الفرنسيين

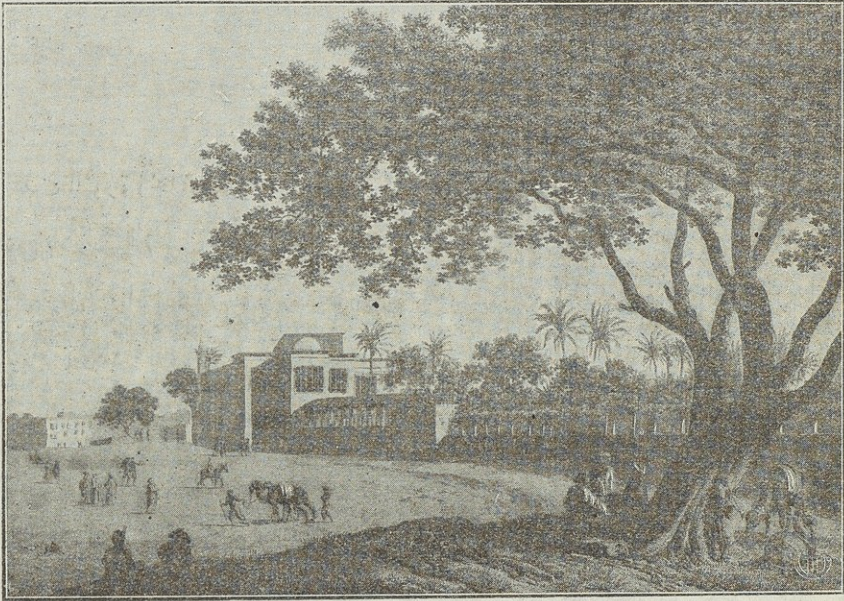
عمت الثورة أنحاء المدينة ، واتجه الثوار بجموعهم إلى معسكر القيادة العامة للجيش الفرنسي بالأزبكية (بيت الألفى بك) وعددهم كما يقدرهم (ريبو)^(١) نحو عشرة آلاف نائر ، وكان الجنرال ديرانتو يدافع عن معسكر الأزبكية بكتيبة من الجنود ، فتلقى الثائر بنار شديدة من البنادق والمدافع ، فردهم على أعقابهم وتقهقروا واحتلوا بعض المنازل المجاورة للميدان لإطلاق النار على المعسكر ، فأقامت الجنود الفرنسية مناريس من جذوع النخيل للدفاع عن معسكرهم

امتدت الثورة إلى كثير من النواحي ، وازداد عدد الجوع المنضمة إلى لوائها ، وانبث دعاة الثورة في كل مكان يحرضون الناس على القتال ، وامتلاّت بهم الشوارع والميادين والأسطحة حتى بلغ عددهم كما يقدرهم السيو (جلان)^(٢) خمسين ألف نائر حاملين البنادق والأسلحة والعصى ، واندفعت جموعهم تتقدمهم طائفة من المماليك والانكشارية ، وانضم إليهم النساء والأطفال ، فكان لهم نداءات وصيحات تصم الآذان ، وهبت عاصفة الثورة على أحياء العاصمة كلها

هجم الثوار على معسكر الفرنسيين ثانية في ميدان الأزبكية واستعملوا في الهجوم ثلاثة مدافع من مدافع العثمانيين التي كانت لهم في المطرية ، ولعدم وجود القنابل استعاضوا منها بكرات الموازين الحديد التي جلبوها من الوكائل والدكاكين ، لكن الحامية الفرنسية كانت

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء السابع
(٢) في كتابه (صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى)

متحصنة في المعسكر ، فثبتت لهم واستمر القتال إلى اليوم التالي ، وأخذت القلاع منذ ابتداء الثورة تضرب المدينة بالمدافع وتسلط قنابلها على الأحياء الثائرة ، وكانت قلعة الجبل وقلعة ديبوى أشد القلاع فتكاً بالمدينة ، فوقع الرعب في الناس وأزمع كثير منهم المهاجرة ، ولكن دعاة الثورة تعلقوا بهم وأغلقوا باب النصر الذي كانت تقصد إليه الجموع للخروج من المدينة ، فانبعثت روح الحماسة والقتال في نفوس الناس ، وهجم الثوار على بيت مصطفى أغا (محافظ المدينة) الذي كان متهماً بإيذاء الأهالي فأقاموا عليه العينة بما ارتكبه من الإيذاء وقتلوه



معسكر الفرنسيين بالأزبكية سنة ١٨٠٠ - انظر ص ١٢٩

وفي اليوم التالي (٢١ مارس سنة ١٨٠٠ - ٢٤ شوال سنة ١٢١٤) اتسع نطاق الثورة ، وغامرت فيها طبقات الشعب كافة ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « تهيباً كبراء العساكر والعساكر ومعظم أهل مصر ما عدا الضعيف الذي لا قوة له للحرب ، وذهب المعظم إلى جهة الأزبكية وسكن الكثير في البيوت الخالية والبعض خلف المتاريس ، وأخذوا عدة مدافع^(١) زيادة عن الثلاثة الأخرى وجدت مدفونة في بعض بيوت الأمراء (المالك) وأحضروا من حوائت العطارين من المثقلات التي يزنون بها البضائع من حديد وأحجار استعملوها عوضاً

(١) ذكر (ريبو) أن عددها عشرون مدفعاً

عن الجبل المدافع ، وصاروا يضربون بها بيت سارى عسكر بالأزبكية^(١)»
 فى هذا اليوم حضرت قوة الجنرال (لاجرانج) Lagrange التى أرسلها كليبر لنجدة
 حامية القاهرة ، جاءت فى نحو الثانية بعد الظهر وكانت ممتلئة حماسة بسبب انتصار الجيش
 الفرنسى فى معركة عين شمس ، فاكسحت الشوارع الموصلة إلى معسكر الجنود فى الأزبكية
 ورفعت الحصار عنه وانضمت إلى الحامية وزادت فى تحصين المعسكر بحيث تعذر على الثوار
 اقتحامه ، لكنهم استطاعوا بمعاونة حلفائهم العثمانيين والماليك احتلال البيوت التى كان
 يسكنها قواد الجيش الفرنسى حول ميدان الأزبكية كبيت الجنرال (رينيه)^(٢) وبيت فرقة
 الهندسة المجاور له وغيرها

اشتداد الثورة

ثم جاء الجنرال (فريان) Friant بجنوده ، وأراد أن يعيد النظام فى المدينة ، ولكنه لم يستطع
 اقتحام الشوارع لكثرة ما كان بها من المتاريس والمنازل المحصنة ، فقد أقام الثوار المتاريس
 على أبواب المدينة وفى معظم أحيائها كباب اللوق ، وناحية المدابع ، والمحجر ، والشيخ ربحان ،
 والناصرية ، وقصر العينى ، وقناطر السباع ، وسوق السلاح ، وباب النصر ، وباب الحديد
 وباب القرافة ، وباب البرقية ، والسويقة ، والرويعى ، وكانت المتاريس على جانب كبير من
 المناعة ، فقد بناها الثوار فى الشوارع وبلغ علو بعضها اثنى عشر قدما ، وتحصن الناس حولها
 وتحمسوا للقتال ، وعبثاً حاول بعض العقلاء أن يقنعوهم بانتصار الجيش الفرنسى فى معركة عين
 شمس فأبوا أن يصدقوا ذلك ولم يقبلوا أى نبأ يكسر شوكة الثورة ، وقتلوا الرسل الذين جاءوا
 بالأخبار الصحيحة عن المعركة ، وبذل الأهالى ما فى طوقهم لتأييد الثورة ، وأنوا فى هذا
 السبيل من الأعمال ما أدهش الفرنسيين ، فقد أنشأوا فى أربع وعشرين ساعة معملا للبارود
 فى بيت قائد أغا بالخرنفش ، وأنشأوا معملا لإصلاح الأسلحة والمدافع ، ومعملا آخر لصنع
 القنابل وصب المدافع جمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت ، وتطوع الصناع للعمل فيه
 وقدموا ما لديهم من الحديد والآلات والموازين وأخذوا يجمعون القنابل التى تتساقط من
 المدافع الفرنسية فى الشوارع ويستعملونها قذائف جديدة للضرب ، قال الجبترى : « وأحضرنا
 ما يحتاجون إليه من الأخشاب وفروع الأشجار والحديد وجمعوا إلى ذلك الحدادين والنجارين

(١) العبارات التى بين قوسين منقولة عن الجبترى

(٢) هو الذى يعبر عنه الجبترى ببيت احمد اغا شويكار مالكة الأصل

والسباكين وأرباب الصنائع الذين يعرفون ذلك فصار هذا كله يصنع بيت القاضى والخان الذى بجانبه والرحبة التى عند بيت القاضى من جهة الشهد الحسينى «
وقال ميسيو مارتان أحد مهندسى الحملة^(١) وكان شاهد عيان لتلك الثورة: « لقد قام سكان القاهرة بما لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل ، فقد صنعوا البارود ، وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصنّاع ، وفعّلوا ما يصعب تصديقه — وما رآه كمن سمع — ذلك أنهم صنعوا المدافع »

وقال الجنرال كليبر فى يومياته : « استخرج الأعداء مدافع كانت مطمورة فى الأرض ، وأنشأوا معامل للبارود ومصانع لصب المدافع وعمل القنابل ، وأبدوا فى كل ناحية من النشاط ما أوحى به الحماسة والعصبية ، هذه هى بوجه عام حالة القاهرة عند قدومى إليها ، وإنى لم أكن أتصورها فى هذه الدرجة من الخطورة »

تم كل ذلك فى ثلاثة أيام وتطوع الاهالى لإمداد الثوار بالزاد وتوزيع الأقوات « وباشر السيد المحروقي وبقى التجار الكاف والنفقات والمآكل والمشارب ، وكذلك جميع أهل مصر كل إنسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه ، وأعان بعضهم بعضا ، وفعّلوا ما فى وسعهم وطاقتهم من المعونة ، وأما الفرنسيين فأنهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالبلد وبيت الانق (دار القيادة العامة) بالأزبكية وما والاه من البيوت واستمر الناس بعد دخول الباشا (ناصف باشا) والأمراء ومن معهم من المسكر إلى مصر أياما قليلة وهم يدخلون ويخرجون من باب الفتوح وباب العدوى ، وأهل الارياق القريبة تأتى بالميرة والاحتياجات من السمن والخبز واللبن والغلة والتبن والغنم فيبيعونه أهل مصر ثم يرجعون إلى بلادهم »

اعتداءات يؤسف لها

على أنه مما شوّه هذه الثورة وقوع بعض حوادث اعتداء على المسيحيين فى المدينة ، ولا يسع الكاتب النصف إلا أن يشعر بأسف عميق لوقوع هذه الحوادث ، لأن الاعتداءات المذهبية تشوّه الثورات وتلقى عليها تبعات جساما وتجعلها بحق هدفاً للاستنكار والسخط ، ولا يخفف من هذه التبعة كون الاعتداء لم يقتصر على المسيحيين بل تناول فريقا من المسلمين ممن اتهمهم الثوار بموالاته الفرنسيين فقد قتلوا محافظ المدينة (مصطفى أغا) بهذه الحجّة كما قدمنا ، واعتدوا كذلك على السيد خليل البكرى ولم يراعوا منزلته ولا مقام بيته ، وشهر به

(١) فى كتابه (تاريخ الحملة الفرنسّية فى مصر)

العامة فساقوه في الشوارع عارى الرأس تتبعه الشتائم والإهانات ، وكادوا يفككون به لولا أن حماه عثمان بك كتحدا الدولة وآواه السيد احمد بن محمود محرم أحد أعيان التجار إلى بيته ، تقول إن مثل هذه الحوادث ليس من شأنها أن تخفف من تبعه الاعتداء على المسيحيين ، لأنها هي كذلك خليقة بالسخط والاستنكار ، وإنما يخفف من تبعها عن العنصر المصرى أن مسئوليتها واقعة بالأكثر على عنصر الأتراك والماليك ، فإنهم بشهادة المراجع الفرنسية هم الآمرون بالاعتداء على المسيحيين ، والمحرضون للعامة على هذا الاعتداء ، والعامة في كل عصر تتبع بلا تفكير أوروية أو امر الزعماء وأهواءهم ، فالقوميسير (ميو) Miot — وهو شاهد عيان لهذه الثورة — يقول في مذكراته إن كتائب الجنود العثمانية بقيادة ناصف باشا هي التي ارتكبت حوادث الاعتداء على المسيحيين ، ويقول الجنرال كليبر في مذكراته إن والى الشرطة نادى بين الناس بوجوب المحافظة على أرواح المسيحيين وتوجيه قوتهم ضد الفرنسيين وحدهم ، ويقول الجبرتي إن نصح باشا هو الأمر بالاعتداء على المسيحيين وان جماعة الحجازية والمغاربة هم الذين ارتكبوا المنكرات من نهب وقتل

وهنا تبدو ملاحظة جديرة بالنظر ، وهي المقابلة بين هذه الثورة وثورة القاهرة الأولى ، فالثورة الأولى ^(١) بشهادة المراجع الفرنسية قد خلت من حوادث الاعتداء على المسيحيين ، بخلاف الثورة الثانية ، والمقابلة هنا ذات مغزى هام إذا لاحظت أن الزعامة في ثورة القاهرة الأولى كانت للعنصر المصرى وحده ، فلم يشترك في قيادتها عنصر الترك ولا الماليك ، أما الثانية فإنه وإن كانت زعامتها قد اشترك فيها العنصر القومى إلى حد ما ممثلا في أشخاص السيد عمر مكرم والسيد أحمد المحروق والشيخ الجوهري وغيرهم إلا أن القيادة العليا فيها كانت للترك والماليك مثل ناصف باشا ونصوح باشا وإبراهيم بك ، نخلو الثورة الأولى من حوادث الاعتداء على المسيحيين ووقوع هذا الاعتداء في الثورة الثانية مما يشرف العنصر القومى ويبرهن على أن قيادته للثورة تجعلها أميل إلى جانب الإنسانية وأبعد عن القذائع والاعتداءات المستنكرة ، ومن الإنصاف أن نستنتج من هذه المقابلة مبلغ ما جبلت عليه الروح القومية المصرية من الفطرة السليمة ونزاهة المقصد وأنها لا تفسد لإفساد القادة والزعماء ، والناس على دين ملوكهم

والآن فلنتقل إلى تتبع حوادث الثورة وتطوراتها

(١) انظر الجزء الأول الفصل الثالث عشر

وصول الجنرال كليبر

جاء الجنرال كليبر يوم ٢٧ مارس بعد أن ترك حاميات من الجنود في الصالحية والقرين وبلبيس ، وعاد إلى مصر ، فألقى نار الثورة تضطرم في أحيائها من أقصاها إلى أقصاها ، ورأى الضواحي والبلاد المجاورة لها قد اشتعلت في الثورة وأمدت ثوار القاهرة بالرجال والعتاد ، وشاهد في بولاق ومصر القديمة حصوناً أقامها الثوار للدفاع ، ووجد جميع الوكائل والمخازن التي على النيل قد تحولت إلى شبه قلاع احتلها الثوار ، وصارت الملاحة في النيل تحت رحمتهم كانت القاهرة في ذلك الحين معقلاً كبيراً للثورة ، فأدرك كليبر خطر الحال ، وفكر طويلاً في الوسيلة الناجمة لإخمادها بعد أن تغلغت في المدينة إلى هذا الحد ، فرأى أن أخذ الثائرين بالقوة المسلحة قد لا يؤدي إلى إخماد الثورة لأن المتاريس كانت منشرة في أحياء القاهرة ، والثوار مستبسلون في المقاومة ، ورأى أن مهاجمهم في معاقبتهم قد يفقده جنوداً كان يومئذ في حاجة إليهم ، فضلاً عن أن جزءاً كبيراً من جيشه كان في طريقه إلى دمياط بقيادة الجنرال (بليار) ، وفرقة الجنرال (رينيه) لم تزل مرابطة بالشرقية ، وكانت معركة عين شمس قد استنفدت جزءاً كبيراً من ذخائر الجيش ، فرأى من كل هذه الظروف أن المبادرة إلى مهاجمة الثوار بقوة الحديد والنار مجازفة لا تؤمن عواقبها ، ورأى من الحكمة أن يأخذهم بالطاولة ويستخدم الزمن في فلّ حدهم وتخضيد شوكتهم وبذر الشقاق بين صفوفهم ، فعسى بعد ذلك أن يتبين الثوار حقيقة الهزيمة التي حلت بالجيش العثماني ، فتضعف بطبيعة الحال روحهم المعنوية ، ومع الزمن يدب الملل إلى صفوفهم بما يجدون من عاقبة وقوف الأعمال وتعطيل حركة الأسواق واستهداف المدينة لخطر الجماعة ، فالزمن إذن كان يخدم كليبر ويضعف حركة الثورة ، على أن كليبر أخذ في فترة الانتظار يعد المعدات لقمع الثائرين آخر الأمر بقوة السيف والنار ، فأخذ يحصن القلاع ويقيم الاستحكامات ، ويركّب المدافع ويعدّ المواد اللتهمة التي عزم على استخدامها لإحراق المدينة ، وفي الوقت نفسه كانت القلاع لا تنفك تضرب الأحياء الآهلة بالسكان بالمدافع

استخدم كليبر الوقت لفصم عرى الاتحاد بين الثوار ، قبل أن يضرب الضربة النهائية ، فقد كانت الثورة تضم تحت لوأها ثلاثة عناصر ، وهم المصريون سكان القاهرة ، والأتراك ، والمهاليك ، فهذه العناصر الثلاثة قد اجتمعت وانحدت لمحاربة العدو المشترك ، لكن اختلاف المصالح وتباين الأغراض كان عقبة في سبيل دوام هذا الاتحاد ، وهذه العقبة وإن ذلت تحت لواء الثورة إلا أنها لا تلبث أن تبدو للعيان عند أول فرصة ، ولقد أوجد كليبر هذه الفرصة

بمفاوضة زعماء الأتراك في وقف القتال ، واستخدم في فتح هذه المفاوضات مصطفي باشا^(١) الذي كان لم يزل أسيراً في يد الفرنسيين وكانوا بأسرونه بحسن المعاملة ، فتدخل مصطفي باشا وأقنع ناصف باشا بضرورة الكف عن القتال وأطلعه على تفاصيل هزيمة الصدر الأعظم وانسحابه إلى حدود سورية ، واستمرت المفاوضات مع زعماء الأتراك ورؤساء المماليك في وضع شروط الصلح ، أما أهالي القاهرة الذين على أكتافهم قامت الثورة فلم يحسب لهم حساب في هذه المفاوضات ، ولم يمثلهم فيها أحد للدفاع عن مصالحهم ، والواقع أنهم العنصر الذي ثار غير مدفوع بأغراض شخصية أو أهواء ذاتية ، لكن زعماء الأتراك والمماليك ما كانوا يقصدون من التحريض على الثورة والاشتراك فيها إلا استعادة سلطانهم المفقوت في البلاد ، ولقد أدرك الأهالي أن الأتراك والمماليك بدءوا يعمثون بهم ، ولذلك لم يكذب الاتفاق بين هؤلاء والفرنسيين على إلقاء السلاح حتى أدركوا أنهم فقدوا نفوذهم بين الجماهير فلم تعد تستمع لنصائحهم ، وأخذ دعاة الثورة من الأهالي يحرصون الناس على الاستمرار في القتال ، وضموا إليهم الجماهير ، فتنادوا بمواصلة القتال وخيانة المماليك والأتراك

وفي غضون ذلك كان مراد بك زعيم المماليك قد بدأ مفاوضات مع الجنرال كليبر للاتفاق مع الفرنسيين كما سيجيء تفصيل ذلك ، فأدرك الجنرال كليبر أن مصلحته تقضى بأن يتم اتفاه مع مراد بك ، ويخضع الجهات الثائرة في الوجه البحري ، وبذلك يتم له تطويق القاهرة ، ثم يتفرغ لإخماد ثورتها وإخضاع أهلها تلك هي الخطة التي رسمها لمواجهة الثورة والتغلب عليها

إخضاع الوجه البحري

وصل الجنرال بليار إلى دمياط تفيذا لتعليمات كليبر ، وكانت الجنود العثمانية تحتلها وتعاكر في المدينة بغير نظام ولا قيادة ، فلما اقترب بليار بجنوده خرج العثمانيون للاقتحام من غير خطة محكمة ، ووصلوا إلى قرية (الشعراء) ، ودارت بينهم وبين الفرنسيين معركة انتهت بهزيمة العثمانيين ، واستولى الجنرال بليار على عشرة مدافع وقصد بجنوده دمياط فاحتلها واحتل حصونها ، واستولى كذلك على (عزبة البرج) ، وأذاع بين الأهالي خبر هزيمة الصدر الأعظم وانسحابه إلى الصحراء ، وفرض غرامة حربية قدرها ٢٠٠ ألف فرنك على سكان

(١) هو قائد الجيش التركي في واقعة أبو قير البرية وقد أسره الفرنسيون كما مر بيان ذلك واستخدموه في مفاوضات الصلح ثم توفي في دمياط سنة ١٢١٤

المدينة ، ثم سار إلى (منوف) ، وأخذ الثورة التي نشبت فيها ، وامتدت الثورة إلى (المحلة الكبرى) و (سمود) و (طنطا) ، فجرد الجنرال لانوس عليها ككتيبة من الجنود بقيادة الاديودان جنرال فالنتين Valentin ، فأخذت الهياج واستعملت القسوة وسفكت دماء الناس وصادرت أموالهم وضربت على البلاد التي أخضعها غرامات حربية جسيمة واعتقلت الكثير من الأعيان لإكراههم على دفع الغرامات وتحصيلها

أصدر الجنرال كليبر أمراً في ٣ مايو سنة ١٨٠٠ بفرض غرامة خمسين ألف ريال على مشايخ (علماء) طنطا أزموا بدفعها في عشرة أيام ، قضى كليبر بهذه الغرامة « عقاباً لهم على الاشتراك في الثورة التي شبت في مدينتهم وفي الدلتا أثناء حصار القاهرة » ، وذكر في أمره أن اثنين من هؤلاء العلماء اعتقلا في سجن القلعة ، وفرض كذلك على أهالي طنطا خلاف الغرامة المتقدمة خمسين ألف ريال أخرى لاشرأ كههم في الثورة ، وأمر بنقل الشيخين المعتقلين في القلعة إلى سجن منوف حيث يبقيان إلى أن تسدد الغرامة كلها وأن يعادوا إلى سجن القلعة إذا لم تسدد الغرامتان في مدة العشرة الايام المحددة في الأمر

وذكر الجبرتي شيئاً من تلك الحوادث المروعة فقال عن ثورة المحلة :

« لما حضر العثمانية وشاع أمر الصلح وخضوع الفرنسيين لهم نزلت طائفة من الفرنسيين إلى المنوفية وطلبوا من أهلها كلفة (نفقات) رحيلهم ، فلما مروا بالمحلة الكبيرة تعصب أهلها واجتمعوا إلى قاضيها وخرجوا لرحيلهم ، فكمن الفرنسيين لهم وضربوهم بالمدافع والبنادق فقتلوا منهم نيفاً وستائة إنسان منهم القاضي وغيره ، ولم ينج منهم إلا من فرّ وكان طويل العمر » ، ثم ذكر رجوعهم عليها بعد ذلك بغرامة جسيمة . قال : « وقرروا عليها نيفاً ومائة الف ريال فرنساوي وأخذوا في تحصيلها وتوزيعها ومهاجمة دورها وتعقب المياسير من أهلها كل ذلك مع استمرار طلب الكلف الشاقة في كل يوم منها »

وذكر الثورة التي شبت في طنطا وإخماد الفرنسيين لها وفرضهم على المدينة غرامة جسيمة « وزعت على الدور والحوانيت والمعاصر وغير ذلك واستمروا على ذلك إلى انقضاء العام (سنة ١٢١٤) حتى أخذوا عساكر المقام (تيجان مقام السيد احمد البدوي) وكانت من ذهب خالص زنتها خمسة آلاف مثقال »

الاتفاق مع مراد بك

عادت السلطة للفرنسيين في الوجه البحري ، أما في الوجه القبلي فقد توصل الفرنسيون إلى إخضاعه بالاتفاق مع مراد بك ، كان مراد تقوى نفسه بعد ما حل به من الهزائم إلى مصانعتهم ، ووقف وقفة الخائف الوجل عند ما جردت تركيا حملتها الأخيرة على مصر لإخراج الفرنسيين ، لأن مراد بك كان يشعر بأن تركيا إذا فتحت مصر بحد السيف وتمكنت من إخراج الفرنسيين منها ، طمحت إلى التخلص من نفوذ المماليك وعملت على استرجاع سلطتها الفعلية إذ لم تكن تنظر بعين الرضا إلى استئثار المماليك بسلطة الحكم في مصر وإنما كانت تغض الطرف عنهم لضعفها وارتباك أحوالها ، أما وقد تغيرت الظروف وسنحت لها الفرصة لتجريد حملة على مصر وضمت مساعدة إنجلترا في محاربة الفرنسيين ، فكان من الطبيعي أن تحدثها نفسها باسترجاع سلطتها المطلقة في وادي النيل ، وقد أحس مراد بك بهذا الخطر منذ شرعت تركيا تعي جيوشها في سورية للزحف على مصر ، أي قبل عقد معاهدة العريش بعدة أشهر ، وبدأت الروابط الودية تتصل بينه وبين الفرنسيين من ذلك الوقت ، وقد أشار الجبرتي إلى هذا التفاهم بقوله في سياق حوادث شهر جمادى الأولى سنة ١٢١٤ ان الفرنسيين « أرسلوا جملة عساكر إلى مراد بك بناحية الفيوم وعليهم كبير (جنرال) فوقع بينهم وبينه أمور لم أتحقق تفصيلها ، وترددت بينه وبين ساري عسكر الرسل والمراسلات ، ووقع بينه وبينهم الهدنة والمهاداة ، واصطلح معهم على شروط منها تقليده امارة الصعيد تحت حكمهم » فالجبرتي يقول إن ابتداء المهادنة والمهاداة بين كليبر ومراد كان في شهر جمادى الأولى أى في أكتوبر سنة ١٧٩٩ ، وهو قول يتفق مع رواية المراجع الفرنسية ، ولكنه زعم أنه اصطلح معهم على تقليده امارة الصعيد في هذا الشهر ، وهذا من « الأمور التي لم يتحقق تفصيلها » ، لأن الصلح إنما تم في أوائل أبريل سنة ١٨٠٠ بعد واقعة عين شمس وفي أئذه ثورة القاهرة كما سيجيء بيانه ، أما قبل ذلك التاريخ فلم يكن الصلح قد تم بينهما

على أن الجبرتي قد صحح روايته في غضون كلامه عن ثورة القاهرة وذكر ما يدل على أن الصلح إنما تم في شهر ذى الحجة ، فقال في حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤ (بعد إخماد الثورة) ما يأتي : « فلما كان يوم الخميس سابع ذى الحجة^(١) ذهب كليبر إلى مراد بك بجزيرة الذهب بدعوة منه ، فد له ولرجاله ولية عظيمة وأعطاه ما كان أرسله درويش باشا معونة للباشا

(١) يوافق ٢ مايو سنة ١٨٠٠

(الصدر الأعظم) والأمرء (الماليك) من الأغنام وغيرها وكانت نحو الأربعة آلاف رأس وولوه إمارة الصعيد من جرجا إلى إسنا ، ورجع (كليب) عائداً إلى داره بالأزبكية ، ومعنى ذلك أن المقابلة (التي وقعت عقب التوقيع على معاهدة الصلح) إنما وقعت بعد إخماد ثورة القاهرة ، وهذا يتفق تماماً مع رواية المراجع الفرنسية مع اختلاف بسيط في تاريخ المقابلة ، فإن المسيو (مارتان) يقول إن المقابلة كانت يوم ٣٠ أبريل والجبرتي يقول إنها يوم ٧ ذى الحجة أى ٢ مايو ، وليس هذا بخلاف جوهرى

على أن علاقات كليب ومراد بك كانت ودية من يوم قدوم الحملة العثمانية ، وهذا باتفاق الجبرتي والمراجع الفرنسية ، يؤيد ذلك مارواه الجبرتي عن استدعاء يوسف باشا وهو في بلبس لمراد بك ، وتباطؤ مراد في إجابة الدعوة « إلا بعد أن استأذن من الفرنسيين سراً فأذنوا له بالمقابلة » ، وهذا يدل على ما كان بينهما من العلاقات الودية

قال الجبرتي في هذا الصدد: « ورد الخبر بوصول حضرة الوزير (يوسف باشا) إلى بلبس وصحبته الأمرء المصرية (الماليك) وأرسلوا إلى مراد بك ومن معه بالحضور إلى العُرْضى (١) فأجاب بالاعتذار عن الحضور لأنه في الصعيد ، فلم يقبلوا عذره وأكدوا عليه بالحضور ، فاستأذن الفرنسية سراً فأذنوا له بالمقابلة ، وكان سفيره في ذلك عثمان بك البرديسي ، ثم انه حضر وقابل الوزير بصحبة ابراهيم بك وخلع عليهما ورجع مراد بك نعيم جهة العادلية » ولم يقل (ريبو) في صراحة إن مراد بك قابل يوسف باشا ، على أن رواية الجبرتي في هذه النقطة أدق وأرجح ، لأن المقابلة واقعة علنية مادية يمكن الجبرتي الذى عاش ذلك العهد في القاهرة أن يتحققها ، ويقول (ريبو) إن مراد بك تفاوض هو وكليب بعد نقض معاهدة العريش وقبيل معركة عين شمس* في الموقف الذى يقفه بين الأتراك والفرنسيين ، وكان الجنرال موران Morand رسول التفاهم والمفاوضة بينهما ، فرضى كليب من مراد بك بأن يقف موقف الحياد ، وقد بر مراد بك بعهدة ووقف غير بعيد من ميدان القتال في معركة عين شمس ، وظل يرقب سير القتال دون أن يشترك فيه ، وفي ذلك يقول الجبرتي : « أما مراد بك فإنه بمجرد ما عين هجوم الفرنسيين على الباشا (يوسف باشا) والأمرء بالمطرية (واقعة عين شمس) وكان هو بناحية الجبل ركب من ساعته هو ومن معه ومروا من سفح الجبل وذهب إلى ناحية دير الطين (٢) ينتظر ما يحصل من الأمور ، وأقام مطمئناً على نفسه واعتزل الفريقين واستمر على صلحه مع الفرنسية »

(١) كلمة (عرض) مأخوذة من التركية (أوردو) ومعناها الجيش أو الفيلق وتؤدى معنى المعسكر

(٢) بين مصر القديمة وحلوان

ولعل مراد بك كان « ينتظر ما يحصل من الأمور » ويرقب نتيجة القتال بين الأتراك والفرنسيين ، لينضم إلى الفريق الغالب ، فلما رأى أن النصر حليف الفرنسيين في معركة عين شمس صمم على إبرام الصلح معهم على قاعدة أن يتركوا له حكم الصعيد ويكون تابعاً لهم ، وفي هذا الصدد يقول الجنرال كليبر في مذكراته : « إن مراد بك لم يكذب يتحقق من هزيمة الصدر الأعظم حتى أرسل لي يبدى رغبته في عقد الصلح معي ، فأجبتته بأنه إذا كان ذلك قصده فعليه أن يرسل لي أحد البكوات من أتباعه لأفاوضه ، فأوفد لي أولاً حسين كاشف فسألته عن طلبات صاحبه ، فأجابني بأنه راغب في الانفصال عن العثمانيين الذين يكرههم وأنه يريد أن يعيش مع الفرنسيين في سلام على شرط أن يضمن له كبيرهم عيشة راضية ، وأنه يستطيع أن يستخدم في مقابل ذلك نفوذه في القاهرة ليتدخل لوضع حد للمأساة التي تقع فيها ، ولما لم يكن لدى حسين كاشف السلطة الكافية التي تخوله التعاقد باسم رئيسه طلبت إليه أن يرسل إليّ مراد بك مندوباً مفوضاً عنه ، فاختار مراد بك عثمان بك البرديسي الذي جاء صحبة حسين كاشف ومعه جواب بأن مراد بك يفوضه تفويضاً تاماً في عقد الاتفاق ، فوضعنا شروط الصلح ، وتبادلنا التوقيع عليها في ١٥ جرمينال (٥ ابريل سنة ١٨٠٠) ، على أن مراد بك كتم أمر هذا الاتفاق عن أتباعه ، وهذا يرجع إلى واحد من سببين فإما أن مراد بك خشى إذا ذاع أمر الاتفاق أن يسيء إلى البكوات والماليك من أتباعه الذين غامروا بأنفسهم في ثورة القاهرة ويجعلهم عرضة للانتقام العثمانيين ، وإما أنه كان غير واثق من أن النصر النهائي سيكون لنا فأراد أن يرقب الحوادث قبل أن يكشف عن حقيقة موقفه ، وهذا ما أرجحه^(١) »

هذا ما قاله كليبر في مذكراته ، ولعمري لقد صور نفسية مراد بك تصويراً دقيقاً ، ووصفه وصفاً صحيحاً عن خبرة وعيان ، وفي الحق إن مراد بك لم يكن يهيمه إلا أن يكون مع الغالب فحسب ، وقد زاد كليبر في وصف نفسيته بقوله : « ومهما يكن من حقيقة الواقع ورغماً من الإيهام الذي أراد مراد أن يحيط به أمراً لا بد أن يعلن للكافة ، فإنه لم يفقه أن يوفد إلى القاهرة أحد أتباعه (عثمان بك البرديسي) الذي كان موضع ثقته ليصرف الماليك عن الثورة ويدعوهم إلى النكوص على أعقابهم ، وقد ارتاب ناصف باشا في مسلك الماليك فأمر بضبط خيولهم وجمعها في الوكائل تحت حراسة جماعة من الانكشارية ، وكان عثمان بك البرديسي

لا يفتأ يتردد علىَّ ويبلغني ما يصادف مسعاه من النجاح ، وأرسل لي مراد بك عدة قطمان من المواشى ليبرهن لي على إخلاصه ، لكنه في الوقت نفسه كان يكتب إلى الصدر الأعظم بأنه مقيم في طره خصيصاً لئمنعنا من جلب المؤونة من الصعيد»^(١)

أقول وإذا تأملت في تاريخ البكوات الماليك لا تجد فيما ذكره كليبر عن مسلك مراد بك أمراً جديداً ، اعتبر ذلك في موقف الماليك حين حضر حسن باشا الجزائري إلى مصر موفداً من قبل الاستانة لطاردتهم سنة ١٧٨٦^(٢) أى قبل هذه الحوادث بنحو أربعة عشر عاماً ، وكان مراد بك وإبراهيم بك زعيمى الماليك وقتئذ ، فقد فر البكوات إلى الوجه القبلى وأخذوا يرسلون الرسل والمكاتبات يرجون توسط المشايخ والعلماء بينهم وبين حسن باشا ، ولم يكونوا يطلبون إلا أن تمن لهم أما كن في الوجه القبلى يقيمون بها ويعيشون هناك^(٣) ، فراد بك لم يطلب من كليبر سنة ١٨٠٠ إلا ما طلبه هو وزميله إبراهيم بك من حسن باشا الجزائري سنة ١٧٨٦

واعتبر ذلك أيضاً فيما حدث بعد جلاء الفرنسيين ، فإنه لما أسندت ولاية مصر إلى خسرو باشا واستعد لقتال الماليك أرسل زعمائهم إبراهيم بك ومحمد بك الألقى وعثمان بك البرديسى وكانوا قد فروا إلى الوجه القبلى يطلبون أن يُقطعوا جهة يتعيشون فيها ، فهم في كل عصر لم يكن يهمهم إلا منافعهم المادية وهكذا كان شأنهم إلى أن دالت دولتهم وقُطع دابر القوم الذين ظلموا

معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك

(٥ أبريل سنة ١٨٠٠)

ظل مراد بك أثناء ثورة القاهرة مقيماً في (طره) بعيداً عن حركات القتال ، وتمت مفاوضات الصلح وشروط الاتفاق بينه وبين كليبر وأمضيت بينما كانت مدافع الفرنسيين تمطر قنابلها على سكان العاصمة

وُضعت صيغة المعاهدة وتم الاتفاق عليها في القاهرة بين عثمان بك البرديسى بالنيابة عن مراد بك ، وكل من الجنرال داماس Damas رئيس أركان الحرب والمسيو جلوتيه Gloutier القوميسير الفرنسى لدى الديوان بالنيابة عن كليبر ، وتم التوقيع عليها في ٥ أبريل سنة ١٨٠٠

(١) مذكرات الجنرال كليبر

(٢) انظر الجزء الأول ص ٢٢ من الطبعة الأولى

(٣) الجبرتي الجزء الثالث

نشر (ريبو) نص هذه المعاهدة ، ولم تنشر من قبل في أى مرجع آخر ، وقد نقلها بنسخها عن النسخة الباقية من النسخ الأصلية التي كتبت حين توقيع المعاهدة ، وهذه مقدمتها نقلًا عن النسخة الواردة في ريبو (١) :

« نظرًا لما أبداه الأمير سامى المقام الحائز لكمال الشرف والاعتبار مراد بك محمد (٢) من الرغبة في أن يعيش في سلام ووفاق مع الجيش الفرنسى في مصر ، ولما يرغبه القائد العام كليبر من الإعراب عما له في نفوس الفرنسيين من الاحترام الذى استوجبه شجاعته واقتضاه مسلكه حيالهم فقد تم الاتفاق على ما يأتى »

وبلى ذلك نصوص المعاهدة ، وهى مؤلفة من عشر مواد تقضى باعتراف القائد العام للجيش الفرنسى بصفته ممثلًا للحكومة الفرنسية بمراد بك أميرًا وحاكمًا للوجه القبلى ، ويخوله بناء على ذلك السلطة على تلك البلاد ابتداء من بلصفورة الكائنة بمديرية جرجا إلى اسوان في مقابل أن يؤدى للجمهورية الفرنسية الخراج الواجب دفعه لصاحب الولاية على مصر ، وقد حدد هذا الخراج في الاتفاقية بـ ٢٥٠٠ كيس (٣) علاوة على ١٥٠٠٠٠٠ ر.د من القمح و ٢٠٠٠٠٠ ر.د من الشعير والحبوب (٤) ، ويخصص لمراد بك إيراد جمر ك القصير واسنا ، ويحتل الجيش الفرنسى ثغر القصير على أن يكون لمراد بك الحق في إبقاء فصيلة من الجنود المماليك فيها ، وعليه دفع نفقات الحماية الفرنسية في (القصير) وأن لا يقل عدد هذه الحماية عن مائتى جندى ، وعلى كل من الطرفين أن يسلم الطرف الآخر الجنود اللاجئة إليه ، ولا يجوز لكل منهما قبول الفلاحين الذين يمتنعون عن دفع الضرائب ويفرون إلى منطقة الطرف الآخر ، وتكون إقامة مراد بك في بندر جرجا ، وعليه أن يوفد إلى القاهرة أحد البكوات من أتباعه مندوبًا عنه لدى القائد العام يقيم بالقاهرة ، ويضمن القائد العام لمراد بك تتمه بإيراد المنطقة التى يحكمها ، ويتمهد بحمايته في حالة مهاجمته ، وإذا حصل هجوم على المنطقة التى يحتلها الجيش الفرنسى فعلى مراد بك أن يرسل إليها قوة من جنوده توازى على الأكثر نصف قواته ، ويتمهد القائد العام بأن لا يقبل أى اتفاق فيه مساس بالمزاياء المخولة لمراد بك في هذه المعاهدة ، وعليه أن يحيط الحكومة الفرنسية بهذه المعاهدة لتراعيها في اتفاقاتها الخاصة بمصر

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء السابع

(٢) نسبة إلى محمد أبى الذهب لأن مراد بك من مماليكه

(٣) الكيس يساوى خمسمائة قرش من عملة ذلك العصر

(٤) يبلغ ذلك كله نحو ٦٥٠٠٠٠٠ فرنك في السنة كما قدره المسيو (ريبو)

هذه خلاصة معاهدة (كليبير - مراد^(١)) ، وهي تتلخص في أن مراد بك قبل أن يحكم الصعيد تحت حماية الحكومة الفرنسية ، وغنى عن البيان أنه لم يراع في هذه المعاهدة الا مصلحة الشخصية دون أن ينظر أية نظرة إلى مصلحة البلاد ، وهكذا كان على الدوام شأن المالك من يوم أن أطلقت يدهم في شؤون مصر ، فإنهم لم يكن يهمهم إلا ولاية الحكم ليرهقوا البلاد بأنواع المظالم ، وقد بالغ مراد بك في الولاء للفرنسيين بعد هذه المعاهدة ، فلم يكذب يتم التوقيع عليها حتى أنفذ إلى معسكر الفرنسيين الهدايا والمهمات والغلال والمؤن ، وسلمهم بعض العثمانيين اللاجئين إليه ، وطرد من الصعيد درويش باشا الذي جعله يوسف باشا الصدر الأعظم والياً على الصعيد وكان قد نزل الوجه القبلي طبقاً لمعاهدة العريش ، فلما نقضت المعاهدة وجد القتال جمع حوله نحو عشرة آلاف من الفلاحين والعرب وأجمع الزحف على القاهرة لقتال الفرنسيين ، فطلب كليبر إلى مراد بك مطاردته تنفيذاً للاتفاق المبرم بينهما ، فتمتعبه مراد بك واضطره إلى الانسحاب شمالاً قاصداً فلول الجيش العثماني في غزة

قال الجبرتي في هذا الصدد ما يأتي : « إن مراد بك عند توجهه إلى الصعيد بعد انقضاء (نقض) الصلح أخذ ما جمعه درويش باشا من الصعيد من أغنام وخيول وميرة ، وكان شيئاً كثيراً ، فسلم الجميع منه ، وعدى درويش باشا إلى الجهة الشرقية متوجهاً إلى الشام وأرسل مراد بك جميع ذلك للفرنساوية بمصر »

وقال في حوادث سنة ١٢١٤ بعد نقض الصلح بين الفرنسيين والعثمانيين : « أرسل الفرنسيين عسكرياً إلى مستلم السويس فتعصب معه أهل البندر وحاربوهم ، فغلبهم الفرنسيين وقتلواهم عن آخرهم ، ونهبوا البندر وما فيه من البن والبهار الذي بحواصل التجار غير ما فعلوه مع درويش باشا ، وكان المضطربون له مراد بك وسحبته الفرنسيين فأخذوا ما معه ونجا بنفسه » وسعى مراد بك شعبياً حثيثاً في أن يضم المالك الذين في القاهرة إلى صفوف الفرنسيين ،

ولما أعيته الحيل أشار على كليبر بإضرام النار في القاهرة إخماداً للثورة ويقول (ريبو) إنه أرسل فعلاً إلى كليبر عدة مراكب محملة مواد ملتهبة لإحراق العاصمة^(٢)

ويقول المسيو (جالان)^(٣) وهو شاهد عيان لتلك الحوادث ما خلاصته : « بعد أن تم

(١) نشرنا نص المعاهدة في قسم الوثائق وثيقة رقم ٥

(٢) التاريخ العالمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء السابع

(٣) في كتابه (صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسي)

التوقيع على معاهدة (كليبير - مراد) أرسل لنا مراد بك المؤن وسلم لنا العثمانيين اللاجئين إلى معسكره ، وسعى لدى أعوانه في القاهرة لتسليم المدينة ، لكنه رأى أن مسعاه لم يؤد إلى نتيجة سريعة ، فعرض علينا إحراق المدينة ، وأرسل لنا لهذا الغرض المراكب محملة أحطاباً » وفي كتاب المسيو مارتان Martin^(١) (وهو أيضاً شاهد عيان لثورة القاهرة) تأييد لهذه الرواية ، ويقول المسيو دفيليميه De Villiers أحد مهندسي الحملة الفرنسية في مذكراته^(٢) إن مراد بك ظل موالياً للفرنسيين أثناء حصار القاهرة وإنه أرسل لهم الأحطاب لإحراق المدينة « ولكننا أبقينا عليها حتى نحصل منها على الغرامة الحربية التي كنا في حاجة إليها » ، هذا ما يقوله دفيليميه ، ومنه يتبين صراحة أن الفرنسيين لم يتورعوا عن إحراق القاهرة إلا ليهتروا من أهلها المال والغرامات الفادحة

على أنهم مع ذلك قد أضرمو النار في كثير من أحيائها كما سيجيء بيانه ، ومن ذلك يتضح لك أن مراد بك قد اشترك في مأساة إحراق القاهرة ؛ وهكذا سعى ذلك الأمير الغادر في تدمير المدينة العظيمة التي مكنت له في البلاد وأغدقت عليه زمناً ما نعمة الحكم والجاه

إخماد ثورة القاهرة

تم للفرنسيين إخضاع الوجه البحري في أوائل ابريل سنة ١٨٠٠ ، وكان ذلك بمثابة تطويق لمدينة القاهرة وتأهب لإخماد الثورة التي كانت تستعر نارها منذ ٢٠ مارس ، وكانت مدافع الفرنسيين في خلال هذه المدة تصلى المدينة ناراً حامية وتطلق قذائفها على المنازل التي كانت ملجأً للثوار ، فلما جاءت فرقة الجنرال (رينيه) من الحدود الشرقية عسكرت أمام القاهرة واحتلت الآكام المشرفة على المدينة من قلعة كامان (قنطرة الليمون) إلى قلعة سلكوسكي (جامع الظاهر) ، ومنه إلى قلعة المقطم ، فأحاطت بالمدينة شمالاً وشرقاً ، وابتدأ الهجوم على مواقع الثوار ليلة ٤ ابريل ، فأمر الجنرال كليبير بتقديم الكتائب الفرنسية من ناحية باب الحديد وكوم أبي الريش وقنطرة الحاجب وبركة الرطل والحسينية وباب النصر ، وعهد كليبير إلى الجنرال رينيه أن يبذل كل ما في طوقه للاستيلاء على جهة باب النصر وأن يصوب نيرانه إلى الجامع الأزهر

قام جنود الجنرال (رينيه) بهذه المهمة بقيادة الجنرال (أليرا) Almeyrac ، فبدءوا

(١) تاريخ الحملة الفرنسية في مصر

(٢) يوميات وذكريات عن حملة مصر

هجومهم من باب الحديد واصطدموا في أول القتال بمتراس من متاريس الثورة ، فقتل الضابط الذي يقود الكتيبة الأولى وتراجع الجنود إلى الورا ، ثم تقدمت الكتيبة ثانية ، وطاردت الثوار واقتلت المتاريس التي كانوا يتحصنون فيها ، واقتحمت المنازل التي كانوا ممتنعين بها وأضرت النار في المباني التي كانت تعوق تقدم الجنود ، واستطاعت أن تسند ميسرتها إلى سور القاهرة القديم ، وميمتها إلى مواقع الفرنسيين في ميدان الأزبكية ، واشتد القتال حول المواقع التي احتلها الفرنسيون ، واستردها الثوار المرة بعد المرة ، ولكن الفرنسيين تمكنوا في المرة الثالثة من تثبيت أقدامهم فيها ، وظلت المناوشات بين الفرنسيين والثوار من يوم ٥ ابريل إلى ١٠ منه

وفي يوم ١٢ ابريل اعترم الجنرال كليبر توطيد مركز جنوده باحتلال كوم أبي الريش^(١) الذي كان الثوار والأتراك متحصنين به ، وكان هذا الكوم نقطة ارتكاز قوية للثوار لأنه قائم على أكمة تقطع المواصلات بين جامع الظاهر (قلعة سلكوسكي) والعسكر العام للجنود الفرنسية في الأزبكية ، فعهد كليبر إلى جنود الجنرال رينيه باحتلاله ، فهجم الجنود بقيادة الجنرال (روبان) وأجلوا عنه الثوار ، وفي الوقت نفسه هجمت قوة أخرى على المنازل المحيطة ببركة الرطلي واقتحمتها وأضرت فيها النار واستبقت منها بعض المنازل التي تصلح للتحصن فيها ، وتحصن الجنود في كوم أبي الريش وأقاموا به الاستحكامات ، فكر عليهم الثوار ، ولكن الجنود ردوهم على أعقابهم واستمر القتال حوله إلى صبيحة ١٣ ابريل حيث رسخت قدم الفرنسيين فيه

هذاما وقع في الميسرة ، أما الميمنة في جهة الأزبكية فقد كان الثوار يحتلون بيت فرقة الهندسة الكائن بميدان الأزبكية ، فضربه الجنود بالمدافع وأحدثوا به ثغرات هجم منها الفرنسيون واحتلوا المنزل بعد أن أجلوا عنه الثوار وحلفاءهم العثمانيين ، لكن الثوار امتنعوا في بيت آخر بالقرب من بيت فرقة الهندسة يعرف ببيت أحمد أغا شويكار^(٢) وركبوا مدفعاً في حديقة منزل السيد البكري^(٣) فأخذوا يطلقون النار من الجهتين على الجنود الفرنسية ، لكن الفرنسيين أصابوا المدفع المركب في حديقة البكري بقنابلهم وأتلفوه ، فأنحصر الثوار في بيت أحمد أغا شويكار

(١) بالفجالة (١٤٤٠) (١٤٤٠) (١٤٤٠) (١٤٤٠) (١٤٤٠) (١٤٤٠) (١٤٤٠) (١٤٤٠) (١٤٤٠) (١٤٤٠)
(٢) هو الذي يسميه الفرنسيون بيت رينيه (انظر ص ١٥٥) تسمية له باسم ساكنه ، أما الجبرق فيسميه باسم مالكه
(٣) مكانه صندوق الدين الآن (١٩٢٩)

استمر القتال سجالاتا والثوار لا يدعون ولا يسامون ، وبدأت ذخائر القلاع تنقص بسبب كثرة الضرب فأخذت القذائف في النقصان، وخفت وطأة الرمي ، فظن الأهالي أن هذا علامة على ضعف القوات الفرنسية فاشتدت حماسهم واستعدوا لمضاعفة الجهد والقتال ، لكن الفرنسيين تلقوا مدداً جديداً ، وذلك أن الجنرال (بليار) عاد من دمياط بعد ما أخضعها وترك بها كتيبة من الجنود بقيادة الجنرال (رامبون) ورجع بمعظم قواته إلى القاهرة يوم ١٣ أبريل فمسكر أمام بولاق التي كانت معقل الثورة ، فلما وصل هذا المدد اعتزم الجنرال كليبر أن يستولى عنوة على حيّ بولاق ويحمد فيه الثورة بكل ما لديه من قوة

الوساطة في الصلح وإخفاقها

حمل سكان القاهرة الشدائد والأهوال من الضرب المتتابع وما حاق بهم من سفك الدماء وإزهاق الأرواح ، وتخريب الدور ، واشتداد الخطوب
قال الجبرتي يصف تلك المأساة :

« وصل كليبر إلى داره بالأزبكية ، وأحاطت العساكر الفرنسية بالمدينة وبولاق من الخارج ، ومنعوا الداخل من الدخول والخارج من الخروج ، وذلك بعد ثمانية أيام من ابتداء الحركة (أي حوالي ٢٨ مارس وهو يوافق اليوم التالي لحضور كليبر إلى القاهرة) وقطعوا الجلب على البلدين (مصر وبولاق) وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم ، فعند ذلك اشتدت الحرب ، وعظم الكرب ، وأكثروا من الرمي المتتابع ، بالمكاحل والمدافع ، وأوصلوا وقع القنابر والبنبات ، من أعلى التلّول والقلاع ، خصوصاً البنبات (القنابل) الكبار على الدوام والاستمرار ، آتاء الليل وأطراف النهار ، في الغدو والبكور والأسحار ، وعمدت الأقوات ، وغلت أسعار المبيعات وعزت الماء كولات وفقدت الحبوب والغلات وارتفع وجود الخبز من الأسواق ، وامتنع الطوافون به على الأطباق »

وقال في موضع آخر :

« واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب ، وشدة البلاء والكرب ، ووقوع القنابل على الدور والمساكن من القلاع ، والهدم والحرق ، وصراخ النساء من البيوت والصغار من الخوف ، والجزع والهلع ، مع القحط وفقد الماء كل والمشارب ، وغلق الحوانيت والطواوين والمحازر ، ووقوف حال الناس من البيع والشراء ، وتفليس الناس وعدم وجدان ما ينفقونه إن وجدوا شيئاً ، واستمر ضرب المدافع والقنابر والبنادق

والنيران ليلاً ونهاراً حتى كان الناس لا يهناً لهم نوم ولا راحة ولا جلوس لحظة واحدة من الزمن ، ومقامهم دائماً أبداً بالأزقة والأسواق ، كأنما على رءوس الجميع الطير ، وأما النساء والصبيان فمقامهم بأسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الأبنية إلى غير ذلك »

ونخص الجبرتي فصول تلك الرواية الفاجعة بقوله : « وجرى على الناس ما لا يسطر في كتاب ، ولم يكن لأحد في حساب ، ولا يمكن الوقوف على كلياته ، فضلاً عن جزئياته ، منها عدم النوم ليلاً ونهاراً ، وعدم الطمأنينة ، وغلو الأقوات ، وقد الكثير منها خصوصاً الأدهان ، وتوقع الهلاك كل لحظة ، والتكليف بما لا يطاق ، وغلبة الجهلاء على العقلاء ، وتناول السفهاء على الرؤساء ، وتهور العامة ، ولغظ الحرافيش ، وغير ذلك مما لا يمكن حصره »

وإنك لترى في تلك العبارات وصفاً دقيقاً لحالة القاهرة خلال ثورتها الثانية ، ولا يمكن أن يصفها شاهد عيان بأدق مما وصفها الجبرتي ، وأبلغ ما في وصفه من عظة وعبرة « غلبة الجهلاء على العقلاء ، وتناول السفهاء على الرؤساء » ، وهو داء وبيل تظهر أعراضه في أوقات الفتن ، واشتداد الكروب والمحن ، ويفضي إلى فساد النفوس واختلاط العقول وتنكب الجماهير سبيل السداد ، واستهداف البلاد للكوارث والويلات ، وإذا أردت أن تعرف إلى أي حد جره « تغلب الجهلاء على العقلاء ، وتناول السفهاء على الرؤساء » أثناء ثورة القاهرة ، فانظر إلى ما كان من أمر مساعي الصلح التي قام بها العقلاء في ذلك الحين لوضع حد للمأساة المروعة والمجزرة البشرية التي صبغت القاهرة دماءً وحرائق ، وكيف أخفقت تلك المساعي أمام غلبة الجهلاء وتناول السفهاء ، فقد كان العلماء يسعون في حقن الدماء ، وأرسل الجنرال كليبر إلى ناصف باشا وكتخدا الدولة (عثمان بك) وأمراء المماليك يطلب اليهم وفداً من العلماء ليكونوا سفراء بينه وبين الجماهير ، فأرسلوا المشايخ الشرقاوى ، والمهدى ، والسرسي والفيومي وغيرهم ، وقابلوا الجنرال كليبر ، فعرض عليهم أن يوقف القتال ويعطى أهل القاهرة « أماناً وافيةً شافيةً » على أن يخرج ناصف باشا والجنود العثمانية من المدينة ويلحقوا بإخوانهم من فلول جيش يوسف باشا ، ولئن شاء من المقاتلين المصريين أن يخرج معهم ، ولئن شاء أن يبقى ، فقال العلماء إن المصريين يخشون إذا وقف القتال وخرج العثمانيون من المدينة أن ينكل بهم الفرنسيون ، فقال كليبر : إذا قبلت شروطنا اجتمعنا بكم وبهم (العثمانيين والمماليك) وعقدنا صلحاً ولا نطالبكم بشيء والذي قتل منا فهو بمن قتل منكم (ولم يكن كليبر صادقاً في عهده) ، فعاد العلماء بهذه الشروط ليعرضوها على رؤساء

العثمانيين وزعماء الثوار ، قال الجبرتي : « فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه الانكشارية والناس قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم وضربوا الشرقاوى والسرسى ورموا عمائمهم ، وأسمعوهم قبيح الكلام ، وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ، ومرادهم خذلان المسلمين ، وانهم أخذوا دراهم من الفرنسيس ، وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول »

هذا ما ذكره الجبرتي عن تغلب الجهلاء على العلماء وعلو صيحة الفتنة على صوت العقل والحكمة ، وبلغ تهور العامة أن الشيخ السادات كان أثناء المفاوضات في بيت الشيخ الصاوى وعلم بما جرى للمشايخ من الإهانة والسب والضرب نخشى عاقبة مخالفة العامة في ميولهم ، ومعارضتهم في أهوائهم « فتحير واحتال بأن خرج وأمامه شخص ينادى بقوله الزموا المتاريس ليق بذلك نفسه من العامة »

أما رؤساء العثمانيين ناصف باشا وعثمان كتحدا الدولة فانهم لم يستطيعوا ضبط عساكرهم ، وأرسلوا إلى كليبر يقولون : « إن العساكر لم يرضوا بالصلح ويقولون لا نرجع عن حربهم حتى نظفر بهم أو نموت عن آخرنا »

وبذلك أخفقت المساعي وتجددت المذبحة ، وتجددت معها فجاج القتل وسفك الدماء والإحراق والتدمير ، ثم انتهت المساة بالتسليم بعد أن نزل بالناس من الخطوب والأهوال ما لم يشهدوا مثله من قبل

مأساة بولاق

في اليوم الرابع عشر من شهر أبريل سنة ١٨٠٠ أنذر الجنرال كليبر العاصمة بالتسليم ، ولكن الثوار لم يعبأوا بالإنذار ، ففي اليوم التالي (١٥ أبريل) بدأت الجنود بالهجوم على حي بولاق قبل شروق الشمس بقيادة الجنرال بليار وأخذوا يضربونه بالمدافع ، وكانت مداخل الحي محصنة ، والثوار متمنعون خلف المتاريس وفي البيوت ، فأجابوا على ضرب المدافع بإطلاق النار من المتاريس والبيوت المحصنة ، ولكن نار المدفعية الفرنسية حطمت المتاريس القائمة على مدخل الحي فتغرقت فيها ثغرة كبيرة اندفق منها الجنود إلى شوارع بولاق ، وأضرموا النار في البيوت القائمة بها ، فاشتعلت فيها واتسع مداها ، وامتدت إلى مباني الحي من مخازن ووكانل ومحال تجارة فالتهمتها وما كان فيها من المتاجر العظيمة ودمرت هذا الحي الكبير الذي يعد ميناء للقاهرة ومستودعا لتجارها ، وهدمت الدور على سكانها فباد كثير

من العائلات تحت الأتقاص أو في لهب النار ، وكانت مأساة مروعة وصفها الجبرتي بقوله :
 « هجموا على بولاق من ناحية البحر (النيل) ومن ناحية بوابة أبي العلاء ، وقاتل أهل
 بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم في النيران حتى غلب الفرنسيس عليهم وحصرهم من كل
 جهة ، وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب ، وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها
 ما تشيب من هوله النواصي ، وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة ، واحتترقت
 الأبنية والدور والقصور ، وخصوصا البيوت والرباع المطلة على البحر ، وكذلك الأطراف
 وهرب كثير من الناس عندما أيقنوا بالغلبة فنجوا بأنفسهم إلى الجهة القبيلية ، ثم أحاط
 الفرنسيس بالبلد ، ومنعوا من يخرج منها واستولوا على الخانات والوكائل والحواصل والودائع
 والبضائع ، وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخوندات والصبيان
 والبنات ومخازن الغلال والسكر والكتان والقطن والأبازير والأرز والأدهان والأصناف
 العظيمة ، ومالا تسعه السطور ، ولا يحيط به كتاب ولا منشور ، والنزى وجدوه منعكفاً
 في داره أو طبقتة ولم يقاتل ولم يجدوا عنده سلاحاً نهبوا متاعه ، وعروه من ثيابه ، ومضوا
 وتركوه حياً ، وأصبح من بقي من ضعفاء أهل بولاق وأهلها وأعيانها الذين لم يقاتلوا فقراء
 لا يملكون ما يستر عورتهم »

تلك رواية الجبرتي عن مأساة بولاق ، وهي رواية شاهد عيان ، وليس فيها على ما نعتقد
 مبالغة في الوصف ، ويكفيك أن ترجع إلى وصف الميسيو جالان^(١) وهو شاهد آخر لتلك
 الحوادث المروعة ، فتجد التوافق بين الروايتين في مجموعهما ، قال : « في اليوم الحادى والعشرين
 من شهر جرمينال (يوافق ١٤ أبريل سنة ١٨٠٠) أذرت بولاق بالتسليم ، فرفض أهلها
 كل إنذار وأجابوا بإباء وكبرياء أنهم يتبعون مصير القاهرة ، وأنهم إذا هوجوا فهم مدافعون
 عن أنفسهم حتى الموت ، فأخذ الجنرال فريان Friant^(٢) يحاصر المدينة وبدأ يصب عليها من
 المدافع ضرباً شديداً أملاً منه في إجبار الأهالى على التسليم ، لكنهم أجابوا بضرب النار ،
 فأطلقت المدافع قنابلها على التاريس ، وهجم الجنود على الاستحكامات فاقتحموا أكثرها
 وظل بعضها يقاوم ، واستبسلى الأهلون في الدفاع ولجئوا إلى البيوت فآخذوها حصوناً يمتنعون
 بها ، فاضطرت الجنود إلى الاستيلاء على كل بيت منها ، والتعلب عليها بقوة الحديد والنار ،
 وبلغ القوم في شدة الدفاع حداً لا مزيد بعده ، وفي هذا البلاء عرض العقو على الثوار فأبوه

(١) في كتابه (صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى)

(٢) لعله يريد الجنرال (بليار) قائد العسكر في هذا الهجوم وإن كان الجند من فرقة (فريان)

واستحرق القتال ، فجعلنا المدينة ضراما ، وأسلمناها للنهب ، وصار أهلها عرضة لبطش الجنود
وتسكيلهم ، فجرت الدماء أنهاراً في الشوارع ، واشتملت النار أحياء بولاق من أقصاها إلى
أقصاها ، وعادت تلك المدينة العامرة الزاهرة هدفا للخراب ، وأكلتها أهوال الحرب وفظائعها ،
ولما بلغت المأساة مداها طلب الأهالي التسليم فأجيبوا إلى طلبهم ، ولكن بولاق ستظل زمناً
طويلاً تردى في هاوية من الخراب إلى أن تستطيع النهوض من أعباء الكوارث التي حلت
بها ، فإن معظم بيوتها أصبحت ركاما من الخرائب والأطلال المحترقة ، ولقد مضت ثمانية أيام
والنار تلتهمها ولا تزال تشتعل فيها (١)»

لم يكتف الفرنسيون بما حل ببولاق من الخراب والتدمير بل فرضوا على أهلها غرامة
جسيمة قيمتها ٢٠٠ ألف ريال وأخرى على متاجرها قيمتها ٣٠٠ ألف ريال تجبي عرضاً من
السكر والبن والزيوت والحبال والتيل والقطران والنحاس والحديد والرصاص ، وفرضوا على
الأهالي أن يسلموا ما عندهم من المدافع والذخائر الموجودة في ترسانة بولاق وما لديهم من
الأخشاب والغلال والشعير والأرز والعدس والفول ، وأن يسلموا أربعاً بندقية ومائتي
طبنجة ، وقبض الفرنسيون على الحاج مصطفى البشتيلي رئيس الثوار وطلبوا من أتباعه أن
يقتلوه لأنه السبب فيما حل بهم ، فضرب بالعصى حتى مات

المهجوم على مواقع الثوار

أثرت الفسكة التي حلت ببولاق في سائر أنحاء القاهرة ، وانتهز الجنرال كليبر فرصة
الفرع الذي استولى على النفوس فأمر جنوده بالمهجوم العام على مواقع الثوار ، وعاق المطر
هذا المهجوم يومين ، ثم ابتداء يوم ١٨ أبريل سنة ١٨٠٠ ، وكان نذيره بينهم إشعال النار في لغم
دسه الفرنسيون تحت جدار بيت أحمد أغا شويكار الذي كان الثوار ما يزالون يحتلونه ، فلما
انفجر اللغم نسف المنزل بمن فيه واحترقوا عن آخرهم ، وهاجم الفرنسيون المدينة هجوماً عاماً
من جهة الناصرية وباب اللوق والمدابغ والفجالة وكوم أبي الريش وباب الشعرية
تولى الكولونيل سيلي Silly مهاجمة حي الناصرية ولكنه أخفق في احتلاله

وهجم الجنرال دنزو Donzeiot على حي المدابغ فاعترضه خندق عميق يحيط به منازل
يحتلها الثوار ، فانهال عليه الرصاص منها ، فاضطر إلى الانسحاب وتحصن بالقرب في
شارع الجباسة

(١) كتاب (صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسي) للسيو جالان أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون
في عهد الحملة الفرنسية

وهجم عسكر الجنرال فريان والجنرال بليار من ميدان الأزبكية ، والجنرال رينيه Reynier من الفجالة وكوم أبي الريش وباب الشعرية ، فاشتد القتال في تلك الجهات وكانت الحرب فيها سجالاتا وتنجتها في مجموعها مغنا للفرنسيين وتوطيداً لمركزهم ، وكان من عواقبها إلقاء الذعر بين الثوار ، وكثر القتل والجرحى من الجانبين ، وأصيب الجنرال بليار فيمن أصيبوا بجرح بليغ

وانقضت الأيام التالية والقتال مستمر ولكنه أقل شدة مما كان في اليوم الأول ، وكان الفرنسيون في خلال هذه الأيام يوطدون مركزهم في المواقع التي غنموها ويضيقون على الثوار ، واشتد الضيق بالأهالي وسرى اليهم الملل من استمرار حالة الحرب وما حاق بهم من الفظائع والأهوال ، فتجددت فكرة الصلح ووضع حد لمأساة القتال

فظائع الفرنسيين في إخماد الثورة

أسرف الفرنسيون في ارتكاب الفظائع لإخماد الثورة ولجأوا إلى الطريقة الوحشية التي اتبعوها في كثير من المواطن وهي إضرام النار في الأحياء الآهلة بالسكان وإرسالها على المدينة وأهلها موتاً أحر ، فأحدثت الحرائق تخریباً فظيماً في القاهرة ، واحترقت أحياء برمتها وتهدمت بيوت عامرة ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها ، ومن الأحياء التي التهمتها النار خط الأزبكية وخط الساكت والفوالة والرويعي وبولاق وبركة الرطل وما جاورها وباب البحر والحروبى والمدوى إلى باب الشعرية

فأصبح منظر المدينة بعد ما حل بها من التخريب والإحراق والتدمير مفرعاً يملأ القلوب حزناً وأسى

وصف الجبرتي الأحياء التي دمرتها النيران ، ونعاها بعبارات ينفطر لها الفؤاد حسرة وأسفا قال يصف آثار الحريق في حي الأزبكية وما جاورها :

« أنهدم جميع ما هناك من الدور والمباني العظيمة والقصور المطلة على البركة واحترقت جميع البيوت التي من عند بين المفارق بقرب جامع عثمان كتنخدا إلى رصيف الخشاب والخطة المعروفة بالساكت بأجمعها إلى الرحبة المقابلة لميت الألفى سكن سارى عسكر الفرنسيين ، وكذلك خطة الفوالة بأسرها ، وكذلك خطة الرويعي بالسباطين العظيمين وما في ضمن ذلك من البيوت إلى حد حارة النصارى ، وصارت كلها تلالا وخرائب كأنها لم تكن معنى صبابات

ولا مواطن أنس ونزاهات ، وجنت عليها أيدي الزمان وطوارق الحدثان حتى تبدلت محاسنها
وأفقرت مساكنها »

وقال يعنى بركة الرطلى وما دمره الحريق من عمائرها الجميلة :

« وأما بركة الرطلى وما حولها من الدور والمنزهات والبساتين فإنها صارت كلها تلالا
وخرائب وكيان أتربة ، وقد كانت هذه البركة من أجل منزهات مصر قديماً وحديثاً ، وقال
أيضاً : « ومما تحزب أيضاً حارة المقس من قبل سوق الخشب إلى باب الحديد وجميع ما فى ضمن
ذلك من الحارات والدور صارت كلها خرائب مهتمة محترقة تسكب عند مشاهداتها العبرات »
وقال المسيو جالان^(١) يصف هذه المأساة وكان من شهودها : « وقع الهجوم العام على
القاهرة يوم ٢٨ جرمينال ، وكان هولاء هائلا شاملا جميع الجهات ، فصبت المدافع قنابلها على
المدينة الثائرة ، ودوى صوت الضرب فى كل مكان ، وظل إطلاق القنابل والرصاص متواصلا
طول الليل ، وشبت الحرائق فى جهات متعددة ، وأخذت النيران فى كل لحظة تلتهم المنازل
بعضها إثر بعض وأحدثت النار من الخرائب والحرائق فى القاهرة ما لم يحدث مثله منذ بدأ
الحصار ، وقد قتلنا عدداً كبيراً من الناس فى تلك الموقعة المروعة ، ولكننا فقدنا كثيراً من
جنودنا الشجعان قبل أن تصبح المدينة فى قبضة يدنا »

وقال فى موضع آخر يصف آثار الحريق بعد إخماد الثورة : « فى ١٥ فلوربال^(٢) رجعت
إلى القاهرة واضطرت أن أبحث لى عن منزل آوى إليه فى ميدان الأزبكية بدل المنزل الذى
كنت أسكنه والتهمته النيران ، وقد لاحظت أن الحصار أضر بالقاهرة أكثر مما كنت
أتصور ، فقد عم الخراب أحياء بأكملها ، وتمثل لنا شبحة الخيف فى الأزبكية ، وأثرت فى
نفسى صورته المفزعة ، فليس فى الإمكان أن نخطو خطوة إلا على كتيبان من الخرائب والأتربة ،
وكانت رائحة العفونة تلبعث من الرمم المدفونة تحت الردم ، وزاد هذا المنظر فظاعة أن الجنود
مدفوعين بفكرة النهب كانوا ينبشون الجثث من تحت الأنقاض والخرائب ، فكلماً أظهروا
جثة زاد المنظر هولاً وفظاعة »

المفاوضة فى التسليم

استأنف علماء القاهرة مسعاهم فى سبيل حقن الدماء وألحوا على ناصف باشا وإبراهيم بك

(١) فى كتابه « صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى »

(٢) يوافق ٥ مايو سنة ١٨٠٠

وأصحابهما أن يعملوا على وضع الحد لقتال لا يجلب على المدينة سوى الخراب والدمار ، وانضم عثمان بك البرديسى وكيل مراد بك إلى العلماء فى السعى للصلح وعرض على زعماء الثورة أن يدخل مراد بك فى الصلح على شرط أن يسلموا المدينة ، فأذعن الثوار لهذه المساعى وانتدب ناصف باشا عثمان أفندى وكيل الصدر الأعظم وانتدب إبراهيم بك عثمان بك الأشقر لمفاوضة الجنرال كليبر فى وقف القتال

واستمرت المفاوضات فى شروط التسليم إلى أن تم إبرام الاتفاق يوم ٢١ أبريل سنة ١٨٠٠ ، ووقع عليه ناصف باشا وثمان أفندى وإبراهيم بك ، وتتضمن هذه الشروط تعهد الجنود العثمانية والماليك بالجلء عن القاهرة وأن تم استمدادات الجلء فى مدة ثلاثة أيام وأن يجلو العثمانيون والماليك حاملين أسلحتهم وأمتعتهم ما عدا المدافع فإنهم يتركونها فى مواقعها فى القاهرة ، وأن ينفذ الجلء يوم ٢٥ أبريل (الموافق ٣٠ ذى القعدة سنة ١٢١٤) بحيث لا يكون منهم أحد بالقاهرة بعد ظهر ذلك اليوم ما عدا الجرحى ، وتمهدوا بمواصلة الجلء حتى حدود سورية

وتعهد الجنرال كليبر فى المعاهدة بأن يعفو عفواً عاماً عن جميع أهالى القاهرة وعن المصريين الذين اشتركوا فى الثورة ، ولكنه اشترط ألا يغادر المدينة أحد من المصريين بقصد اللحاق بالجيش العثمانى

وأخذ الأتراك والماليك بعد التوقيع على معاهدة التسليم يعدون معدات الرحيل ، ثم ارتحلوا بطريق بلبليس ، وسار معهم زعماء الثورة من المصريين أمثال السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروق كبير التجار ، وهاجر من العاصمة عدة آلاف من السكان ممن توقعوا انتقام الفرنسيين ، فتفرقوا فى البلاد ، وقد كانوا محقين فى مخاوفهم لان كليبر نقض عهده كما سيجىء بيانه ، وإبرام شروط التسليم انتهت ثورة القاهرة بعد قتال دام ثلاثة وثلاثين يوماً

عودة السلطة الى الفرنسيين

عادت السلطة إلى الفرنسيين بعد إخماد ثورة القاهرة ، وسادت السكينة أنحاء الوجه البحرى والوجه القبلى ، وأصبح الجنرال كليبر حاكماً بأمره فى البلاد وهو الذى كان قبل شهرين يعد معدات الرحيل عنها ، ولكن السياسة الإنجليزية هى التى غيرت سير الأمور وتسببت فى نقض معاهدة العريش ومنعت الجنود الفرنسية من السفر إلى فرنسا فأشعلت نار الحرب ثانية بين

الأتراك والفرنسيين وانتهت هذه الحرب بانتصار الفرنسيين في معركة عين شمس وإخماد ثورة القاهرة بقوة السيف والنار ، وبذلك تحركت في نفس كليبر مطامع الفتح والاستعمار ، واعتزم البقاء في الديار المصرية وإدارة شؤونها إلى ما شاء الله كستعمرة فرنسية ، وأراد أن يبعث الرهبة في نفوس الشعب ويعلن عن قوة الجيش الفرنسي بالرغم مما أصابه في المارك الأخيرة ، فعرض الجنود عرضاً كبيراً في سهول (القبة) ، ودعا أكبر أعيان القاهرة ليشهدوا العرض وليتحققوا من قوة الجيش الفرنسي وحسن نظامه ، ولما انتهى العرض دخل الجيش العاصمة واحترق شوارعها في رهبة ، بين قصف مدافع القلاع ، وكأنما أراد كليبر أن يدخل المدينة دخول الغزاة ليدعى لنفسه حق الفتح والتصرف في مصير البلاد ، وإليك ما ذكره الجبرتي عن دخول كليبر المدينة ومقابلته للمشايخ والأعيان ، قال ما خلاصته :

« ودخل الفرنسيون إلى المدينة يسعون ، وإلى الناس بعين الحقد ينظرون ، واستولوا على ما كان اصطنمه وأعدته العثمانية من المدافع والقنابر والبارود وآلات الحرب جميعها وقيل إنهم حاسبوهم على كلفته ومصاريقه وقبضوا ذلك من الفرنسيين ، وركب المشايخ والأعيان عصر ذلك اليوم وذهبوا إلى كبير الفرنسيين ، فلما وصلوا إلى داره ودخلوا عليه وجلسوا ساعة أبرز لهم ورقة مكتوباً فيها النصر لله الذي يريد أن المنصور يعامل الناس بالشفقة والرحمة ، وبناء على ذلك يريد ساري عسكر العام أن ينعم بالعمو العام والخاص على أهل مصر وعلى أهل بر مصر ولو كانوا يخاطبون العثملي في الحروب ، وأنهم يشتغلون بمعايشهم وصنائعهم ، ثم نبه عليهم بحضورهم إلى قبة النصر بكرة تاريخه ، ثم قاموا من عنده وشقوا المدينة وطافوا بالأسواق وبين أيديهم المناداة للرحمة بالاطمئنان والأمان ، فلما أصبح ذلك اليوم ركبت المشايخ والوجاقلية وذهبوا إلى خارج باب النصر وخرج أيضاً القلقات والقبط والشوام وغيرهم ، فلما تكامل حضور الجميع رتبوا موكباً وساروا ودخلوا من باب النصر وقدامهم جماعة من القواسمة يأمرهم الناس بالقيام ، وبعض فرنساوية راكبين خيلاً وبأيديهم سيوف مسلولة ينهرون الناس ويأمرونهم بالوقوف على أقدامهم ، ومن تباطأ في القيام أهانوه ، فاستمرت الناس وقوفاً من ابتداء سير الموكب إلى انتهائه ، ثم تلا الطائفة الأمرة للناس بالوقوف جمع كثير من الخيالة الفرنسيين بأيديهم سيوف مسلولة وكلهم لابسون جوحاً أحمر وعلى رؤوسهم طراير من الفراوي غير هيئة خيالاتهم ومشاتهم ، ثم تتالى بعد هؤلاء طوائف العساكر ببوقاتهم وطبولهم وزمورهم واختلاف أشكالهم وأجناسهم وملابسهم من خيالة ورجالة ، ثم الأعيان والمشايخ والوجاقلية وأتباعهم إلى أن قدم ساري عسكر الفرنسيين ووراء عثمان بك البرديسي

وعثمان بك الأشقر (مندوبى مراد بك) وخلفهم طوائف من خيالة الفرنسيين ، ولما انقضى أمر الموكب نادوا بالزينة فزينت البلد ثلاثة أيام آخرها يوم الثلاثاء مع السهر ووقود القناديل ليلا»

فتأمل في قول الجبرتى ان مندوبى مراد بك كانا يسيران في الموكب خلف الجنرال كليبر مباشرة ، وهذا يدل على ارتباط المالك بالفرنسيين وقتئذ ، وهذه إحدى نتائج معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك ، ففي الوقت الذى كان الشعب يعانى فيه الأهوال خلال الثورة وبعد إخمادها كان ضلع المالك مع الفرنسيين ، بل كانوا أعوانهم في إذلال الشعب

بعد إخماد الثورة

غرامات فادحة - اعتقال واضطهاد

كان أول عمل للجنرال كليبر بعد دخوله المدينة أن نقض عهده في العفو العام عن كل من لهم يد في الثورة ، فقد أمر بالاقتصاص من سكان القاهرة جميعهم بفرض غرامة جسيمة تنوء بها أكبر العوامم وبخاصة بعد ما حل بها من الخراب والدمار

فرض على سكان القاهرة غرامة قدرها اثنا عشر مليون^(١) فرنك يوفى نصفها نقدا ونصفها عروضاً ، وألزم سكان المدينة بتسليم عشرين ألف بندقية وعشرة آلاف سيف وعشرين ألف طبنجة ، وخص بعض كبار الأعيان والعلماء بنصيب فادح من هذه الغرامة

فصودرت أملاك السيد احمد المحروقي كبير التجار ، وفرض على السيد محمد السادات غرم قدره ١٥٠.٠٠٠ ريال (٨٠٠ ألف فرنك تقريباً) والشيخ مصطفى الصاوى ٥٠.٠٠٠ ريال (٢٦٠ ألف فرنك) والشيخ محمد الجوهري وأخيه الشيخ فتوح ٥٠.٠٠٠ ريال ، وأمر بتوزيع الباقي على سكان المدينة على اختلاف طوائفهم وطبقاتهم ، واعتقل خمسة عشر رجلاً من كبارهم رهينة لوفاء هذه الغرامة ، قال الجبرتى ما خلاصته : « فوزعوها على الملتزمين وأصحاب الحرف حتى على الحواة والقردياتية والتجار وأهل الغورية وخان الخليلي والصاغة والنحاسين ، والدالين والقبانية وقضاة المحاكم وغيرهم كل طائفة عليها مبلغ معلوم ، وكذلك يباعو الدخان والتبناك والصابون ، والخرنجية والطارون والزياتون والشواءون

(١) يقول الجبرتى إنها عشرة آلاف ألف فرنك أى عشرة ملايين فرنك ، ولكن المراجع الفرنسية ومنها مذكرات نابليون مجمعة على أنها اثنا عشر مليون فرنك فاعتمدنا هذا الرقم

والجزارون والمزينون وجميع أهل الصنائع والحرف ، وجعلوا على الأملاك والمقار والدور
أجرة سنة كاملة »

هذا ما يقوله الجبرتي ، فالغرامة الفادحة التي فرضها كليبر على القاهرة أنهكت المصريين
على اختلاف طبقاتهم ، الاغنياء والفقراء والمعدمون سواء ، وقد هال سكان القاهرة فداحة
تلك الغرامة وزادت في مصائبهم وآلامهم ، فكان الفرنسيين لم يكتفوا بما ابتليت به العاصمة
من أهوال القتل والنهب وسفك الدماء والحريق والتدمير والمجاعة ، فتمسوا عليها بتلك
الغرامة الباهظة

ومن الصعب أن نتعرف كيف وفق كليبر بين هذه الغرامة والعهد الذي قطعه على نفسه
بأن يعفو عمن اشتركوا في ثورة القاهرة ، لكنها القوة الغشوم لا عهد لها ولا ميثاق
وإذا أردت أن تعرف مبلغ نقض العهد فتأمل فيما رواه الجبرتي عن مقابلة كليبر أعيان
المدينة وإبلاغهم نبأ الغرامة ، فقد ذكر أن كليبر قال لهم فيما قال :
« حيث إننا أعطيناكم الأمان فلاننقض أماننا ! ولا تقتلكم ! وإنما نأخذ منكم الأموال ،
فالمطلوب منكم عشرة آلاف ألف فرنك »

وقد أسرف الفرنسيون في إرهاب سكان القاهرة وإذلالهم ، واعتقلوا الكثيرين منهم
لإكراههم على دفع نصيبهم في الغرامة ، وقتلوا جميع المنازل بحجة البحث عن السلاح ،
وتفسسوا في ضروب القهر والنكال ، واشتد الضيق بالناس مما لاقوه من المصائب والأهوال ،
نخرت بيوت عاهرة ، وخرج كثير من الناس عن أموالهم وبعوا متاعهم ، ومات كثير منهم
في السجون ، وهاجر من استطاع الهجرة فراراً من الظلم والاضطهاد
قال الجبرتي في هذا الصدد :

« وأزمو الأغا (المحافظ) بمدة طوائف كتبوها في قائمة بأسماء أربابها وأعطوه عسكرا
وأمره بتحصيلها من أربابها ، وكذلك على أغا الشعراوي (رئيس الشرطة) وحسين أغا المحتسب
وعلى كتحدا سليمان بك ، فذهبوا على الناس بذلك ، وبثوا الاعوان يطلب الناس وحبسهم وضر بهم ،
فدهى الناس بهذه النازلة التي لم يصابوا بمثلها ولا ما يقاربها ، ومضى عيد النحر ولم يلتفت اليه
أحد بل ولم يشعروا به ، ونزل بهم من البلاء والذل ما لا يوصف ، فان أحد الناس غنيا كان أوفقيرا
لا بد أن يكون من ذوى الصفائح أو الحرف فيلزمه دفع ماوزع عليه في حرفته أو في حرفتيه وأجرة
داره أيضا سنة كاملة ، فكان يأتي على الشخص غرامتان أو ثلاثة ونحو ذلك ، وفرغت الدراهم
من عند الناس واحتاج كل إلى القرض فلم يجد الدائن من يدينه لشغل كل فرد بشأه ومصيبته ،

فلزمهم بيع المتاع فلم يوجد من يشتري ، وإذا أعطوهم ذلك لا يقبلونه ، فضاقت خناق الناس وتمنوا الموت فلم يجدوه ، ثم وقع الترجي في قبول المصوغات والفضيات ، فأحضر الناس ما عندهم فيقوم بأبحس الاثمان ، وأما أثاث البيوت من فرش ونحاس وملبوس فلا يوجد من يأخذه ، وأمروا بجمع البغال ومنعوا المسلمين من ركوبها مطلقا سوى خمسة أنفار من المسلمين وهم الشراوى ، والمهدى ، والفيوى ، والامير ، وابن محرم (من كبار تجار القاهرة) ، والنصارى المترجمين وخلافهم لا حرج عليهم في كل وقت ، وحين يشتد الطلب وينبت الميعنون والمسكر في طلب الناس ومهاجمة الدور وجرجرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر ، وبهدلتهم وجبستهم وضربهم ، والذي لم يجدوه لكونه فر وهرب يقبضون على قريبه أو حريمه أو يهبون داره فإن لم يجدوا شيئا ردوا غرامته على أبناء جنسه وأهل حرقتة ... هذا والكتبة والمهندسون والبناءون يطوفون ويحرون أجر الأماكن والمقارات والوكائل والحمامات ويكتبون أسماء أربابها وقيمته ، وخرجت الناس من المدينة وجلوا عنها وهربوا إلى القرى والأرياف ، ثم إن أكثر الفارين رجع إلى مصر لضيق القرى وعدم ما يتعيشون به فيها وانزعاج الريف بقطاع الطريق والعرب والمناسر بالليل والنهار والقتل فيما بينهم وتعدى القوى على الضعيف ، واستمرت الطرق مجفرة والأسواق مقفرة والحوانيت مقفولة والعقول مخبولة ، والخانات والوكائل مغلوقة والنفوس مطبوقة ، والغرامات نازلة والأرزاق عاطلة ، والمطالب عظيمة والمصائب عميمة ، والعكوسات مقصودة والشفاعات مردودة ... وبالجملة فالأمر عظيم والخطب جسيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم »

هذا وصف شاهد عيان للمأساة التي حلت بالقاهرة بعد إخماد ثورتها الثانية ، وبقيننا أنه قلما توجد في تاريخ الثورات فجائع تشبهها أو تدانيها في ويلاتها وخطوبها وأهوالها

اضطهاد الفرنسيين للسيد السادات

كان السيد محمد السادات هدفا لأقسى ضروب الانتقام والاضطهاد ، فقد خصه الجنرال كليبر بأكبر غرامة ، وعامله الفرنسيون بقسوة لا نظير لها ، فاعتقلوه غير مرة وأهانوه وصادروا أمواله واضطروه الى بيع أملاكه توفية للغرامة التي فرضوها عليه ، وأفرطوا عليه في القسوة ولم يعروا مقامه بين الناس ولا منزلته في البلاد ، وقد احتل من صنوف الإرهاب ما لم يصب غيره من أنداده ولا من قومه ، فلا جرم أن أفردنا لاضطهاده مبحثا خاصا ، لأن من يتأمل فيما رواه الجبرتي عما أرهقه من صنوف الأذى والانتقام لا يسعه إلا أن يترحم على ذكره

قال الجبرتي ما خلاصته « نزل الشيخ السادات وركب إلى داره فذهب معه عشرة من
المسكر وجلسوا على باب داره ، فلما مضت حصّة من الليل حضر معه عشرة من المسكر
أيضاً ، فأركبوه وطلعوا به إلى القلعة وحبسوه في مكان ، فأرسل إلى عثمان بك البرديسي
وتداخل عليه فشفع فيه فقالوا له : أما القتل فلا نقتله لشفاعتك ، وأما المال فلا بد من دفعه ،
ولا بد من حبسه وعقوبته حتى يدفعه ، وقبضوا على فراشه ومقدمه وحبسوها ، ثم أنزلوه إلى
بيت قائم مقام (حاكم القاهرة) فكث به يومين ثم أصدده إلى القلعة ثانياً وحبسوه في حاصل
ينام على التراب ويتوسد بحجر ، وضربوه تلك الليلة ، فأقام كذلك يومين ثم طلب زين الفقار
كتخذ فطلع إليه هو وبرطلمين (يرتلمى الروى) فقال لهما أنزلوني إلى دارى حتى أسمى وأبيع
متاعى ، فاستأذنوا له وأنزلوه إلى داره ، فاحضر ما وجده من الدراهم فكانت تسعة آلاف
ريال معاملة عنها ستة آلاف ريال فرانسه^(١) ثم قوموا ما وجده من المصاغ والفضيات والفراوى
والملابس وغير ذلك بأبخس الثمن فبلغ ذلك خمسة عشر ألف ريال فرانسه ، فبلغ المدفوع
بالنقدية والقومات واحداً وعشرين ألف ريال ، والمحافظون عليه من المسكر ملازموه لا يتركونه
يطلع إلى حريمه ولا إلى غيره ، وكان وزع حريمه وابنه إلى مكان آخر ، وبعد أن فرغوا من
الموجودات جاسوا خلال الدار يفتشون ويحفرون الأرض على الخبايا فلم يجدوا شيئاً ، ثم نقلوه
إلى بيت قائم مقام ماشياً ، وصاروا يضربونه خمس عشرة عصا في الصباح ومثلها في الليل ،
وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوها ، فاحضروا محمد السندوبى تابعه وقرروه (أكرهوه على الإقرار)
حتى عاين الموت حتى عرفهم بمكانهما ، فاحضروها وأودعوا ابنة عند أغات الانكشارية
(المحافظ) وحبسوا زوجته معه فكانوا يضربونه بحضرتها ، وهى تبكى وتصبح وذلك زيادة
في الإنكاء ، ثم إن المشايخ وهم الشراوى ، والفيومى ، والمهدى ، والشيخ محمد الأمير ، وزين
الفقار كتخدا تشفعوا فى نقلها من عنده ، فنقلوها إلى بيت الفيومى^(٢) وبقى الشيخ على حاله
وأخذوا مقدمه وفراشه وحبسوها ، وتغيب أكثر أتباعه واختفوا ، وفى خامس محرم
سنة ١٢١٥^(١) أصددهوا الشيخ السادات إلى القلعة وكان أرسل إلى كبار القبط بأن يسعوا فى
قضيته ورهن حصصه ويسدد ما عليه فردوا عليه بأنه لا بد من سداد قدر نصف الباقي أولاً

(١) أى تساوى ستة آلاف ريال فرنسوى

(٢) جاء فى الأمر الصادر من الجنرال كليبر بتاريخ ٢٢ مايو سنة ١٨٠٠ إلى الجنرال داماس رئيس

أركان الحرب مايويد رواية الجبرتي إذ يقضى « بنقل زوجة الشيخ السادات إلى بيت الشيخ سليمان الفيومى »
ويظهر أن هذا الأمر كان نتيجة مسعى المشايخ

(٣) يوافق ٢٩ مايو سنة ١٨٠٠

ولا يمكن غير ذلك ، وأما الحصص فليست في تصرفه ، ثم نقله الفرنسيين إلى القلعة ومنعوه الاجتماع بالناس وهي المرة الثالثة »

هذه رواية الجبرتي عما نزل بالسادات من الاضطهاد والتعذيب ، وفي المراجع الفرنسية ما يؤيد روايته وبخاصة في مذكرات نابليون ، فقد تقدم الكلام بالجزء الأول (ص ٣٠٤ من الطبعة الأولى) عما جاء في تلك المذكرات خاصا باتهام الفرنسيين للسادات بالتحريض على ثورة القاهرة الأولى ومازآه نابليون من الإبقاء عليه لما اعتقده من أن الحكم بإعدامه يضر بمركز الفرنسيين أكثر مما ينفعهم ، ونضيف إلى ذلك أن نابليون يقول في مذكراته إن الجنرال كليبر راجعه في رأيه هذا عقب إخماد الثورة الأولى (أكتوبر سنة ١٧٩٨) وسأله كيف لا يقضى بإعدامه وهو زعيم الثورة فأجابه نابليون أن إعدام مثل هذا الشيخ الجليل لا يفيد الفرنسيين بل يؤدي إلى عواقب وخيمة ، ويقول نابليون أيضاً : « وقد وقعت بعد ذلك حوادث أثار ذكرى هذه المحادثة ، فإن الشيخ السادات هذا هو الذي أمر الجنرال كليبر بتعذيبه وضربه ، وكان هذا من أهم الأسباب التي أدت إلى مقتل كليبر »^(١)

وقال نابليون في موضع آخر عند الكلام على إخماد ثورة القاهرة الثانية : « إن السادات قد خُص بغرامة فادحة ، وكان معروفًا عنه كرهه للفرنسيين ، على أنهم أسرفوا في إهانتهم لدرجة أنهم نسوا مقامه المستمد من نسبه ومولده ، فقد رفض أن يدفع الغرامة فاعتقل وسجن بالقلعة ، ولم يعبأ بالتهديد والوعيد ، فأمر كليبر بضربه بالمص ، وهكذا ضرب السادات وأهينت السلالة النبوية ، فعم السخط رجال الشرع والعلماء والشعب ، وكانت هذه المعاملة على النقيض من معاملة نابليون للسادات عقب ثورة سنة ١٧٩٨ فقد قابله بالعفو والتسامح مع قيام البيئات عليه بأنه زعيم الثورة »^(٢)

ويقول نابليون أيضاً في مذكراته ان لاضطهاد السادات دخلا في مقتل الجنرال كليبر ، لأنه لا يمكن أن يجهد علماء الأزهر ما كان ينويه سليمان الحلبي من اغتيال كليبر فقد قضى بالأزهر نحو ثلاثين يوماً مصمماً على القتل ، لكنهم تجاهلوا نية القاتل وتجاهلوا كل ما له علاقة به لأنهم كانوا يودون الانتقام من الجنرال كليبر^(٣)

وقال المسيو جومار^(٤) Jomard الذي عاصر السادات : « ان الشيخ محمد السادات كانت

(١) مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران في جزيرة سانت هيلين

(٢) و (٣) مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين

(٤) أحد مهندسي الحملة الفرنسية ، انظر ما كتبناه عنه بالجزء الأول ص ١٢٦ (من الطبعة الأولى)

له مكانة كبيرة في البلاد خلال الحملة الفرنسية ، وكان يعرف كيف يثير عواطف الشعب ، والمعروف عنه انه هو الذى هاج ثورة القاهرة الأولى وحرص على الثانية ، على انه دفع ثمنًا غالباً لمكانته بين الشعب ، فقد فرض عليه القائد العام الجنرال كليبر بعد واقعة عين شمس غرامة فادحة وأسرف في القسوة معه إلى حد أن أمر بضربه بالعصى ، ولم يقره ضباط الجيش على هذه القسوة « (١)

بقى السيد السادات معتقلا في القلعة ، ولم يفرجوا عنه إلا في ١٩ يوليه سنة ١٨٠٠ (٢٦ صفر سنة ١٢١٥) في عهد قيادة الجنرال منو بعد أن سدد الغرامة المفروضة عليه ، قال الجبرتي واستولى الفرنسيون على « حصصه واقطاعه ، وقطعوا مرتبته وكذلك جهات حريمه والحصص الموقوفة على زاوية أسلافه ، وشرطوا عليه عدم الاجتماع بالناس والأيركب بدون إذن منهم ويقتصد في أموره ومعاشه وتقليل أتباعه » (٢) ، أى انه بقي في داره رهن المراقبة ، ثم اعتقلوه للمرة الرابعة في أوائل مارس سنة ١٨٠١ بعد وصول الحملة الانجليزية العثمانية الى (ابو قير)

ويقول الجبرتي أنهم اصعدوه في هذه المرة الرابعة إلى القلعة « من غير إهانة » والظاهر أن الفرنسيين أحسوا في هذه المرة بقرب ارتحالهم عن البلاد فخففوا من غلوائهم مع من اعتقلوهم كما سيحيىء بيان ذلك

موقف كليبر

بعد إخماد ثورة القاهرة

أصبح موقف كليبر بعد جلاء الجنود العثمانية وإخماد ثورة القاهرة على جانب عظيم من المتعة ، فقد دلت الظواهر على أن مصر دانت له من أقصاها إلى أقصاها ، وانها خلصت له فلا يحشى عليها من اعتداء دولة أجنبية أو قيام ثورة داخلية ، وجعله انقطاع المواصلات بين مصر وفرنسا شبه حاكم مستقل ، فأخذ يحكم البلاد ويدير شؤونها على هذا النحو ، ومضى ينظم قواته ويدعم موقفه الحربى ، وأمر بإنشاء قلاع جديدة في القاهرة حتى لا تنشب فيها ثورة أخرى ، وهذا عدا القلاع التى أنشأها نابليون بعد إخماد الثورة الأولى مما بسطناه بالفصل الثالث عشر من الجزء الأول (٣٠٨ من الطبعة الأولى)

(١) تعليقات جومار على كتاب تاريخ مصر في عهد محمد على لفلنكس مانجان

(٢) الجبرتي الجزء الثالث

وقد أدركت تركيا مناعة موقف كليبر بعد الحوادث الأخيرة فشرعت تفاوضه في تنفيذ معاهدة العريش ، ووصل حسين قبطان باشا إلى مياه الإسكندرية ومعه عدة بوارج من الأسطول العثماني ، فاعتقد كليبر ان تركيا تريد أن تستأنف إنزال جنودها في شواطئ مصر ، فغادر القاهرة يوم ٣ يونيو سنة ١٨٠٠ وأخذ يحشد جنوده استعداداً للقتال ، وفيما هو في الرحمانية في طريقه إلى الإسكندرية وصلته رسالة من قومندان الثغر بأن قبطان باشا لا يقصد من مروره بأسطوله إلا أن يفتح باب المفاوضة من جديد في سبيل عقد الصلح بين الدولتين ، فأجاب كليبر على هذه الرسالة بأنه يرفض بتاتا أن يفتح باب المفاوضة في الصلح لأنه يعتبر أن مصر أصبحت له !!! . وأصدر تعليماته الى قومندانان ثغور الإسكندرية ورشيد ودمياط بأن لا يأذنوا لأي رسول يأتي للكلام في الصلح بالزول إلى البر تفاديا من أن يكون لهؤلاء الرسل غاية أخرى وهي التجسس على مواقع الفرنسيين ، وأفرد قوة متنقلة من الجنود تراقب سواحل البحر الأبيض المتوسط ومنافذ برزخ السويس لتكشف حركات العثمانيين المقبلة ، وعاد كليبر الى القاهرة يوم ٢١ يونيو واثقا من ثبات مركزه في مصر ، وكذلك رفض دعوة الصلح التي جاءت من المراجع الإنجليزية ، فقد أرسل له المستر مورييه سكرتير اللورد إلجين Elgin سفير إنجلترا في الاستانة ينبئه بأن التعليمات الأخيرة الصادرة من الحكومة الإنجليزية تقضى بقبول تنفيذ نصوص معاهدة العريش حرفيا وأن السلطات الإنجليزية مستعدة لإعطاء جوازات المرور لنقل الجنود الفرنسية بحرا وانه لم يبق الا موافقة الجنرال كليبر للشروع حالا في تنفيذ المعاهدة ، ولكن كليبر لم يعبأ بهذه الرسالة واعتبر ان معركة عين شمس وإخماد ثورة القاهرة قد أوجدتا « حالة جديدة » هي بمثابة فتح لمصر وان هذه الحالة لا تتفق ومعاهدة العريش

على أن كليبر أخذ يفكر في المفاوضة رأساً مع الباب العالي على أساس جديد وهو التودد الى تركيا ودعوتها إلى فسخ التحالف بينها وبين إنجلترا وإقناعها بأن إنجلترا لا تنظر الا الى مصلحتها وانها لا تقصد من مساعدة الباب العالي في الحملة على مصر الا الى تمهيد السبيل لقواتها الحربية لتحقل الإسكندرية ورشيد والسويس وبذلك تضمن وضع يدها على مصر ، وأراد كليبر أن يطلع الباب العالي على مقاصد إنجلترا ليلزم الحياد مبدئيا في القتال بين الفرنسيين والإنجليز ، وقد أفضى بهذا المشروع الى خاصة قواده وأخذ يعمل على تحقيقه لولا أن عاجلته منيته فحالت دون مراده

الفصل العاشر

مقتل الجنرال كليبر

كان موقف كليبر إذن في أوائل شهر يونيه سنة ١٨٠٠ غاية في المنعة ، وقد قويت آماله في أن يخلد مركزه في وادي النيل ويحقق مشروعاته السياسية والحربية ، لكن هذه الآمال تحطمت في لحظة واحدة ، وهي اللحظة الرهيبة التي امتدت إليه فيها يد سليمان الحلبي بطعنة خنجر أردته صريعاً

كان ذلك يوم السبت ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ (٢١ محرم سنة ١٢١٥) ، في صباح هذا اليوم ذهب كليبر إلى جزيرة الروضة ليعرض كتيبة الأروام الذين انخرطوا في سلك الجيش الفرنسي بمصر^(١) وعاد بعد العرض إلى الأربكية ليتفقد أعمال الترميم التي كانت تعمل في دار القيادة العامة ومسكن القائد العام (سراى الألفي بك) لإزالة آثار الإنلاف الذي أصابها من قبائل الثوار^(٢) ، وكان يصحبه المسيو بروتان Protian المهندس المعماري وعضو لجنة العلوم والفنون ، فتفقد الأعمال معا ، ثم ذهبا إلى دار الجنرال داماس Damas رئيس أركان الحرب حيث أعد وليمة غداء للقائد العام دعا إليها طائفة من القواد وأعضاء المجمع العلمي ورؤساء الإدارة ، فتغدى كليبر مع المدعويين ، وكان منشرح الصدر على المائدة يتحدث مطمئنا عن الحالة في مصر ، واستمرت الوليمة الى الساعة الثانية بعد الظهر ، ثم انصرف كليبر يصحبه المهندس بروتان عائدين إلى دار القيادة العامة ليستأنفا تفقد أعمال الترميم والإصلاح فيها ، وكانت حديقة السراى تتصل بدار الجنرال داماس برواق طويل تظله تكميية من العنب

فسار كليبر وبجانبه بروتان في هذا الرواق يتحدثان في إصلاح السراى ، وبينما هما سائران إذ خرج عليهما رجل يكمن وراء بئر عليها ساقية ، فاقترب من الجنرال كليبر كمن

(١) نظم الفرنسيون هذه الكتيبة في عهد نابليون كما ذكرنا ذلك بالجزء الأول ص ٣١٦ (من الطبعة الأولى) وجعلوا القبطان الرومي نيقولا بابازغلو قومنداناً لها وورقه إل رتبة جنرال بعد اتحاد ثورة القاهرة الثانية ، وكان في عهد المالك خادماً عند مراد بك ورئيساً للترسانة التي أنشأها بالجزيرة ، ويقول المسيو مارتان في كتابه (تاريخ الحملة الفرنسية في مصر) إنه خدم المالك إلى أن حلت بهم الهزيمة في معركة الأهرام فعرض خدمته على الفرنسيين ومن ذلك الحين وضع نفسه تحت تصرفهم ، ويقول الجنرال رينيه في كتابه (مصر بعد واقعة عين شمس) إن عدد جنود هذه الكتيبة بلغ في عهد كليبر ١٥٠٠ مقاتل

(٢) كان كليبر يقيم في ذلك الحين بالجزيرة ربما يتم إصلاح سراى الألفي بك بالأزبكية

يريد أن يستجديه أو يتوسل اليه ، فلم يرتب الجنرال في نية ذلك السائل ، لكنه لم يكذب يلتفت اليه حتى عاجله القاتل بطعنة خنجر مميتة أصابته في صدره ، فصاح الجنرال : « الى أيها الحارس » ، ثم سقط على الأرض مضرجا في دمه ، وهنالك أسرع المسيو بروتان في تعقب الجاني ، فلما أدركه تماسك الاثنان ، فطعنه القاتل ست طعنات سقط منها على الارض بجوار كليبر ، وعاد الجاني مرة ثانية إلى كليبر فطعنه ثلاث طعنات ليجهز عليه ، يئد أن الطعنة الأولى كانت القاضية لانها نفذت إلى القلب ، ولذا الجاني بالفرار وتوارى عن الأنظار محتفيا في حديقة السراى ، ولم يبق في مكان الجريمة مما يدل على القاتل سوى جزء من عمامته التي تمزقت أثناء صراعه مع بروتان ، وأقبل الحارس الذى سمع الصيحة يعدو ، فلما رأى هذا المنظر الرهيب ولّى مسرعا الى دار الجنرال داماس فأخبر القوم بما رآه ، فأقبل من كانوا موجودين إلى مكان الحادثة فرأوا الجنرال كليبر مضرجا في دمائه وبجانبه بروتان مغمى عليه من شدة الطعنات ، فهالهم ما أبصروه ، ونقلوا الجنرال كليبر الى دار الجنرال داماس ، وجاء الطبيب ديجنت كبير أطباء الجيش لإسعاف الجنرال كليبر فألفاه قد أسلم الروح دون أن ينطق بكلمة

انتشر الخبر في القاهرة بسرعة البرق ، فتلقاه الاهالى بالدهشة والجزع الشديد ، لتوقعهم الانتقام والنكال ، وتلقاه الجنود الفرنسيون بالغضب والسخط والتحفز للوثبة على الاهالى الأبرياء ، وضرب النفير العام في أحياء القاهرة جمعا لشتات الجنود فاقبلوا من كل صوب وحذب الى ميدان الازبكية يتسنادون بالانتقام والاخذ بالتأثر ويهددون باحراق المدينة ، فاستولى الفزع على الناس ، واقفلت الدكاكين ، وخلت الطرق من المارة ، وذهب كل الى داره يطلب النجاة من عواقب هذا الحادث الجلل ، وأخذت دوريات الجنود تطوف الشوارع والاحياء وخاصة المجاورة لميدان الازبكية للبحث عن القاتل الذى كان بعد محتفيا عن الأنظار ، وأخذ جماعة الحراس يبحثون في حديقة السراى لعلهم يعثرون عليه محتفيا فيها اتجهت أنظار الفرنسيين في بادى الامر الى اتهم المشايخ الذين عرفوا بالتحريض على الثورة الاخيرة والحض على كراهية الحكم الفرنسى ، وأخذ ولاية الأمور يبحثون عنهم ، وتطوع جماعة من المماليك براسة حسين كاشف مندوب مراد بك للبحث عن أولئك المشايخ ، واستصحبهم بعض ياوران القائد العام وقتشوا منازلهم ، لكنهم لم يجدوا فيها ما يدينهم أو يبعث على الاشتباه فيهم

رواية الجبرتى

نقلنا هذه البيانات عن المراجع الفرنسية وبخاصة كتاب ريبو الذى كان من أهم مصادره مذكرات بيروس السكرتير الخاص للجنرال كليبر ، وهى مصادر دقيقة يصح الاعتماد عليها ، والآن ننقل ما ذكره الجبرتى عن رواية الواقعة وهى فى جوهرها لا يخرج عن رواية المراجع الفرنسية ، قال الجبرتى : « وفى ذلك اليوم — السبت ٢١ محرم سنة ١٢١٥ — وقعت نادرة عجيبة وهى أن سارى عسكر كليبر كان مع كبير المهندسين يسيرون بداخل البستان الذى بداره بالازبكية ، فدخل عليه شخص حلبى وقصده ، فأشار اليه بالرجوع وقال له « ما فيش » وكررها ، فلم يرجع ، وأوهمه أن له حاجة وهو مضطر فى قضائها ، فلما دنا منه مد اليه يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده ، فد اليه الآخر يده ، فقبض عليه وضربه بخنجر كان أعده فى يده اليمنى أربع ضربات متوالية فشق بطنه وسقط على الارض صارخا ، فصاح رفيقه المهندس فذهب اليه وضربه أيضاً ضربات ، وهرب ، فسمع العسكر الذى خارج الباب صرخة المهندس ، فدخلوا مسرعين فوجدوا كليبر مطروحا وبه بعض الرمق ولم يجدوا القتال ، فانزعجوا وضربوا طلبهم وخرجوا مسرعين ، وجروا من كل ناحية يفتشون على القتال ، واجتمع رؤسائهم وأرسلوا العساكر إلى الحصون والقلاع وظنوا أنها من فعل أهل مصر فاحتاطوا بالبلد وعمسرو المدافع وحرروا القنابر ، وقالوا لا بد من قتل أهل مصر عن آخرهم ، ووقعت هوجة عظيمة فى الناس وكرشة وشدة انزعاج ، وأكثرت لا يدرى حقيقة الحال ، ولم يزالوا يفتشون على ذلك القتال حتى وجدوه منزويا فى البستان المجاور لبيت سارى عسكر » ، وذكر الجبرتى إجراءات التحقيق مما لا يخرج عن المراجع الفرنسية ، ونقل محاضر التحقيق ومحاضر جلسات المحاكمة كما دونها الفرنسيون فى ذلك الحين فقد نشرها بالفرنسية وترجموها الى التركية والعربية بلغة ركيكة مفككة مملوءة بالاغلاط ، فضر بنا صفحا عن الترجمة الواردة فى الجبرتى ورجعنا إلى المصادر الفرنسية

القبض على القتال واعترافاته

وبعد ساعة من ارتكاب الجريمة عثروا على القتال مختفيا فى الحديقة الملاصقة لدار القيادة وراء حائط مهديم ، وأدركه اثنان من صف ضباط الحرس من الملازمين لدار الجنرال كليبر ، فحاول الهرب ولكنهما قبضا عليه وساقاه إلى دار أركان الحرب حيث كان قواد الجيش مجتمعين ، وكانت دلائل الجريمة بادية فى المسكن الذى قبض عليه فيه ، فالحائط الذى كان

مختفياً وراءه كان به آثار دماء ، كما أن ملابسه كانت ملوثة بدم الجريمة ، وعثروا على الخنجر مدفوناً في المكان الذي قبض فيه على القاتل وعلى نصله دماء القتيل ، فلما سيق القاتل إلى دار الجنرال داماس استجوبه الجنرال منو^(١) وواجهه بالمهندس بروتان فتعرفه وأرشد إليه من بين جماعة من العمال وضع بينهم خصيصاً للتأكد من صحة التعرف ، وشهد الشهود بأن القاتل كان يتبع خطوات الجنرال كليبر منذ عدة أيام ، فقد رأوه في الجزيرة يسعى في الدخول إلى مقر القائد العام بحجة تقديم عريضة إليه ، ولكن المسيو بيروس Peyrusse سكرتير كليبر رفض الإذن له بالمقابلة

وفي صباح الجريمة اندس القاتل بين جماعة من الخدم ورآه الياور ديفوج Devouge أحد ياوران كليبر وكان يظن أنه من العمال الذين يشتغلون في عمارة السراي فأمر بطرده من الحديقة ، ومع هذه البيّنات القاطعة كان القاتل ينكر الجريمة ، فاتبع معه برتلمى الرومى طريقة التعذيب لإكراهه على الاعتراف وأخذ في ضرب القاتل حتى اعترف بجريمته وأبان عن شخصيته ، فإذا هو طالب علم من حلب عمره أربع وعشرون سنة اسمه سليمان الحلبي وأبوه تاجر من حلب اسمه الحاج محمد أمين وأنه غادر بلده في سورية وذهب إلى بيت المقدس ثم حضر إلى القاهرة خصيصاً لقتل الجنرال كليبر وقضى بها واحداً وثلاثين يوماً ، وتبين من اعتراف القاتل في التحقيق وأمام المحكمة أن القتل وقع بتحريض رؤساء الجيش العثماني ، وذلك أن القاتل التقى في القدس بضابط من ضباط الجيش العثماني اسمه (احمد اغا) يعرفه سليمان الحلبي منذ كان رئيساً للانكشارية في حلب ، وكان هذا الضابط معزولاً من وظيفته وجاء إلى القدس ليسعى إلى مقابلة الصدر الأعظم ويلتمس منه اعادته إلى منصبه ، فالتقى به سليمان الحلبي وشكا إليه مظالم ابراهيم باشا وإلى حلب وارهاقه أباه واجباره على أداء غرامات فادحة ، وطلب من احمد اغا أن يشفع لوالده ليرفع عنه ما حاق به من الظلم ، فوعده احمد اغا بمساعدته وإنصاف والده على أن يسافر إلى مصر ويفتال قائد الجيش الفرنسي ، وكان هذا الحديث بعد رجوع الجيش العثماني منهزماً إلى سورية ، فقبل سليمان الحلبي ارتكاب الجريمة وصمم عليها فأرسله احمد اغا إلى حاكم غزة (يس اغا) وأوصاه بأن يعطيه ما يحتاج إليه من المال ليبلغ إلى مصر ، وسافر الحلبي من القدس إلى الخليل ومنها إلى غزة وقابل يس اغا فوعده برفع المغارم عن أبيه وأعانه بالمال وسافر من غزة إلى مصر حزمة قافلة من التجار فأدرك

(١) عينه كليبر قومنداناً للقاهرة في شهر مايو عقب إخماد الثورة وبقى بها إلى أن قتل كليبر فتولى استجواب القاتل بصفته قومندان المدينة وأقدم القواد

القاهرة في ستة أيام وبلغها يوم ١٤ مايو وكان يعرف المدينة من قبل إذ قضى بها ثلاث سنوات يطلب العلم في الأزهر ، فنزل عند وصوله بدار معلم تركي (خطاط) اسمه مصطفى افندي البروسه لي^(١) وهو شيخ يباع الثمانين من العمر كان يتعلم القائل على يده في صغره ، فنزل بداره وبات عنده أول ليلة ولكنه لم يفض اليه بعزمه ، ثم انتقل من عنده وسكن الجامع الأزهر وانتظم في سلك طبقة العلم ، وقضى بالأزهر نحو ثلاثين يوما ، وأفضى بعزمه إلى أربعة من الطلبة وهم محمد الغزى ، واحمد الوالى ، وعبد الله الغزى ، وعبد القادر الغزى ، فأنكر الأربعة عليه هذا العزم ورموه بالطيش والجنون ، ونصحوه بالإفلاع عن عزمه ، فلم يسمع لنصحهم ، وذهب مساء ١٣ يونيه إلى الجزيرة حيث كان كبير ، واستفهم من الفتوية الذين في خدمة الجنرال عن موعد خروجه ، فأخبروه أن الجنرال يتروض في مساء كل يوم في حديقة سراى القيادة العامة بالأريكية ، وقد حاول سليمان الحلبى أن يدخل الحديقة ذلك المساء فلم يفلح ، وقضى الليلة في أحد المساجد ، وفي صباح ١٤ يونيه تتبع خطوات الجنرال ، فسار على أثره إلى الروضة ثم عاد ورائه إلى القاهرة ، وتمكن من اتسار إلى حديقة دار القيادة العامة ووصل إلى الرواق الذى ارتكب فيه الجناية ، فلما اعترف القاتل بجنايته أمروا بالقبض على الأزهرين الأربعة الذين وردت أسماؤهم في أقواله ، فاعتقلوا منهم ثلاثة وفر الرابع (عبد القادر الغزى) واستجوب الثلاثة فانكروا ما نسبته اليهم القاتل

قال الجبرتى في هذا الصدد : « ثم إنهم أمروا بإحضار الشيخ عبدالله الشرفاوى شيخ الجامع الأزهر والشيخ احمد العريشى (قاضى مصر) وأعلموها بذلك وعوقوها (أى حجزوها) إلى نصف الليل وأزموها إحضار الجماعة الذين ذكرهم القاتل وأنه أخبرهم بفعله ، فركبوا وصحبهم الأغا (المحافظ) وحضروا إلى الجامع الأزهر وطلبوا الجماعة ، فوجدوا ثلاثة منهم ولم يجدوا الرابع (عبد القادر الغزى) فأخذهم الأغا وحبسهم ببيت قائم مقام (حاكم القاهرة) بالأريكية ثم إنهم رتبوا صورة محاكمة على طريقتهم في دعاوى القصاص »

قضية مقتل كبير

بهذه الاعترافات والبيانات بدأت قضية مقتل الجنرال كبير ، وتعد هذه القضية من اكبر القضايا التاريخية بالنسبة لشخصية المجنى عليه والظروف التى وقعت فيها الجناية والنتائج التى ترتبت عليها

(١) نسبة إلى (بروسه) من بلاد الأناضول

كانت المحاكمة تقتضى معرفة من الذى يخلف الجنرال كليبر فى قيادة الجيش الفرنسى ، لأن القائد العام الجديد هو الذى يقرر اجراء المحاكمة ويأمر بتأليف هيئة المجلس العسكرية الذى يحاكم المتهمين ، وكان القانون العسكرية الفرنسى يقضى فى حالة خلو منصب القائد العام للجيش بأن تكون القيادة لأقدم قائد من قواد الفرق إلى أن تعين الحكومة خلفاً له ، والجنرال (منو) هو أقدم أقرانه من قواد الفرق فضلاً عن أنه كان قومندان القاهرة ، كما قدمنا ، فألت له قيادة الجيش وخلف الجنرال كليبر فى منصبه ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « واستقر عوضه فى السر عسكرية قائم مقام ^(١) عبد الله جاك منو وهو الذى كان متولياً على رشيد من قدومهم ، وقد كان أظهر أنه أسلم وتسمى بعبد الله وتزوج بامرأة مسلمة وقلدوا عوضه فى القائم مقامية بليار » ، وأصدر يوم ١٥ يونيه غداة مقتل كليبر منشوراً عسكرياً للجيش يعنى اليه الجنرال كليبر وينوه بخدماته العسكرية والإدارية ويبلغ الجفود أنه بحكم أقدميته قد تولى قيادة الجيش بصفة مؤقتة

تأليف المحاكمة العسكرية

وأصدر منو فى اليوم نفسه أمراً بتأليف محكمة عسكرية لمحاكمة قتلة كليبر ، وهذه المحكمة مؤلفة من تسعة أعضاء من كبار رجال الجيش وهم الجنرال رينيه Reynier (رئيس المحكمة) ، والجنرال فريان Friant ثم استبدل به الادجودان جنرال مارتينييه ، والجنرال روبان Robin ، والأدجودان جنرال موران Morand ، والكولونل جوجى Goguet ، والكولونل فور Faure ، والكولونل بران Bertrand ، والقوميسير رجنيه Regnier ، ومدير مهمات البحرية لروا Leroy (ويسميه الجبرتى دفتردار البحر)

وعهد إلى القوميسير سارتلون Sartelon ^(٢) مدير مهمات الجيش القيام بوظيفة المدعى العمومى وندب القوميسير لبير Lepère نائباً عن السلطة العسكرية

انعقدت المحاكمة يوم ١٥ يونيه وندبت الجنرال رينيه والقوميسير سارتلون لإجراء التحقيق وجمع البيئات للوصول إلى معرفة المتهمين

التحقيق مع المتهمين

تولى القوميسير سارتلون مدير مهمات الجيش تحقيق القضية ، فكتب محضراً باستجواب

(١) قومندان (حاكم) القاهرة

(٢) عينه كليبر مديراً لمهمات الجيش بدلا من المدير السابق المسبو « دور »

سليمان الحلبي عقب الحادثة واستجواب المتهمين الآخرين ، وأخذ في سماع أقوال الشهود ،
فقرر جوزيف بيران Joseph Perrin من فرسان الحرس أنه هو والفارس روبرت Robert
عثرا على القاتل محتبنا في الحديقة وراء حائط مهدم وعلى الحائط آثار الدماء ، وأن القاتل كان
أيضا ملونا بالدم ، فقبضا عليه وهو في هذه الهيئة ، وانهما عثرا بعد ساعة من اعتقال الجاني
على خنجر مدفون في المكان الذي كان محتبنا به ، وعلى نصله دماء
وشهد الفارس روبرت بما شهد به صاحبه

وانتقل المحقق بعد ذلك إلى دار المهندس بروتان Protain الذي كان يرافق الجنرال
كليب وقت الجريمة ، وكان ضجيعاً من الجراح التي أصابته ، فشهد برؤيته القاتل يرتكب
الجناية وأنه ضربه بعصاه ليدافع عن الجنرال كليب ، فانقض عليه القاتل وطعمه عدة طعنات
سقط بعدها على الأرض مغشياً عليه ، وقرر أنه رغم صياحه وصياح الجنرال كليب فقد بقي
عشر دقائق قبل أن تصلهم النجدة ، وأنه تعرّف القاتل بعد القبض عليه

وسمع المحقق أقوال الملازم ديفوج Devouges ياور الجنرال كليب فقرر أنه في يوم
الحادثة كان يصاحب الجنرال في تفقده دار القيادة العامة بالقاهرة وان القاتل كان لا ينفك
يتمقب الجنرال وكانوا يظنون أنه أحد العمال الذين يعملون في ترميم السراي فلم يرتابوا في شأنه ،
لكن ديفوج لاحظ أن القاتل تعقب الجنرال بعد أن خرج من حديقة السراي قاصداً دار
الجنرال داماس رئيس أركان الحرب ، فسأله عما يريد وأمر بطرده ، وطرده الخدم فعلا ،
وبعد ساعتين وقعت الجناية ، ولاحظ ديفوج وجود جزء من ملابس القاتل تركها في مكان
الجناية فتعرّفها الشاهد وعرف أنها ملابس ذلك الرجل الذي أمر بطرده ، ولما قبض على
القاتل وجيء به ورآه تحقق منه

وأعاد المحقق استجواب سليمان الحلبي ، وكان يتولى ترجمة أقواله واقوال المتهمين المسيو
براسفيش Braswich رئيس ترجمة القائد العام ، فكرر التهم اعترافاته السابقة وأقر بأن
المحرضين له على القتل هما أحمد اغا ويس اغا من ضباط الجيش العثماني كما تقدم ، وأن أحمد اغا
اختاره لأنه يعرف القاهرة معرفة تامة حيث قضى فيها من قبل ثلاث سنوات في طلب العلم
بالأزهر ، وأنه كاشف الأزهرين الاربعة بعزمه وكان يفضي اليهم به كل يوم ، ولكنهم كانوا
ينصحونه بالاقلاع عنه لاستحالة مجاحه ، وأنه في يوم القتل قابل محمد الغزي أحد زملائه
الاربعة وأخبره بأنه ذاهب إلى الجزيرة لينفذ عزمه وأنكر أنه أفضى به إلى المدرس التركي
(مصطفى افندي) وأنكر كذلك أنه أخذ نقوداً من أحد من الأهالي

وأمر المحقق بمواجهة سليمان الحلبي بالأزهريين الثلاثة المقبوض عليهم واستجوبهم فيما قرره بشأنهم ، والظاهر من التأمل في اسئلة المحقق أن الفرنسيين كانوا شديدي الارتياح في مسلك علماء الأهر وخاصة الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع ، وكان سير التحقيق متجهما الى جمع البيئات لإنبات علم الشيخ الشرقاوى بنية القاتل قبل ارتكاب الجناية ، ولكن التحقيق لم يسفر عن إدانة الشيخ الشرقاوى أو غيره من كبار العلماء

سئل محمد الغزى أحد الأزهريين الأربعة فقرر أنه يعرف سليمان الحلبي ولكنه أنكر أنه أفضى إليه بعزمه على القتل ، وقال إن سليمان كاذب في ادعائه ، سأله المحقق ألم بيت غالباً في بيت الشيخ الشرقاوى وخاصة في الأيام الأخيرة؟ فأجاب بأنه من يوم مجيء الفرنسيين لم بيت عنده قط ، وأنه قبل ذلك كان يبيت عنده أحياناً ، فكذب المحقق قائلاً أنه في استجوابه الأول اعترف بأنه كان يبيت غالباً عند الشيخ الشرقاوى ، فأجاب المتهم انه لم يقل ذلك ، وواجهه المحقق بسليمان الحلبي في نقطة افضائه له بعزمه على قتل الجنرال كلير ، فأصر المتهم على الإنكار ، فأمر المحقق بضربه ليعترف ، وضربه إلى أن تعهد بأن يقر بالحقيقة ، ثم أقر بأن الحلبي أفضى إليه بذلك ليلة الحادثة

سئل : لماذا لم يبلغ الأمر إلى الجهة المختصة ، فأجاب بأنه لم يكن يصدق أن رجلاً مثل سليمان الحلبي يجرؤ على قتل القائد العام للجيش الفرنسى في حين أن الوزير (يوسف باشا) لم يستطع ذلك سئل : ألم يبلغ ما سمعه من سليمان الحلبي إلى أحد في المدينة وخاصة إلى الشيخ الشرقاوى ، فأجاب بأنه لم يذكر ذلك لأحد ، وأصر على جوابه قائلاً إنه لا يعدل عنه ولو أمروا بقتله ثم استجوب المحقق أحمد الوالى ثانى الأزهريين الأربعة ، فأجاب بأن سليمان الحلبي أخبره عند قدومه إلى مصر أنه جاء ليجاهد في سبيل الله ولكنه لم يخبره بعزمه على قتل القائد العام ، فواجهه المحقق بسليمان الحلبي فأمر عليه بأنه أخبره بعزمه ، فعدل المتهم عن إنكاره وقال إنه يذكر أنه أخبره بعزمه

سئل : لماذا لم يبلغ الأمر إلى الجهة المختصة فأجاب بمثل ما أجاب به محمد الغزى سئل : ألم يخبره سليمان الحلبي بأن له شركاء ، وهل لم يبلغ أحداً ما أفضى به إليه وخصوصاً شيخ الجامع الأزهر (الشرقاوى) فأجاب بأن الحلبي لم يخبره بأن له شركاء وأنه لم يبلغ شيخ الجامع ما سمعه منه لأنه لم يظن أن ذلك من واجبه ثم استجوب المحقق عبد الله الغزى ثالث الأزهريين ، فاعترف بأن سليمان الحلبي أخبره من يوم حضوره أنه جاء ليقتل القائد العام وأنه حاول أن يثنيه من عزمه فلم يفلح

سئل لماذا لم يباغ الأمر إلى جهة الاختصاص ، فأجاب بأنه كان يظن أن سليمان الحلبي سيفضي بعزمه إلى كبار المشايخ وأنهم سيتولون إرجاعه عن عزمه
سئل عما إذا كان يعرف أن في القاهرة أشخاصاً آخرين مكلفين قتل الفرنسيين فأجاب
بأنه لا يعرف شيئاً عن ذلك ولا يظنه

ثم استجوب مصطفى افندي البروسلى المدرس ، وسئل عن علاقته بالقاتل فأجاب بأنه كان تلميذه منذ ثلاث سنوات وأنه جاءه عند قدومه الأخير إلى القاهرة وبات عنده ليلة ثم طلب منه أن يبحث له عن مثوى آخر إذ لا يستطيع لفقره أن يؤويه في بيته ، وقال إنه لم يخبره بسبب حضوره ولم يعرف عن نيته شيئاً .

سئل ألم يخبره عما إذا كان قابل أحداً من أهالى القاهرة وخاصة من كبار العلماء ، فأجاب
بأنه لا يعرف شيئاً عن ذلك وأنه لشيخوخته ومرضه لا يخرج من بيته إلا نادراً
سئل أليس في القرآن ما يحض على الجهاد في سبيل الله ، فأجاب نعم ، سئل ألم يدرس
هذه القواعد لتلاميذه وخاصة لسليمان الحلبي ، فقل إنه كان يعلمه الكتاتنة فقط
سئل ألا يعلم بأن مسلماً قتل بالأمس القائد العام وهل يعتقد أن القرآن يعد هذا القتل
جهاداً في سبيل الله ، فأجاب بأن القاتل يجب أن يقتل

ثم ووجه مصطفى افندى بسليمان الحلبي ، فأقر هذا بأنه لم يخبره بعزمه وأنه لم يقابله
إلا مرة واحدة للسلام عليه لأنه معلمه القديم ، وسئل الحلبي ألم يحرضه علماء المدينة على
القتل ، فأجاب بأنه لم يقض بعزمه إلا للأزهريين الأربعة
سئل ألم تخاطب في ذلك الشيخ الشرقاوى ، فأجاب بأنه لم ير الشيخ الشرقاوى قط
لأنه شافعى المذهب أما هو فعلى مذهب الأمام أبى حنيفة

المحاكمة

أسفر التحقيق عن اتهام سليمان الحلبي والأزهريين الأربعة الذين أفضى إليهم بعزمه على ارتكاب الجناية ، وهم محمد الغزى ، وأحمد الوالى ، وعبد الله الغزى ، وعبد القادر الغزى ، وكذلك مصطفى افندى البروسلى الذى بات عنده حين حضوره إلى مصر ، فكان عدد المتهمين ستة ، ولما كان رابع الأزهريين وهو عبد القادر الغزى فارا قبل المحاكمة فقد حوكم غيابياً وطلب المدعى العمومى من المتهمين أن يعهدوا بالدفاع عنهم إلى رجل ليرافع أمام المحكمة ، فأجابوا بأنهم لا يعرفون أحداً ، فندب للدفاع عنهم المترجم لوما كما

وانعقدت المحكمة العسكرية يوم ١٦ يونيه وأخذت في سماع مرافعة المدعى العمومي ودفاع المتهمين ، فقام المدعى العمومي وطلب الحكم بتوقيع العقاب على القاتل وشركائه ، ونعى في مرافعته الجنرال كليبر وأشاد بمواقفه الحربية في ميادين القتال ، ونسب الجريمة إلى تحريض الصدر الأعظم يوسف باشا وقال إن الذي تولى إغراء سليمان الحلبي على القتل هو أحمد أغا الذي كان مغضوبا عليه من الوزير فأراد أن يتقرب إليه بهذا العمل الفظيع لينال رضاه ، وأن القاتل اندفع إلى القتل تحت تأثير هذا التحريض ، وأن تهمة شركائه المشايخ الأربعة انهم علموا بنية القاتل وتصميمه عليها ومع ذلك لم يخبروا ولاية الأمور بعزمه ، فهم يعتبرون شركاء للقاتل في جريمته ، وقال عن مصطفى افندى انه لا دليل على اشتراكه في الجريمة لأنه ثبت أنه لم يعلم بنية القاتل ، وعلى ذلك طلب له البراءة ، وطلب الحكم على سليمان الحلبي بإحراق يده اليمنى التي باشر بها القتل ثم إعدامه على الخازوق وترك جثته تأكلها جوارح الطير ، وبالنسبة للمشايخ الأربعة طلب الحكم في غيبة عبد القادر الغزى وبحضور الثلاثة الآخرين بقطع رءوسهم ، وبعد أن تمت مرافعة المدعى العمومي طلبت المحكمة من المتهمين أن يدافعوا عن أنفسهم فلم يجيبوا بشيء وأعيدوا إلى السجن ، وأمرت بإخلاء قاعة الجلسة ، فأخليت من الحاضرين

الحكم

واختلت المحكمة للداولة ، ثم أصدرت حكمها باعتبار سليمان الحلبي وشركائه الأربعة مذنبين ، وبراءة مصطفى افندى وإطلاق سراحه ، وحكمت بإحراق يد سليمان الحلبي اليمنى ثم إعدامه على الخازوق وترك جثته تأكلها الطير وإعدام شركائه الأربعة بقطع رءوسهم وإحراق جثثهم بعد الإعدام مع مصادرة أموال المتهم الغائب عبد القادر الغزى (ولم يكن له مال) ولا جدال في أن محاكمة المتهمين في هذه القضية كانت عنوانا للعدالة العسكرية ، وخاصة إذا لاحظنا شخصية المجنى عليه والظروف التي وقعت فيها الجناية ، ومن الإنصاف أن نقول ان القضاة الفرنسيين الذين تولوا تحقيق القضية والحكم فيها قد أظهروا شيئا كثيرا من ضبط النفس والميل إلى العدل ، وقد كان في استطاعتهم أن يأخذوا كثيرا من البراءة بجناية القاتل ، لكنهم لم يفعلوا ، فكانوا نموذجا للعدل ومدعاة للإعجاب ، ولم يفت الجبرتي في تاريخه أن يعرب عن هذا الإعجاب لمناسبة نقله محاضر جلسات التحقيق والمحاكمة فقال انها « تتضمن خبر الواقعة وكيفية الحكومة ولما فيها من الاعتبار وضبط الاحكام من

هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يدينون بدن ، وكيف وقد تجارى على كبيرهم
ويعسوبهم (١) رجل آفاق أهوج وغدره وقبضوا عليه وقرروه (أى حملوه على الاقرار) ولم
يمجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل
مضمخة بدم سارى عسكريهم وأميرهم ، بل رتبوا حكومة ومحكمة وأحضروا القاتل وكرروا
عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ، ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوه على
انفراد ومجتمعين ، ثم نفذوا الحكم فيهم بما اقتضاه التحكيم ، وأطلقوا مصطفى افندى البرصلى
الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك من فحوى المسطور ،
بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر (العثمانيين) الذين يدعون الإسلام
ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الانفس ومجاريهم على هدم البنية الإنسانية »

جنازة كليبر

وبعد أن تمت المحاكمة أخذوا يستعدون للاحتفال بتشييع رفات الجنرال كليبر في مشهد
مهيب ، فشيعت جنازته يوم الثلاثاء ١٧ يونيه (٢٥ محرم سنة ١٢١٥) وأطلقت مدافع
القلاع عند تحرك موكب الجنازة ، وسارت الجنازة تتقدمها كتائب الجيش من الفرسان
والمدفعية وحرس القائد العام والموسيقى ، ووراءها النعش مجللا بالسواد محمولا على مركبة
تجرها ستة من الجياد الصافات ، وعليه سيف كليبر وقبعته وشاراته ، ووراء النعش الجنرال
(منو) وقواد الجيش وأركان الحرب وياوران كليبر ووراءهم قومندان المدينة فأركان حرب
وضباط فرقة الهندسة وأعضاء المجمع العلمى وكبار رجال الادارة وحسين كاشف مندوب مراد
بك ومماليكه والاغوات (رؤساء الشرطة) والقاضى وأعضاء الديوان والعلماء والقساوسة
ومندوبو طوائف الصناعات فى القاهرة وغيرهم ، وسارت الجنازة من الازبكية إلى درب الجمامين
إلى الناصرية إلى أن وصلوا إلى تل المقاب على مقربة من القلعة التى بنوها هناك (٢) وخرجوا
من باب (غيط الباشا) القريب من دار المجمع العلمى ثم تابعوا السير إلى (قصر العينى)
حيث أعدوا فى حديقته قبر الجنرال على درج عال وضعوا فوقه التابوت وأقاموا حول القبر
خاجزا ، وزرعوا حوله أعواد السرو ، وهماك دفنت الجثة فى خشوع رهيب ، والتقى المسيو
فوريه سكرتير المجمع العلمى والقوميسير الفرنسى لدى الديوان كلمة تأيين طويلة ذكر فيها

(١) أى عظيمهم وقائدهم

(٢) طابية قاسم بك بالناصرية ويسمىها الفرنسيون طابية المجمع العلمى ، انظر الجزء الأول ص ٣١٣

صمات الجنرال كليبر « بطل معركتي مايستريك وعين شمس » وموافقته الحربية على ضفاف
الرين والأردن والنيل ، وذكر كيف هزم جيش يوسف باشا وكيف أتمد ثورة القاهرة ثم عفا
بعد ذلك عمن اشتركوا في الثورة وكيف أن القاتل قد حرضه رؤساء الجيش العثماني على
اغتيال حياة الجنرال كليبر بعد ما انتصر عليهم في ميدان القتال ، وحيي فور ييه ذكرى
الفرنسيين الذين ماتوا في معارك سورية وأبو قير وعين شمس ، وخاصة ذكرى كافريللي الذي
كانت تربطه بكليبر صلات الصداقة والود

وعقب انتهاء الجنازة ودفن الجثة نفذ حكم الإعدام^(١) في المحكوم عليهم عند تل
العقاب قريبا من طابية قاسم بك على مشهد من الجنود وأعيان المدينة ، فقطعت رؤوس
الأزهريين الثلاثة ثم أعدم سليمان الحلبي على الخازوق^(٢)

وانقضت تلك الايام الثلاثة والفرع نخيم على القاهرة والناس تعرفهم الدهشة من تعاقب
الحوادث الرهيبة على المدينة العظيمة التي ظلت السفين الطوال قبل الحملة الفرنسية غارقة في
لُجة الهدوء والسكون

إفقال الأزهر

زاد ارتياب الفرنسيين في الأزهر بعد مقتل الجنرال كليبر إذ كان يأوى اليه سليمان الحلبي
وشركاؤه ، وبه قضى القاتل نحو ثلاثين يوما مصمما على القتل ، فلم يمتنع الفرنسيون بأن علماء
الأزهر كانوا يجهلون نية القاتل قبل ارتكاب الجناية ، وقد مر بك ما قاله نابليون في مذكراته
في هذا الصدد ، فلما انقضت محاكمة سليمان الحلبي وشركائه ذهب الجنرال (منو) إلى الأزهر
يصحبه قومندان المدينة (الجنرال بليمار) والأغا (المحافظ) وطافوا به وشرعوا في حفر مابه
من الأماكن بحجة التفتيش على السلاح ، فأخذ طلبة العلم في نقل أمتعتهم منه ونقل كتبهم
وإخلاء الأروقة ، وكتب الفرنسيون أسماء الطلبة في كشوف وأمروهم أن لا يؤووا بالجامع
غربيا ، وأخرجوا منه المجاورين العثمانيين ، فلما رأى العلماء أن الأزهر أصبح عرضة للريبة

(١) يقول الجبرتي ان حكم الاعدام نفذ قبل دفن جثة كليبر ، وهذا خطأ فإن تنفيذ الحكم كان بعد
الدفن باتفاق الزاجع الفرنسية فضلا عن أن حكم المحكمة العسكرية كان يقضى بذلك ، ولعل الجبرتي لم
يحضر الجنازة ولا تنفيذ الحكم ولم يغادر بيته في ذلك اليوم الرهيب فلم تصله حوادثه كلها على حقيقتها

(٢) شرح كبير الجراحين لارى Larrey جثة سليمان الحلبي بعد إعدامه واستبق هيكل رأسه ونقله
إلى غرفة التشريح بمدرسة الطب بباريس ، كما أن الحجر الذي قتل به كليبر محفوظ في مدينة كاركاسون
Carcassonne بفرنسا فقد أودعه به المسيو بيروس Peyrusse سكرتير الجنرال كليبر بعد عودته من مصر
(وكاركاسون هي مسقط رأس بيروس)

والتفتيش عرضوا على الفرنسيين إقفاله مؤقتا ، قال الجبرتي في هذا الصدد :
« ان المشايخ الشرفاوى والمهدى والصاوى توجهوا عند كبير الفرنسيس (منو)
واستأذنه في إقفال الجامع ، وكان قصدهم من ذلك منع الريبة بالكافية فان للأزهر سعة
لا يمكن الإحاطة بمن يدخله ، فربما دس العدو من يبيت به واحتج بذلك الى انجاز غرضه
ونيل مراده من المسلمين والفقهاء ، ولا يمكن الاحتراس من ذلك ، فأذن كبير الفرنسيس
بذلك لما فيه من موافقة غرضه باطنا ، فلما أصبحوا^(١) أقفلوه وسمروا أبوابه من سائر الجهات »
وظل الأزهر مقفلا الى أن شرع الفرنسيون في الجلاء عن مصر فأعيد فتحه في ١٩ صفر
بعد أن صرح بفتحته في غاية محرم سنة ١٢١٦^(٢)

وساد الذعر في المدينة بعد مقتل الجنرال كليبر ومحكمة القتائل وشركائه فهاجر كثير
من العلماء والأعيان إلى الأقاليم وتبعتهم الجماهير من الناس حتى اضطرت السلطة الفرنسية
لوقف تيار الهجرة إلى اصدار أمرها بمنع انتقال الناس ورجوع المهاجرين منهم وأندرت
من لم يرجع بعد خمسة عشر يوما بنهب داره ، فعاد أكثر المهاجرين خوفا على بيوتهم أن
تنهب وأموالهم أن تصادر

(١) يوم الجمعة ٢٨ محرم سنة ١٢١٥ — ٢١ يونيه سنة ١٨٠٠

(٢) ٢ يونيه سنة ١٨٠١

الفصل الحادى عشر

قيادة الجنرال منو Menou

لم يكن تولى الجنرال (منو) قيادة الجيش الفرنسى راجعا إلى كفاية عسكرية أو مواهب سياسية أو إدارية ، بل لأنه أقدم قواد الفرق فى الخدمة ، فالصدفة هى التى قضت بأن يخلف كلير ونابليون ، أما منو فى ذاته فلم يكن على صفات تؤهله لتولى ذلك المنصب الخطير ، فقد كان فى حياته الحربية بعيدا عن خوض غمار المعارك ، وكأنما كان يجتهد على الدوام أن يكون بعيدا عنها

ولد جاك فرنسوا منو سنة ١٧٥٠ من عائلة عريقة فى النسب ، وانتظم فى سلك الجندية ، ولما اقترب عصر الثورة الفرنسية كان مؤمنا بمبادئها وانتخب سنة ١٧٨٩ عضوا فى الجمعية العمومية ، وبالرغم من أنه من نواب الأشراف فإنه انضم إلى نواب الشعب وأعلن تنازله عن امتيازاته ورتبته (بارون) وعاد إلى سلك الجندية بعد انحلال الجمعية الوطنية الفرنسية الأولى وحارب لإخماد فتنة (الفانديه) فهزم فى تلك الحرب الداخلية ، ثم عهدت إليه حكومة الجمعية الوطنية قمع فتنة الخارجين عليها بباريس ، لكنه أظهر مجزا كبيرا فى أداء هذه المهمة فأبدلت به الجنرال بونابرت (نابليون) الذى قمع الفتنة وأقصد الجمعية الوطنية من فتنة الثائرين ودسائس الملكيين فى أكتوبر سنة ١٧٩٥ ، وقد لمح (منو) من ذلك الحين نجم نابليون يتألق فى سماء العبقرية والعظمة ، فأخذ يتملق القائد العظيم ويحوم حوله ، ومن هنا جاء عطف نابليون عليه ، وقد اصطحبه ضمن قواد الحملة الفرنسية ، وأصيب (منو) بجرح فى حصار الإسكندرية ، فعينه نابليون حاكما لرشيد ، وظل منزويا فيها دون أن يشترك فى وقائع الحملة ، ودعاه نابليون عند ما زحف على سورية ليلحق بالجيش المقاتل وعينه قومندانا لفلسطين^(١) ، فأخذ ينباطاً وينتحل الأعذار حتى انتهى القتال ولم يتحرك للسفر إلا بعد أن أخفقت الحملة ورجع الجيش الفرنسى إلى حدود مصر

وعند ما قاتل الفرنسيون الجيش العثمانى فى معركة (أبو قير) لم يشترك فى القتال وإنما قام بعمل حربى ضئيل عهده إليه نابليون وهو القيام على حصار قلعة أبو قير بعد انتهاء

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٠٣١

المعركة^(١) ودعا كليبر ليقا تل في معركة (عين شمس) فلم يحضر إلا بعد انتهاء المعركة وإخماد ثورة القاهرة ، فهو من الوجهة الحربية لم يألف خوض غمرات الحرب ، وقلما رآه الجنود في ميادين القتال ، فلم ينل في الجيش منزلة القواد الذين أ كسبتهم بطولتهم محبة الجنود واحترامهم

وكان من الوجهة السياسية مجردا من الكفاية والحزم وحسن التدبير ، على أنه كان على جانب كبير من الغرور والاعتداد بنفسه ، ولعل السبب في ذلك راجع إلى أنه كان زمنا ما عضواً في الجمعية الوطنية الفرنسية وشهد المارك السياسية وخالط أقطاب الثورة الفرنسية الكبرى ، فظن أن عضويته في الجمعية الوطنية قد وضعتة في مصاف رجال السياسة والدولة ، على أنه في الواقع كان خلوا من الكفاية السياسية ولكنه وصل إلى التقرب من نابليون بالتملق والرياء والتظاهر بالاخلاص له ، فكسب عطفه ورعايته ، ورسائله الى نابليون عديدة وطويلة تم عن ادعائه العلم بالمسائل التشريعية والاقتصادية والادارية وهو مجرد منها ، وكان معروفا عنه الحقد على كليبر لمنزلته بين القواد والجنود ، والجنرال كليبر هو الذي عينه قومندانا للقاهرة بعد إخماد ثورتها الثانية ، ويرجع ذلك الى أن كليبر كان يشك في إخلاصه وقد بلغه عنه أنه كان يبعث بالرسائل من الاسكندرية ورشيد الى نابليون بعد رحيله إلى فرنسا للوقية بكليبر ، فأراد أن يبعده عن الثغور ويحمله تحت نظره فلا يسهل عليه أن يرسل نابليون ، وقد بق قومندانا للقاهرة الى أن قتل الجنرال كليبر ، ولو ترك أمر اختيار من خلفه لقواد الجيش الفرنسي وضباطه لما فكر واحد منهم في اختيار (منو) ولاختاروا الجنرال (رينيه) الذي كان موضع احترامهم كما كان موضع ثقة كليبر ، وكان منو يحس في نفسه العجز عن الاضطلاع بهذا المركز الخطير ، فاجتمع بالجنرال (رينيه) عقب مقتل كليبر وتباحث وإياه فيمن بخلف القائد المقتول ، وكان منو يعلم أن القواد لا يرضون به في منصب القيادة العامة ، لكن أقداميته تحولت هذا الحق في الظروف التي خلا فيها المنصب ، فتظاهر بأنه لا يرغب في تولى القيادة العامة وانه إذا شغلها بحكم أقداميته فلا يكون الا بصفة مؤقتة ، ولهذا نوه في الأمر العسكري الذي أصدره للجيش في ١٥ يونيه أنه يشغل هذا المنصب « مؤقتا » بحكم أقداميته

سياسة (منو) إزاء الجيش

على انه لم يكذب بتولى القيادة حتى عمل على توطيد مركزه فيها ، ولما كان يعتقد أنه

لا يستطيع أن يصل الى كسب احترام القواد والضباط فقد أخذ يوطد مركزه بالدسائس والسمائات ، وكان معروفاً عنه كراهيته لسلفه ، فأخذ يعمل على إقصاء أصدقاء كليبر وخلق حزب من التملقين الذين يأسروهم بترقيتهم وإعداق النعم عليهم ليكونوا عوناً له في قضاء أغراضه ، فنقم عليه قواد الجيش وضباطه الأوكفاء وسخروا منه لما كان يأتيه من الأعمال البعيدة عن الحكمة ، وغنى عن البيان أن الجيش الذي يتولاه قائد غير حائر لثقة رجاله لا يمكن أن يستبقى قوته ووحدته ولا بد أن يدب في صفوفه التفكك والانقسام ، وقد كان هذا حال الجيش الفرنسي في مصر بعد ما تولى (منو) قيادته العامة ، وشعر قواد الجيش وكبار ضباطه أنه يعمث بهم ويعرض مصير الجيش للخطر ، فمن ذلك أنه أكثر من تنقلات الجنود بلا جدوى ونقل بعض القواد من مراكرهم ، فاستدعى الجنرال (لانوس) الذي كان قومنداناً للاسكندرية^(١) إلى القاهرة وتركه بلا عمل لأنه كان من أصدقاء الجنرال كليبر ، وعزل الجنرال (داماس) رئيس أركان الحرب من منصبه للسبب نفسه وجعله قومنداناً لبني سويف والقيوم ، وعين بدله الجنرال لاجرانج Lagrange ، وعزل القوميسير دور Daure مدير مهمات الجيش من وظيفته وأسند إليه وظيفة كبير مفتشى الجيش وجرده من كل سلطة وعين بدله أحد أصدقائه القوميسير سارتلون Sartelon ، ورقى كثيراً من الضباط إلى رتب أعلى ليكونوا تبعاً له ، فأصبح محاطاً ببطانة من الأصدقاء والمحاسيب استولى بهم على زمام الجيش والإدارة ، فالجنرال لاجرانج و رأسه أركان الحرب ، وسارتلون في الإدارة ، وأبقى الميسو « استيف » Estève مديراً للإيرادات العامة وكان بمثابة مدير للشؤون المالية لأنه لم يلق منه معارضة في خطه^(٢)

ولم يكتم (منو) كراهيته لكليبر ولا كان يبدو منه احترام لذكراه ، وبلغت به كراهيته أنه رزق ولداً من زوجته المصرية ، فأسماه «سليمان» ، وهذا الاسم كان يثير في نفوس الجنود

(١) عينه الجنرال كليبر في هذا المنصب في أوائل عهد قيادته ، ويذكر القارىء أن البليون قبل رحيله عين (منو) قومنداناً للاسكندرية ورشيد والبحيرة وكان هذا المركز يقتضى اتخاذ الاسكندرية مقراً له ، لكن (منو) ظل مستقراً برشيد واعتزم أن يجعلها عاصمة للمديريات الثلاث فتركه كليبر برشيد ثم طلبه إلى القاهرة وعين الجنرال لانوس قومنداناً للاسكندرية ، فاستاء من ذلك وأسرها في نفسه ، فلما تولى قيادة الجيش بعد مقتل كليبر عزل لانوس من قومندانية الاسكندرية وعين الجنرال فريان Friant بدله

(٢) ما أبحر الميسو بوسليج الذي كان مديراً للشؤون المالية في عهد نابليون وكليبر إلى فرنسا عين كليبر مكانه الميسو جلوتييه ثم مات هذا أثناء ثورة القاهرة فألغى كليبر هذا المنصب وعين الميسو استيف مدير الخزانة سابقاً مديراً للإيرادات العامة

والقواد الفرنسيين لوعة الحزن على فقيدهم لأنه اسم سليمان الحلبي قاتل الجنرال كليبر ، فكان
لاختيار منو لهذا الاسم أثر استياء كبير في نفوس الجيش
سخط رجال الجيش من تصرفات (منو) وسخط عليه كذلك أعضاء لجنة المعلوم
والفنون والمجمع العلمي ، فقد أخذ يصدر اليهم الأوامر ويتدخل في شئونهم العلمية ويضع لهم
الخطط ويختار لهم الجهات التي يكتشفونها وينقبون فيها في حين أنه كان لا يدري شيئاً من
أبحاثهم واكتشافاتهم ، فقموا عليه تدخله وخاصة عند ما حال بينهم وبين اكتشافاتهم
العلمية ، وكان كليبر قد استدعاهم من الصعيد بعد التوقيع على معاهدة العريش استعداداً للرحيل
إلى فرنسا ، ولكن بعد تجدد القتال والانفاق مع مراد بك عزموا على استئناء أبحاثهم
واكتشاف الآثار المصرية والتنقيب عليها حتى بلاد النوبة ، ولكن منو لم يأذن لهم بالسفر ،
وكان كثير التردد يعدم تارة ويسوف أخرى وظلوا ثلاثة أشهر معطلين في القاهرة مع أنهم
أعدوا عدتهم في كل لحظة للسفر إلى الصعيد لخدمة العلم واكتشاف الآثار ، ولما أدركوا أن
ليس في مقدورهم السفر بهميتهم الكاملة لمعارضة منو شرعوا في العمل فرادى متفرقين
ونقبوا في الآثار وبين الأطلال

ولما أسرف (منو) في سوء التدبير عزم قواد الجيش على مفاتحته في الأمر ولكنهم
لم يفوزوا منه بطائل ، وزاد صلفه بعد ما ورد من فرنسا أمر تنصيبه في منصب القيادة العامة
للجيش (نوفمبر سنة ١٨٠٠) فاعتمد منو على هذا الأمر وطلب من القواد الناقلين عليه
الرحيل إلى فرنسا وهم لانوس ، وفردبيه ، وداماس ، ولكن ضباط الجيش رفضوا أن
يفادروهم أولئك القواد بقوا في مصر رغم إرادته

مسألة إسلام منو وزواجه

فكر الجنرال منو وهو حاكم رشيد في التقرب إلى الشعب لدرجة الاندماج فيه ،
فاعتزم الزواج من سيدة مصرية شريفة المتمد ، والجنرال منو كما رأيت من سلالة أشراف
فرنسا ، فأراد أن يجمع بين شرف أسرته وشرف مصاهرته عائلة مصرية عريقة في النسب ،
وقد استتبع هذا المشروع اعتناقه الإسلام ليمتسني له الزواج من سيدة مسلمة ، فأسلم
قبل الزواج

ولم يكن منو يقصد اختيار سيدة بالذات كما زعم بعض المؤلفين بل كل ما كان يرمى إليه
أن يصاهر عائلة تتصل بالسلالة النبوية ، فرغب بداءة ذي بدء في مصاهرة الشيخ الجارم عميد

أسرة الجارم العريقة في الشرف والملم ، ولكن يظهر أن الشيخ تورع عن هذه المصاهرة ، وأراد أن يسد الطريق أمام الجنرال منو فلم يكذب يسمع بهذه الرغبة حتى بادر بتزويج كريمتيه الاثنتين إلى اثنين من الأهلين ، ليتخلص من مصاهرة الجنرال ، وقد حققت الحوادث صدق نظره فان الجنرال منو أساء معاملة زوجته المصرية بعد جلاء الفرنسيين كما سيحيىء بيانه ، وإذ ذاك طلب منو التزوج من سيدة أخرى تدعى زبيدة كريمة السيد محمد البواب أحد أعيان رشيد ، وكانت مطلقة سليم اغا نعمة الله ، فقبل أبوها وقبلت هي الزواج بالجنرال ، وتم عقد زواجهما في وثيقة شرعية تضمنت اعتناقه للإسلام وزواجه بالسيدة المذكورة ، وتسمى منو في وثيقة الزواج باسم « عبد الله باشا منو » ، وهذه الوثيقة مؤرخة في ٢٥ رمضان سنة ١٢١٣^(١) ، وقد اكتشفها العلامة علي بك بهجت في دقرخانة محكمة رشيد الشرعية واكتشف كذلك عقد الانفاق الملحق بها ، وأخذ صورة الوثيقتين بالفوتوغرافيا وترجمهما إلى اللغة الفرنسية وعلق عليهما بمحاضرتين نفيستين ألقاهما بدار المجمع العلمي بالقاهرة ونشرتا في مجلة المجمع^(٢)

وقد تظاهر الجنرال منو بتمسكه بالشعائر الإسلامية حتى كان يؤدي صلاة التراويح في شهر رمضان العظم بمسجد رشيد وكتب الى نابليون ينمئه بذلك ويقول في رسالة اليه ان هذه الطريقة قد حبيته إلى نفوس الأهالي وكانت حادثة زواج منو فريدة في بابها لأنه لم يسبقه اليها أحد من قواد الجيش الفرنسي ، فلا غرو ان كان موضع تهكم زملائه

وقد رزق من زوجته ولداً أسماه (سليمان مراد جاك منو) وكانت ولادته كما ذكر الجبرتي في شهر شعبان سنة ١٢١٥ (يناير سنة ١٨٠١) وأقامت السيدة زبيدة مع زوجها رشيد وبقيت بها بعد أن تولى القيادة العامة للجيش الفرنسي وظلت بها إلى أن احتلها الأتراك والإنجليز فخرجت صحبة أخيها لأمها السيد علي الحماني (ويسميه الجبرتي السيد علي الرشيدى) وانتقل بها إلى الرحمانية ، ولما احتلها الحلفاء قدم بها إلى مصر فدخلها في أوائل محرم سنة ١٢١٦ ونزلا بدار القائد العام — بيت الألفى بك — بالأزبكية ثم انتقلا إلى القلعة ليكونا بمأمن من الاضطرابات ، وكان (منو) وقتئذ بالإسكندرية

(١) يوافق ٢ مارس سنة ١٧٩٩

(٢) مجموعة سنة ١٨٩٨ وعدد فبراير سنة ١٩٠٠

وبقيت السيدة زبيدة وابنها وحاشيتها بالقاهرة إلى أن أبرم الجنرال بليار شروط التسليم وتم جلاء الفرنسيين عنها فأذن لها الجنرال هتشنسون قائد الجيش الانجليزي بالسفر إلى الاسكندرية لتلحق بزوجها ، على أن منو طلب الإذن لها بالسفر إلى فرنسا فرحلت إليها على إحدى السفن التي أفلت جيش الجنرال بليار، ولما جلا الجيش الفرنسي عن الإسكندرية ووصل منو إلى فرنسا التقى بزوجته هناك وظلت في عصمته ، على أنه يؤخذ من الوثائق التي رجع إليها العلامة على بك بهجت^(١) ومما ذكره المسيور ريجو في كتابه^(٢) أن منو قد أساء معاملة زوجته المصرية وتفكر لها وهجرها في تورينو (بايطاليا) وأبدل بها بعض الراقصات واتخذهن خليلاته ، وتركها تعاني غصص العيش وعضاضة المهجر إلى أن توفيت بها ، وقد نشرنا في قسم الوثائق التاريخية الوثيقتين اللتين اكتشفهما العلامة على بك بهجت في دفترخانة محكمة رشيد الشرعية

سياسة منو ازاء المصريين

أوضحنا سياسة (منو) إزاء مواطنيه الفرنسيين ، فلننظر ماذا كانت سياسته حيال المصريين

كان (منو) من دعاة اتخاذ مصر مستعمرة فرنسية ، فهو في سياسته نحو المصريين من حزب الاستعمار ، وهذا وحده كاف للدلالة على ما في نفسه من نزعة الظلم والعدوان ، وهذه النزعة تفسر لك كثيراً من تصرفاته ، فانه لم يكن في علاقته بالشعب خيراً من سلفه

ضرائب وإتاوات فادحة

فقد أخذ يجبي الباقي من الغرامة التي فرضها كليبر على المدينة ، وفرض عليها هو ضريبة جديدة قدرها أربعة ملايين فرنك فرضها على ملاك الدور ومستأجرها والمليئين والتجار وأرباب الحرف ، فهال الناس أمر هذه الضريبة لقرب عهدهم بالغرامة الفادحة التي فرضها كليبر عليهم وما قاسوه بسبب جبايتها من الأهوال ، وعهد الفرنسيون أمر تحصيل الضريبة الجديدة إلى مشايخ الحارات والمهايك الساكنين بالمدينة وكانوا إذا أصابوا داراً مغلقة قد غاب صاحبها يأخذون الضريبة التي عليها من الجيران !! وفرضوا كذلك ضريبة أخرى قدرها

(١) مجلة المجمع العلمي المصري عدد فبراير سنة ١٩٠٠

(٢) الجنرال عبد الله منو والفترة الأخيرة من الحملة الفرنسية في مصر

مليون فرنك على التجار وأرباب الصنائع والحرف ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « واستهل شهر رجب (سنة ١٢١٥^(١)) والطلب والنهب والهدم مستمر ومتزايد ، وأرزوا أيضا أوامر بتقرير مليون على أرباب الصنائع والحرف يقومون بدفعه كل سنة قدره مائة ألف وستة وثمانون ألف ريال فرانسه ، فدهى الناس وتحيرت أفكارهم واختلطت أذهانهم وزادت وساوسهم » وقال الجنرال رينييه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية^(٢) : « إن التجارة التي أرهقتها المكوس والاناوت المختلفة قد ازداد كسادها وحل بها البوار بعد الأمر الذي أصدره (منو) بفرض آتاوت جديدة على نقابات الحرف والتجار ، فإن تجار القاهرة وبولاق الذين نهبت دكا كينهم أو صودرت متاجرهم بعد الثورة وانحادها ودفعوا نحو نصف الاثني عشر مليون فرنك التي فرضت على المدينة كغرامة حرية لم يكادوا يتنفسون ويعودون إلى العمل حتى باعتمهم الاناوت الجديدة ، وكذلك حدث لجار دمياط والمحلة الكبرى وطنطا وغيرها ، ففرضت عليهم ضرائب أوقمتهم في الضيق فاضطر معظمهم إلى إقفال دكا كينهم وترك الاشتغال بالتجارة »

ويقول المسيو ريجو^(٣) : « إن تجارة مصر قد تلاشت في عهد الحملة الفرنسية ، فإن الحصر البحري الذي ضربه الانجليز على سواحل البحر الأبيض المتوسط منع حركة التجارة وكذلك وجود قوات الصدر الأعظم في حدود سورية ، هذا فضلا عن أن الغرامات والضرائب التي فرضها نابليون وكبير قد أفقرت تجار المدن ، وقد اتبع (منو) سنة سلفيه في فرض الغرامات والقروض الإجبارية »

في هاتين الشهادتين تأييد لرواية الجبرتي

نهب وإرهاق وتخريب

ضح سكان العاصمة من ترادف المظالم ، وضائق بهم المسالك ، فكثرت عدد المهاجرين من المدينة فرارا من الظلم ، فنادى الفرنسيون بين الناس بأن من لم يحضر بعد اثنين وثلاثين يوماً من يوم المناذاة نهبت داره وصودرت أملاكه واعتبر من المذنبين ، قال الجبرتي : « وتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة ولا شفيع تقبل شفاعته ، أو متمكلم تسمع كلمته ، واحتجب سارى عسكر (منو) عن الناس وامتنع عن مقابلة المسلمين وكذلك عطاء الجنرالات وانحرفت

(١) نوفمبر سنة ١٨٠٠ (٢) في كتابه (مصر بعد واقعة عين شمس)

(٣) في كتابه (الجنرال عبد الله منو والفترة الأخيرة للحملة الفرنسية في مصر)

طباعهم عن المسلمين زيادة عن أول واستوحشوا منهم ونزل بالرعية الذل والهوان «
 وصادروا العروض والبضائع ونهبوها في مقابل سداد ما فرضوه من الغرامات والإتاوات،
 وهدموا كثيرا من الدور وخاصة بيوت من هاجروا من المدينة ، قال الجبرتي :
 « وأغلقوا جميع الوكائل والخانات على حين غفلة في يوم واحد^(١) وختموا على جميعها ،
 ثم كانوا يفتحونها وينهبون ما فيها من جميع البضائع والأقمشة والطر والدخان خانا بعد
 خان ، فإذا فتحوا حاصلًا من الحواصل قوموا ما فيه بما أحبوا بأبخس الأثمان ، وحسبوا
 غرامته ، فإن بقي لهم شيء أخذوه من حاصل جاره ، وإن زاد له شيء أحالوه على جاره الآخر ،
 ونقلوا البضائع على الجمال والحير والبغال وأصحابها ينظرون وقلوبهم تتقطع حسرة على ما لهم ،
 وإذا فتحوا مخزنا دخله أمناؤهم ووكلاؤهم فيأخذون ما يجدونه من الودائع الخفيفة أو الدراهم
 وصاحب المحل لا يقدر على التكلم بل ربما هرب أو كان غائبا ، وحرروا دفاتر العشور وأحصوا
 جميع الأشياء الجليلة والحقيمة ورتبوها بدفاتر وجعلوها أقلاما يتقلدها من يقوم بدفع مالها
 المحرر ، وجعلوا جامع أربك الذي بالازبكية سوقا لمزاد ذلك بكيفية يطول شرحها ، وأقاموا على
 ذلك أياما كثيرة يجتمعون لذلك في كل يوم ويشترك الاثنان فاكثرت في القلم الواحد وفي
 الأقلام المتعددة ، وكثر الهدم في الدور وخصوصا في دور الأمراء ومن فر من الناس ،
 واستهل شهر جمادى الأولى سنة ١٢١٥^(٢) والأمور من أنواع ذلك تتضاعف
 والظلمات تتكاثف »

وقد أكثروا من الهدم والتخريب لأغراض حربية ، ذلك أنهم أخذوا في إتمام بناء
 القلاع التي شرع الجنرال كليبر في إنشائها لإحاطة المدينة بسلسلة من الحصون تمنع قيام
 ثورة أخرى ، فهدموا كثيرا من البيوت والعمارات إما لاخذ أخشابها وأدوات البناء منها
 واستخدامها في بناء القلاع والحصون أو كشف الجهات التي شرعوا في إقامة الحصون فيها ،
 وهدموا بيوتا أخرى لبيع أخشابها أو اتخاذها وقودا ، فعم الهدم والتدمير خططا بأكلها
 كالحسينية ، والحروبى^(٣) وبركة جناق ، وبركة الفيل ، وكشفوا سور القاهرة القديم من باب

(١) خلال شهر ربيع الثاني سنة ١٢١٥ (أغسطس سنة ١٨٠٠)

(٢) سبتمبر سنة ١٨٠٠

(٣) خط الحروبى بمصر القديمة ، ولم يزل جزء من المدرسة الحروبى قائما إلى اليوم على رأس شارع
 القبوه بمصر القديمة أمام الطريق الموصل إلى مقياس الروضة ، وبركة جناق هي المعروفة الآن ببركة درب
 عجور بباب الشعرية ، وجامع الجنبلاطية هو المعروف بجامع جنبلاط ، ورأس الصوة بنهاية شارع الحجر
 بالميدان القائم الآن بين جامع السلطان حسن والقلعة (باب العزب) والذي به جامع المحمودية ، ومدرسة
 القابنية هي مسجد قانيباى الموجود على رأس درب السماكين ، أما جامع السبع سلاطين فهو الآن متخرب =

النصر إلى باب الحديد وحصنوا أبوابه وأقاموا حولها الأسلاك الشائكة ، وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية وباب المحروق

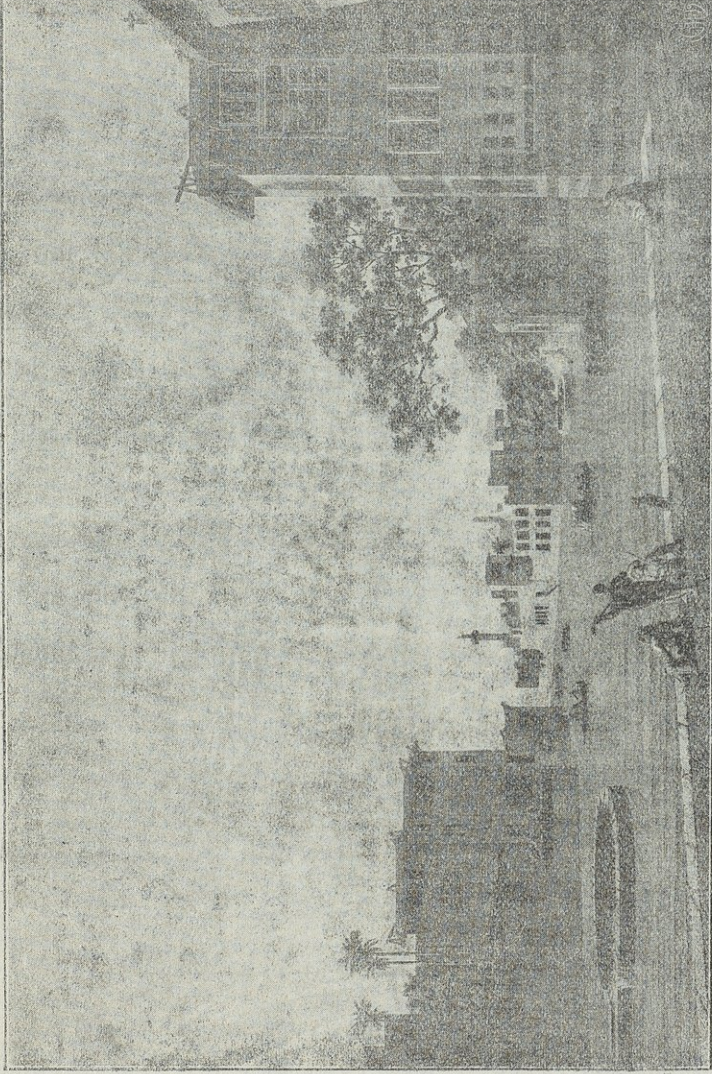
ومن العمارات التي هدموها جامع الجنبلاطية بباب النصر ومباني رأس الصوة حيث الخطابة وباب الوزير ، وهدمو أعلى المدرسة النظامية ، ومدرسة القانية ، والجامع المعروف بالسمع سلاطين وجامع الجر كسى وجامع خوند بركة خارج باب البرقية وكذلك ابنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها ، والقباب والمدافن الكائنة تحت القلعة ، وجامع الرويعي وقد جعلوه نخارة ، وجزء من جامع عثمان كتخدا القزدغلي بالقرب من رصيف الخشاب ، وجامع خير بك حديد بدرب الحمام بالقرب من بركة الفيل ، وجامع البنهاوى ، والطراطوشى ، والعدوى ، وجامع عبد الرحمن كتخدا المقابل لباب الفتوح ولم يبق منه إلا بعض الجدران

قال الجبرتى : « فهدم للناس من الاملاك والعقار ما لا يقدر قدره ، وذلك مع مطالبهم بما قرر على املاكهم ودورهم من الفردة (الضريبة) ، فيجتمع على الشخص الواحد النهب والهدم والمطالبة في آن واحد ، وبعد أن يدفع ما على داره أو عقاره وما صدق انه سدد ما عليه الا وقد دهموه بالهدم فيستغيث فلا يفتأ ، فترى الناس سكارى وحيارى ، ثم بعد ذلك كله يطالب بالنكسر من الفردة »

وأعمنوا في الهدم والتخريب بمختلف الوسائل ، فهدموا مساطب الحوانيت واقتلعوا أحجارها ، وتعللوا في ذلك برغبتهم توسيع الشوارع والأزقة ، وغرضهم الحقيقي منع الناس من اتخاذها متاريس في حالة قيام الثورة كما حدث في ثورة القاهرة الأولى والثانية ، وهدموا تلك المساطب في أحياء بأكملها ، كالصلبية ، وقناطر السباع ، ودرب الجميز ودرب سعادة وباب الخلق فما يليه إلى باب الشعرية ، فاشتد الضيق بأصحاب الحوانيت لأنهم اضطروا بعد هدم مساطبهم أن يزروا داخل حوانيتهم فصارت أشبه بالسجون

وأعمنوا في مصادرة الأخشاب فقطعوا الأشجار والنخيل من جميع الحدائق والبساتين الكائنة بالقاهرة وبولاق وقصر العيني والروضة ومصر القديمة وخارج الحسينية وبركة الرطلى وأرض الطباله وبساتين الخليج ، وكذلك في كثير من الأقاليم ، وأخذوا أيضا أخشاب المراكب والسفن مع شدة الحاجة إليها للنقل وعدم امكان انشاء مراكب جديدة ، فتمطلت

== لاتقام فيه الشعائر وواقع بالقرب من باب الوداع الموصل منه إلى قرافة باب الوزير من جهة القلعة ، وجامع الشركسى بميدان السيدة عائشة بالمنشية ، وقبة خوند بركة هي بقرافة المجاورين بقرب شارع السلطان احمد ، وقد رجعتنا في هذه البيانات إلى صديقنا الأستاذ المؤرخ مصطفى بك منير أدهم ، فله منى جزيل الشكر والثناء



بركة القيل بالقاهرة في أواخر القرن الثامن عشر
صورتها قبل أن تتخرب في عهد الحملة الفرنسية « انظر ص ١٨١ » وقد ذكر الجبرتي ما أصابها من الحراب
في حوادث سنة ١٢١٥ هـ (١٨٠٠ م) بقوله : « ومنها توالى خراب بركة القيل وخصوصاً بيوت الأسماء
« المالك » التي كانت بها وأخذوا أخشابها لمارة القلاع ووقود النيران وكذلك ما كان بها من الرصاص
والحديد والرغام وكانت هذه البركة من جملة محاسن مصر »

المواصلات مما أدى إلى صعوبة النقل وارتفاع أجور الشحن وعلو الأسعار واشتداد الضيق بالناس

يتبين مما تقدم ان السياسة التي اتبعها (منو) حيال الشعب كانت إذن سياسة إرهاب وظلم ، ونهب ومصادرة ، وهدم وتخريب ، فلا غرو أن زادت النفوس نفورا من حكم الفرنسيين على الرغم من اعتناق منو الإسلام فان المصريين قد رأوا بأعينهم وشاهدوا بأنفسهم أن سيل الظالم والمغارم على عهده في ازدياد وطغيان

إعادة الديوان

أبطل الديوان بعد التوقيع على معاهدة العريش وأخذ الفرنسيون من ذلك الحين يستعدون للجلاء عن مصر ، فلما نقض الإنجليز المعاهدة وتجدد القتال وشبت الثورة في القاهرة استمر الديوان معطلا ولم يفكر كليبر في اعادته بعد اخماد الثورة ، ويقول الجنرال رينيه في كتابه (١) ان كليبر رأى ان لا يعيد الديوان إلا بعد أن تسدد القاهرة الغرامة التي فرضها عليها ، وسواء أصح هذا التعليل أم أن كليبر لم يفكر أصلا في إعادة الديوان فإنه مما لا ريب فيه أن الديوان بقى معطلا من حين التوقيع على معاهدة العريش ، فلما تولى منو القيادة العامة سار سيرة سلفه في ارهاق الناس بالمغارم والضرائب ، ثم عزم على إعادة الديوان لاستمالة قلوب المصريين ، فأعاد تنظيمه في شهر أكتوبر سنة ١٨٠٠

تأليف الديوان

لم يتبع (منو) النظام الذي ابتكره نابليون من جعل الديوان هيئتين ، الديوان العمومي والديوان الخصوصي ، بل جعله ديوانا واحداً مؤلفاً من تسعة أعضاء كلهم من المسلمين ، وقد ظن أنه بهذه الوسيلة يكسب رضا غالبية الشعب ويستميلهم اليه ، على أن ذلك لم يكن له أثر ما في حالتهم النفسية ولا في عواطفهم حيال الفرنسيين

أما الأعضاء الذين اختارهم منو للديوان الجديد فهم : الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ محمد المهدي ، والشيخ سليمان الفيومي ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ عبد الرحمن الجبرتي مؤرخ ذلك العصر ، والسيد على الجمالي (٢) (نسب الجنرال منو) والشيخ خليل البكرى ، والشيخ موسى السمرى

(١) مصر بعد واقعة عين شمس

(٢) يسميه الجبرتي السيد على الرشيدى

أولئك هم الأعضاء ، وقد وردت أسماءهم في كتاب « ريبو »^(١) ، وذكرت بالفرنسية والعربية في كتاب تخطيط مصر Description de l'Egypte^(٢) ، وذكرها الجبرتي في تاريخه ، وأشار إلى نفسه بقوله (وكاتبه)

وقد انتخب الشيخ الشرفاوى رئيساً للديوان والشيخ المهدي سكرتيراً له (كاتم السر)

موظفو الديوان

أما موظفو الديوان فهم الشيخ اسماعيل الزرقاني قاضياً ، والسيد اسماعيل الخشاب أميناً لمحفوظات الديوان وكانباً لسلسلة التاريخ ، والشيخ علي كاتباً عربياً ، وقاسم افندي أمين الدين كاتباً رومياً (تركيا) ، والقس روفائيل ترجمانا أول ، والياس نخر ترجماناً مساعداً ، والمسيو فورييه وكيلاً (قوميسيرا) للديوان ومديراً لسياسة الأحكام الشرعية^(٣) ، ومقدم ، وخمسة قواسمة

والسيد اسماعيل الخشاب هو من أدياء ذلك العصر ، ترجمه الجبرتي في وفيات سنة ١٢٣٠ هجرية فوصفه بالبليغ النجيب ، والنبه الأريب ، نادرة الزمان ، وفريد الأوان ، وذكر عنه أنه قال الشعر الرائق ونثر النثر الفائق^(٤)

سلسلة التاريخ

أما (سلسلة التاريخ) فهي عبارة عن محاضر جلسات الديوان وسجل الحوادث اليومية الهامة ، وقد ذكرها الجبرتي في ترجمة السيد اسماعيل الخشاب بقوله : « ولما رتب الفرنسيون ديواناً لقضايا المسلمين تعين المترجم في كتابه التاريخ لحوادث الديوان وما يقع فيه من ذلك اليوم لأن القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية في جميع دواوينهم وأما كن أحكامهم ثم يجمعون المتفرق في ملخص يرفع في سجلهم بعد أن يطبعوا منه نسخاً عديدة يوزعونها في جميع الجيش حتى لمن يكون منهم في غير مصر من قرى الأرياف ، فتجد أخبار الأمم معلومة للجليل والحكيم منهم ، فلما رتبوا ذلك الديوان كما ذكر كان هو التقيد برقم كل ما يصدر في المجلس من أمر أو نهى أو خطاب أو جواب أو خطأ أو صواب ، وقرروا له

(١) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الثامن

(٢) الجزء الخامس عشر

(٣) في الأصل الفرنسي للاصر أن المسيو فورييه عين « مديراً للإدارة القضائية ووكيلاً فرنسياً

لديوان » والجبرتي يسميه الوكيل فورييه ، وفي بعض المواطن يسميه الوكيل الكثناري (كذا) فورييه

(٤) له ديوان شعر موجود في دار الكتب الملكية

في كل شهر سبعة آلاف نصف فضة فلم يزل متقيداً في تلك الوظيفة مدة ولاية عبد الله جاك
منو حتى ارتحلوا من الأقاليم مضافة لما هو فيه من حرفة الشهادة بالمحكمة وديوانهم هذا
ضخوة يومين في الجمعة فجمع من ذلك عدة كرايس ولا أدري ما فعل بها »

دار الديوان

وقد اختاروا للديوان بيت رشوان بك بحارة عابدين ، وكان يسكنه برتلمي الرومي فانتقل
منه وخصص للديوان بعد أن عمر ، وهيئت قاعة الحرم لجلسات الديوان وفرشوها فرشاً فاخراً
وحددوا لانقاده عشر جلسات في كل شهر وجعلوا دار الديوان مسكناً للقوميسير فورييه
وأعدوا به جناحاً للمترجمين والكتبة الفرنسيين يجلسون به على الدوام لترجمة أوراق الديوان
وجعلوا به خزائن للسجلات وألحقوا بالديوان داراً للمحكمة التجارية للفصل في دعاوى التجار

وصف إحدى جلسات الديوان

وصف الجبوتي إحدى جلسات الديوان وما حصل فيها من الإجراءات والمناقشات قال :
« وشرعوا في جلسة الديوان ، وصورته أنه إذا تكامل حضور المشايخ يخرج إليهم الوكيل
فورييه وصحبته المترجمون فيقومون له ، فيجلس معهم ، ويقف الترجمان الكبير رفائيل ويجتمع
أرباب الدعاوى فيقفون خلف الحاجز عند آخر الديوان وهو من خشب مقفص وله باب
كذلك وعنده الجاويش يمنع الداخلين خلاف أرباب الحوائج ، ويدخلهم بالترتيب الأسبق
فالأسبق ، فيحكي صاحب الدعوى قضيته فيترجمها له الترجمان ، فإن كانت من القضايا الشرعية
فإنما أن يتمها قاضي الديوان بما يراه العلماء أو يرسلوها إلى القاضي الكبير بالمحكمة إن احتاج
الحال فيها إلى كتابة حجج أو كشف من السجل ، وإن كانت من غير جنس القضايا الشرعية
كأمور الالتزام أو نحو ذلك يقول الوكيل ليس هذا من شغل الديوان ، فإن ألح أرباب الديوان
في ذلك يقول اكتبوا عرضاً لساري عسكر فيكتب الكاتب العربي والسيد اسماعيل يكتب
عنده في سجله كل ما قال المدعى والمدعى عليه وما وقع في ذلك من المناقشة ، وربما تكلم
قاضي الديوان في بعض ما يتعلق بالأمور الشرعية ، ومدة الجلسة من قبيل الظهر بنحو ثلاث
ساعات إلى الأذان أو بعده بقليل بحسب الاقتضاء ، ورتبوا لكل شخص من مشايخ الديوان
التسعة أربعة عشر الف فضة في كل شهر عن كل يوم أربعائة نصف فضة^(١) ، ولقاضي والقميد
والكاتب العربي والمترجمين وباقي الخدم مقادير متفاوتة »

(١) كذا في الجبوتي ، على أن مقتضى الحساب ما دام المرتب اليومي أربعائة نصف فضة أن يكون
المرتب الشهري اثني عشر ألف نصف فضة ، والله أعلم

اختصاص الديوان

أمل الناس خيراً بإعادة الديوان وظنوا أنه سينصفهم من المظالم التي تكاثرت عليهم ، فازدحم الديوان بكثرة الشاكنين ، قال الجبرتي : «وسر الناس لظلمهم أنه انفتح لهم باب الفرج بهذا الديوان ، ولما كانت الجلسة الثانية ازدحم بكثرة الناس وأتوا إليه من كل فج يشكون» ولكن سلطته كانت محدودة ولم يكن في مقدوره رفع المظالم ولا منع إقرار المغارم ، وتبين من تجربته أنه لا حول له ولا قوة ، واستمر الفرنسيون يفرضون الضرائب بعد إعادة الديوان والطلب والنهب والهدم مستمر منذاد

على أن الجنرال (منو) قد وسع من عمل الديوان وزاد في اختصاصه القديم ، فجعله بمثابة محكمة استئناف لها حق نقض الأحكام التي يتبين خطأها وتتقدم له بشأنها «فتاوى» بما حوته من الخطأ أو من مخالفة الأحكام الشرعية ، وجعله كذلك مجلساً استشارياً للحكومة للسهر على تقرير العدالة وإدارة المساجد والتكايا وجهات البر ومعاهد التعليم والانفاق على الحج ، وعليه أن يعلن للاهالي المنشورات التي يوجهها القائد العام اليهم ويتصل بالقائد العام لعرض مطالب الأهالي على الحكومة^(١)

وكذلك جعل من اختصاصه انتخاب القضاة وترشيحهم لمناصبهم وطلب عزلهم ، أي أنه عمم الطريقة التي وضعها نابليون لانتخاب قاضي مصر كما رأيت في الكلام على مسألة القضاء الشرعي^(٢) ، وقد طلب (منو) من الديوان طبقاً لهذا النظام أن ينتخب قاضي مصر من جديد فوق اختياره على الشيخ أحمد العريشي الذي كان متولياً للقضاء من قبل^(٣) ، وإليك ما ذكره الجبرتي عن انتخاب القضاة : « وفيه أمر الوكيل بتحرير قائمة تتضمن أسماء الذين تقلدوا قضاء البلاد من طرف القاضي والذين لم يتقلدوا ، وأخبر أن السر في ذلك أن مناصب الأحكام الشرعية استقر النظر فيها له وأنه لا بد من استئناف ولايات القضاة حتى قاضي مصر بالقرعة (بالانتخاب) من ابتداء سنة الفرنسية ويكتب لمن تطلع له القرعة تقليد من اسارى عسكر الكبير ، فكتبت له القائمة كما أشار ، وفي سادسه عملت القرعة على شرطها ، بل زاد تكرارها ثلاث مرات لقاضي مصر واستقرت للعريشي على ما هو عليه وخرج له التقليد بعد مدة طويلة »

(١) مادة ٣ من الأمر الصادر من (منو) المؤرخ ١٠ فاندميز من السنة العاشرة (٢ أكتوبر

سنة ١٨٠٠) (٢) ص ٥٩ الفصل الرابع

(٣) وهو الذي اختاره العلماء لقضاء مصر كما سبق بيان ذلك في الفصل الرابع وكان قد اعتزل القضاء

لما دخل العثمانيون ، وبعد اتحاد ثورة القاهرة الثانية أعاده الفرنسيون إلى القضاء قبل مقتل كليبر

ويظهر أن السبب في إعادة الاقتراع لانتخاب قاضي مصر أن الفرنسيين كانوا مرتابين في الشيخ العريشى من يوم وقوع حادثة مقتل كليبر لأن القاتل كان سوريا والشيخ العريشى كان شيخاً لرواق الشوام بالأزهر، فعزلوه من المشيخة، ثم تبينت لهم براءته، وبالرغم من ذلك كانوا غير راضين عنه، فلما أعيد الديوان وفوض إليه منو انتخاب قاضي مصر وقعت القرعة على الشيخ العريشى نفسه، والظاهر أن الفرنسيين لم يكونوا مرتاحين لهذه النتيجة فأعادوا الانتخاب ثلاث مرات كما يقول الجبرتى، فاستقرت للعريشى، وقد ظل متولياً هذا المنصب إلى أن جاء العثمانيون، فعادوا إلى طريقتهم القديمة في تعيين قاضي مصر من الأتراك، فانفصل العريشى عن القضاء وتوفي سنة ١٢١٨ هجرية

وخلاصة ما تقدم أن الديوان في عهد منو كان بمثابة هيئة استشارية للحكومة تنظر في الشؤون المدنية والدينية، وكان في الوقت نفسه محكمة استئناف ومجلساً أعلى لانتخاب القضاة

مشروعات منو

كان منو كثير المشروعات كثير النظريات متضارب الآراء والأفكار، فمن مشروعاته إعادة تنظيم الديوان وتوسيع اختصاصه على النحو المتقدم ومنها أنه قرر أن يكون تعيين مشايخ البلاد^(١) في القرى بأمر من القائد العام وأن يسرى هذا النظام على جميع المشايخ الموجودين فعلاً، وكان يرى بذلك إلى جمع ما يستطيع جبايته من المال من المشايخ في مقابل أوامر التعمين، وكان ينوى تكراراً صدور أوامر التعمين وتجديدها كل سنة، وجعل لهيئة مشايخ البلاد مقيمين، وجعل لها رئيسين أحدهما فرنسي وهو المسمو بريزون Brizon والآخر مصري وهو الشيخ سليمان الفيومي، وفي ذلك يقول الجبرتى :

« واستهل شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٥^(٢) وفيه قرروا على مشايخ البلدان مقررات يقومون بدفعها في كل سنة، أعلى وأوسط وأدنى، فالأعلى وهو ما كانت بلده ألف فدان فأكثر خمسمائة ريال، والأوسط وهو ما كانت خمسمائة فأزيد ثلثمائة ريال، والأدنى مائة وخمسون ريالاً، وجعلوا الشيخ سليمان الفيومي وكيلاً في ذلك فيكون عبارة عن شيخ المشايخ، وعليه حساب ذلك، وهو تحت يد الوكيل الفرنسي الذي يقال له بريزون، فلما شاع ذلك ضجت مشايخ البلاد لأن منهم من لا يملك عشاءه، فاتفقوا على أن وزعوا ذلك على الأطميان وزادت في الخراج »

ويقول الميسو ريجو Rigault في كتابه^(١) إن الشيخ الفيومي كان يعمل تحت رقابة الميسو بريزون ، وهذا يؤيد رواية الجبرتي

وعزم منو على تنفيذ مشروع احصاء المواليد والوفيات وهو المشروع الذى فكر فيه نابليون ونفذه فيما يتعلق بالوفيات ، فعرض الميسو فوربيه على أعضاء الديوان فى جلسة السادس عشر من شعبان سنة ١٢١٥^(٢) رغبة الجنرال منو فى تنفيذ هذا المشروع ، وبين لهم مزاياه التى منها ضبط الانساب ومعرفة الأعمار وبذلك يتيسر للحاكم الشرعى الحكم بالعدل والإنصاف ، وينقطع الخلف والخصام بين الورثة ، وطلب إليهم أن يبحثوا فى طريقة تنفيذ فوافق الأعضاء على المشروع واتفق رأيهم على أن يعهدوا بالإحصاء إلى قلات الحارات والخطط وهم يكفون بها من تحت أيديهم من مشايخ الحارات وهؤلاء يتعرفون المواليد والوفيات من أهل كل بيت ومن النساء القوابل وخدمة الموتى وغيرهم ، والمعروف أن نظام ضبط الوفيات كان معمولاً به من بدء الحملة الفرنسية وكان يتولى هذا الإحصاء الطبيب ديجنيت Desgenette كبير أطباء الحملة

وشرع منو فى تحرير دقائر للزواج

ووضع نظاماً لمساحة الأقطان الزراعية

وأنشأ حديقة للنبات بالقاهرة

وشرع فى إصدار جريدة يومية اختار لها اسم «التنبيه» وأصدر أمراً بذلك فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٠٠ ، وأسند رئاسة تحريرها إلى الشيخ اسماعيل الخشاب أمين محفوظات الديوان^(٣) لكن الأمر لم ينفذ والجريدة لم تصدر

ولما ظهر الطاعون فى شهر يناير سنة ١٨٠١ وانزعج الفرنسيون لاستفحاله وضعوا نظاماً للوقاية من عدواه وعرضه الميسو فوربيه على الديوان ، ولم يكن الغرض من عرضه تعليق تنفيذه على إقراره بل كان القصد استشارته ومجاملته ، وقد نفذ فعلاً

وفكر فى انشاء مصنع للجوخ فى القاهرة لسد الحاجة الماسة الى الاجواخ التى انقطع ورودها من أوروبا بسبب الحصر البحرى ، لكن أعضاء اللجنة الإدارية^(٤) عارضوا فى

(١) الجنرال عبد الله منو والفترة الأخيرة للحملة الفرنسية فى مصر

(٢) ٢ يناير سنة ١٨٠١

(٣) أمر منو وثيقة رقم ٣١ ، كتاب كليبر ومنو فى مصر للمسيو روسو

(٤) هى لجنة فرنسية تشرف على أعمال المحكمة الإدارية ويدخل فى خصائصها الشؤون المالية

قبول العمال المصريين في هذا المصنع بحجة الضرر الذي يلحق الصناعة الفرنسية إذا عرف المصريون أسرارها ، وكتبت اللجنة رسالة في هذا الصدد قالت فيها :

«ان مقدرة المصريين في تقليد المبتكرات الصناعية من شأنها أن تضر بالمصانع الفرنسية»
وصرح المسيو كونتي Conté مدير المصنع الميكانيكي الذي أنشأه الفرنسيون انه لا يقبل البتة تعليم أحد من الأهالي أساليب الصناعة ، وأخيراً تم الاتفاق بين (منو) واللجنة الادارية على إنشاء مصنع للأجواخ بإدارة المسيو كونتي على أن لا يقبل فيه عامل مصري^(١) ، وهكذا أقام الحكم الفرنسي دليلاً جديداً على أن الفرنسيين لم يبتغوا من الحملة على مصر الا اتخاذها مستعمرة يستغلونها لمصالحهم ويضحون في سبيل هذه الغاية بمصالح مصر والمصريين

استعداد الانجليز والأتراك للزحف على مصر

ما فتئت الحكومة الانجليزية بعد هزيمة الأتراك في معركة عين شمس تسعى سعيماً حثيثاً في إعداد حملة عثمانية انجليزية للزحف على مصر

سياسة إنجلترا إزاء مصر

ان سياسة إنجلترا حيال مصر تقتضى أن لا ترى لدولة قوية سواها نفوذاً في وادى النيل، وهي أيضاً لا تدع مصر نفسها نهض وتصبح دولة قوية مهيبة الجانب محفوظة الكيان، ذلك ان مطامع إنجلترا الاستعمارية جعلتها تطمح في التسلط على وادى النيل واتخاذ مصر قاعدة حربية وبحرية لتضمن سيادتها في البحر الأبيض المتوسط وتبسط نفوذها السياسى والتجارى في الشرق وتطمئن على مستعمراتها في الهند وفيما وراء البحار، تلك كانت ولم تزال سياستها من القرن الثامن عشر الى اليوم ، وعلى هذه القاعدة تقوم وجهة النظر الإنجليزية في المسألة المصرية ، ومن أجل ذلك حاربت محمد على الكبير وخلقت له العقبات والمراقيل ، وجردت عليه الحملة الانجليزية المشهورة بحملة الجنرال فريزر سنة ١٨٠٧ التي يأتي الكلام عنها في الفصل الأول من كتاب «عصر محمد على» ، وما فتئت تقاومه طوال مدة حكمه، وكل الحوادث السياسية التي وقعت في وادى النيل خلال القرن التاسع عشر الى القرن العشرين تدور من الوجهة الانجليزية على هذا المحور

كانت الحكومة الانجليزية ترحض تركيا على محاربة فرنسا واجلائها عن مصر ، وكانت ترى لا إلى جلاء الفرنسيين عنها فحسب ، بل أخذت تنتهز الفرص لاحتلالها وتثبيت قدمها

(١) كتاب الجنرال عبد الله منو والفترة الأخيرة من الحملة الفرنسية تأليف المسيو ريجو

فيها ، وكانت مهمة إنجلترا في الحملة العثمانية الأولى مقصورة على معاونتها بأساطيلها في البحر الأبيض المتوسط ، ولكن هزيمة العثمانيين في موقعة عين شمس جعلتها تفكر في الدخول إلى ميدان القتال برا وإعداد جيش انجليزي يشترك مع الجيش العثماني في الزحف على مصر ، لأن الجيش العثماني قد برهن على عجزه عن طرد الفرنسيين منها ، فأخذت إنجلترا تعد حملة برية ، وجعلت في الوقت نفسه تواصل سعيها في الاستئانة ليعد الباب العالي حملة جديد تسيير بالاشتراك مع الحملة الانجليزية لتتحد حركتهما وتتناصر القوات العثمانية والانجليزية برأ وبجراً كانت الخطة الحربية التي رسمتها الحكومة الانجليزية بالاتفاق مع الباب العالي ان يزحف الجيش العثماني برأ من طريق العريش وقطية ، وفي الوقت نفسه ينزل في (أبو قير) جيش انجليزي تركي بحماية الأسطول البريطاني والعمارة التركية ، وينزل بالسويس جيش هندي قادم من الهند على ظهر العمارة الانجليزية في البحر الأحمر ، فتلقت القوات الثلاث في أرض مصر وتطوق الجيش الفرنسي بها

مساعي نابليون في إمداد الحملة الفرنسية

لم تفت هذه الاستعدادات عين نابليون البصيرة على الرغم من تكتم الحكومة الانجليزية معدات المشروع ، فقد فطن إلى مشروع الدولتين واستشفه من حركات الانجليز في البحر الأبيض المتوسط وإعدادهم في جبل طارق والجزائر الإيونية ومساعيمهم لدى الباب العالي ومن الأخبار التي تلقاها من الاستئانة عن مشروع الحملة الجديدة ، وأخذ يعمل لامداد الجيش الفرنسي في مصر بعد أن شغلته الحوادث السياسية الأوروبية وقتنا ما عن التفكير فيه ، فانه عقب عودته إلى فرنسا انصرف في الاشهر الأولى إلى إحداث الانقلاب الذي رفعه إلى قمة السلطة ، فأسقط حكومة الديركتوار وحل مجلس الخمسة وأنشأ نظام القنصلية ونودي به «قنصلا أول» فصار صاحب السلطة الفعالة والكلمة التي لا ترد في شؤون فرنسا ، وبعد أن استتب له الأمر أخذ يسعى لاعادة السلم في أوروبا ، وعرض على إنجلترا والنمسا دعوة الصلح والسلام ، لكن إنجلترا والنمسا وقفنا له بالرصاد وحالتنا دون توطيد ممر كره واستمتاعه بالسلم ، وكانت إنجلترا تحاصر جزيرة (مالطه) وتشدد الحصار عليها بغية أخذها لأن احتلالها يبسط سيادتها في البحر الأبيض المتوسط ويمكنها من تجريد حملة برية على مصر ويجول دون امداد فرنسا لجيشها بوادي النيل ، والنمسا كانت تعمل على تثبيت قدمها في ايطاليا ، فتجدد القتال في القارة الأوروبية ، وزحف نابليون بجنوده على شمال ايطاليا ، وهزم جيوش النمسا في معركة « مارنجو » الشهيرة (١٤ يونيو سنة ١٨٠٠) ، واسترد ايطاليا

ولما عاد ظافراً من هذه الحرب أخذ يفكر في امداد الجيش الفرنسي في مصر ، ولكن سيادة إنجلترا في البحر الأبيض المتوسط حالت دون تحقيق مشروعه ، وقد زاد في تمكين هذه السيادة احتلال الانجليز جزيرة (مالطه) في شهر سبتمبر سنة ١٨٠٠ ، فقد كانت الحامية الفرنسية محصورة في ميناء مالطة تدافع عنها مدى عامين والانجليز يشددون في حصارها حتى سلمت الحامية واحتلت إنجلترا تلك المحطة البحرية التي جعلها موقعها الطبيعي نقطة ارتكاز مهمة في موصلات البحر الأبيض المتوسط ، وكان لسقوط مالطه في يد الانجليز أثر كبير في التعجيل بإتمام معدات الحملة الانجليزية على مصر ، فانها لم تكذب تحتمل مالطه حتى حشدت جيشاً في جبل طارق لتبعث به إلى السواحل المصرية

على أن نابليون ما فتى يسعى لإيجاد الصلة بين فرنسا وجيشها في مصر رغم رقابة البوارج الانجليزية ، وأخذت المراكب الفرنسية تعاصر في الرحلة إلى مصر فتضبط السفن الانجليزية بعضها ويصل بعضها سالماً إلى السواحل المصرية ، وكان نابليون يقصد من هذه المحاولات تقوية الروح المعنوية للجنود الفرنسية وإحياء الأمل في نفوسهم بأنه لا ينسأهم على البعد ، وأنه ممدّم بالجند والعتاد ، وكان لوصول هذه السفن إلى الإسكندرية أثر ابتهاج كبير في نفوس الفرنسيين ، ومن هذه السفن سفينتان حربيتان جاءتا الإسكندرية يوم ٣ فبراير سنة ١٨٠١ وعلى ظهر كل منهما ثلاثمائة جندي وكثير من الذخائر والمدافع ، وقد ذكر الجبرتي نبأ وصولهما بقوله :

« وفي رابع عشرين رمضان سنة ١٢١٥ (يوافق ٨ فبراير سنة ١٨٠١) ضربت مدافع كثيرة لورود مر كبين عظيمين من فرنسا فيهما عساكر وآلات حرب وأخبار بأن بونا بارتة أغار على بلاد النمسا وحاربهم وحاصرهم وضايقهم وأنهم نزلوا على حكمه وبقى الأمر بينهم وبينه على شروط الصلح ، وأنه استغنى عن هذه الأشياء المرسله وسيأتي في أثرها مر كبان آخران فيهما أخبار تمام الصلح ، ويستدل بذلك على أن مملكة مصر صارت في حكم الفرنسيين لا يشاركهم غيرهم فيها ، هكذا قالوا وقرءوه في ورقة بالديوان »

وغنى عن البيان أن ما ذكره الفرنسيون من أن الحرب بين فرنسا والنمسا أسفرت عن بقاء مصر في حكمهم كان من تمويهاتهم التي أرادوا أن يؤثر بها على المصريين ، فإن المعاهدة التي ختمت بها الحرب بين الدولتين لم تتعرض لمصر ، وقد صدق الجبرتي في ارتيابه في صحة الخبر مما يفهم من قوله : « هكذا قالوا الخ »

وأشار الجبرتي إلى وصول سيفينتين آخرين بقوله :

« وفي ذلك اليوم (٢٠ شوال سنة ١٢١٥ الموافق ٦ مارس سنة ١٨٠١) عملوا شنكاً وضربوا عدة مدافع من القلاع ، فارتاع الناس لذلك واضطربوا اضطراباً شديداً ، فسئل من الفرنسيين فأخبروا أن ذلك سرور بقدم مر كيين من فرانسـه إلى الإسكندرية »

وأعد نابليون في ميناء (برست) (١) عمارة حربية بقيادة الكونتراميرال جانتوم Ganteaume نقل أربعة آلاف إلى خمسة آلاف مقاتل وكثيراً من الذخائر والمهمات لإنفاذها إلى مصر ، وقد تمكنت هذه العمارة من اختراق الاقيانوس واجتياز بوغاز جبل طارق واتخذت سبيلها نحو الإسكندرية ، ولكن الأميرال جانتوم لمح في طريقه بعض السفن الإنجليزية فخشى أن يلتقى بالاسطول الإنجليزي ، ومع أن هذه السفن كانت أقل عدداً من عمارته إلا أن ما استحوذ عليه من الذعر جعله يعدل عن المضي إلى مصر ، وذهب بعمارته إلى نغر طولون (٢) ، وانفصلت عنه سفينة استطاعت الوصول سالمة إلى نغر الإسكندرية يوم أول مارس سنة ١٨٠١ ، وحاول جانتوم أن يقلع بعمارته إلى مصر مرة ثانية ثم ثالثة ، ولكنه أخفق في محاولته

وانقطعت المواصلات نهائياً بين فرنسا والشعور المصرية في الوقت الذي آمت فيه إنجلترا معدات حملتها وسارت في طريقها إلى مصر

موقف منو

تمت هذه المعدات والجنرال (منو) غارق في تأملاته ومشروعاته ، وقد علم مراد بك وهو في الصعيد بأبناء هذه الاستعدادات إذ كان يتلقاها عن رسل المهاليك الذين أوفدهم إليه زميله ابراهيم بك من معسكر الجيش العثماني ، وكان مراد في ذلك الحين على تمام الولاء للفرنسيين ، فاعتزم أن يفرض بهذه الأبناء إلى الجنرال (منو) ليأخذ للأمر عده ، وأوفد إليه عثمان بك البرديسي لمناسبة سداد الخراج عن الصعيد وأطلعـه على رسائل ابراهيم بك وأبلغه نبأ اقتراب الحملة التركية الإنجليزية وطلب إليه أن يعنى في حالة فتح باب المفاوضات للتفاهم مع تركيا بالمحافظة على الامتيازات التي نالها مراد بك (٣) ، وأكد له أنه في حالة إخفاق المفاوضات وتجدد القتال يضع قواته تحت تصرف القيادة الفرنسية طبقاً للاتفاق المبرم

(١) نغر حربي لفرنسا على شاطئ المحيط الأطلسي

(٢) على شاطئ فرنسا الجنوبي

(٣) بمقتضى اتفاقية كليبر — مراد

بينهما ، على أن منو لم يكثر لهذه الأنباء ولم يأخذ عدته لمواجهة الحملة القادمة ، فلما قدمت لم تلق المقاومة التي لقيتها أيام نابليون وكليبر ، وصدقت نبوءة عثمان بك البرديسي التي تنبأ بها حينما بنس من إقناع الجنرال منو بضرة الاستعداد لمصادمة الحملة التركية الإنجليزية ، فانه قابل الجنرال داماس أحد قواد الحملة وقال له « إن قائداً مثل الجنرال منو سيكون سبباً في ضياع الجيش الفرنسي »

وصول الحملة الإنجليزية العثمانية إلى (أبو قير)

استغرق إعداد الحملة المشتركة بين إنجلترا وتركيا ووصولها إلى مصر عدة أشهر ، فقد تحرك الجيش الإنجليزي من جبل طارق في أوائل نوفمبر سنة ١٨٠٠ وأقلمت به المهارة الإنجليزية إلى شواطئ الأناضول ورسست بميناء مرمريس^(١) في أواخر ديسمبر وأوائل يناير ، ونزل الجيش الإنجليزي بئر الأناضول ، وهناك قضى زمنا طويلا ليمتزد من المؤونة ويتدرب على الرسو بمراكبه على سواحل الياسة وينتظر أن تتم تركيا استعدادها وتتفق الدولتان على الخطة المشتركة في القتال ، وأعدت تركيا جيشين ، الأول بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا زحف عن طريق برزخ السويس ، والثاني يبحر من ميناء مرمريس على ظهر المهارة التركية بقيادة حسين قبطان باشا قاصداً شواطئ مصر الشمالية

لكن عمارة حسين باشا أبطأت في السفر ، فأقلمت المهارة الإنجليزية في ٢٢ فبراير سنة ١٨٠١ بقيادة الأميرال اللورد كيث قائد القوات البحرية البريطانية في البحر الأبيض المتوسط ، وكان يصحبها بعض السفن المدفعية التركية ونحو ستائة جندي من الأتراك وسارت قاصدة سواحل مصر ، فوصلت تجاه الإسكندرية مساء أول مارس ، وفي صباح اليوم التالي ألقت مراسيها في خليج (أبو قير) وعلى ظهرها الجيش الإنجليزي وعدده ١٧ر٥٠٠ مقاتل^(٢) بقيادة الجنرال السير رالف أبركرومبي — Ralph Abercromby ، وظلت المهارة عدة أيام في عرض البحر لا تستطيع انزال الجنود لهياج الماء واضطرابه ، فانهز الجنرال (فريان)

(١) من تغور الأناضول

(٢) أخذنا هذا الإحصاء عن كتاب الجنرال رينيه أحد قواد الحملة الفرنسية (مصر بعد واقعة عين شمس) ، وفي كتاب الكابتين ولش أحد ضباط الجيش الإنجليزي الذي حارب في هذه الحملة أن عددهم ١٦ر٧٠٠ ، على أننا نرجح إحصاء رينيه لأن الكابتين ولش يميل في إحصائه إلى انقاص عدد الجيش الإنجليزي ليزيد من فخره ، وهذا العدد بخلاف المدد الذي تلقاه الجيش الإنجليزي بعد ذلك إلى انتهاء القتال ويبلغ نحو ستة آلاف مقاتل

قومندان الجنود الفرنسية في الإسكندرية هذه الفرصة لإعداد الدفاع وسار إلى أبو قير لملاقاة
الإنجليز وأعد مدافع قلعة أبو قير للضرب وركب مدافع أخرى على أكمة عالية تشرف
على الشاطي^١

نزول الإنجليز إلى البر

بدأت الجنود الإنجليزية تنزل إلى شاطي^١ أبو قير يوم ٨ مارس، واحذر منهم ذلك اليوم
سنة آلاف جندي ، فاشتبكوا في قتال شديد مع قوات الجنرال فريان الذي جاء على عجل في
نحو ٢٠٠٠ من الجنود ، فأطلقت المدافع الفرنسية نيرانها على الجنود الإنجليزية في طريقها
إلى اليابسة ، فخرس الإنجليز كثيراً من القتلى في المراكب وأثناء نزولهم إلى البر ، ودار قتال
عنيف على الشاطي^١ ، لكن القوات الإنجليزية كانت أكثر عدداً وأعظم استعداداً ، فظهرت
على الفرنسيين وهزمتهم ووضعت الحصار حول قلعة أبو قير^(١) ، وتقهقر الفرنسيون غرباً بعد
أن خسروا في تلك المعركة نحو ٤٠٠ قتيل وجريح ، وخسر الإنجليز نحو ٦٥٠ من القتلى
والجرحى ، وقد أشار الجبرتي إلى هذه الواقعة بقوله : « إن الإنجليز صلوا إلى أبو قير وطلعوا
إلى البر وتجاربوا مع أمير الاسكندرية (يريد قومندانها الجنرال فريان) ومن معه من
الفرنساوية وظهروا عليهم »

ترجع جيش الجنرال فريان وعسكر في المنذرة^(٢) ، أما الإنجليز فقد أنزلوا بقية جنودهم
إلى البر ، ودخلت قواربهم المسلحة إلى أبو قير لتعرقل تقهقر الفرنسيين (انظر خريطة بين
الاسكندرية وأبو قير مقابل ص ٦٩ وخريطة معركة سيدي جابر ص ١٩٦)

معركة سيدي جابر

١٣ مارس سنة ١٨٠١

تقدم الإنجليز يوم ١٢ مارس قاصدين (المنذرة) فانسحب الفرنسيون منها وواصلوا
تقهقرهم حتى أطلال قصر القياصرة^(٣) وتحصنوا به

(١) ظلت القلعة تقاوم إلى أن سلمت يوم ١٨ مارس سنة ١٨٠١

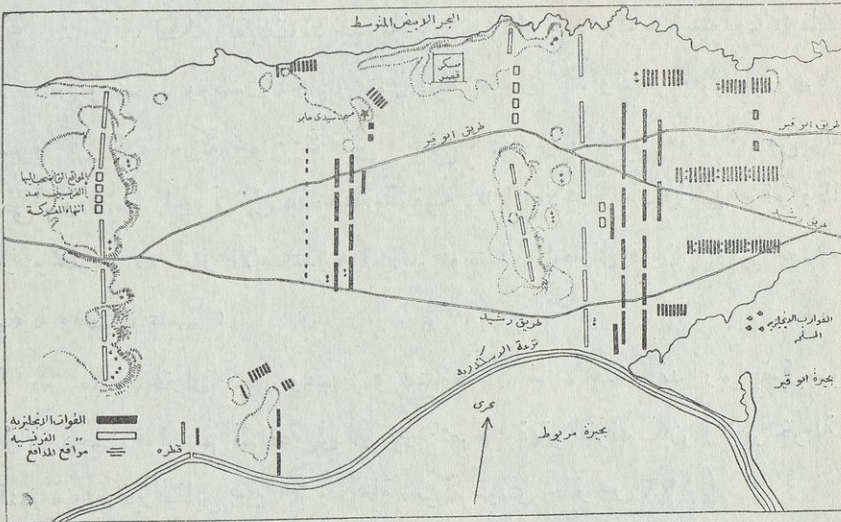
(٢) ضاحية من ضواحي الاسكندرية على شاطي^١ البحر الأبيض المتوسط تقع الآن بين (سيدي بشر)

و (المنزه)

(٣) أو (معسكر قيصر) على شاطي^١ البحر بالقرب من النقطة المعروفة الآن بمحطة مصطفى باشا

من محطات رمل الاسكندرية ، وهو حصن من حصون الرومان بقيت اطلاله إلى سنة ١٨٧٥ وأطلق عليه =

واصل الإنجليز تقدمهم إلى أن اقتربوا من مواقع الفرنسيين ، فدارت معركة شديدة بين الفريقين يوم ١٣ مارس ، وكان الجيش الفرنسى يقوده الجنرال لانوس Lanausse والجنرال فريان ، ولما التقى الجمعان هجم الإنجليز على مواقع الفرنسيين ، فأصلتهم المدافع الفرنسية نارا حامية أوقعت فى صفوفهم خسائر فادحة ، وكرّر عليهم الفرنسيون وهجى وطيس القتال ثم انتهى بهزيمة الفرنسيين وتراجعهم إلى أسوار الاسكندرية واحتلال الإنجليز قصر القياصرة ، وكان الفضل فى انتصارهم لكثرة عددهم ؛ فإن الجيش الإنجليزي بلغ نحو ١٤٠٠٠ مقاتل بينما الجيش الفرنسى نحو ٥٠٠٠ ، وقد تكبد الإنجليز خسائر فادحة ، فبلغ عدد قتلاهم وجرحاهم نحو ١٣٠٠ قتيل وجريح ، وخسر الفرنسيون نحو سبعمائة بين قتيل وجريح



خريطة معركة سيدى جابر (١٣ مارس سنة ١٨٠١)

وترى بها موقع مسجد سيدى جابر ، وعلى مقربة منه معسكر قيصر (قصر القياصرة) القديم ، ومواقع القوات الانجليزية والقوات الفرنسية أثناء المعركة ، والمواقع التى انسحب إليها الفرنسيون بعد انتهاء المعركة ، وترعة الاسكندرية (المحمودية الآن) وبحيرة أبو قير (غير موجودة الآن) وفيها القوارب الانجليزية المسلحة ، وبحيرة مريوط (تخطيط سنة ١٨٠١)

سمينا هذه المعركة معركة (سيدى جابر) لأنها وقعت على مقربة من المسجد المعروف باسمه ، أما الإنجليز فيسمونها معركة ١٣ مارس سنة ١٨٠١ ، والفرنسيون يسمونها معركة

== علماء الجغرافية من العرب اسم (قصر القياصرة) وورد اسمه العربى فى خريطة دانفيل D'Anvi le التى خطتها حوالى سنة ١٧٧٢ ، ومنها اشتق الافرنج اسم (معسكر قيصر) Camp de Cesar (كامب دى سيزار) ، وبهذا الاسم سميت إحدى محطات رمل الاسكندرية ولكن هذه المحطة تبعد قليلا عن موقعه القديم

(نيكوبوليس) ، ونيكوبوليس اسم روماني لضاحية قديمة من ضواحي الإسكندرية انتصر فيها اكتافيوس على مارك انطونيوس ، ولذلك سميت نيكوبوليس ومعناها (مدينة النصر) ، وتقع تقريبا في الجهة المعروفة الآن ببولسكى وما حولها^(٢) ، وهذه التسمية فيها شيء من التميميم كما ترى ، ولا تدل على المكان الذي وقعت فيه المعركة ، لذلك اخترنا لها اسم (سيدي جابر) ، وهو اسم مشهور وموقعه معروف ، وكان المسجد قائما في زمن المعركة ، فتسميتها باسمه تقرب إلى الذهن حقيقة موقعها

تقدم الانجليز بعد انتهاء المعركة يريدون الإسكندرية ، لكنهم استهدفوا ليزان المدافع الفرنسية المركبة في قلعتي كريتان (كوم الدكة) وكافربالى (كوم الناصورة) ، فاضطروا إلى الانسحاب وتحصنوا على الأكت القائمة حول قصر القياصرة ، ورابط جيشهم في خط ممتد بين البحر وبحيرة أبو قير

ارتباك الجنرال منو

لما علم الجنرال منو بقدم العهارة الانجليزية في مياه أبو قير أسقط في يده لأنه لم يكن مستعدا لمقاومتها ولم يفكر من قبل في اتخاذ الحيطة بتحسين شواطئ أبو قير ، ولم يتعم خطة نابليون في الإسراع بحشد جنوده والانتقال بهم إلى الشواطئ لمفاجأة الجنود النارية من السفن قبل أن تنهيا للقتال ، بل ارتبك في أمره ، وطفق يصدر الأوامر والنداءات المقيمة ، وأخذ يوزع جنوده شرقا وغربا ، فأنفذ الجنرال موران Morand إلى دمياط ، والجنرال رينييه Reynier إلى بلبس لتوقمه بجي الجيش التركي من الحدود الشرقية ، وأنفذ الجنرال لانوس إلى الإسكندرية ، فكانت القوات الفرنسية موزعة بين القاهرة ، والإسكندرية ، وأبو قير ، ودمياط ، وعزبة البرج ، ورشيد ، والسويس ، والجيزة ، والصالحية ، والمنصورة ، وميت غمر ، ومنوف ، والبرلس ، والرحمانية ، والوجه القبلي ، ولما تحقق منو من نزول الانجليز إلى البر عزم آخر الأمر على السير لملاقاتهم ، واستقدم الجنرال (موران) والجنرال (رينيه) ، ثم ارتحل ومعه نصف الجيش^(٢) إلى الاسكندرية فوصلها بعد هزيمة الفرنسيين في معركة (سيدي جابر)

(١) شرق معطفي باشا لغاية الجهة المعروفة اليوم (١٩٤٧) بجلمينوبولو

(٢) ترك النصف الآخر بالقاهرة بقيادة الجنرال بليار

حالة الأفكار في القاهرة

ساد الاضطراب بين الفرنسيين عندما علموا بقدوم الحملة الانجليزية التركية ، وأخذ منو يتوعد كل من يذيع أخبارها بين الأهالي ، فاصدر منشورا مؤرخا ١١ شوال سنة ١٢١٥ (١) يطمئن فيه المصريين ويحذرهم تصديق الأخبار (الكاذبة) وانذر كل من يثبت عليه إذاعة هذه الأخبار بالقتل

قال الجبرتي : « فعمل الناس من ذلك الفرمان (المنشور) ورود شيء وحصول شيء على حد «كاد المرتاب أن يقول خذوني» ، وليس للناس ذكر ولا فكير إلا في بواق الفردة (الضريبة) وما لزمهم من المليون ، ولا شغل لكل فرد إلا بتحصيل ما فرض عليه »

وبالرغم من تكتم الفرنسيين أبناء الحملة وتوعدهم من يذيع بين الناس أخبارها فإن أبناءها قد استفاضت ، وعلم بها الناس قاطبة ، فلم ير (منو) بدأ من أن يكشف أعضاء الديوان بقدوم الانجليز والعثمانيين ، فانتمد الديوان في ٢٠ شوال سنة ١٢١٥ (٢) ، وحضر الاجتماع المسيو (فوربيه) القوميسير الفرنسي ، وخطب الأعضاء في شأن الموقف الحربى ، فزعم أن السفن الانجليزية التي قدمت أبو قير قد رجعت أدراجها ، وأبلغ الأعضاء ترجمة منشور للجنرال (منو) يذكر فيه أن الانجليز « الذين يظلمون كل جنس للبشر » قد ظهروا في السواحل ومعهم العثمانيون ، وأن الفرنسيين عازمون على ردهم جميعا على أعقابهم ، وطلب من المصريين أن يلزموا السكينة ، وتوعد من يتحرك للفتنة بالقتل ، ونوه في منشوره بما وقع بالمصريين من القتل والنكال والمغارم في ثورة القاهرة الأخيرة ، وأمضى المنشور بتوقيع (خالص الفؤاد عبد الله جاك منو)

فلما تليت ترجمة المنشور علم الأعضاء بخطورة الموقف ، ودارت مناقشة بينهم وبين المسيو فوربيه في تحديد مركزهم حيال هذا المنشور ، قال الجبرتي في هذا الصدد ما خواه : « ولما قرئ الفرمان المذكور قال بعض الحاضرين إن المعتلاء لا يسعون في الفساد ، وإذا تحركت فتنة لزموا بيوتهم ، فأجاب المسيو فوربيه : ينبغى للمعتلاء ولأمثالكم نصيحة المنسدين فإن البلاء يعم المفسد وغيره ، فقال بعضهم هذا ليس بجيد بل العقاب لا يكون إلا على الذنب ، قال تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة » وقال آخر قال تعالى أيضا : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فقال فوربيه : المنسدون فيما تقدم هاجوا الفتنة فعمت العقوبة ،

(١) ٢٥ فبراير سنة ١٨٠١

(٢) ٦ مارس سنة ١٨٠١

والمدافع لا عقل لها حتى تميز بين المفسد والمصلح ، فإنها لا تقرأ القرآن ، وقال آخر :
المخلص نيته تخلصه ، فقال فوربيه : ان المصلح من يشمل صلاحه الرعية فإن صلاحه في حد
ذاته يخصه فقط والثاني أكثر نفعا »

وطال البحث والجدل على هذا النحو وانتهت الجلسة على غير نتيجة ، ولما علم الجنرال
منوبما دار من المناقشة بين الأعضاء والسيو فوربيه ارتاب في نية أعضاء الديوان ، وكتب
منشورا آخر أبلغه ذلك اليوم إلى فوربيه ، وهذا أرسله إلى الأعضاء في بيوتهم ليطلعهم به ،
ومضمونه إنذارهم بأنه باقى عليهم علانية تبعة كل ثورة تحصل من الأهالى ، ولعله أراد
بتحميلهم هذه التبعة أن يرهبهم ويكرههم على استخدام نفوذهم لمنع وقوع أى حركة في
العاصمة وغيرها من البلاد

ألقى هذا الإنذار على عاتق أعضاء الديوان تبعة رهيبية ، لأنهم إذا ضمنوا أنفسهم فمن أين لهم
أن يضمنوا سلوك الجماهير ؟ على أنهم تلقاء هذا الانذار اجتمعوا بدار الشيخ الشرفاوى رئيس
الديوان ، وحضر الاجتماع الأغا (المحافظ) والوالى (رئيس الشرطة) والمحتسب « وأحضر وا
مشايخ الحارات وكبراء الأخطاط ونصحوهم وأندروهم ، وأمروهم بضبط من هو دونهم وألا
يففلوا أمر عامتهم وحذروهم وخوفوهم العاقبة وما يترتب على قيام المفسدين وجهل الجاهلين
وانهم هم المأخوذون بذلك ، كما أن من فوقهم مأخوذ عنهم ، فالعاقل يشتغل بما يعنيه (١) »
والواقع ان سكان القاهرة في ذلك الحين لم يكونوا يفكرون في القيام بثورة أو فتنة ، لأن
ما نزل بهم من المغارم والمطالم المتتامة وما كان يشغلهم من سداد ما فرض عليهم من
الضرائب الفادحة والغرامات كان يحول دون قيامهم بثورة
وأخذ الفرنسيون من جهتهم يستمدون للحرب والقتال وينقلون أمتعتهم إلى القلعة ،
فتوهم الناس أنهم سيضربون المدينة بالمدافع ، فشرعوا في الهجرة من القاهرة إلى الأقاليم

اعتقال واضطهاد

اشتد انزعاج الفرنسيين واضطرابهم ، فاعتقلوا السيد محمد السادات وأصعدوه إلى القلعة
« من غير اهانة » كما يقول الجبرتى « فسأل السيد السادات الموكل به عن ذنبه وجرمه ،
فقال له لم يكن إلا الحذر من إثارة الفتنة في البلد وإهاجة العامة لبغضك للفرنسيين لما سبق
لك منهم من الايذاء » ، وبقى السيد السادات رهن الاعتقال إلى أن جلا الفرنسيون عن

(١) الكلمات التى بين قوسين مأخوذة عن الجبرتى

مصر ، ومات ولده أثناء الاعتقال فلم يفرجوا عنه وأذنوا له فقط بمحضور الجفازة ونزل من القلعة يصحبه حارس إلى أن انتهت الجفازة وعاد به الحارس إلى السجن ، واعتقلوا كذلك حسن أغا المحتسب وحبسوه بالبرج الكبير بالقلعة ، ولما عزم الجنرال (منو) على السفر إلى الإسكندرية استدعى إليه أعضاء الديوان ورؤساء التجار ، وآذنتهم بعزمه على السفر ، وأنه أناب عنه الجنرال بليار « قائم مقام » وقائداً على الجنود الباقين بالقاهرة ، وطلب إليهم أن يسهروا على ضبط الأمن في المدينة ، وأبلغهم أنه كان في عزمه اعتقالهم رهائن لمنع وقوع الفتن ، لكنه استصوب إرجاء ذلك ، وسافر (منو) بجيشه يوم ١٢ مارس^(١) ، ولم يعد بعد ذلك إلى القاهرة

واتسعت حركة القبض والاعتقال عند ما وردت الأخبار بقدم الجيش العثماني برا من جنوب سورية بقيادة يوسف باشا ضيا واحتلاله العريش ، واشتد اضطراب الفرنسيين في القاهرة ، فاستدعى المسيو فوريه أعضاء الديوان للاجتماع يوم ٢٤ مارس سنة ١٨٠١ ، وحضر الجلسة مندوب عن الجنرال بليار ، وأبلغهم المسيو فوريه أنه تحقق لهم أن الجيش العثماني بقيادة يوسف باشا قادم إلى مصر ، وأن السلطة الفرنسية رأت بناء على ذلك اعتقال بعض الأعيان كما تقضى بذلك ضرورات الحرب ، وتلطف في إبلاغ الأعضاء نبأ الاعتقال ، فقال لهم على رواية الجبرتي : « ولا يكون غندكم كدر ولا هم بسبب ذلك ، فليس إلا الإعزاز والإكرام أيما كنتم ، والوكيل (فوريه) دائماً نظره منكم ، ولا يغفل عن تحليل مزاجكم في كل وقت ويوم » ، وانتهى الكلام بالقبض على أربعة من أعضاء الديوان ، وهم الشيخ عبد الله الشراقوي ، والشيخ محمد المهدي ، والشيخ مصطفى الصاوي ، والشيخ سليمان الفيومي « فأصعدوهم إلى القلعة في الساعة الرابعة من الليل مكرمين وأجلسوهم بجامع سارية ونقلوا إلى مكانهم الشيخ السادات فاستمر وإياهم بالمسجد ، وكفوا الأربعة الباقين من أعضاء الديوان وهم الشيخ خليل البكري ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ الجبرتي مؤرخ ذلك العصر^(٢) ، أن يتولوا النظر في شؤون البلد ، وأن يجتمعوا بالجنرال بليار ولا

(١) اعتمدنا في هذا التاريخ على كتاب المسيو مارتان أحد مهندسي الحملة الفرنسية وعلى مذكرات نابليون وكتاب المسيو ريجو (الجنرال عبد الله منو والفترة الأخيرة من الحملة الفرنسية) (٢) أعضاء الديوان تسعة كما تقدم ص ١٨٤ ، اعتقل منهم أربعة ، وكلف أربعة بالقيام بالعمل ، ولم يرد بالجبرتي ذكر للعضو التاسع على الجملي ، ولعل السبب في ذلك أنه لم يكن بالقاهرة وقتئذ كما يستفاد من رواية الجبرتي نفسه فقد ذكر في حوادث سنة ١٢١٦ هـ أن السيد علي المذكور حضر إلى مصر صحبة أخته زوجة الجنرال منو وانتهى في أوائل محرم سنة ١٢١٦ ، فيفهم من ذلك أنه كان برشيد حينما اعتقل الفرنسيون الأعضاء الأربعة

ينقطعوا عنه ، وأبلغوهم أن المشايخ المعتقلين لا خوف عليهم ولا ضرر وأنهم معززون مكرمون ، وخصصوا لكل شيخ منهم خادماً يختلف إليه في أعماله وما يحتاج إليه من منزله ، وسمحوا لمن يريد زيارتهم من أصدقائهم بأن يزورهم في القلعة بتصریح كتابي من الجنرال بليار ، واعتقل الفرنسيون كذلك نحو خمسة عشر من أعيان القاهرة

ثم أفرجوا في ١١ ذى القعدة سنة ١٢١٥^(١) عن الشيخ سليمان الفيومي ، وأذنوا له بالاجتماع هو وأعضاء الديوان للنظر في شؤون البلد ، على أن حالة الاضطراب التي سادت المدينة قد جملت الديوان قليل العمل ، واشتد فزع الفرنسيين وخاصة بعد أن وردت أنباء معركة كانوب التي سيرد الكلام عنها فيما يلي ، واستمروا ينقلون أمتعتهم وذخائرهم إلى القلعة ، وانتقل المسيو فوربيه إلى القلعة أيضاً ولم ينزل منها ، وأرسل إلى الشيخ سليمان الفيومي بأن ينقل أمتعة الديوان إلى داره ، فنتقلها ولم يبق منها إلا الحصر ، وأخذ أعضاء الديوان يحضرون كعادتهم ، « فكانوا يفرشون سجاجيدهم ويجلسون عليها وقت الاجتماع ثم ينصرفون » ، وحل المسيو جيران محل المسيو فوربيه في وكالة الديوان ورأسه الإدارة القضائية

وقبضوا على الشيخ محمد الأمير أحد أعضاء الديوان في أوائل محرم سنة ١٢١٦ (أواخر مايو سنة ١٨٠١) واعتقلوه مع المشايخ بجامع سارية بحجة أن ابنه كان من المحرضين على ثورة القاهرة الثانية وأنه لما انتهت الثورة هاجر من المدينة إلى الوجه البحري ثم حضر إلى مصر فأقام بها أياماً ، ثم قصد إلى (فوه) بإذن من السلطة الفرنسية ، فلما تجدد القتال واشتد انزعاج الفرنسيين وآخذوا الناس بأدنى شهمة وتقرب إليهم المنافقون بالدعاية والتجسس ، وشي البعض للجنرال بليار ابن الشيخ الأمير وألقى في روعه أنه انضم إلى الجيش العثماني ، فاستدعى الجنرال بليار الشيخ الأمير وسأله عن ابنه فأجاب بأنه لم يزل في فوه ، فقال له الجنرال إنه لم يكن هناك بل هو عند القادمين (العثمانيين) ، فأنكر الشيخ ذلك وقال إن شئت أرسلت إليه بالحضور ، فأمله الجنرال بليار ثمانية أيام أي مسافة الذهاب إلى فوه والحيء منها في ذلك العصر ، ثم كرر عليه الطلب بلسان وكيل الديوان ، فوعده الشيخ بحضور ابنه أو حضور الجواب بعد يومين ، ولما انقضى اليماد ولم يحضر ابنه اعتقله الفرنسيون وحبسوه في القلعة

وقد أفرجوا في السادس عشر من محرم سنة ١٢١٦ عن الشيخ مصطفى الصاوي لمرضه

الفصل الثاني عشر

هزيمة الفرنسيين وجلاؤهم عن مصر

معركة كانوب - ٢١ مارس سنة ١٨٠١

رحل الجنرال (منو) عن القاهرة ومضى قاصداً الاسكندرية كما قدمنا ، فباغ الرحمانية ، وسار منها إلى دمنهور حيث لحق به القائدان رينييه Reynier ورامبون Rampon ، ثم واصل سيره فبلغ الاسكندرية يوم ١٩ مارس ، واستعد للمعركة التي نشبت بينه وبين الجيش الانجليزي ، وكان الانجليز في غضون ذلك قد أنزلوا كل ما بسفنههم من الذخائر والمدافع ، واستعدوا للقتال استعداداً عظيماً

اعتزم الجنرال (منو) أن يهاجم الجيش الانجليزي ، وخشى إذا هو تأخر عن الهجوم أن يباغته الانجليز ويضربوا الحصار على الإسكندرية فيصبح الفرنسيون محصورين بين أسوارها ويستهدفون للمجاعة إذا أحكم الانجليز حصارها براً وبحراً ، فضلاً عن أن الجيش الانجليزي يصبح حراً في التوغل في داخلية البلاد ، فرأى أن يناصر بمهاجمة الجيش الانجليزي على أمل أن يكون النصر حليفه كما انتصر نابليون على الأتراك في معركة أبو قير من قبل ، على أن الفرق كبير بين الموقفين ، فإن نابليون جمع في يولييه سنة ١٧٩٩ كل جنوده وهاجم بهم الجيش التركي قبل ان ينظم مصطفى باشا صفوفه ، وكان له من عبقريته وسرعته في القتال ما كفله له النصر في واقعة أبو قير ، لكن (منو) كان مجرداً من الكفاية الحربية ، فضلاً عن أنه ترك نصف الجيش تقريباً في القاهرة وأبطأ في التقدم بالنصف الآخر ، وترك للانجليز الوقت الكافي لتنظيم صفوفهم وتثبيت أقدامهم شرقي الإسكندرية ، وقد أدرك معظم القواد الفرنسيين خطأ منو في مغامراته المتأخرة ونصحوا إليه أن يترث في الأمر حتى يأخذ له عدته ، لكنه أصر على خطته ، فوقعت الواقعة يوم ٢١ مارس سنة ١٨٠١ ، وهي المعروفة بمعركة كانوب

إذا أردت أن تعرف ميدان هذه المعركة فتأمل في خريطة (بين الاسكندرية وأبو قير) ص ٦٩ والخريطة الملحقة بهذا الفصل ص ٢٠٥ ، تجد أن مواقع الانجليز في خط يمتد من البحر شرقي قصر القياصرة إلى ترعة الاسكندرية (المحمودية الآن) بالقرب من حجر

النوائية ، ومواقع الفرنسيين على بعد نحو أربعة آلاف متر تقريباً شرق باب رشيد في خط يمتد من البحر إلى ترعة الاسكندرية ، بالقرب من النقطة المعروفة الآن بمحطة (الزهة) ، وقد سميت المعركة واقعة (كانوب) لأنها وقعت على مقربة من باب من أبواب الاسكندرية القديمة يسمى باب كانوب (شرق باب رشيد) ينتهي إليه شارع من شوارعها القديمة كان يعرف بشارع كانوب ويعرف الآن بشارع باب رشيد أو باب شرق^(١)

في هذا الميدان نشبت المعركة ، وهي من أهم المعارك التي كانت لها نتائج حاسمة في سير القتال وتطور الموقف الحربى والسياسى فى مصر ، تولى قيادة الجيش الفرنسى فيها الجنرال (منو) ، والجيش الانجليزى الجنرال السير رالف ابركرومبى ، وكان موقف الانجليز من بدء القتال أرجح من مراكز الفرنسيين ، فقد امتاز الجيش البريطانى بتفوقه فى العدد إذ كان مؤلفاً من نحو ١٦٠٠٠ من المشاة ومائتين من الفرسان ، بينما كان الجيش الفرنسى لا يزيد عن ٨٣٥٠ من المشاة و ١٣٨٠ من الفرسان ، هذا فضلاً عن أن الجيش الانجليزى تحمى ميمنته من البحر بعض السفن المدفعية ، وميسرته بعض القوارب المسلحة فى بحيرة أبو قير ، فكان لهذه العارة البحرية أثر كبير فى سير القتال إذ كانت تصب قنابلها على الصفوف الفرنسية أثناء هجومها ، فالجيش الفرنسى كان إذن أقل من الانجليز عدداً وأضعف مركزاً ، ولو تولى قيادته قائد أكفأ من الجنرال (منو) لما تنيرت نتيجة القتال تغيراً جوهرياً ، اللهم إلا فى مبلغ الخسائر الفادحة التى نالت الفرنسيين ، فإن أوامر (منو) عرضت صفوفهم للخسائر الفادحة

بدأت القوات الفرنسية تتحرك من مواقعها الأولى شرق باب رشيد فى نحو الساعة الثالثة من صبيحة يوم المعركة ، فكانت اليمين بقيادة الجنرال (رينييه) ، واليسرة بقيادة الجنرال (لانوس) ، والقلب بقيادة الجنرال (رامبون) ، وابتدأ الهجوم بعد طلوع الفجر ، فأخذت كتيبة من الهجاة تهاجم بعض المواقع الانجليزية الأمامية لتخادعها عن خطة الهجوم التى رسمتها القيادة الفرنسية ، ثم تقدمت فرقة الجنرال (لانوس) ، وتبعها الفرق الأخرى ، ولم يكن الهجوم متناسقاً ، لضعف القيادة الفرنسية وارتباكها ، ففى خلال الهجمة الأولى تعرضت صفوف الفرنسيين ليران القنابل والرصاص ، وأصيب الجنرال (لانوس) بقنبلة جاءته من إحدى السفن المدفعية الانجليزية ، فكانت القاضية على حياته ، فوقع الارتباك فى صفوف جنوده ، وعبثاً حاول الجنرال رامبون أن يهجم بجنوده فردتهم نيران المدافع والبنادق ،

(١) يسمى اليوم شارع فؤاد الأول

وهجمت الكتابب الأخرى ولكن المدافع الإنجليزية كسرت هجمتهم ، وصار الفرنسيون مكشوفين أمام أعدائهم ، فحلت بهم الخسائر الفادحة ، وظل الجنرال (منو) يرقب هزائم جنوده جامداً لا يدرى كيف يأخذ في أمره ، إلى أن تراءى له أن يقذف بفرقة الفرسان التي يقودها الجنرال رواز Roize إلى المعمة ، وكانت هذه الحركة عقيمة ، فتردد الجنرال رواز في اتباع ما أمر به القائد العام وأفضى إليه بما ينطوى تحت هذا الهجوم الجنونى من الخطر المحقق ، ولكن منو ألح في التقدم ، فصدع الجنرال (رواز) بالأمر وهو عالم أن مصيره إلى الهلاك لا محالة ، ومما يؤثر عنه في هذا الصدد أنه خاطب جنوده بقوله : « أيها الرفاق ! إنهم يبعثون بنا إلى المجد ، وإلى الموت ، فالى الأمام ! » ، وهمم بجنوده هجوم اليأس المستميت ، واقتحم الفرسان الصفوف والاستحكامات الإنجليزية ، فأحيط بهم ، وأتاهم الموت من كل مكان ، وقتل الجنرال (رواز) ومعظم رجاله

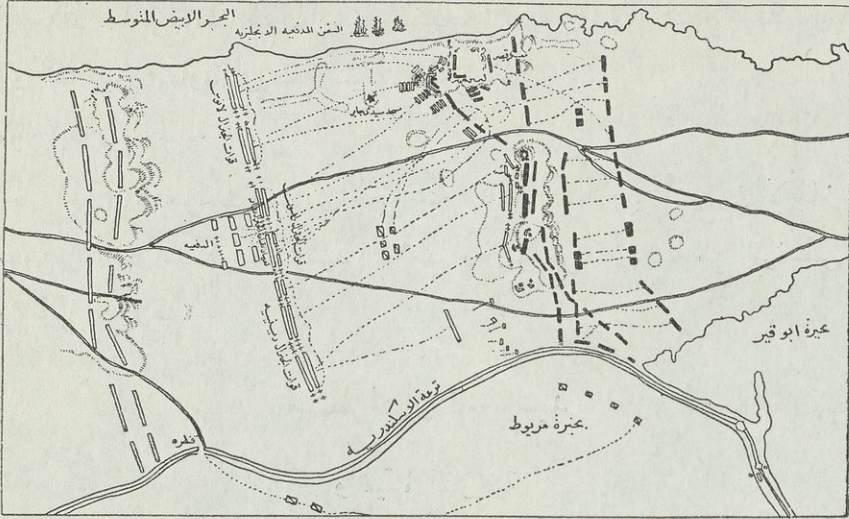
ولما رأى الجنرال منو أن لا سبيل إلى استمرار القتال أصدر أمره بالانسحاب إلى الإسكندرية ، فانتهت المعركة في نحو الساعة الحادية عشرة بعد أن خسر الجيش الفرنسى نحو ألف وخمسمائة من القتلى وألف من الجرحى ، وكان من القتلى نخبة من القواد والضباط مثل الجنرال (لانوس) والجنرال (رواز) والجنرال بودو Baudot

وبالرغم من انتصار الإنجليز فإن خسارتهم كانت فادحة ، فقد فقدوا نحو ١٥٠٠ قتيل منهم قائد الجيش نفسه الجنرال أبركرومبى ، وجرح بعض قوادهم ومنهم السر سدنى سميت الذى اشترك في القتال

وخلف الجنرال ابركرومبى في قيادة الجيش البريطانى الجنرال السر هتشينسون
Hutchinson

يسمى الإنجليز هذه المعركة (معركة الإسكندرية) ، ولها في تاريخهم الحربى منزلة ممتازة ، يدلك على ذلك أنهم أقاموا لها سنة ١٩٠١ نصبا تذكاريا لمناسبة مرور مائة عام على وقوعها ، فإذا ذهبت يوما إلى محطة سيدى جابر وأخذت طربق شارع (مصطفى باشا) متجها إلى البحر تجد في ملتقاه بشارع سيدى جابر ميديانا صغيرا مقاما بوسطه تمثال مصنوع من الرمرى وعلى جوانبه منقوش بالإنجليزية أنه أقيم تذكارا للجنرال السر رالف ابركرومبى ورفاقه الذين قتلوا في معركة الإسكندرية على مقربة من مكان التمثال ، فإذا جاوزت هذا التمثال تجد أمامك التكنات التى أنشأها الإنجليز بعد الاحتلال البريطانى الأخير ، والباقية إلى اليوم (سنة ١٩٢٩) وهى المعروفة بشكنات مصطفى باشا (فاضل) (١) ، ولعلمهم اتخذوا

هذه الجهة معسكرا لهم لأنها تذكرهم بانتصار حربي ناله أسلافهم ، كما اتخذوا جهة أبو قير معسكرا لهم (١) لأنها توحى إليهم ذكرى انتصار الأميرال نلسن في معركة أبو قير الشهيرة



خريطة معركة كانوب (٢١ مارس سنة ١٨٠١)

كان من نتائج معركة كانوب أن ارتد الجيش الفرنسي إلى أسوار الإسكندرية وانفتح الطريق أمام الجيش الإنجليزي للتوغل في البلاد ، على أنه بالرغم من تضعف الجيش الفرنسي وما حل به من الحسائر في معارك ٨ و ١٣ و ٢١ مارس فقد أحجم الانجليز عن الزحف ، وكان الجنرال هتشنسون شديد التردد ، كثير الوجل ، ففضى وقتنا طويلا قبل أن يبت رأيا في الهجوم ، ولم يكن الجنرال (منو) أقل منه تردداً ، وكانت الظواهر تدل على أن الانجليز لا يتجاوزون الشواطئ ولا يلبثون أن يعودوا إلى سفنهم ، والواقع انهم كانوا مترددين في التقدم إلى داخل البلاد ، وفكر بعض قوادهم في الانسحاب والرجوع إلى السفن ، لولا قدوم المدد على ظهر العمارة التركية التي جاءت إلى أبو قير يوم ٢٥ مارس سنة ١٨٠١ ، جاءت هذه العمارة يقودها حسين قبطان باشا تقل ستة آلاف جندي من خيرة الجنود الانكشارية ، فنزلوا إلى البر وانضموا إلى الجيش الإنجليزي ، فازداد بهم قوة ، وعزم على الزحف في داخل البلاد

احتلال رشيد

في خلال شهر ابريل اعترم الجنرال هتشنسون الزحف على رشيد بعد أن استطلع أخبارها

(١) جلوا عنه أيضا يوم ٤ مارس سنة ١٩٤٧

وتبين له ضعف حاميتها الفرنسية ، فقصده إليها الكولونيل سبنسر Spencer على رأس جيش مؤلف من خمسة آلاف مقاتل ، منهم أربعة آلاف من الأتراك ، تحرك هذا الجيش من أبو قير وسار حذاء الساحل قاصداً صوب رشيد ، فانسحبت منها الحامية الفرنسية واحتلها الحلفاء ، وأبدى الفرنسيون مقاومة في قلعة رشيد ، لكن الحلفاء غلبوا عليهم واحتلوا القلعة ، ثم تقدموا يريدون الرحمانية

قال الجبرتى في حوادث شهر ذى الحجة سنة ١٢١٥^(١) : « وفيه أشيع أن الانجليز ومن معهم من العثمانيين ملكوا ثغر رشيد وأبراجها وحاربوا من كان بها من الفرنسيين حتى أجلوهم عنها ودخلوها »

استطراد إلى قلعة رشيد

وأهميتها التاريخية

هي قلعة قديمة رممها الفرنسيون خلال الحملة وأطلقوا عليها اسم قلعة « جوليان » Jullien ، وهو قائد لواء قتل في أوائل عهد الحملة الفرنسية ، وتُعرف القلعة بهذا الاسم في كتبهم ، وهي واقعة بالبر الغربي لفرع رشيد ، في منتصف المسافة تقريبا بين رشيد والبوغاز ، وقد ورد ذكرها في رحلات الإفرنج قبل الحملة الفرنسية ، فوصفها المسيو سافارى Savary السائح الفرنسى خلال زيارته رشيد سنة ١٧٧٧ ، فقال إنها قلعة مربعة بها أربعة أبراج مركبة فيها المدافع وهي على بعد فرسخ شمالي رشيد على البر الغربي للنيل ، وذكر أن بالجهة المقابلة لها بالبر الشرقى قلعة أخرى ، وقال عن هاتين القلعتين إنهما كافيتان لمنع مرور السفن الحربية في النيل وإن طبيعة بوغاز رشيد تجعل دخول السفن الحربية محفوفا بالخطر^(٢) ، وذكرها المسيو سونيني Sonnini في رحلته سنة ١٧٧٧ ، وقال إن احدهما كانت في حالة تهديم ، ومدافعها لم تكن تصلح للضرب^(٣)

ويظهر لنا أن اهمال حكومة المهايك هو السبب في تهديم هاتين القلعتين ، فقد شاهدهما السائح الألماني فانسليب Vansleb في النصف الثاني من القرن السابع عشر سنة ١٦٧٢ ، أى قبل مشاهدة سافارى بمائة عام ، فقال عن القلعة القائمة بالبر الغربي إنها قلعة قديمة متينة البناء

(١) ابريل سنة ١٨٠١

(٢) كتاب (رسائل عن مصر) للمسيو سافارى

(٣) رحلة في الوجه البحرى ومصر العليا للمسيو سونينى

بها ٧٤ مدفعا منها سبعة مدافع ضخمة ، أما القلعة الأخرى القائمة بالبر الشرق فهي مسجد يحميه سبعة مدافع^(١)

وقد شاهد المسيو جالوا^(٢) Jallois في الأيام الأولى من الحملة الفرنسية قلعة رشيد القديمة وكانت في حالة تهدم وقال عنها :

« مررنا على بقايا القلعة القديمة التي كانت معدة لحراسة مصب النيل وهي التي رمت بعد ذلك وسميت قلعة جوليان ، وهذه القلعة هي التي هاجمها الإنجليز في ٩ ابريل سنة ١٨٠١ ودافعت عنها حاميتها الفرنسية دفاع الأبطال إلى أن سلمت في ٢٩ ابريل »^(٣)

وشهد المسيو فيفان دينون Vivant Denon هاتين القلعتين سنة ١٧٩٨ ، كما ذكر ذلك في كتابه^(٤) ، ورسمهما ، وقال إنه يقدر أن عهد بناءهما يرجع إلى ثلثائة سنة ، ووصفهما وقت أن شاهدهما فقال عن القلعة الغربية إنها حصن كبير مربع مقام على زواياها أربعة أبراج ضخمة ومركب بها مدافع طول الواحد منها ٢٥ قدماً ، أما القلعة الشرقية فقال عنها إنها مسجد (كما وصفها فانسليب سنة ١٦٧٢) وأمامه بطارية متخربة من المدافع

وقد جرتنا إلى هذا الاستطراد أن لقلعة رشيد (أو قلعة جوليان كما يسميها الفرنسيون) أهمية تاريخية كبيرة ، لأن في أنقاضها اكتشف المسيو بوشار Bouchard أحد ضباط الحملة الفرنسية أثناء الحفر والترميم بالقلعة في شهر أغسطس سنة ١٧٩٩ الحجر المشهور المسمى (حجر رشيد) ، وهذا الحجر كان مفتاح اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) ، فقد وجدت عليه كتابة باللغة الهيروغليفية وتحتها كتابة أخرى مصرية بالقلم المعروف بالعمى أو الديموتيكى ، وتحت هذه الكتابة ثالثة باليونانية ، فنقل هذا الحجر الأثرى إلى دار الجمع العلمى بالقاهرة أثناء الحملة الفرنسية ، ثم أخذه الجنرال هتشنسون قائد الجيش الانجليزى عند جلاء الفرنسيين ووضع في المتحف البريطانى بلندن ، ولا يزال به إلى اليوم ، وهذا الحجر هو الذى حل رموزه العلامة الفرنسى شامبوليون Champollion مكتشف تفسير اللغة المصرية القديمة سنة ١٨٢٢

(١) رحلة في مصر ، للرحالة فانسليب

(٢) من مهندسى الطرق والجسور في عهد الحملة الفرنسية

(٣) كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر

(٤) رحلة في الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بوناپارت الجزء الأول

قطع سد أبو قير وعزلة الإسكندرية

تراجع الجنرال (منو) كما قدمنا إلى الإسكندرية بعد هزيمته في معركة كانوب ، وأخذ يستمد للدفاع عنها ، على أن مركزه بات مزعزعا وخاصة بعد أن قطع الجنرال هتشنسون سد أبو قير ^(١) ليمزل الإسكندرية ويمنع ورود المياه العذبة إليها

كان سد أبو قير يفصل بحيرة أبو قير القديمة عن بحيرة مريوط ، وفوق هذا السد كانت تجرى ترعة الإسكندرية ^(٢) ، فلما قطع السد تلتفت الترعة وطفت مياه البحر التي كانت تغذى بحيرة أبو قير على بحيرة مريوط ^(٣) فغمرتها بالمياه ، وكانت بحيرة مريوط قبل هذا القطع قليلة المياه تكاد تكون جافة لعدم اتصالها بالبحر ، ولم تكن تصل إليها إلا مياه الأمطار في الشتاء ومياه النيل من ترعة الإسكندرية إذا زاد الفيضان ، فلما قطع السد أخذت مياه البحر تظنى على بطاح مريوط فغمرتها وخربت عدداً كبيراً من القرى والبلاد أحصاها المهندس جراتيان لوبير ^(٤) بثلاثين قرية ، وانقطعت مواصلات الإسكندرية بالداخل ولم يبق للفرنسيين طريق مسلوكة سوى طريق الصحراء الشاقة (صحراء مريوط) وأصبحت محاطة بالمياه شمالاً وجنوباً ، وقد أشار الجبرتي إلى قطع سد أبو قير وحصار الإسكندرية في موضعين ، الأول في حوادث ذى القعدة سنة ١٢١٥ فقال : « وأخبر المخبرون أن الانكليز أطلقوا حبوس المياه الملحة حتى أغرقت طرق الإسكندرية وصارت جميعها لجة ماء ولم يبق لهم طريق مسلوكة إلا من جهة المعجمي إلى البرية (الصحراء) وان الانكليز تترسوا قباهم من جهة الباب الغربي (غربي الإسكندرية) » ، وقال في حوادث محرم سنة ١٢١٦ : « ان الأخبار تواترت بأن العساكر الشرقية (الأتراك) وصلت أوائلها إلى بنها وطحلا بساحل النيل وأن طائفة من الانجليز رجعوا إلى جهة اسكندرية ، وأن الحرب قأم بها ، وأن الفرنسيات محصورون بداخل الإسكندرية ، والانكليز ومن معهم من العساكر يحاربون من خارج وهي في غاية المنعة والتحصين ، وأن الانكليز بعد قدومهم وطلوعهم إلى البر ومحاربتهم لهم المرات السابقة

(١) ابريل سنة ١٨٠١

(٢) انظر خريطة (بين الاسكندرية وأبو قير) ص ٦٩

(٣) كانت بحيرة أبو قير تتصل بالبحر بواسطة فتحة اسمها (المعدي) ومن هنا سماها الفرنسيون (بحيرة المعدي) وقد أمر محمد علي الكبير بسد هذه الفتحة وأقام جسراً عالياً لهذا الغرض لكي لا تطفئ مياه البحر على ترعة المحمودية وقد أخذت مياه البحر تنحسر عن البحيرة إلى أن صار معظمها الآن أراضي زراعية ، ويلاحظ أن فتحة بحيرة ادكو الموجودة إلى اليوم تسمى أيضاً (المعدي)

(٤) أجد مهندسى الحملة الفرنسية . كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر (٥)

أطلقوا الجبوس عن المياه السائلة من البحر المالح إلى الجسر. انقطع حتى سالت المياه وعمت الأراضي المحيطة بالإسكندرية وأغرقت أطيافاً كثيرة وبلاداً وزارع ، وأهمهم قعدوا في الأماكن التي يمكن الفرنسيين النفوذ منها بحيث أنهم قطعوا عليهم الطرق من كل ناحية »

معركة الرحمانية (٩ مايو سنة ١٨٠١)

والزحف على القاهرة

كانت الحامية الفرنسية في الرحمانية أضعف من أن تقاوم هجوم الجيش العثماني الإنجليزي القادم من رشيد ، ولم يكن في استطاعة الجنرال بليار أن يرسل إليها المدد من القاهرة لأن القوات التي تحت قيادته لم تكن في ذاتها كافية للدفاع عنها ، وقد أرسل الجنرال (منو) من الإسكندرية كتيبة من الجنود بقيادة الجنرال فالنتان Valentin لإمداد حامية الرحمانية ، لكنها لم تكن تكفي لنجدتها ، فأنفذ إليها فرقة من الجنود بقيادة الجنرال لاجرانج Lagrange رئيس أركان حربها ، وكان موقع الرحمانية على جانب عظيم من الأهمية لامتناع حاميها بالقلمة التي أنشأها الفرنسيون بها ولكونها صلة الاتصال بين جيش القاهرة وجيش الإسكندرية ، وإذا سقطت في يد الحلفاء انقطع الاتصال تماماً بين الجيشين ، لذلك اعترم الفرنسيون الدفاع عنها جهد المستطاع وتحصنوا فيها وفي (فوه) و (المطف)^(١)

بدأ الجنرال هتشنسون يتحرك من رشيد في أوائل مايو قاصداً الزحف على الرحمانية بعد أن كلف الماجور جنرال كوت Coot المرابطة بقوة كافية أمام الإسكندرية لمنع الجنرال منو من الخروج منها

بلغ عدد الجيش الفرنسي في الرحمانية والمطف وفوه بعد المدد الذي تلقاه من الإسكندرية نحو خمسة آلاف بقيادة الجنرال (لاجرانج) ، فهاجم الأتراك والإنجليز مواقعهم تعاونهم السفن المدفعية الإنجليزية التي دخلت النيل من بوغاز رشيد ، وكان الجنرال لاجرانج صواباً في المطف ، فأدرك حرج موقفه ، فأخلاها ، وانسحب إلى الرحمانية بقصد الامتناع فيها ، لكن قوات الجيش الزاحف والسفن الإنجليزية التي رافقت الجيش جعلت كل مقاومة غير مجدية ، فأخلى الجنرال لاجرانج الرحمانية ليلة ١٠ مايو بعد مقاومة ضعيفة واضطر أن يترك بها سفنه وما عليها من الذخائر والأقوات

احتل الإنجليز والأتراك الرحمانية وقلمتها واستولوا على السفن الفرنسية ، وكان احتمالهم

(١) انظر خريطة (بين رشيد وشبراخيت) ص ٥٢

لهذا الموقع بعد ثلاثة وستين يوماً من نزولهم إلى أبو قير ، ومن ذلك يتبين مقدار البطء الذي سارت به الحملة العثمانية الإنجليزية رغم ضعف القوات التي حاربتها وقد ذكر الجبرتي نبأ احتلال الرحمانية في حوادث شهر محرم سنة ١٢١٦^(١) قال : « وفيه حضر جملة من عساكر فرنساوية من جهة بحرى وتواترت الأخبار بوصول القادمين من الإنكليز والعثمانية إلى الرحمانية وتملكهم القلعة وما بالقرب منها من الحصون الكائنة بالمعطف وغيره ، وذلك يوم السبت خامس وعشرين الحجة »

تراجع الجنرال لاجرانج بمنوده إلى القاهرة ، وانقطعت المواصلات بين مصر والإسكندرية ، وساءت حالة الجيش الفرنسى في كليتهما ، واشتدت المجاعة في الإسكندرية لانقطاع مواصلاتها بالداخل ، ثم واصل الإنجليز والأتراك سيرهم على شاطئ النيل وساروا قاصدين القاهرة

انتقام منو من خصومه

وفي خلال ذلك كان الجنرال (منو) بالإسكندرية منهمكا في الانتقام من قواد جيشه الذين كان يضطغن عليهم من عهد قيادة كبير ، وفي مقدمة هؤلاء القواد الجنرال (رينيه) ، ففي ليلة ١٤ مايو حاصر منزله بقوة من الجنود وأصدر أمراً بفضه إلى فرنسا ، كما أمر بنفى الجنرال داماس Damas والقوميسير دور D'Aure والأدجودان جنرال بوييه Boyer ، فنقلوا على ظهر سفينتين نرحتا بهم عن مصر

رواية الجبرتي

ذكر الجبرتي خبر نفي الجنرال رينيه والجنرال داماس في كلامه عن معركة كانوب ، وهو وإن لم يذكر اسم المعركة إلا أن كلامه عنها والتاريخ الذي أورده فيها يدل على أنه يعنىها بروايته ، وإليك ما كتبه في هذا الصدد :

« وفي تاسع عشر ذى القعدة سنة ١٢١٥^(٢) سمع ونقل عن بعض الفرنسيين أنه وقع الحرب بين فرنساوية والإنجليز وكانت الهزيمة على فرنساوية ، وقتل بينهم مقتلة كبيرة ، وانحازوا إلى داخل الإسكندرية ووقع بينهم الاختلاف ، واتهم منو سارى عسكر رينه وداماص ورايه منهما مارابه وكان سبباً لهزيمته فيما يظن ويعتقد ، فقبض عليهما وعزلهما من إمارتهما ، وذلك أن رينه وداماص لما ذهبوا على الصورة المتقدمة ونظر رينه وأرسل من

(٢) مايو سنة ١٨٠١

(٢) ابريل سنة ١٨٠١

كشفت على متاريس الإنكليز فوجدها في غاية الوضع والإيقان ، فاجتمعوا للمشورة على عادتهم ، ودبروا بينهم أمر الحاربة فرأى سارى عسكر منو رأيه ، فلم يعجب رينه ذلك الرأى وقال إن فعلنا ذلك وقعت الغلبة علينا ، وإنما الرأى عندى كذا وكذا ، ووافق على ذلك داماص وكثير من عقلائهم ، فلم يرض بذلك منو ، وقال أنا سارى عسكر وقد رأيت رأى ، فلم يسمعهم مخالفته ، وفعلوا ما أمر به ، فوقعت عليهم الهزيمة وقتل منهم فى تلك الليلة خمسة عشر ألفاً^(١) ، وتنحى رينه وداماص ناحية ، ولم يدخلوا فى الحرب بعسكرهما^(٢) ، فاغتاظ منو ونسبهما للخيانة والخامرة عليه وتسفيههم لرأيه ، وأكده ذلك عنده أنهما لما حضرا إلى الإسكندرية أخذوا معهما أثقالهما وما كان لهما بمصر لعلهما عاقبة الأمر وسوء رأى كبيرهما ، فاشتد إنكاره عليهما ، وعزل عنهما العسكر وحبسهما ثم أطلقهما ، ونزلا إلى المراكب مع عدة من أكابرهم وسافرا إلى بلادها »

زحف الجيش العثمانى

معركة (الزوامل) - ١٦ مايو سنة ١٨٠١

أما الجيش العثمانى الذى قدم من سورية بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا وعدده نحو عشرين ألف مقاتل فقد تحرك من العريش خلال شهر ابريل وتابع سيره دون مقاومة ، وأخلى الفرنسيون قطية والصالحية وبلبيس بعد أن نسفوا قلاعها والمخازن التى كانت لهم بها ، وارتدت حامياتها إلى القاهرة ، ولما وصل الصدر الأعظم إلى بلبيس عزم الجنرال بليار على أن يهاجمه بجيشه قبل أن يتفرغ لصد الجيش الإنجليزى العثمانى القادم من رشيد ، وكان بليار يأمل أن يهزم الجيش التركى كما هزمه كليبر من قبل ، ولا سيما بعد أن زاد عدد جنوده بعودة جيش الجنرال لاجرانج إلى القاهرة

كان عدد الجنود الذين يقودهم بليار نحو عشرة آلاف مقاتل ، فترك بالقاهرة قوة من المشاة تحتل الجزيرة والقلاع المشرفة على المدينة ، وعهد بقيادتهم إلى الجنرال الميرا Almeyras ، وسار ببقية جيشه لملاقاة الصدر الأعظم ، فوصل يوم ١٦ مايو إلى الزوامل فى منتصف الطريق بين الخانكة وبلبيس^(٣) ، فاشتبك بطلائع الجيش العثمانى فيها ودارت معركة بدأت

(١) الصواب ألف وخمسمائة

(٢) الواقع أنهما قاتلا فى المعركة ، وكان رينيه قائد المينة وداماص من قوادها

(٣) انظر خريطة (بين القاهرة وبلبيس) ص ١٢٣

بانتصار الفرنسيين وانتهت بهزيمتهم وتراجعهم إلى القاهرة
وفي خلال ذلك استولى الأتراك على دمياط بعد أن انسحب منها الفرنسيون ، وأخلى
الفرنسيون كذلك قلعة عزبة البرج وقلعة البرلس ،

تخرج موقف الفرنسيين في القاهرة

موت مراد بك

امتنع الجيش الفرنسى فى القاهرة واتخذ فيها خطة الدفاع ، وفكر الجنرال بليار منذ
تجدد القتال فى لاستنجداد بحليف الفرنسيين مراد بك ، وطلب اليه العمل بشروط الاتفاق المبرم
بينه وبين كاثير ، فشرع مراد بك فى إمداد بليار وسار برجاله إلى مصر ، ولكنه لم يكديصل
إلى سوهاج حتى أصيب بالطاعون وأدركته الوفاة يوم رابع ذى الحجة سنة ١٢١٥ - ١٨
ابريل سنة ١٨٠١ (١) - ودفن بسوهاج عند الشيخ العارف ، وقد نعاه الجبرتي فى وفيات
سنة ١٢١٥ هجرية ، ومن أبلغ ما قاله فيه : « أنه كان من أعظم الأسباب فى خراب الإقليم
المصرى بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور ومساعدته لهم ، فلعل الهم
يزول بزواله »

وكانت وفاته ضربة كبيرة أصابت آمال الفرنسيين ، لأنهم فقدوا بموته حليفا قويا كان
يمكن أن يمدهم بما لديه من حول وقوة ، وحزنوا عليه حزنا شديدا ، واختار المماليك عثمان
بك الطنبورجى خلفا له واعتمده الفرنسيون خليفة لمراد بك وأميرا على الصعيد ، فأرسل هذا
إلى بليار يعرب له عن ولائه وولاء المماليك للفرنسيين ، لكنه بعد ذلك نقض الماهدة لما رأى
كفة الانجليز والأتراك راجحة واتصل بآبراهيم بك زميله القديم الذى جاء صحبة الصدر الاعظم

انتشار الوباء

وازداد مركز الفرنسيين حرجا باستئجال فتك الطاعون فى البلاد ، وخاصة فى القاهرة
والصعيد ، بدأ هذا الطاعون فى شهر يناير سنة ١٨٠١ واشتدت وطأته فى أوائل ابريل ،
فكان يموت به فى اليوم نحو مائة من الاهالى وعشرين من الفرنسيين ، ومات من هؤلاء فى

(١) يوجد خلاف بين الجبرتي والمراجع الفرنسية فى تاريخ وفاة مراد بك ، فالجبرتي يقول إن وفاته
كانت راع ذى الحجة سنة ١٢١٥ وهذا يوافق ١٨ ابريل سنة ١٨٠١ ، والمسيو ماجنان يقول إنه مات
فى ٢١ مارس ، ورواية الجبرتي أرجح

القاهرة نحو خمسمائة بالرغم من الجهود التي بذلها أطباء الجيش الفرنسي في مقاومته ، ولم يشهد الناس وباءً يحاكيه في شدة وطأته منذ وباء سنة ١٧٩١ المعروف بوباء اسماعيل بك ، ويقول الجبرتي انه كان يموت بالطاعون من الفرنسيين الذين بالقلمة ثلاثون أو أربعون كل يوم « وينزلون بهم من كرتيلة القلعة على الأخشاب فيدفنونهم جماعات في حفر عميقة خارج باب القرافة » ، ويقول المسيو جومار^(١) الذي شهد هذا الوباء ان فتكه كان ذريعا فقد مات به في شهر واحد عشرة آلاف شخص من سكان القاهرة^(٢)

ووصف الدكتور لارى Larrey كبير جراحي الحملة الفرنسية هذا الوباء في مشاهداته عن الأمراض في مصر فقال انه أودى بحياة مائة وخمسين ألف نسمة من المصريين في القاهرة والوجه القبلي^(٣) ، ولا نظن أن في هذا الإحصاء مبالغة وخاصة إذا رجعنا إلى ما ذكره الجبرتي عن استفحاله في الصعيد ، فقد أورد رسالة عنه للشيخ حسن العطار الذي كان نزيل أسيوط وقتئذ قال فيها ما خلاصته : « انه وقع في قطر الصعيد طاعون لم يمهده ولم نسمع بمثله وخصوصا ما وقع منه بأسيوط ، وقد انتشر هذا البلاء في جميع البلاد شرقا وغربا وشاهدنا منه العجائب في أطواره وأحواله وذلك انه أباد معظم أهل البلاد وكان أكثره في الرجال سيما الشبان والعظام ، وكل ذى منقبة وفضيلة ، وأغلقت الأسواق وعزت الأكفان وصار معظم الناس بين ميت ومشيع ومريض وعائد ، وكان مبدؤه من شعبان سنة ١٢١٥ وأخذ في الزيادة في شهر ذى القعدة والحجة فكان يموت كل يوم بأسيوط خاصة زيادة عن الستمائة »^(٤)

اجتماع بليار بأعضاء الديوان

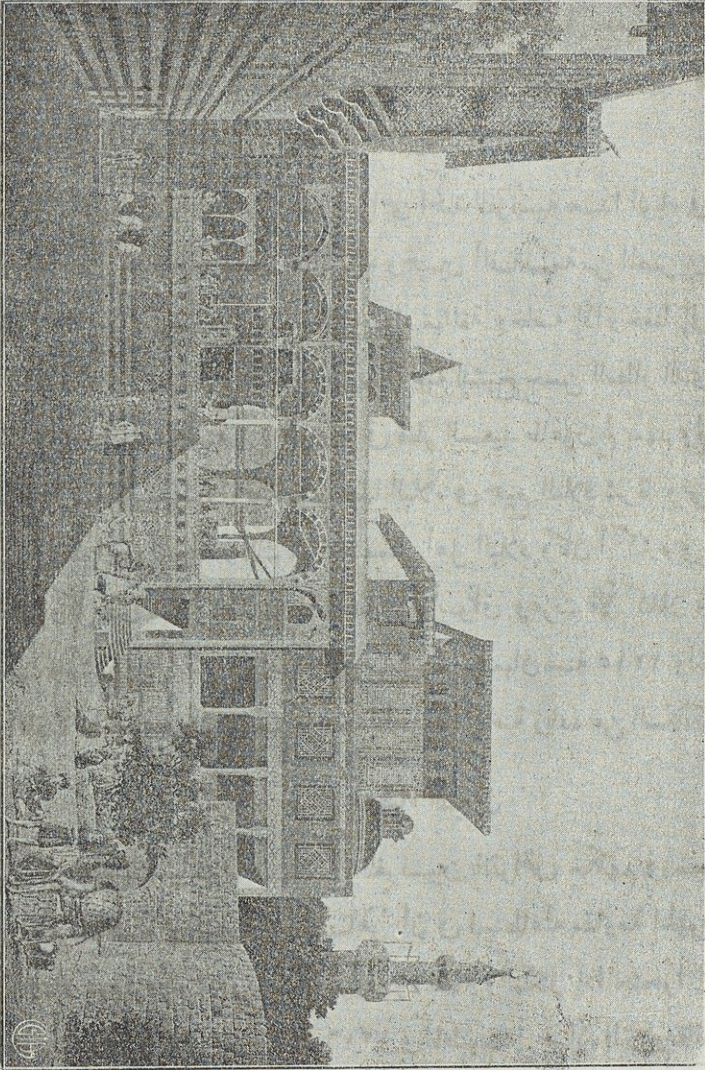
اجتمعت كل هذه الأسباب فكانت نذيرا للفرنسيين بانقراض حكمهم في مصر ، على أن الجنرال بليار أظهر الجلد أمام الشعب ، وتظاهر بأن في استطاعته مقاومة الجيوش الزاحفة على القاهرة ، وعاد يتهدد ويتوعد وينذر المصريين بالانتقام والنيكال إذا جنحوا إلى الثورة ، فاستدعى أعضاء الديوان في شهر محرم سنة ١٢١٦ وخاطبهم على لسان المترجم قائلا : « نخبركم أن الخصم قد قرب منا ، ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنسيانية ، وأن تفصحوا أهل البلد والزراعة بأن يكونوا مستميرين على سكنوتهم وهدوتهم ، ولا يتدخلوا

(١) أحد مهندسي الحملة الفرنسية انظر ترجمته بالجزء الأول ص ١٢٦ (من الطبعة الأولى)

(٢) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

(٣) كتاب تخطيط مصر الجزء الثالث عشر

(٤) الجبرتي الجزء الثالث



سرای عثمان بك الطنبورجي خليفة مراد بك (انظر ص ٢١٢)
وهي تتل قصور الممالك بالقاهرة في ذلك العصر

في الشر والشغب ، فان الرعية بمنزلة الولد ، وأتم بمنزلة الوالد ، والواجب على الوالد نصح ولده وتأديبه وتدريبه على الطريق المستقيم التي يكون فيها الخير والصلاح ، فأنهم ان داموا على الهدوء حصل لهم الخير ونحوها من كل شر ، وان حصل منهم خلاف ذلك نزلت عليهم النار وأحرقت دورهم ، ونهبت أموالهم ومتاعهم ، وبيمت أولادهم وسبيت نساؤهم ، وأزموا بالأموال والنرد (جمع فردة أى ضريبة) التي لا طاقة لهم بها ، فقد رأيت ما حصل في الوقائع السابقة ، فاحذروا من ذلك فانكم لا تدرون الماقبة ، ولا نكلفكم المساعدة لنا ولا المعاونة لحرب عدونا ، وانما نطلب السكون والهدوء لا غير » ، قال الجبرتي فأجابوه بالسمع والطاعة وقولهم « كذلك »

تقدم الحلفاء

اعتزم يوسف باشا بعد معركة الزوامل أن يتصل بجيش الجنرال هتشنسون ليزحف الجيشان مما على القاهرة ، فواصل الجيش الانجليزي تقدمه بالبر الغربي للنيل إلى أن بلغ امبابه ، بينما وصلت طلائع الجيش العثماني القادم من الشرق بقيادة يوسف باشا إلى منية الشيرج (١) بالبر الشرق للنيل ، والمرآك بينهما ، والتقى القائدان في معسكر الصدر الأعظم بالبر الشرق للنيل وكان يصحب الصدر الأعظم وزير الخارجية العثمانية و ابراهيم بك أمير المالك وطائفة من كبار موظفي الدولة ، وصحب الجنرال هتشنسون طائفة من ضباطه وحسين قبطان باشا ، وكانت المقاتلة في غاية الود ، وضع القائدان فيها الخطة المشتركة للزحف على القاهرة ثم واصل الحلفاء تقدمهم فتجاوز الجيش الانجليزي (امبابه) وبلغ الجيش العثماني (القبة)

قطع الانجليز المسافة بين ارحمانية وامبابه في أربعين يوماً ، وهي مدة طويلة ، ويرجع بعض المؤرخين هذا البطء إلى أن الجنرال هتشنسون كان ينتظر الجيش القادم من الهند بقيادة الجنرال بيرد Baird ، فان هذا الجيش تأخر عن الموعد المضروب له (٢)

(١) غربي الولاية الكبرى على نحو ربع ساعة منها بالقرب من شبرا واسمها كما في القريري (منية الأمراء) انظر خريطة (بين القاهرة وبليس) ص ١٢٣

(٢) لم يشترك هذا الجيش في القتال ، فقد حشدته إنجلترا في الهند وسافر من صفاق المنج في ديسمبر سنة ١٨٠٠ واخرق المحيط الهندي فالبحر الأحمر ونزل بالقصير ونق بها شهراً ينتظر تعليمات القائد العام للجيش الانجليزي الذي كان منهمكا في قتال الفرنسيين ، ثم غادر ساحل البحر الأحمر سالكا طريق وادي القصير فبلغ قنا ثم وصل إلى الجزيرة في شهر أغسطس سنة ١٨٠١ واستقر بها ثلاثة أسابيع وسار معظمه إلى رشيد بعد انتهاء الحرب وتسليم الجنرال منو ، فلم يخض غمار الحرب ، على أن الأمراض قد فتكت به كثيراً وخاصة الوباء الذي أصابه في قنا وفي طريقه منها إلى رشيد

ولما وصل الجنرال هتشنسون إلى الجيزة جاءت كتيبة من جيش الجنرال بيرد انفصلت عن الجيش ونزلت بالسويس وجاءت إلى القاهرة بقيادة اللفتنت كولونل لويد Lloyd وتلقى مدداً آخر جاء من شواطئ أبو قير فاحتشدت قوات الانجليز على الشاطئ الأيسر للنيل وقوات يوسف باشا على الشاطئ الأيمن وأقام الانجليز جسراً من المراكب بشبرا لانصال الجيشين ، فبلغت قواتهما في ذلك الحين نحو أربعين ألفاً من المقاتلة ولم يكن الجيش الفرنسي بالقاهرة يزيد عن عشرة آلاف مقاتل على الأكثر صالحين للقتال موزعين على خط طويل يمتد من الجيزة إلى حدود القاهرة شرقاً وشمالاً ومن مصر القديمة إلى بولاق

وغنى عن البيان أن مركز الجيش الفرنسي كان على جانب عظيم من الضعف إزاء قوات الحلفاء وتحفز سكان القاهرة للانتفاض عليه

المجلس الحربى الفرنسى

وقرار الجلاء عن مصر

أدرك الجنرال بليار ضعف مركزه فرأى أن يمقد مجلساً حربياً من قواد الجيش الفرنسى وكبار ضباطه كي يعرض عليهم الموقف الحربى ليقرروا ما يرونه ، اجتمع المجلس فى القلعة وعرض عليه بليار الحالة تنصيلاً ، فشرح موقف الجيشين المتحاربين وقوات كل منهما ، وتكلم عن فتك الوباء بالجنود الفرنسية وعن النتيجة المحتملة للمقاومة ، ونوه بعدد جنود الحلفاء وانضمام أهل القاهرة إليهم عند اشتداد القتال ، واحتفظ برأيه فيما يجب عمله ، على أن أقواله كانت تم عن ميله إلى التسليم وتجنب القتال ، وتكلم بعده الجنرال لاجرانج Lagrange رئيس أركان الحرب وهو من القواد الميالين إلى (منو) فقال إنه لا يصح الدخول فى مفاوضة مع الحلفاء قبل أن يأذن بذلك القائد العام لأن الاتفاق على تسليم خاص بجنود القاهرة هو تقرير لمبدأ الجلاء ، وهذا من اختصاص القائد العام ، ونصح بأن يكون التسليم بعد استنفاد كل وسائل المقاومة

ثم تكلم بعده الجنرال دنزلو Donzelot وكان قادماً من الوجه القبلى عارفاً بأساليب القتال فيه ، فأشار بانسحاب الجيش الفرنسى من القاهرة وامتناعه فى الصعيد واستمراره فى المقاومة هناك مستنداً على أن الوجه القبلى أصلح من الوجه البحرى لمقاومة الجيوش النظامية

وأن في استطاعة الجيش الفرنسي إرهاب الإنجليز وإنهك قواهم في الصعيد إلى أن يتسنى للحكومة الفرنسية التفكير في شأن مصر وإمداد الجيش الفرنسي بها ، وتكلم بعده بعض كبار الضباط وتمددت آراؤهم ، فعارض الكولونل دوباس Dupas قومندان قلعة القاهرة فكرة التسليم ، وقال باستمرار المقاومة في القاهرة ، وافق لاجرانج ودزلو ودوباس على المعارضة في فتح باب المفاوضات مع الإنجليز والأتراك ، واعترض آخرون على هذا الرأي قائلين أنه من العبث انتظار ورود أوامر من الجنرال (منو) لأن الحالة خطيرة تدعو إلى التعمجيل في اتخاذ قرار بشأنها لأن الانتظار ربما يؤدي إلى استفحال الضرر ووقوع الجيش الفرنسي في الأسر وهناك لا يمكن الاتفاق على شروط للتسليم ، وقالوا إن الانسحاب إلى الصعيد لا يؤدي إلى نتيجة ما لأن الإنجليز والأتراك يستطيعون بقواتهم مطاردة الجيش الفرنسي إلى الشلالات ، وبعد أن تمت المناقشة أخذت الآراء فكانت الأغلبية الكبرى مؤيدة للمفاوضة مع الإنجليز على قاعدة الجلاء ولم يشذ عن هذا الرأي سوى الجنرال لاجرانج وديرانتو Duranteau وقالنتان ودوباس

وبينما كان الجيش الإنجليزي التركي يتأهب للهجوم على مواقع الفرنسيين في القاهرة هجوماً عاماً جاء مندوب من قبل الجنرال بليار إلى المعسكر الإنجليزي يوم ٢٢ يونيو سنة ١٨٠١ يطلب وقف القتال وفتح باب المفاوضات على قاعدة الجلاء ، فقبل الجنرال هتشنسون والصدر الأعظم هذا الطلب بارتياح ، وفي اليوم التالي اجتمع مندوبو الفريقين في مكان أعد لهم ببر الجيزة ، فحضر البرجادييه جنرال هوب Hope عن الجنرال هتشنسون ، وعثمان بك عن الصدر الأعظم ، واسحق بك عن حسين قبطان باشا ، وعن الجنرال بليار كل من الجنرال موران Morand والجنرال دزلو Donzelot والكولونل تاريير Tarayre

توقيع اتفاقية الجلاء

٢٧ يونيو سنة ١٨٠١

استمرت المفاوضات أربعة أيام ، وانتهت بالاتفاق على جلاء الجيش الفرنسي عن مصر ، ووقع المندوبون على هذا الاتفاق ، وتتضمن شروطه أن تجلو الجنود الفرنسية البرية والبحرية التي تحت قيادة الجنرال بليار عن مدينة القاهرة وقلعها وقلاع بولاق والجيزة وعن كل جهة تحتلها من الأراضي المصرية ، وأن يكون جلاء الجنود بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم

بطريق فرع رشيد ومن رشيد وأبو قير يبجرون إلى فرنسا على نفقة الحلفاء ، وأن يتم الجلاء في أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد عن خمسين يوماً من يوم التصديق على الاتفاق ، وحدد للجلاء عن القاهرة وبولاق اثني عشر يوماً

وتعهد قواد الجيش الإنجليزي والتركي بتقديم المراكب اللازمة لنقل الجنود وأمتعة الجيش وأثقاله ، وأن ترافق الفرنسيين في انسحابهم كتائب من الجيش الإنجليزي والتركي لتقديم المؤونة اللازمة للجنود ، وتعهد الإنجليز والأتراك أيضاً بتقديم السفن اللازمة لنقلهم إلى ثغور فرنسا ، ونص الاتفاق (المادة ١١) على أن الملكيين من موظفي الإدارة وأعضاء لجنة العلوم والفنون تسرى عليهم أحكام الاتفاق ويتمتعون بالمزايا المخولة للمسكريين ، ويحق لهم أن يحملوا معهم الأوراق التي ترتبط بعملهم وأوراقهم الخاصة والأشياء الأخرى التي تخصهم ، ونصت المادة ١٢ على أنه يجوز لأي مصري أن يرافق الجيش الفرنسي في الجلاء دون أن تصادر أملاكه أو تضطهد عائلته وذوو قرباه ، ولا يجوز ايذاء أى مصري بما أظهره من الولاء للجيش الفرنسي مدة احتلاله للبلاد (مادة ١٣) ، ونصت المادة ٢٠ على أن هذا الاتفاق يبلغ إلى الجنرال (منو) بالاسكندرية يهيمه إليه أحد ضباط الجيش الفرنسي وله أن يقبله فيما يخص الجنود الذين معه بالاسكندرية وعليه أن يعلن بذلك قائد القوات البريطانية المرابطة أمام الإسكندرية ، وقد عملت أربع نسخ من هذا الاتفاق ، ووقع عليه المندوبون بتاريخ ٢٧ يونيو سنة ١٨٠١ ، وصدق عليه في اليوم التالي الجنرال هتشنسون القائد العام للجيش البريطاني ، والسكابتن ستفنسن بالنيابة عن اللورد كيث ، ويوسف باشا الصدر الأعظم ، والقبطان حسين باشا ، والجنرال بليار^(١)

والظاهر أن نابليون لم يقيم على بليار إبرامه تلك الاتفاقية بدليل أن الجنرال بليار نال رضاه بعد عودته إلى فرنسا وحارب تحت لوائه في حروب الإمبراطورية

والتأمل في نصوص الاتفاق يجد أنه لا يختلف في جوهره عن معاهدة العريش وهي المعاهدة التي رفضت الحكومة الإنجليزية تنفيذها ونقضتها ثم عادت إلى قبول اتفاق لا يختلف عنها بعد أن سفكت الدماء وضاعت الأرواح وخربت البلاد وعم البلاء

إطلاق سراح المعتقلين

علم الناس في القاهرة بنبأ الصلح فقابلوه بابتهاج عظيم وأفرج الفرنسيون عن الأسرى

(١) نشرنا نص الاتفاق في قسم الوثائق التاريخية ليرجع إليه القارىء إذا أراد زيادة البيان

العثمانيين ثم أطلقوا سراح المشايخ والأعيان المعتقلين في القلعة وبقي المحبوسين من الفلاحين والعرب ، واستمد الجنود الفرنسيون للجلاء ونقل مهماتهم من القلعة بوقاي قلاع المدينة ، ودعوا أعضاء الديوان للاجتماع لإبلاغهم نبأ الصلح فاجتمعوا يوم الثلاثاء ٣٠ يونيو سنة ١٨٠١ وحضر المسيو جيرار Girard قوميسير (وكيل) الديوان وأعلن وقوع الصلح وعودة السلم ووعد بأن يتلو عليهم في الجلسة المقبلة شروط الصلح ، وطبعوا منشورات بالعربية والفرنسية تتضمن نص الشرطين الثاني عشر والثالث عشر من شروط الصلح وألصقوها بالأسواق ليطلع عليها الجمهور

وفي يوم الجمعة ٢١ صفر انعقد الديوان وحضر المشايخ والمسيو جيرار ، فتلا المترجم شروط الصلح ، فقال الأعضاء هذه شروط عليها علامة القبول وهذا الصلح رحمة للجميع وسيكون الصلح العام ، فقال المسيو جيرار إنى أرجو أن يكون هذا الصلح انخاص مبدأ للصلح العام في أوروبا

آخر جلسة للديوان

ثم انعقد الديوان لآخر مرة يوم ٢٤ صفر سنة ١٢١٦^(١) فاجتمع المشايخ والتجار وبعض الوراقلية والمسيو استيف Esteve مدير الشئون المالية (ويسميه الجبرتي استيف الخازندار) والمسيو جيرار والترجمان روفائيل ، وكانت هذه جلسة الوداع ، فأظهر فيها الفرنسيون تلعفناً كبيراً مع الأعضاء ، وجاملمهم الأعضاء كذلك في جوابهم ، ومن غرائب المصادفات أن الجنرال منو كان يجهل توقيع الصلح وكان يظن وهو في الإسكندرية أن الحرب مستمرة ، فأرسل إلى الجنرال بليار رسالة مؤرخة ١٨ صفر برسم أعضاء الديوان وقد وردت هذه الرسالة قبل انعقاد آخر جلسة للديوان ، ومع أنها صارت لنفواً بعد التوقيع على الصلح فإن المسيو جيرار أمر المترجم بتلاوتها على مسامع الأعضاء ، وهي تتضمن الإعراب عن أحسن تمنيات منو لأعضاء الديوان ، وينبئهم فيها بأن جيوش الجمهورية الفرنسية قد انتصرت في أوروبا ، وعمما قريب ستتصرف في مصر ، وطلب إليهم الاعتماد على الوكيل جيرار وعلى المسيو استيف « المأمور بتدبير الأمور » ، وأوصاهم بزوجته السيدة زبيدة وولده سليمان مراد ، وأبدى أسفه لوفاة مراد بك وأطرى فضائله وعزى الست نفيسة خاتون زوجته ، وختم كتابه بدعونه إلى الله تعالى « أن ينعم عليكم وعلى عيالكم في الأيام بالشرى والاقبال » ، وأمضاه

« عبد الله جاك منو » ، ويقول الجبرتى إن الرسالة من تراكيب لوماكا الترجمان ، وقد تكلم المسيو جيرار بعد تلاوة الرسالة وأعرب عن تمنياته للبلد ، ثم أعقبه المسيو استيف مدير الشؤون المالية فتلا خطبة طويلة بالفرنسية وتلا الترجمان رونائيل عمر بيتها ، وهذه الرسالة هي آخر وثيقة رسمية تليت في الديوان دفاعاً عن الحكم الفرنسى فى مصر ، أعرب فيها المسيو « استيف » عن نيات نابليون الحسنة نحو البلاد وأهلها ، وان الفرنسيين يريدون الخير لمصر ، وأعرب عن أمله فى أن يذكر المصريون مدة حكمهم بالخير ، وأن يكون هذا الفراق إلى حين ، وان فرنسا لم تقصد من مجيئها إلى المديار المصرية إلا حب الخير لأهلها ، وأعرب عن أمله فى أن تدرك الدولة العثمانية التى استرسلت فى محالفتها لآنجلترا ان فرنسا لم تكن تقصد من الحملة الفرنسية إلا محاربة الانجليز وإحباط مساعيهم فى السيطرة على البحار واحتكار متاجر العالم ، ولما انتهى من تلاوة الرسالة قال الأعضاء : « إن الأمر لله ، والملك له ، وهو الذى يمكن منه من شاء » ، وكان ذلك ختام آخر جلسات الديوان

خلاصة تاريخ الديوان

طويت بهذه الجلسة صحيفة الديوان الذى أسسه الفرنسيون فى مصر ، ولهذا المناسبة نرى أن نذكر هنا خلاصة ما فصلناه عن تاريخ الديوان والأدوار التى تعاقبت عليه

الدور الأول — أنشأ نابليون أول ديوان بالقاهرة فى ٢٥ يوليه سنة ١٧٩٨ وجعله مؤلفاً من تسعة أعضاء وأمر كذلك بإنشاء ديوان فى كل مديرية ، ثم أسس (ديواناً عاماً) وهو هيئة تتألف من مندوبين يمثلون القاهرة وسائر مديريات القطر المصرى ، ولم يجتمع (الديوان العام) إلا مرة واحدة فى عهد الحملة الفرنسية ، وقد بسطنا الكلام عن هذه الدواوين ونظامها وتاريخها فى الفصل الثالث من الجزء الأول (ص ٩٥ وما بعدها من الطبعة الأولى)

الدور الثانى — ولما ثارت القاهرة ثورتها الأولى (أكتوبر سنة ١٧٩٨) أبطل نابليون ديوان القاهرة عقاباً لأهلها على ثورتهم ، ثم بدا له بعد إخماد الثورة أن يعيده على نظام جديد فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، فجعله من هيئتين (الديوان العمومى) وهو مؤلف من ستين عضواً^(١) يمثلون سكان القاهرة على اختلاف طبقاتهم ، و (الديوان الخصوصى) ويتألف

(١) تجد بالصحيفة ١٥ من هذا الجزء أسماء هؤلاء الأعضاء ، وإذا راجعت أسماءهم وعددهم فقد يلبس عليك الأمر إذ تجد أن عددهم ٦١ ، ولكن حقيقتهم ستون ، لأن اسم احمد المحروق تكرر ضمن تجار البن والهار ثم ضمن تجار البضائع التركية باسم السيد احمد العقاد المحروق ، وقد ورد هذا التكرار فى أصل البيان المنشور فى جريدة كوربيه دليجت ، جريدة الحملة الفرنسية ، لكنه اسم واحد لشخص واحد ، فعدة الأعضاء ستون

من أربعة عشر عضواً ينتخبهم أعضاء الديوان العمومي ، وقد بسطنا الكلام عن نظام الهيئتين في الفصل الأول من الجزء الثاني (ص ١٠ وما بعدها)

أما دواوين الأقاليم فقد بقي نظامها كما وضعه نابليون من قبل

وقد استمر هذا النظام في جملته متبهماً على عهد كليبر إلى أن أبرمت معاهدة العريش فأبطل الديوان ثم نقضت وتجددت الحرب واثرت القاهرة ثورتها الثانية (مارس — أبريل سنة ١٨٠٠) ، فلما أحمدها الجنرال كليبر استمر الديوان معطلا وظل كذلك بقية مدة كليبر الدور الثالث — ولما قتل كليبر وخلفه الجنرال (منو) أعاد الديوان على نظام جديد إذ جمعه هيئة واحدة مؤلفة من تسعة أعضاء ووسع في اختصاصه كما فصلنا ذلك في الصحيفة ١٨٤ وما بعدها

وهذا الديوان هو الذي استمر إلى حين جلاء الفرنسيين عن القاهرة

جلاء الفرنسيين عن القاهرة

أخلى الفرنسيون قلعة المقطم وباقي القلاع والحصون والمتاريس وانتقلوا إلى الروضة وقصر العيني والجيزة استعداداً لنزولهم في السفن التي أعدت لنقلهم بالنيل إلى رشيد تنفيذاً لشرط الصلح ، ودخلت الجنود العثمانية المدينة

وفي ١٤ يولييه سنة ١٨٠١ (٤ ربيع الأول سنة ١٢١٦) أخذوا قصر العيني والروضة والجيزة وأقلعت بهم المراكب وعددها ثلثمائة مركب إلى رشيد ، وبذلك تم جلاؤهم عن القاهرة وضواحيها ، وأخذوا معهم رفات الجنرال كليبر ، وساروا من رشيد إلى أبو قير ومن هناك أبحرت بهم السفن في أوائل شهر أغسطس سنة ١٨٠١^(١) إلى فرنسا وجلوا نهائياً عن الديار المصرية

وكان عددهم يوم جلاؤهم نحو ١٣ر٠٠٠ رجل ، منهم ٩ر٠٠٠ مقاتل صالحون للقتال والباقيون من الجنود المرضى والرجال الملكيين ، وبذلك تم جلاء أكثر من نصف الجيش الفرنسي الذي كان يحتل مصر وبقي النصف الآخر في الإسكندرية

ويقول نابليون في مذكراته إنه لما خرج الفرنسيون من القاهرة عجب الانجليز من كثرة عددهم وعتادهم واستعظموا الفوز الذي نالوه من غير قتال

(١) أول ٢ و ٦ و ٩ و ١١ أغسطس سنة ١٨٠١

موقف (منو) في الإسكندرية

تم جلاء الفرنسيين عن القاهرة وآلت السلطة الفعلية فيها إلى قواد الجيش التركي والآنجليزى ، وبقى فيها الجنرال هتشنسون عدة أيام يشرف على نظام الحكم الجديد ، ثم اعتزم العودة إلى الإسكندرية لمحاربة الجيش الفرنسى بها

كانت الإسكندرية فى حالة حصار من يوم انكسار الفرنسيين فى معركة كانوب ، وخاصة من حين قطع سد بحيرة أبو قير ، وقد ترك الجنرال هتشنسون قبل زحفه على القاهرة قوة من الجنود بقيادة المايجور جنرال كوت Coot لتشديد الحصار على الإسكندرية ، فساءت حالتها لقلة الزاد ونفاد المؤونة وغلاء الأسعار ، واستهدف الأهالى والجيش الفرنسى للمجاعة

وفى خلال ذلك وصلت البارجة الفرنسية « هليوبوليس » من نوع الفرقاطة إلى ثغر الإسكندرية يوم ٩ يونيه سنة ١٨٠١ ، فتجدد الأمل فى نفوس الفرنسيين بقرب وصول المدد من فرنسا ، وظنوا أن البارجة القادمة هى طليعة الأسطول الفرنسى المنتظر ، والواقع ان نابليون بعد إخفاق الأيميرال جانتوم فى الوصول بأسطوله إلى المياہ المصرية ورجوعه إلى طولون لام جانتوم على تقصيره فى أداء مهمته ولكنه استثناف السفر لإمداد جيش فرنسا فى مصر ، فأقنع بأسطوله للمرة الثالثة من طولون^(١) وكانت التعليمات الصادرة إليه تقتضى أن يصل بالمدد إلى مصر وفى حالة مطاردة الأسطول الانجليزى يرسو فى جهة من شواطئ أفريقية ليسير برأ إلى مصر ، وكان هذا المدد مؤلفاً من أربعة آلاف مقاتل مزودين بالذخائر والمهمات ، فلما اقترب جانتوم من مياہ الإسكندرية خشى الاصطدام بالبوراج الانجليزية ، فعاد أدراجه محاذياً شواطئ أفريقية ، وانفصلت عنه البارجة هليوبوليس فوصلت سليمة إلى ميناء الإسكندرية^(٢) وواصل جانتوم سيره إلى أن رسا بينى غازى^(٣) وأراد أن ينزل الجنود إلى البر ، ولكن الأهالى حينما شعروا بهذه الحركة تسلحوا جميعاً واستعدوا لقتال الفرنسيين عند نزولهم إلى الشاطئ ، فخشى الأيميرال جانتوم عاقبة هذه المغامرة ورأى السلامة فى ارتداده ثانية إلى طولون

(١) يوم ٢٥ ابريل سنة ١٨٠١

(٢) يوم ٩ يونيه سنة ١٨٠١

(٣) بطرابلس الغرب

نهت هذه المحاولة أذهان الإنجليز إلى تشديد المراقبة على شواطئ مصر ، فشدوا الحصار البحري على ثغر الإسكندرية ، فانقطع كل أمل للفرنسيين في وصول المدد إليهم ، ولم يكن عدد جيشهم بها يزيد عن سبعة آلاف مقاتل يقودهم الجنرال (منو) ويعاونه في القيادة الجنرالات فريان ، ورامبون ، وسونجي Songis ودستاج ، وزايونشك ، والجنرال سانسون قائد فرقة الهندسة ، وكان الجيش الإنجليزي العثماني المحاصر للإسكندرية يزداد عدداً بما كان يتلقاه من المدد وخاصة بعد انتهاء الحرب في القاهرة ، ومع ذلك أصر الجنرال (منو) على عناده ، ولما بلغه تسليم الجنرال بليار نار غضبه وأذاع منشوراً بين الجنود حمل فيه حملة شعواء على الجنرال بليار واعتبر تسليمه تفریطاً في الشرف الحربى ، وأرسل إلى نابليون تقريراً يلقي على بليار تبعة الجلاء عن القاهرة ، على أنه لم يمض خمسون يوماً على تسليم القاهرة حتى أذعن الجنرال منو للتسليم بشروط أسوأ من الشروط التي قبلها الجنرال بليار

وبيان ذلك أنه بعد أن تم جلاء الجنود الفرنسية عن القاهرة وأقلعت بهم السفن من أبو قير حشد الجنرال هتشنسون قواته حول الإسكندرية واستأنف قتال الفرنسيين المرابطين بها ، وشدد عليهم الحصار براً وبحراً ، واحتل جنود الجنرال كوت Coot ساحل المعجمى (غربى الإسكندرية) ، واستولوا على قلعة المعجمى^(١) ليلة ٢٢ أغسطس سنة ١٨٠١ ، ودخلت السفن الإنجليزية الميناء الغربية ، فصارت المدينة في حصار محكم ، وتقدم الجنرال كوت فاحتل طابية القمرية (غربى القبارى) بعد قتال شديد

أشار الجبرتى إلى هذه الوقائع بقوله : « وفي يوم الأحد ٢٠ ربيع الثانى سنة ١٢١٦ (يوافق ٣٠ أغسطس سنة ١٨٠١) وردت أخبار من اسكندرية بتملك العساكر الإسلامية والانجليزية متاريس فرنساوية وأخذهم المتاريس التي جهة المعجمى وباب رشيد وجانباً من اسكندرية القديمة ، وتحطت المراكب وعبرت إلى الميناء وأن فرنساوية انحصروا داخل الأبراج وأخذ منهم نحو المائة وسبعين أسيراً وقتل منهم عدة وافرة ووقعت بين الفريقين مقلة عظيمة لم يقع نظيرها ، وقتل الكثير من عساكر قبطان باشا وكذلك من الإنجليز ، ثم انجحت الحرب عما ذكر فلما ورد الخبر بذلك ضربوا عدة مدافع وسر الناس بذلك »

اشتد الضيق بالحامية الفرنسية وفتكت بها الأمراض ونفدت الأقوات حتى اضطروا أن يأكلوا لحوم الخيل المهزيلة ، ولم يبق من الحامية من يصلح للقتال أكثر من سبعة آلاف مقاتل يحاربون وهم على تمام الاعتماد بأنها حرب عقيم لا تؤدى إلى نتيجة ، وأدرك القواد

(١) بجزيرة المعجمى . انظر الجزء الأول ص ١٦٥ و ٢٤٣ من الطبعة الأولى

الذين تحت إمرة (منو) أن إطالة القتال ليس فيها إلا سفك الدماء فانفقوا على مفاتحته في وقف القتال ، فقبله الجنرال رامبون يوم ٢٥ أغسطس سنة ١٨٠١ وشرح له خطر الموقف وعقم الاستمرار في المقاومة وضرورة الجلاء عن الإسكندرية ، وعلم منو أن هذا هو رأى قواد الجيش ، فالت نفسه إلى المناوضة ، ووقعت حادثة كان لها تأثير كبير في نفس منو جعلته ينجح إلى كف القتال ، ذلك أن زوجته المصرية وابنها وحاشيتها كانوا في القاهرة حينما جلا الفرنسيون عنها ، فطلبت من السلطات الإنجليزية السماح لها باللاحاق بزوجها الجنرال في الإسكندرية ، فسهل لها الجنرال هتشنسون الوصول إلى الثغر ووصلت سالمة هي وحاشيتها ، فكان لهذا العمل الإنساني أثر كبير في نفس منو

المفاوضة في الجلاء

وأخيراً أرسل منو اثنين من ياورانه يوم ٢٦ أغسطس الساعة الرابعة بعد الظهر إلى الجنرال هتشنسون والجنرال كوت يطلب وقف القتال ثلاثة أيام ريثما يعد طلب التسليم ، فأجابه الجنرال هتشنسون إلى هذا الطلب ، وفي خلال هذه المدة دعا الجنرال منو قواد الجيش الفرنسي إلى الاجتماع في مجلس حربي على مثال المجلس الذي عقده الجنرال بليار في القاهرة قبل التسليم ليقرر قراراً حاسماً في الحالة ، فاجتمع المجلس الحربي بوكالة فرنسا بالاسكندرية يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٠١ برئاسة الجنرال منو وعضوية القواد فريان Friant ورامبون Rampon ، وسونجي Sonson ، وداستنج Destaing ، وزايونشك Zayonchek ، وفوجيير Fugiere ، وسانسون Sausson ، وفولترييه Faultrier ، وبوسار Bousart ، ودلجورج Delegorgue ، وانيفر Lefebvre ، ودارمنيك Darmagnac ، وهبلر Hepler ، ومدير مهمات الجيش سارتلون ، ومدير مهمات البحرية لروا Le Roy ، وقومندان الميناء ريشيه Recher ، فداول المجلس في الموقف واستقر رأيه على أن الحالة لا تسمح باستمرار الدفاع عن الاسكندرية لأن نسبة الحامية إلى القوات التي تحاصرها كنسبة واحد إلى عشرة ولأن الحلفاء يحاصرون المدينة براً وبحراً ولهم في البحر أربعون بارجة مخصصة للحصار فضلاً عن أن الأمراض قد فتكت بالحامية ونفدت الأقوات من المدينة واقطع ورود المياه العذبة إليها ، وعلى ذلك قرر المجلس تكليف الجنرال منو بمفاوضة قواد جيوش الحلفاء على قاعدة جلاء الجيش الفرنسي عن الاسكندرية على أن تكون الشروط « مشرفة لرجال الجيش والملحقين به »

وترك المجلس للجنرالات رامبون وفريان وسونجي وسانسون ودلجورج وضع شروط

الجللاء على أن تعرض على المجلس ، فلما عرضت اختلف القواد فيما بينهم وظهر الجنرال منو بمظهر المتردد ، وانتهى ميعاد الثلاثة الأيام المضروبة لتقديم طلب الجللاء ، فتهدد الجنرال هتشنسون باستئناف الهجوم على المدينة ، وأخيراً قبل مدّ الهدنة إلى صباح ٣٠ أغسطس ، وفي الموعد المحدد أرسل الجنرال منو شروط التسليم التي يرتضيها إلى الجنرال هتشنسون ، فأجاب هذا عليها بإرسال الشروط التي يفرضها الجيشان الانجليزي والتركي للجللاء

اتفاقية الجللاء

٣١ أغسطس سنة ١٨٠١

تم الاتفاق على شروط الجللاء يوم ٣١ أغسطس سنة ١٨٠١ ووقع عليها كل من اللورد كيث والجنرال هتشنسون وحسين قبطان باشا والجنرال منو وتقتضى هذه الشروط أن يتم جلاء الجنود الفرنسية عن المدينة وقلاعها وملحقاتها في عشرة أيام من يوم التوقيع على الاتفاق ، وأن يسلم الفرنسيون السفن التي لهم ، وأن تنقل الجنود الفرنسية على سفن الحلفاء ومعهم أسلحتهم وأمتعتهم وعشرة مدافع من مدافعهم ويسلموا باقي مدافعهم وذخيرتهم ثم تقلهم السفن إلى أحد الثغور الفرنسية بالبحر الأبيض المتوسط ، وأن يسلم أعضاء المجمع العلمي ولجنة العلوم والفنون جميع الآتار والمجاميع والخرط والرسوم والمخطوطات التي جموها في مصر إلى قواد الحلفاء

رواية الجبرتي

قال الجبرتي في حوادث ٢١ ربيع الثاني سنة ١٢١٦^(١) : « وفيه ورد خبر من اسكندرية بانقضاء الحرب وطلب الفرنسيين الصلح بعد وقوع الغلبة عليهم وهزيمتهم وأخذ منهم عدة أسرى وانحصروا في الأبراج فأمنوهم وأجلوهم خمسة أيام آخرها يوم الخميس سابع عشر ينة »

وقال في موضع آخر : « وفي غايته (ربيع الثاني) عمل سفك ومدافع كثيرة وذلك لوصول خبر بتسليم الاسكندرية »

جلاء الفرنسيين عن الإسكندرية

بدأ الفرنسيون يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٠١ يسلمون قلاع المدينة واستحكاتاتها ومدافعها

والسفن الحربية التي كانت لهم في الثغر ، ولما جاء دور تسليم مقتنيات أعضاء المجمع العلمي و لجنة العلوم والفنون احتج أولئك الأعضاء على حرمانهم ثمرة أبحاثهم وجهودهم واكتشافاتهم ، وأوفدوا ثلاثة منهم وهم جوفروا سان هيلير Geoffroy Saint Hilaire ، وسافيني Savigny ، ودليل Delille لمقابلة الجنرال هتشنسون لإقناعه بالعدول عن هذا الشرط ، فرفض طلبهم ، فأجمعوا رأياً على الامتناع عن تسليم تلك الكنوز العلمية ، وأندروا القائد الإنجليزي بإحراقها بدلاً من التفريط فيها وتسليمها ، وأبلغوه أنهم يلقون على عاتقه تبعة حرمان العلم من هذه الفنائس في حالة إصراره على طلبه ، فهت القائد الإنجليزي أمام هذا التهديد ، وقبل مكرها أن يتنازل عن نفاذ هذا الشرط وترك لهم مقتنياتهم ، بيد أنه منعهم من أخذ العاديات التي أرادوا تهريبها معهم ، وحجزها بحجة أنها ملك مصر ، لكن مصر حرمت منها ونقلها الإنجليز إلى بلادهم وزانوا بها متاحفهم ، ومن هذه الآثار (حجر رشيد) المشهور الموجود إلى اليوم (سنة ١٩٤٧) في المتحف البريطاني بلندن

وفي خلال الوقائع الحربية التي انتهت بها الحملة الفرنسية كانت المفاوضات بين فرنسا وإنجلترا دائرة حول عقد الصلح بينهما لإقرار السلم في القارة الأوروبية وانتهت هذه المفاوضات بتوقيع مقدمات الصلح المعروفة بمقدمات لندن (أول أكتوبر سنة ١٨٠١) ، وهذه المقدمات تتضمن التواعد الأساسية التي بنيت عليها فيما بعد معاهدة الصلح المعروفة بماهدة أميان Amiens (٢٧ مارس سنة ١٨٠٢) التي أبرمت بين إنجلترا وفرنسا وحليفاتها هولندا وإسبانيا

جرت هذه المفاوضات والحرب قائمة في مصر بين الجيش الفرنسي والجيشين التركي والإنجليزي ، وكان نابليون يعلم أن لا أمل له في إنجاز جيش الجنرال (منو) ، فرضى أن يكون أساس الصلح بالنسبة لمصر جلاء الإنجليز والفرنسيين معاً ، فكان هذا الشرط أهم الشروط التي احتوتها (مقدمات لندن) ، أما الشروط الأخرى فخلاصتها أن تعيد إنجلترا إلى فرنسا وحليفاتها هولندا وإسبانيا الأملاك التي استولت عليها القوات البريطانية في البحار ما عدا جزيرة (سيلان) بالهند وجزيرة (ترينتيه)^(١) فقد استبقتهما إنجلترا ورضيت بالجلاء عن الأملاك الأخرى وخاصة جزيرة مالطه

ومن مصادفات القدر أنه لم تكد تنقضى ثمانى ساعات على إبرام (مقدمات الصلح) حتى

(١) من جزر الانتيل بأمريكا وكانت تابعة لإسبانيا

ورد البريد إلى لندن يحمل نبأ تسليم الجزائر (منو) وتوقيمه شروط الجلاء عن مصر
أخذت السفن المقلّة للجنود الفرنسيين تقلع من الإسكندرية في خلال شهر سبتمبر
سنة ١٨٠١^(١) قاصدة إلى فرنسا، وكان عددهم يوم رحيلهم ٧٢٠٠ من الجنود و ١٥٠٠ من
البحارة و ١٤٠٠ من المرضى و ٦٨٠ من الملسكين، وكان آخر من أبحر منهم الجزائر (منو)
الذي أصيب بالطاعون في أواخر أيامه، فغادر ثغر الإسكندرية يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠١^(٢)
وبجلاء الفرنسيين عن الإسكندرية طويت صحيفة الاحتلال الفرنسي في مصر.

(١) يقول السيو مالوس في يومياته إن جلاء الفرنسيين عن الإسكندرية وقع بين ١٤ و ٣٠ سبتمبر

سنة ١٨٠١

(٢) لم يتقم نابليون على الجزائر (منو) أخطأه في مصر بل أعلن رضاه عنه لتمتعه إياه وأنعم عليه
في عهد الامبراطورية بلقب (كونت) وعينه حاكماً للبيصوت في إيطاليا ثم للبندقية حيث مات بها سنة ١٨١٠

الفصل الثالث عشر

نتائج ظهور العامل القومي على مسرح الحوادث السياسية

ألمعنا في مقدمة الكتاب إلى أن بدء الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث يرجع إلى أواخر القرن الثامن عشر ، وأن أول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر ، وقلنا في بيان هذه الحقيقة : « بدأ العامل القومي يظهر على مسرح الحوادث السياسية خلال الحملة الفرنسية ، ذلك حين نهضت الأمة لمقاومة الاحتلال الفرنسي بكل ما أوتيت من حول وقوة ، وجادت بكل تضحية ، واحتملت ضروب العنت وصنوف الأذى لتتخلص من احتلال الفرنسيين ، وظل المامل القومي محتفظاً بقوته بعد جلاء الجيش الفرنسي ، فلم يستطع الترك ، ولا الهاليك ، ولا الانجليز ، أن يهزموه ، أو يقهروه ، أو ييمدوه عن الميدان ، وكان من نتائجه بعد انتهاء الحملة الفرنسية ثورة الشعب على حكم الهاليك ثم على الوالي التركي ، ثم المناداة بمحمد علي والياً مختاراً على مصر ، ثم إخفاق الحملة البريطانية التي جردتها المجترة لتحقيق أطماعها في وادي النيل ، وهزيمتها في رشيد والحماة » (١)

ولقد فصلنا في الجزء الأول والفصول التي مرت بك من الجزء الثاني مبلغ مقاومة الأمة للاحتلال الفرنسي ومدى الحركات الشعبية التي حدثت في خلال تلك السنوات ، فانهينا من ذكر النتائج الأولى لظهور العامل القومي ، والآن فلنتكلم عن النتائج التي أعقبت جلاء الفرنسيين ، وتمهيداً لهذا البيان يجدر بنا أن نوضح الحالة السياسية في مصر بعد انتهاء الحملة الفرنسية

(١) الجزء الأول (ص ٥ من الطبعة الأولى و ٧ من الطبعة الثالثة) ، و (الحماة) واقعة بالبر الغربي للنيل جنوبي رشيد ، وتجدد موقعها بالخرطة المنشورة ص ٥٢ من الجزء الثاني

الحالة السياسية في مصر

بعد جلاء الفرنسيين

جلا الفرنسيون عن مصر بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين ، فتنازع السلطة في البلاد ثلاث قوات مختلفة الصالح متباينة الأغراض ، أتحدت وقتا ما على محاربة الفرنسيين ، ولما تم لها النصر عليهم بدأت كل قوة تعمل على تحقيق أطماعها الخاصة في وادي النيل هذه القوات الثلاث هي : الأتراك ، والابجلاز ، والمهايك

الأتراك

تطلعت تركيا إلى بسط حكمها الطاق في مصر بحجة أنها فتحها بحد السيف ، وأرادت أن تحمل منها ولاية أو عدة ولايات تحكها كما كانت تحكم ولايات السلطنة العثمانية بولاتها الذين لم تر البلاد منهم منذ عهد الفتح العثماني سوى الظلم والفساد وسوء الإدارة أرادت تركيا أن تستخلص مصر لنفسها ، لذلك استقر عزمها على محاربة المهايك والقضاء عليهم حتى لا يذاعوها سلطة الحكم في البلاد ، فكانت تملأها للصدر الأعظم يوسف باشا ضيا تفضى بإبادة بقية المهايك كيلا تقوم لهم قائمة ، أو إبعادهم عن مصر وإسكانهم في ولاية أخرى من ولايات السلطنة العثمانية

كانت القوات العثمانية في مصر مؤلفة من جيشين ، الجيش الأول وعدده نحو ٢٥ إلى ٣٠ ألف مقاتل بقيادة الصدر الأعظم ، ويتألف من الانكشارية وحرس الوزير والجنود الذين جسدتم في سورية ، والمسكر العام لهذا الجيش في القاهرة ، وجنوده تحتل المصممة ومعظم بنادر مصر الوسطى والصعيد كبنى سويف والمنيا وأسيوط أما الجيش الثاني فكان مرابطاً شمالى الدلتا بقيادة حسين قبطان باشا قومندان العمارة العثمانية التي كانت راسية في خليج أبو قير ، وعدد هذا الجيش نحو ستة آلاف مقاتل معظمهم من الأرنؤود والانكشارية يحتلون المواقع القريبة من مرسى العمارة

الابجلاز

كانت ابجلازرا تطمع في أن تبسط نفوذها في وادي النيل وتحتل بعض المواقع المهمة على شواطئه في البحر الأبيض والبحر الأحمر لتضمن لنفسها السيادة في البحار وترقب طريقها إلى الهند كما سبق لنا بيان ذلك (ص ١٩٠) ، وكان الجيش الابجلازى في مصر مؤلفا من ستة

عشر ألف مقاتل بقيادة الجنرال هتشنسون يحتلون الإسكندرية ورشيد ودمهور وياحق به الجيش الذي قدم من المنسد بقيادة الجنرال بيرد Baird وعدده نحو ستة آلاف مقاتل معسكرين في الجزيرة

كانت إنجلترا ترمي إلى تخليد احتلالها لتلك المواقع ، وقد احتلتها مرتكئة على معاهدة التحالف المقودة بينها وبين تركيا في ٥ يناير سنة ١٧٩٩ ، على أنها لم تكن ترمي من هذه المعاهدة إلى طرد الفرنسيين من مصر فحسب ، بل كانت لها أطاع أخرى تضمها لوادي النيل ، ومع أن المعاهدة كانت متصورة على « ضمان الحكومة البريطانية سلامة أملاك السلطنة العثمانية بلا استثناء كما كانت قبل الحملة الفرنسية على مصر » لكن اللورد إلجين Elgin سفير إنجلترا المفوض في الاستانة توصل إلى إضافة شرط ملحق بالمعاهدة وهو « أن الجيش الانجليزي لا يجوز عن مصر إلا بعد استتباب الأمن في ربوعها »

فالحكومة الانجليزية لم تضع هذا الشرط الإضافي عبثا ، بل كانت ترمي إلى التذرع به لتعطيل أجل احتلالها للبلاد ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، وما أشبه هذا النص بالحجج التي تذرعت بها بعد ثمانين عاماً لتسيغ لنفسها احتلال مصر سنة ١٨٨٢ وتطيل أجل هذا الاحتلال ، والتاريخ يميند نفسه

الماليك

أما الماليك فقد كانوا يطعمون بعد انتهاء الحملة الفرنسية في استعادة حكمهم في مصر ، وحجتهم أنهم حكامها الأقدمون الذين دانت لهم البلاد السفين الطوال ، وقد فطنوا إلى أن الأتراك يأتمرون بهم ويريدون التخلص منهم ، فاتجهوا بأنظارهم إلى الانجليز يطلبون حمايتهم ويستمدون منهم المعونة لتحقيق أطعهم ، وكانت خطة الانجليز حيال الماليك مغرية لهم على الاسترسال في أوهامهم وآمالهم ، ذلك أن الجنرال هتشنسون سعى قبل أن يزحف على القاهرة في ضم الماليك من خلفاء مراد بك إلى صفوفه ، وكانوا في ذلك الحين موالين للفرنسيين بحكم اتفاق مراد - كايير ، فوعدهم أن يميند لهم سلطتهم القديمة في مصر إذا هم انضموا إلى جيوش الحلفاء ، فرأى الماليك أن صفقة الانجليز أربح وأن نجم الفرنسيين آخذ في الأفول ، فانتفضوا عليهم ونكثوا اتفاق مراد بك وانضموا إلى صفوف الانجليز ، وعزم هؤلاء على أن يتخذوهم صفائح لسياستهم في وادي النيل ، فأيدوهم وناصروهم ومالتوهم على استعادة سلطتهم القديمة في مصر ، ولا عجب في ذلك فان حكم الماليك قائم على الظلم والفوضى

ومن مصلحة إنجلترا انتشار الفوضى والظالم في البلاد لتجد سبيلا لاحتلالها والتدخل في شؤونها ، من أجل ذلك توثقت عمرا المودة بين المايك والانجليز واعتقد المايك أن سلامتهم في الاستقلال بمحايبتهم ، ولما انتهت الحرب بجلاء الفرنسيين أبدى الجنرال هتشنسون عطفاً كبيراً على مطالب المايك

على أن المايك تضعفت قوتهم وتمحطت شوكتهم في المارك التي نشبت بينهم وبين الفرنسيين خلال الحملة الفرنسية ، ولم يبق منهم سوى عدد يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسمائة إلى أربعة آلاف مملوك بما فيهم بضع مئتين من الأرقاء الذين اشروه من القوافل القادمة من سنار ، وضميرهم إلى صفوفهم ، وبضع مئات من الفرنسيين^(١) الذين لم يرحلوا مع الجنود الفرنسية حين الجلاء وآثروا البقاء في مصر فانضموا إلى صفوف المايك ، فمثل هذه القوة لم تكن لتقف أمام قوة الجيش العثماني المرابط في مصر وخاصة بعد أن منعت الدولة جلب الرقيق من بلاد الشركس ، فنضب معين المايك وحرموا من إكمال النقص الواقع في صفوفهم ، هذا فضلا عن عوامل الاقسام والتنافس التي كانت تضعف قوتهم وتصدع وحدتهم ، فإن التنافس القديم الذي كان بين حزبي ابراهيم بك ومراد بك قبل الحملة الفرنسية قد استمر بعد انتهائها ، فكان لكل منهما أنصار وشيعة من الأتباع والبكوات ، ولما مات مراد بك استمر الاقسام بين أنصار ابراهيم بك وخلفاء مراد بك ، وقد استخدمت تركيا هذا التنافس لتضرب المايك بعضهم ببعض ، وعمل الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا وحسين قبطان باشا على تحريك هذا التنافس القديم ، فكان كل منهما يعد كل حزب من حزبي المايك بأن تكون له السلطة والسيادة في مصر ، وكان أنصار ابراهيم بك مقيمين في القاهرة لأنهم قدموا صحبة الجيش العثماني ، أما خلفاء مراد بك فقد اصطحب معظمهم حسين باشا القبطان ومضى بهم إلى شمال الدلتا وعهد إليهم حراسة الجنود الفرنسية عند جلائها عن القاهرة في طريقها إلى رشيد ، وبعد أن تم رحيل الجنود الفرنسية تحلفوا بالإسكندرية وأبوقير يتلقون الأوامر من حسين باشا القبطان بعيدين عن ابراهيم بك وأنصاره ، فهذا التباعد بين المايك والتنافس القديم بين زعمائهم زاد في ضعفهم وقل من حدهم ، وكان المايك مختلفين كذلك في وجهة النظر السياسية ، ففريق منهم وهو الأغلب كانوا يرون السلامة في الاستقلال بمحابة الانجليز يتخذونهم حماة وأولياء ، وعلى رأس هذا الفريق محمد بك الأنفي ، وفريق آخر كان يرى الاستنجد بفرنسا ومنهم عثمان بك البرديسي ، وفريق ثالث يرى الكف عن القتال

(١) قدرهم المسيو فلنكس مانيجان في كتابه بثلاثمائة

والترام الحياض وموالات الأناك وعلى رأسهم عثمان بك حسن ، وكان الأتني والبرديسي
زعيمى المالكى المرادىة (أنباى مراد بك) ، وكان لابراهيم بك حزب آخر يتبمه ينافس
البكوات المرادىة فى الزعامة والسلطة ، على أن ابراهيم بك قد تضعضت شوكتة لكبر سنه
فلم يكن له من الاحترام إلا ما كان جديراً به لشيخوخته وسابق سلطته
فالباعد بين المالكى ، والتنافس بين زعمائهم ، وأطاعهم الشخصية ، واختلاف وجهة
نظرهم السياسية ، كل هذه الظروف مجتممة كانت من الأسباب التى عجلت بانقراض دولتهم
وإراحة مصر من حكمهم

العامل القومى

تلك هى القوات التى تنازعت النفوذ والسطوة فى مصر ، وهناك قوة رابعة ظهرت على
مصرح النضال السيامى وأخذت تنمو ويشتمد ساعدها دون أن تأبه لها تلك القوات الثلاث
أو تحسب لها حساباً ، على أنها القوة الثابتة الخالدة المؤيدة بمحتها الشرعى فى تقرير مصير البلاد ،
تلك هى قوة الشعب المصرى

بدأت هذه القوة تظهر فى الميدان خلال السنوات التى قضاهها الجيش الفرنسى فى البلاد ،
ظهرت الأمة بشخصية جديدة ، وروح فتيمة ، وعزيمة قوية ، كونتها الحوادث والسداؤد ،
وصقلتها التجارب والآلام ، كانت هذه السنوات الثلاث بمثابة مران على النضال والكفاح
السيامى ، وتطور فى الحياة القومية ، رأت الأمة خلالها من الحوادث والانقلابات ما فتح أعينها
وهز أعصابها واستثار فيها روح التطلع إلى المجد والملا ، رأت نابليون بونابارت يخطب ودها ،
ويشيد بمظمتها ، ويقملى كبرياءها القومى ، ويتعنى بماضيها ، ويملن حقها فى أن تحكم
نفسها بنفسها

نارت فى وجه الحكم الفرنسى غير مرة ، فاعتادت مقاومة الاضطهاد ومكافحة القوة
المسلحة ، وألفت خوض غمار اوقائع والمعارك ، قاومت نابليون قاهر الملوك ومزازل البروش ،
رأت خلاصة علماء فرنسا وأطباؤها ومهندسيها يعرضون عليها آثار علمهم وفلسفتهم وحضارتهم
وتجاربيهم ، رأت علوماً وأفكاراً جديدة ، ومنشآت ونظاماً حديثة ، رأت «ديواناً» مؤلفاً
من صفوة أبنائها بعد أن كان الديوان القديم مقصوراً على المالكى ، أيقظت الحوادث فيها
روح المقاومة الشعبية ، تلك الروح التى تمهض بالأخلاق وترقى بالأفكار ، وتفتق الأذهان ،
وتغير البصائر ، وتقرس الفضائل فى النفوس ، وأخذت ترادف الحوادث فى خلال تلك السنوات
الثلاث يمزق أستار الصمت والجمود التى كانت تحجب عنها نور الحياة والنشاط ، فلا غرو ان

ظهرت الأمة المصرية العريقة في الحضارة والمدنية بشخصية جديدة ولدتها الحوادث ، وأن تقتحم ميدان النضال السياسي بروح معنوية جديدة تختلف كثيراً عن حالتها القديمة ، وكذلك الأمم المستعمدة للرقى تتطور نفسياتها وتتجدد شخصيتها تحت تأثير الحوادث السياسية والانقلابات ، وهناك يظهر مبلغ استمداد كل أمة للرقى ومقدار ما هو كامن في قرارة نفسها من المواهب الدفينة ، فالأمة المصرية التي ظلت السنين الطوال رازحة تحت نير الاستبداد لم تفقد مواهبها القديمة التي ورثتها عن المدنيات المتماقبة ، بل كانت هذه المواهب كامنة تحت الرماد ، يملؤها الصدأ ، فما إن صدمتها الحملة الفرنسية حتى أخذت تبدو للعيان كما تُصقل المعادن وتُجلى جواهرها في لهب النار ، ونهضت الأمة في وجه الاحتلال الأجنبي تحمل بين جنبها قوة حيوية كبيرة ، ظهر الشعب المصرى في الميدان قوياً فتياً لا يمل الجهاد ولا ينعكس على الأعداء ، ولما طويت صحيفة الغزوة الفرنسية ظل يفاضل عن كنهه في وجه العوامل المثبطة والقوات المتعالية عليه ، وإذا تتبعنا المقابلات التي أعقبت جلاء الفرنسيين رأيت العامل القومى ذا أثر فعال في سير الحوادث وتطورها ، فهذا العامل الوليد الذى تمخضت عنه المقاومة المستمرة في عهد الحملة الفرنسية أخذ ينمو ويتسع ويشتد ساعده ، وأبى أن يعود إلى نظام الحكم القديم أو يكون مطية لأهواء الدول الطامعة في وادى النيل ، وجعل يتطلع إلى نظام للحكم أرق من النظم التي رزحت تحتها البلاد السنين الطوال

في خلال تلك السنوات ، وفي غمار المظاهرات والأطباع المختلفة ، أخذ الشعب ينظر بعين السخط والفتن إلى عودة حكم المماليك وحكم الأتراك معاً ، أما حكم المماليك فلم يكن قد نسي مظالمه القديمة وما جره على البلاد من الخراب ، وأما الحكم التركى فقد ظهر من سيئاته ومظالمه في خلال السنوات التي أعقبت جلاء الفرنسيين ما جعل الشعب يكره أن يعود إلى نيره القديم ، وكانت الجنود العثمانية التي ساقها تركيا إلى مصر خليطاً من أرداد عناصر السلطنة العثمانية ، مجردة من النظام والرقى والتهذيب ، يقودها رؤساء جهلاء لم يألفوا من أساليب الحكم سوى الظلم والارتكاب ، ولم يكن لهم هم سوى النهب والتخريب والاستهانة بأرواح الناس وإرهاق الشعب بمختلف أنواع المظالم والمغارم ، كما ستراه منفصلاً فيما بلى ، فلا جرم أن كره الشعب حكم المماليك والأتراك وأخذ يدأب ويعمل لتخلص من كلا الحكامين معا

قادة الشعب وزعمائه

ظهر للشعب في خلال تلك السنين زعماء معدودون كونتهم الحوادث وثقتهم التجارب ،

قادة الشعب وزعماءه

في فجر النهضة القومية



الشيخ عبد الشافق



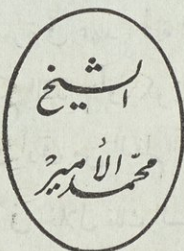
الشيخ محمد السادات



السيد

محمد كرم

نقيب الأشراف



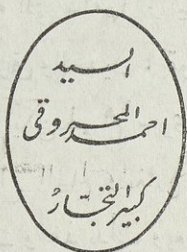
الشيخ
محمد الأمير



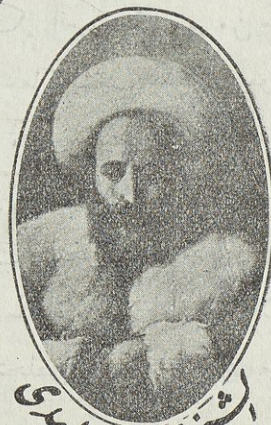
الشيخ
مصطفى الصاوي



الشيخ سيدمان الفيومي



السيد
احمد المحسروقي
كبير التجار



الشيخ محمد المرادي

صور قادة الشعب وزعمائه في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ومن لم نعثر على صورهم اكتفينا بكتابة أسمائهم داخل الإطار (تاريخ الحركة القومية الجزء ٢ ص ٢٣٥ وما بعدها)

فكان لهم فضل كبير في إظهار شخصية الأمة وتوجيهها إلى ما فيه خيرها وصالحتها ، نالوا هذه الزعامة بما كان لهم من انتقام المحمود بين الناس قبل الحملة الفرنسية وما أكسبهم انضهاد الفرنسيين من المحبة والجلال ، وما اشتهروا به من نصرة المظلوم وحماية الضعفاء في وجه قوة والظلم وقد ساعد على زيادة نفوذهم بعد جلاء الفرنسيين أن التنازع بين المالك والأتراك قد أضعف مراكز الفريقين ، فاستطاع الشعب في خلال هذا التنازع أن يكسب نفوذاً جديداً وسلطة جديدة ، وظهر لزعماء الشعب صوت مسموع في حكومة البلاد وتطور الحوادث وتوزل الولاة وتعيينهم ، فالنفوذ الجديد الذي اكتسبه الشعب وزعماءه هو من أكبر مميزات سنوات الانتقال التي أعقبت الحملة الفرنسية

فلنستعرض شخصية أولئك الزعماء الذين ملكوا قيادة الشعب في دور من أهم أدوار حياته القومية ، ونخص بالذكر من كانوا أكثرهم عملاً وأكبرهم أمراً في سير الحوادث وتطورها

السيد عمر مكرم

هو أكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر في فجر النهضة القومية ، كان أكبر زعماء الشعب نفساً ، وأكثرهم شجاعة وإقداماً ، وأعظمهم نفوذاً ، وأرفعهم كلمة ، فلا غرو أن نعدّه زعيم الزعماء ورئيس الرؤساء

لا نعرف الشيء الكثير عن مولده ونشأته ، ذلك لأن الجبرتي لم يترجم له كما ترجم لمعظم معاصريه ، لأن عادة الجبرتي أن يذكر تراجم الوفيات من رجالات مصر ، وهو لم يدرك وفاة السيد عمر مكرم ، ولذلك حررنا ترجمة وافية لهذا الرجل النبيل من قلم مؤرخ محقق كانت ميزته البحث والاستقصاء ، على أننا مع ذلك لم نحرم إسهاب الجبرتي في سرد أعمال السيد عمر مكرم والأدوار الخطيرة التي قام بها على مسرح الحوادث السياسية

والذي عرفناه من خلال تحقيقات الجبرتي أن السيد عمر مكرم أسيوطي المولد والنشأة ، ولد في أسيوط ونشأ فيها ، ولذلك يسميه في بعض المواطن السيد عمر الأسيوطي ، وقد تحققنا أنه من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

كان تقيماً للأشراف في مصر قبل مجيء الحملة الفرنسية ، فهو بحكم توليه النقابة في مقدمة رجالات مصر منزلة وجهاً ، فلما جاء الفرنسيون ظهرت شخصيته الكبيرة ونفسيته القوية بما دعا الشعب إليه من التطوع للقتل وما بثّه في نفوس الجماهير من روح مقاومة ، يدلك على ذلك ما ذكره الجبرتي عن حالة القاهرة قبل واقعة الأهرام بأربعة أيام من النداء بالنفير

العام وخروج الناس المتاريس استمداداً للمقاومة ، قال : « وضعد السيد عمر انمدى نقيب الأشراف إلى القلعة فأزّل منها بريقاً كبيراً أسمته العامة البيرق النبوي فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه ألوف من العامة » . وهذا هو بعينه استنفار الشعب إلى التطوع العام لصد هجمات الفاتح الغير والسير في طليعة المتطوعين للقتال ، فتأمل في حالة نقيب الأشراف النفسية وهو ينزل من القلعة ناشراً علم الجهاد يشقّ المدينة من شرقها إلى غربها وحوله الألوف من الناس ذاهباً بهم إلى بولاق تجاه امبابه حيث وقعت الواقعة ، إن هذه الحالة النفسية هي أرق ما يتصف به زعماء الشعب في ساعة الشدة وهي لا تقل نبلا عن الدعوة للتطوع العام التي بثها زعماء الثورة الفرنسية في نفوس الشعب الفرنسي حينما نادوا « ان الوطن في خطر » ، فالسيد عمر مكرم كان إذن في طليعة المتطوعين للقتال المدافعين عن القاهرة في وجه الاحتلال الفرنسي ، ولما وقعت الهزيمة في معركة الأهرام لم يرض البقاء في القاهرة بعد أن أصبحت تحت رحمة الغزاة ، ولم تلبث قناته لهم على الرغم من أنهم اختاروه لعضوية الديوان الأول كما صرّح بذلك بالجزء الأول^(١) ، فرفض عضوية الديوان وهاجر إلى سورية وأبى العودة إلى القاهرة ، ولو هو عاد إليها لنال من احترام الفرنسيين وعطفهم ما يفرض النفوس ويكسر من حدتها ، ولكنه آثر الهجرة والنفي وشغف العيش إباءاً للضيم ونفوراً من الذل ، وترك في مصر أملاكه وأمواله عرضة للنهب والمصادرة ، وظل في منفاه بمدينة (يافا) إلى أن احتلها الفرنسيون أثناء الحملة على سورية ، فقابله بها نابليون ، وكان يعرف منزله من قبل ، فأمر بإرجاعه إلى مصر معزواً مكرماً ، فعاد إليها ، لكنه اعتزل الفرنسيين واعتكف في بيته ولم يشأ أن يتصل بهم أو يتقرب إليهم ، ولو أنه أراد ذلك لأغدقوا عليه النعم وخصوه بأعظم الزايا ليجتذبوه إلى صفوفهم ، ونق في عزاته إلى أن أبرمت معاهدة العريش ثم نقضت وتجددت الحرب بين الفرنسيين والممانيين وثار القاهرة ثورتها الثانية ، فكان من زعمائها ، وذلك باتفاق الجبرتي والمراجع الفرنسية ، ولما أخذ الفرنسيون تلك الثورة هاجر من مصر ثانية ، واستهدف في هذه المرة أيضاً للنهب والمصادرة ، ثم عاد إلى مصر بعد جلاء الفرنسيين فزادت منزله القديمة في نفوس الشعب وعادت إليه نقابة الأشراف التي نزعته منه أثناء هجرته الأولى ، وإذا تأملت في الحركات التي تتابعت في البلاد بعد انتهاء الحملة الفرنسية تجد أن اسم السيد عمر مكرم يملأ الجو السيامي بما كان له من عظيم النفوذ والمكانة السامية والأثر البالغ في تطور الحوادث ، وتبين أن له اليد الطولى في الثورة التي قامت ضد

حكم المالك سنة ١٨٠٤ ، وضد الوالي التركي سنة ١٨٠٥ ، وكان منظورا إليه من الشعب كرتيس تستجاب دعوتة وتطاع كلمته وملجأ يأوي إليه المظلومون فيرفع عنهم شر المظالم ويقيهم طينان الحكام

فترجمته مقترنة بالحوادث الجسيمة التي وقعت في البلاد بعد جلاء الفرنسيين إلى ارتقاء محمد علي عرش مصر ، وتجد هذه الترجمة في تتبع الفصول الآتية ، ولقد أفردنا له فوق ذلك نبذة خاصة تحت عنوان (عمر مكرم روح الحركة) يتبين منها مبلغ ما كان له من الفضل في ثورة الشعب على الوالي التركي

السيد محمد السادات

سليل بيت السادات العريق في المجد وشرف المحمد ، تربى في مهاد المز والنعمة ، وتلقى العلوم الشرعية واللغوية على شيوخ الأزهر فوصل في العلم والثقافة إلى ما وصل إليه علماء ذلك العصر ، وجمع بين العلم وشرف النسب ، ذلك إلى ما ورثه عن أسلافه من الثروة والجاه ، تولى خلافة آل السادات ومشيخة سجادتهم سنة ١١٨٢ هجرية على عهد علي بك الكبير ، فمظمت مكانته وزادت منزلته لما انصف به من الشمم والإباء والحزم مع الكرم وحسن المماشرة والترفع عن الصغار ، وحب المحاضرة في العلم والأدب ، وصفه الجبرتي من هذه الناحية وصفاً دقيقاً يعطيك صورة وافية عن نفسيته عند ما تولى خلافة أسلافه ، قال : « وأحسن سلوكه بشهامة وحشمة ووراسة وتؤدة وأدب مع الأشياخ والاقران ، وتجنب إلى أرباب المظالم والأكابر واستجلاب الخواطر وسلوكه الطرائق الحميدة والتباعد عن الأمور الخلة بالروءة ، والأخذ بالحزم والرفق مع الاشتغال في بعض الأحيان بالمطالمة والذاكرة في المسائل الدينية والأدبية ومعاشرة الأدياء والفضلاء والناقشة معهم في المنكات ، واقتناء الكتب من كل فن ، كل ذلك مع الجسد والتحصيل للأسباب الدنيوية وما يتوصل به إلى كثرة الإيراد بحسن تدخل وجميل طريقة مبعدة عما يخل بالتقدير »

عاش السيد محمد السادات وافر الحرمة نافذ الكامة عظيم المكانة بين الناس سواء قبل الحملة الفرنسية وفي خلالها وبعد انتهائها ، كان جريئاً في الحق لا يهاب من بيدهم سلطة الحكيم ، وبحسبك أن تتأمل في موقفه حينما أوفدت الدولة العثمانية حسن باشا الجزائرلى سنة ١٧٨٦ إلى مصر لمحاربة المالك واستمادة سلطتها النطقة لتحكم على مبلغ ما انصف به من الشهامة والروءة ، فقد أسرف حسن باشا في القسوة والجبروت واستباح أموال المالك وقبض على فسائهم وأولادهم وأمر بإنزالهم سوق الزاد وبيعهم زاعماً أنهم أرقاء لبيت المال ، فاجتمع

الشيوخ والعلماء وذهبوا إليه معترضين ، وكان السيد محمد السادات هو انتكلم عنهم ، فاشتد في مخاطبته وقول له : أنت أتيت إلى هذا البلد وأرسلت السلطان لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول أم لبيع الأحرار وأمهاث الأولاد وهتك الحرمات ؟ فقال حسن باشا : هو لا ، أرقاء لبيت المال . فقال له : هذا لا يجوز ولم يقل به أحد ، فحنق حسن باشا على السادات والمشايع وتهدهم بأن يبائع السلطان معارضتهم لأوامره ، فلم يعبأ السادات بتهديده وأصر على معارضته حتى أحمه وحمله على العدول عن قصده

كان السادات في موقفه هذا معارضاً سياسة الدولة ، متحدياً نائبيها ، مؤبداً قوماً تمدم الدولة من المصاة ، ووقف كذلك في وجه حسن باشا عندما صادر أموال الأمراء المايك ، فقد فر زعمائهم من القاهرة إلى الوجه القبلي حتى لا يبطش بهم حسن باشا وأودع كبيرهم ابراهيم بك عند السادات ودائمه الثمينة ، فعلم بذلك حسن باشا ، فأرسل يطلب الوديمة ، فرفض بإباء أن يسلمها وقول في ذلك :

« إن صاحبها لم يموت ، وقد كتبت على نفسي وثيقة بذلك فلا أسلمها مادام صاحبها في قيد الحياة » ، فحنق عليه حسن باشا وكاد يبطش به لولا أن خشى نفوذه ومنزلته بين قومه . وقف السادات هذا الموقف وهو أعزل لا سلاح معه إلا سلاح الحق ، وقاوم إرادة وزيرا من وزراء الدولة جاء على رأس جيش ليميد في مصر سلطة الحكومة العثمانية ، ولا يقف الرجل مثل هذا الموقف وخاصة في ذلك العصر إلا إذا كان على حظ عظيم من الشجاعة وعلو النفس ، فلا غرو أن يقول الجبرتي في هذا الصدد : « فاشتد غيظ حسن باشا منه وقصد البطش به فخماه الله منه ببركة الانتصار للحق ، وكان الباشا يقول لم أر في جميع الممالك التي ولجتها من اجترأ على مخالفتي مثل هذا الرجل »

ومما يذكر عنه في مجابهة أمراء المايك أنه لما جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ ووصلت العاصمة أخبار احتلال الإسكندرية وجمع ابراهيم بك ومراد بك المشايخ للتشاور في الأمر كان السيد السادات ضمن المجتمعين ، فونخ الأمراء على سوء سياستهم وقول لهم : « إن كل هذا من سوء فعاالك وظلمكم ، وآخر أمرنا معكم اسكم ملكتمونا للافرنج » وخص مراد بك بالتوبيخ قائلاً له : « وخصوصاً بأفعاالك وتمديك أنت وأمراؤك على متاجرهم وأخذ بضائعهم »

فنقم عليه مراد بك هذه الالهجة في الخطاب ، وأمرها في نفسه ، قال الجبرتي في هذا الصدد إن مراد بك بعد أن اصطلح مع الفرنسيين أغرامهم بالسيد السادات فكان هذا الإغراء :

من أسباب اضطهادهم إياه ، وقد ذكر عنه السيوفل كس مانجان^(١) أنه لم يكن يحب الماليك وكان الماليك من جهتهم لا يحبونه ويحقدون عليه لمكاتبته من الشعب وقد رفض عضوية الديوان في عهد الحملة الفرنسية وظل محفوظ الكرامة مقبول الشفاعة ، ولم تلن قنانه للفرنسيين ، ولا هم كانوا يتقنون به ، وحدثت بينه وبينهم مشادة في بعض المواطن ، فقد تقدم القول بأنهم اتهموه بزعماء ثورة القاهرة الأولى ، وقامت عليه البيئات بذلك ، ولكن نابليون رأى أن محاكمته بجعله شهيداً في نظر الشعب وأن الضرر من قتله أكثر من نفعه^(٢) فأبقى عليه ، وحدث أنه لما أمر نابليون بعزل ملا زاده ابن القاضي التركي واعتقله كان الشيخ السادات أكثر العلماء اعتراضاً على حبسه ، وعلم نابليون بموقفه في هذا الصدد ، فنقم ذلك منه فاستدعاه ولامه على مسلكه ، فتدخل بينهما الشيخ محمد المهدي (الذي كان موضع ثقة نابليون) والقوميسير الفرنسي للديوان فأنهت المسألة بسلام ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « فتسكن بينهما الشيخ محمد المهدي ووكيل الديوان الفرنسي حتى سكن غيظه وأمره بالانصراف إلى منزله بعد أن عوّفه^(٣) حصة من الليل »

ويقول عنه السيوفل كس مانجان انه كان من زعماء ثورة القاهرة الثانية ووصفه بأنه رجل يعيل إلى الهياج والشغب

وقد ناله من اضطهاد الفرنسيين في عهد كليبر ومنو ما تقدم بيانه في الفصل التاسع والفصل الثاني عشر^(٤) ، فلما جلا الفرنسيون عن البلاد علت منزلته في نظر الشعب واشترك في الحركات الشعبية التي قامت في مصر على النحو الذي بسطناه في هذا الجزء وفي الفصول الثلاثة الأولى من كتاب « عصر محمد علي » ، ومع أن السيد عمر مكرم والسادات كانوا في مقدمة رؤساء الشعب منزلة ونفوذاً فقد وقعت بينهما المجافاة في عهد محمد علي باشا ، وانضم السادات إلى محمد علي في الواقعة بالسيد عمر مكرم ، وتولى نقابة الأشراف بدله كاتراه مفصلاً في موضعه بالفصل الثالث من « عصر محمد علي » ، وتوفي السادات سنة ١٢٢٨ هجرية

الشيخ عبد الله الشرقاوي

هو الشيخ عبد الله بن حجازي بن ابراهيم ، ولد كما يقول الجبرتي في حدود سنة ١١٥٠ هجرية في قرية (الطويلة) بأقليم الشرقية ، ولذلك سمي الشرقاوي ، وحفظ القرآن في قرية

(١) في كتابه تاريخ مصر تحت حكم محمد علي

(٢) انظر الجزء الأول ص ٣٠٤ من الطبعة الأولى

(٣) أي حجزه (٤) ص ١٥٦ و ص ١٩٩

(القرنين) القربية من الطويلة ، ثم أرسله أبوه إلى الأزهر ليتلقى العلم على شيوخ ذلك العصر ، وكان شأنه شأن طلبة العلم الذين يفتنون على الأزهر ويتقنون علومه ثم ينتظمون في سلك العلماء ، وتميز بالجد والثابرة في التحصيل ، وكان شافعي المذهب وله مؤلفات في العلوم النحوية والتصوف ، وكان في بداءة عهده « في قلة من خشونة الميش وضيق الميشة » كما يقول الجبرتي ، فكان بعض معارفه بواسونه ويمدونه بالمون إلى أن اشتهر ذكره بين الناس ، فواصله بعض السراة والتجار بالهدايا والصلوات « فراج حاله وتجمل بالملابس وكبر تاجه » ، وبعد وفاة الشيخ أحمد العروسي سنة ١٢٠٨ هـ تولى مشيخة الأزهر ، فمظمت منزلته وأكسبته المشيخة نفوذا كبيرا ومكانة عظيمة في مصر لأن شيخ الأزهر هو بمثابة كبير علماء مصر ، وكان أمراء المماليك يحترمونه ويراعون نفوذه الأدبي والديني ، وله في مقاومة مظالمهم موافق تدل على مبالغ ماله من النفوذ والجاه

ذكر الجبرتي ما خلاصته أنه في سنة ١٢٠٩ هجرية أي قبل مجيء الحملة الفرنسية بعدة سنوات حضر إليه أهل قرية بالشرقية له فيها حصنة وذكروا له أن أنباع محمد بك الألفي ظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ، فغضب الشروقى ، وخطب مراد بك وإبراهيم بك في رفع هذا الظلم ، فلم يكرثا للأمر ، فحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ وأقبلوا أبواب الجامع « وأمر المشايخ الناس بفتح الأسواق والحوانيت ، ثم ركبوا ثانياً يوم إلى بيت السادات رتبهم كثير من العامة ، وازدحموا أمام الباب والبركة بحيث يراهم إبراهيم بك ، فأرسل إليهم أيوب بك الدفتردار (مدير الشؤون المالية) فوقف بين أيديهم وسألهم عن مرادهم ، فقالوا يريد العدل وإبطال الحوادث والسكوسات التي ابتدعتوهما ، فقال لا يمكن إجابة هذا كله ، فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعاش ، فقالوا له ليس هذا بمعذر عند الله ، وما الباعث على الإكثار من المنقعات والماليك ، والأمير يكون أميراً بالإعطاء ، لا بالأخذ . فقال حتى أبلغ . وانصرف ، وافض المجلس ، وركب المشايخ إلى الأزهر واجتمع أهل الأطراف وبنوا به » ، هذا ما ذكره الجبرتي ، ومناه أن الشيخ الشوقى حرض الناس على الهياج ومقاومة وابي الناس دعوته من أطراف القاهرة وجاءوا إلى الأزهر وبنوا به متحفزين للهياج ، والظاهر أن مراد بك خشى مغبة هذه الحركة لأن إقبال الحوانيت والأسواق ، وغلق أبواب الجامع الأزهر واحتشاد الجماهير أمام بيت إبراهيم بك ، كل ذلك من علامات الهياج ، قال الجبرتي : « فبعث مراد بك يقول أجيبيكم إلى ما ذكرتموه إلا شيتين ديوان (جرك) بولاق ، وطابكم لناخر من الجامكية (الرواتب) ثم طلب أربعة مشايخ عنهم بأسمائهم ، فذهبوا إليه بقصره

بالجزيرة ، فلاطنهم والتمس منهم السعى في الصلح ، وفي اليوم الثالث اجتمع الأمراء والشايخ في بيت إبراهيم بك وفيهم الشيخ الشرقاوى ، وانمقد الصلح على رفع المظالم ما عدا ديوان بولان ، وأن يكفوا أتباعهم عن مد أيديهم إلى أموال الناس ويسيروا فيهم سيرة حسنة ، وكتب القاضى حجة بذلك وفرمن عليها (أى وقع عليها) الباشا والأمراء وانجلى التفتنة وفرح الناس وسكن الحال »

فهذه الواقعة التى رواها الجبرتى كذلك على مبلغ نفوذ الشرقاوى ومكانته في عهد المالك ولما جاء الفرنسيون تولى في عهدهم رئاسة الديوان الذى أنشأوه ، وأسندت إليه رئاسته في أدواره الثلاثة التى تعاقبت عليه ، فكان رئيسا للديوان الذى تأسس في أول عهد الحملة ، ثم للديوان العام ، ثم للديوان العمومى والديوان الخصوصى اللذين أنشأهما نابليون في ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، ثم للديوان الذى تأسس في عهد الجنرال منو ، وجمع بين رئاسة الديوان ومشيخة الأزهر ، فعظم جاهه وازداد نفوذه

وكان له مع الفرنسيين شأن طويل ، فقد غضبوا عليه ثلاث مرات ، الأولى في عهد نابليون حينما رفض أن يردى طباسان الجمهورية المثلث الألوان ورمى به إلى الأرض ، فغضب عليه نابليون وقال إنه لا يصلح لرئاسة الديوان^(١)

والثانية في عهد الجنرال (منو) ، فقد ارتاب الفرنسيون في موقفه بعد مقتل الجنرال (كليبر) لأن قاتل كليبر كان يبيت في الأزهر وقيم به فأحضر الفرنسيون الشيخ الشرقاوى على اعتباره شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ أحمد العريشى قاضى مصر ، وحجزوها إلى منتصف الليل ، وأزموها البحث عن الأزهريين الأربعة الذين ذكرهم سليمان الحلبي في اعترافه وإحصارهم ، وكان من نتائج هذه الحادثة وما أعقبها من تفتيش الأزهر أن العلماء وعلى رأسهم الشرقاوى أقبلوا أبواب المسجد وظل مقفلا إلى أن شرع الفرنسيون في الجلاء عن مصر
والمرّة الثالثة في عهد (منو) أيضا حيث اعتقل في القنمة كما فصلنا ذلك في الفصل الثانى عشر^(٢)

ويعد الشرقاوى اعتقاله تشريفا له ، فقد ذكره بشيء من الفخر والزهو في كتابه (تحفة الناظرين) حيث قال متحدنا عن نفسه : « وقد حبسوننا في القلعة مع إخواننا العلماء خوفا من قيام أهل البلد عليهم كما وقع منهم سابقا ، فكنتنا في القلعة مائة يوم من تسمية ذى القعدة إلى أواخر صفر سنة ١٢١٦ ، وسبب خروجنا من الحبس وقوع الصلح بين المسلمين

(١) انظر الجزء الأول ص ٢٧٤ من الطبعة الأولى

(٢) ص ٢٠٠

وبين الفرنسيين على أن يخرجوا من البلد ويسافروا إلى رشيد وأبي قير»
وفيما عدا هذه المرات الثلاث كان الشرقاوى يجمّل الفرنسيين ويذاريهم ، ويتبع حيالهم
خطة المسألة والمحاسنة ، ولعله شعر بما احتمل من توبة أديّة جسيمة بانهاج هذه الخطة ،
فحاول في كتابه (تحفة الناظرين) أن يدافع عن نفسه وعن سلك مسلكه على عهد الحملة
الفرنسية ، قال :

« والسبب الذي أوجب أهل مصر وقراها بعض الاقياد إليهم (إلى الفرنسيين) عجزهم
عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال ، وأهمهم عند قدومهم كتبوا
كتبةً فرقوها في البلاد وذكروا فيها أنهم ليسوا نصارى لأنهم يقولون إن الله واحد ، وأهمهم
يعظمون محمداً ويحترمون القرآن ، وأهمهم يحبون العثمانيين (كذا) ، ولم يأتوا إلا لطرده المماليك
الظلمة لأنهم نهبوا أموالهم وأموال تجارهم ولا يتعرضون للرعايا في شيء »

هذه هي الروح التي أملت على الشرقاوى خطته في محاسنة المحتلين ومجاملتهم ، وقد كان
يجمّل بكبير علماء مصر ألا ينهج هذه الخطة ، وكان مطلوباً منه على الأقل أن يتبع خطة السيد
عمر مكرم أو السيد محمد السادات ، ومهما دافع عن نفسه وعن خطته فدفاعه لا يثبت أمام
البحث والتحقيق ، لأنه ليس صحيحاً أن الفرنسيين إنما جاءوا لطرده المماليك الظلمة وأنهم
لا يتعرضون للرعايا في شيء ، فإنهم إنما جاءوا للفتح والغزو وإخضاع مصر والمصريين
لحكمهم ، والشيخ الشرقاوى نفسه يعترف في كتابه أن الفرنسيين أخلفوا عهدهم الذي أعلنوه
في كتبهم ومنشوراتهم ، فقد قال في هذا الصدد : « ولكن لما دخلوا مصر لم يقتصروا
على نهب أموال المماليك بل نهبوا الرعايا وقتلوا جملة من الناس لما قامت عليهم أهل مصر
بسبب طلبهم تفريد غرامة (فرض ضريبة) على البيوت وقتل منهم ما يقرب من الألف
وهتكوا بعض الأعراض في مصر وقراها فإن كل قرية حاربهم نهبوا أموالها وقتلوا رجالها
وأخذوا نساءها وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالماً »

فمع اعتراف الشرقاوى بهذه الحقائق لا يقبل منه عذر فيما اختطه لنفسه حيال الفرنسيين
من الداراة والمجاملة ، ولو أنه لم ينتفع في ذات نفسه من هذه السياسة لكان محتملاً أن يكون
اتباعه إياها نتيجة اعتقاد منه بصلاحتها للبلاد ، ولكن انتعاه من ورائها مما يدعو إلى الشك
في أن خطته كانت عن عقيدة سليمة بريئة من الشوائب ، فالجبرتي وهو مؤرخ نزيه صادق
يقول في ترجمته إن الدنيا قد اتسعت عليه في عهد الفرنسيين وزاد طمعه فيها ، ويقول إنه انتفع
في أيامهم بما كان يؤدي له من راتب رأسة الديوان وما كان يحصل عليه من « قضايا وشفعات

لبعض الأجناد المصرية ، وجمالات على ذلك ، واستيلاء على تركت وودائع خرج أربابها في
حادثة الفرنساوية وملكوا ، واتسمت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها واشترى داراً واسعة بظاهر
الأزهر في مساكن الأشراف الأقدمين »

وقد ظل الشرفاوى مرعياً مشاركاً إليه بالبنان لمكانته العلمية ولما كانت تسبغه عليه مشيخة
الأزهر من الاحترام والرأسة ، واشترك بعد جلاء الفرنسيين في الحوادث التي أدت إلى مبايعة
محمد علي الكبير ، واقرن اسمه بهذا الحادث العظيم في حياة مصر القومية ، ويكنىك أنه ثاني
اثنين أبسا (محمد علي) خلعاً الحكم والولاية كما تراه مفصلاً فيما يلي ، وكانت وفاته سنة
١٢١٧ هجرية

الشيخ محمد الأمير

من كبار العلماء والمشار إليهم بالبنان ، ولد في (سنبو)^(١) سنة ١١٥٤ هجرية وحفظ القرآن
وطلب العلم على شيوخ عصره ، وتلقى علوم الهيئة والمهندسة على الشيخ حسن الجبرتي والد
المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتي ، فجمع بين العلوم الشرعية والرياضية ، وذلك إلى تضلمه
في علوم الأدب واللغة ، واشتهر بمؤلفاته العديدة في مختلف العلوم ، فلا غرو أن وصفه الجبرتي
بالعالم العلامة ، الفاضل النهامه ، صاحب التحقيقات الرائجة ، والتأليفات الفاتحة ، شيخ شيوخ
أهل العلم ، وصدر صدور أهل الفهم ، المتنن في العلوم كلها ، نقلها وعقلها وأدبها ، إليه انتهت
الرياسة في العلوم بالديار المصرية^(٢)

اشتهر ذكره في مصر وفي مختلف أنحاء الشرق ، فكانت تأتيه الصلات من سلطان
المغرب الأقصى ومن مختلف نواحيه كل عام ، وبلغت شهرته الاستانة وذهب إليها وألقى بها
دروساً حضرها علماء الاستانة وشهدوا له بالنضل والعلم
وقد انتخب عضواً بالديوان في عهد نابليون ثم في عهد منو ، واعتقله الفرنسيون باقلمة
في شهر مايو سنة ١٨٠١ كما أسلفنا ذلك في الفصل الثاني عشر

واشتهر بجرأته وشجاعته ، وكان فصيحاً متكلماً لا تأخذه في الحق لومة لائم ، يقلظ
القول للبيكوات المايليك والولاة الأتراك ، ذكر الجبرتي في ترجمته ما كان من خورشيد باشا
الوالى واعتقله السيدة نفيسة المرادية وغيرها من نساء المايليك بعد انتهاء الحملة الفرنسية ،
فقال ما خلاصته انه لما شاع الخبر تغيرت خواطر الناس وركب القاضي ونقيب الأشراف
(السيد عمر مكرم) والشيخ السادات والشيخ الأمير وذهبوا إلى الباشا وتحذروا إليه في شأنها

(١) بمركز ديروط بمديرية أسيوط (٢) الجبرتي الجزء الرابع

فأهمها بأنها أرسلت إلى بعض كبار رؤساء الجند تستميلهم إلى المالك العصاة وأنها وعدتهم
بدفع رواتبهم ، وقال إنها ما دامت تستطيع أن تدفع للجند رواتبهم فينبغي أن تدفعها لخزانة
الحكومة ، وانضح أن غرضه إرهق السيدة نفيسة وابتزاز المال منها قهراً ، فقال الشيوخ
إن الأمر يحتاج إلى تحقيق ، وقام الشيخ سليمان الفيومي والشيخ محمد المهدي وخاطبا السيدة
نفيسة في ذلك فأنكرت ما نسب إليها ، وقالت : « إذا كان قصده مصادرة أموال فلم يبق
عندي شيء » فاعترض الشيوخ على خورشيد باشا وحدث أخذ ورد بينهم وقال الشيخ الأمير
غاضبا إن هذا أمر غير مناسب ويترتب عليه مفساد ويقع اللوم علينا فإذا كان الأمر كذلك
فلا علاقة لنا بشيء من هذا الوقت أو نخرج من هذا البلد ، ومعنى ذلك أن الشيخ الأمير
يهدد الوالي بمقاطعة الشيوخ له ، وهذا أمر له عواقبه ، فتوسط بعض أعوان خورشيد باشا
في الخلاف وتحدثوا إليه في إطلاق صراح السيدة نفيسة المرادية والسماح لها بأن تقيم في بيت
السادات ، فرضى الوالي بذلك وأزولها من القلعة إلى بيت السادات

فهذه الحادثة تدل على مكانة الشيخ محمد الأمير وما كان له من الميبة والجرأة في مقاومة
مظالم الحكام

وكانت وفاته سنة ١٢٣٢ هـ

الشيخ سايان الفيومي

ولد بالفيوم وحضر إلى مصر وحفظ القرآن وتلقى العلوم بالأزهر ، ومع قلة بضاعته في
العلم كما يقول الجبرتي فقد نال مكانة كبيرة بين الناس بما اشتهر عنه من الكرم والجود وحسن
المعاشرة والبشاشة والتواضع والمواساة للكبير والصغير ، فكان الناس يلجأون إليه لرفع
المظالم وقضاء الحاجات فلا يبخل على أحد بجأه وسميه

قال الجبرتي في هذا الصدد : « إنه اتفق له مراراً أن يركب من الصباح في حوائج الناس
فلا يعود إلا بعد العشاء الأخيرة فيلقيه آخر ذو حاجة في نصف الطريق أو آخره فينهى إليه
قصته إما بشفاعة عند أمير أو خلاص مسجون أو غير ذلك فيتف وهو راكب ، فيقول له في
عد نذهب إليه فإن الوقت صار ليلاً ، فيقول صاحب الحاجة إنه في داره في هذا الوقت فيعود
من طريقه مع صاحب الحاجة إلى ذلك الأمير ولو بمدت داره ويقضى حاجته ويعود بعد حصة
من الليل ، وهكذا كان شأنه ولا ينتظر ولا يؤمل جمالة ولا أجره نظير سميته »
فالرجل إذن كان مثال الشهامة والمروءة ، فلا غرو أن نال احترام الناس ومحبتهم ،

قال الجبرتي: « قالت إليه القلوب ووفد إليه ذوو الحاجات من كل ناحية فلا يرد أحداً ويستقبلهم بالبشاشة وينزلهم في داره ويطعمهم ويكرمهم ويستمرون في ضيافته حتى يقضى حوائجهم ويزودهم ويرجعون إلى أوطانهم مسرورين ومجبورين شاكرين »
ونال احترام الأمراء المماليك ونسأهم بما اشتهر عنه من مكارم الأخلاق والتعفف والتورع فكان يدخل بيوتهم ويتلقاه نساء الأمراء في مجالسهن ويجلس معهن ويسرهن محادثته ويقبلن — على رواية الجبرتي: « زارنا أبونا الشيخ ، وشاورنا أبانا الشيخ ، فأشار علينا بكذا ونحو ذلك »

وله مواقف مشهورة تدل على الشهامة والروءة ، فمن ذلك ما ذكره الجبرتي أنه لما جاء حسن باشا الجزائري الى مصر سنة ١٧٨٦ لإعادة الحكم التركي ومحاربة المماليك ارتحل هؤلاء الى الصعيد وأحاط حسن باشا بدورهم وطلب الأموال من نسأهم واعتقل أولادهم وجواربهم وأزواجهم وأنزلهم إلى سوق المزاد فاجأ إلى المترجم الكثير من نساء الأمراء فأواهن وأجهد نفسه في السعى لحمايتهن ومواساتهن مدة إقامة حسن باشا بمصر ولما جاء الفرنسيون إلى مصر وطرردوا المماليك خرج نسأؤهم من بيوتهم وذهبن اليه أفواجاً لاجئاً إليه ، فامتلات بهن داره وما حولها من الدور ، فخاهن وتصدى للدفاع عنهن أمام الفرنسيين

وكان مرعى المكانة مقبول الشفاعة في عهد الحملة الفرنسية ، وانتخب عضواً بالديوان في عهد نابليون ثم في عهد الجنرال (منو) ، وهو من أعضائه النابليين وكان له ضلع في ثورة أمير الحج كما أوامناً إلى ذلك بالفصل الثالث (١) فقد أخذ يطوف البلاد مع مصطفى بك أمير الحج لإنارة الفلاحين ، وكتب عنه الجنرال (دوجا) في رسالة إلى نابليون أن طوافه مع أمير الحج كان من أسباب استفحال الثورة له من المكانة بين الناس ، وقد رجع إلى القاهرة بعد إخماد ثورة أمير الحج ووضع تحت المراقبة وفي عهد الجنرال منو وضع الفرنسيون نظاماً جديداً لتميين مشايخ البلاد (العمد) ، فأوجبوا أن يكون تعيين كل شيخ بلد بأمر من القائد العام وجعلوا لهيئة مشايخ البلاد مقتشين وجعلوا لها رئيسين أحدهما فرنسي وهو المسيو بريزون Brizon والآخر مصري وهو الشيخ سليمان الفيومي ، فصار كما يقول الجبرتي « شيخا للمشايع » ، فأزدهمت داره بمشايع البلدان يأتون إليه أفواجاً وينذهبون أفواجاً

(١) في نسخة أخرى: « في عهد الجنرال (منو) »

وفي آخر عهد الحملة الفرنسية اعقل في القلعة حين وردت أنباء الحملة الإنجليزية المثمانية ، ولم يلبث قليلا حتى أفرجوا عنه وجاء المثمانيون والمترجم في عداد العلماء والرؤساء والمتصدرين « وافر الحرمة ، شهير الذكر ، بعيد الصيت ، مرعى الجانب ، مقبول القول عند الأكارب والأصاغر » وقد لازمته سجيته التي اشتهر بها في إيواء المنكوبين ومواساتهم ، فلما وقعت الفتنة التي أدت إلى مقتل طاهر باشا مما سنفصله في موضعه وقتل خليل افندي الرجائي الدفتردار التجأ إليه أخو الدفتردار وحاشيته فأوأم في داره وأقاموا عنده وحمام وواسام حتى سافروا إلى بلادهم ، ومات سنة ١٢٢٤ هجرية

الشيخ مصطفى الصاوى

من كبار العلماء والفصحاء المشاهير بالبنان ، وسمى الصاوى نسبة إلى بلدة أبيه (الصوة) من أعمال الشرقية ، وقد انتقل منها أبوه إلى السويس وولد بها المترجم فارتحل إلى مصر ، وكان والده من أعيان التجار فألحق ابنه بالأزهر لحفظ القرآن واشتغل بالقراءة وحضر الدروس على شيوخ ذلك العصر ، وتضلع من العلوم وضرب بسهم في الأدب والبلاغة ، فكان كاتباً بليغاً وشاعراً أديباً ، وقد أورد الجبرتي شيئا من نظمه ونثره ، وكان علماء الأزهر يعترفون له بالتفوق في الكتابة والفصاحة

ويدلك على منزلته من العلم أنه كان مرشحا لمشيخة الجامع الأزهر بعد وفاة الشيخ الروسي وزاحم فيها الشيخ الشرقاوى فهو إذن قرين الشرقاوى ونده في العلم والمكانة ، ولكن مشيخة الجامع استقرت للشرقاوى ، وكان الشيخ الصاوى يتولى من قبل وظيفة التدريس في المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الإمام الشافعى ، وهى من وظائف مشيخة الأزهر ، فلما تولى الشرقاوى المشيخة بقيت وظيفة التدريس في يد الشيخ الصاوى وتلك ميزة تدل على ماله من المكانة العلمية

ولما جاء الفرنسيون ووتعت هزيمة امبابه كان الشيخ مصطفى الصاوى هو والشيخ سليمان الفيومى على رأس الوفد الذى ذهب بالنيابة عن سكان القاهرة لمقابلة نابليون^(١) ، وانتخب عضواً بالديوان وظل عضواً به في عهد نابليون وفي عهد الجنرال منو ، واضطهده الفرنسيون بعد إخماد ثورة القاهرة الثانية فخصوه بجزء من الغرامة التي فرضوها على سكان القاهرة ،

(١) انظر الجزء الأول ص ٩٢ من الطبعة الأولى

واعتقلوه حتى سدد ما فرض عليه ، وكان نصيبه في الغرامة خمسين الف ريال
واعتقلوه للمرة الثانية في مارس سنة ١٨٠١ بعد وصول الحملة الإنجليزية العثمانية ثم
أفرجوا عنه لمرضه
وكانت وفاته في شهر ذى القعدة سنة ١٢١٦ ، ولم يدرك ثورة الشعب على حكم المماليك
وعلى الوالي التركي

الشيخ محمد المهدي

عالم من كبار العلماء ، اشتهر بسعة العلم وحدة الذكاء وقوة المعارضة ، وضرب بسهم في
الأدب والإنشاء ، تردد اسمه كثيراً في مذكرات نابليون وقواد جيشه وفي معظم
المراجع الفرنسية

لعب دوراً كبيراً على مسرح الحوادث السياسية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل
التاسع عشر

ترجمه الجبرتي في وفيات سنة ١٢٣٠ هجرية فوصفه بالأستاذ الفريد والموذعي المجيد ،
الإمام العلامة ، والنحرير الفهامة ، الفقيه النحوي الأصولي الجدلي المنطق الشيخ محمد المهدي
الحفني ، ولد في (ناهية) من أعمال الجيزة ، وسبب تسميته بالحفني أن والده كان قبلياً
وأسلم المترجم وهو دون البلوغ على يد الشيخ الحفني من شيوخ ذلك العصر وفارق أهله
وحضنه الشيخ الحفني ورباه وأحبه واستمر بمنزله مع أولاده واعتنى بشأنه ، فقرأ القرآن ولما
ترعرع اشتغل بطلب العلم واجتهد في التحصيل ليلاً ونهاراً فظهرت عليه مخايل النباهة والجد
وانتقل من التحصيل إلى التدريس في الأزهر سنة ١١٩٠ هـ فاشتهر بسعة العلم وحسن الإلقاء
مع النصاحة والبيان وسلامة التعبير وتحقيق المشكلات ، فأدرك مكانة سامية بين أقرانه ،
وساعده الحظ بانضمامه إلى الأمير اسماعيل بك الذي كان ينافس مراد بك وإبراهيم بك في
إمارة مصر أواخر القرن الثامن عشر ، فلما فاز اسماعيل بك على خصميه بمعاونة حسن باشا
الجزائري^(١) نال الشيخ محمد المهدي حظوة كبيرة لديه وأغدق عليه الخلع والعطايا وأسند له
وظائف بالضر بخانة (دار الضرب) وغيرها ، وقد وقع في عهد اسماعيل بك ذلك الطاعون
الجارف الذي أفنى كثيراً من أمراء مصر وحكامها ومات به عشرات الآلاف من الناس ،
فاختص الشيخ المهدي بما أحبه - كما يقول الجبرتي « مما انحل عن الموتى من إقطاعات ورزق

(١) انظر الجزء الأول ص ٢٢ من الطبعة الأولى

(جمع رزقة) وغيرها وزادت ثروته ورغبته وسعيه في أسباب تحصيل الدنيا وعانى الشركات والتاجر في كثير من الأشياء مثل السكتان والقطن والأرز وغير ذلك من الأصناف والتزم^(١) بمدة حصص بالبحيرة مثل شاور وخلافها وبالمنوفية والجيزة والغربية وابتنى داراً عظيمة بالأزبكية بناحية الروبى^(٢)

هذا ما ذكره الجبرتي عن حياة المترجم ومكانته إلى أن جاءت الحملة الفرنسية ، وهنا يبدأ عهد جديد للمهدى نستخلصه من المراجع الفرنسية ومما ذكره الجبرتي ، فالشيخ المهدي قد نال من ثناء نابليون ومدحهم مما جعله في نظره وفي نظر قواد الحملة الفرنسية في طليعة العلماء فقال عنه في مذكراته : « إنه أذكي علماء الأزهر وأفصحهم لساناً وأكثرهم علماً وأصغرهم سنناً » ، وكان يخلصه بالثقة في كثير من المواطن فقد كان سكرتيراً لأول ديوان أنشاء نابليون وأدرك من السلطة والنفوذ ما لم يتوافر لأحد من أعضاء الديوان ولا لرئيسه ، وكان نابليون يهدد إليه بصياغة منشوراته في القالب العربي المسجع ، ولمّا زحف على سورية واحتل قلعة العريش وعزم على أن يبلغ نبأ هذا الانتصار إلى المصريين أفند إلى الجنرال (دوجا) نائبه في القاهرة كتبية من الجنود تحمل الأعلام التي استولى عليها من العثمانيين وعهد إليه أن يرفها على منارات الأزهر وكتب إليه في هذا الصدد يقول : « أريد أن تقابلوا الشيخ المهدي وأعضاء الديوان وتتفقوا معهم على إقامة احتفال صغير لمقابلة الأعلام المرسله لكم^(٣) »

فاختصاص نابليون الشيخ المهدي بالذكور دليل على ما كان يشعر نحوه من الاحترام والثقة وكان الجنرال دوجا الذي استخلفه نابليون في القاهرة أثناء الحملة على سورية يركن إلى المهدي ويشاوره في كثير من الأمور

ولما غضب نابليون على السادات لاعتراضه على اعتقال ملا زاده ابن القاضي التركي كان الشيخ المهدي هو الداخل في الصلح بينهما ، فهذه الوقائع تدل على ما كان للمهدى من المكانة عند أقطاب الحملة الفرنسية

ولعل سبب هذه المكانة أنه كان يداريهم ويحاملهم ، فهو من هذه الناحية قد فاق الشيخ الشرقاوى في موادة الفرنسيين ، وناله من وراء هذه السياسة من المنافع والزياد أكثر مما نال الشيخ الشرقاوى ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « ولما حضر الفرنسية إلى الديار المصرية وخافهم

(١) أي صار (ملتزماً) طبقاً لنظام الالتزام الذي كان معروفاً في ذلك العصر وقد شرحناه بالجزء الأول ص ٢٩ (من الطبعة الأولى)

(٢) الجبرتي الجزء الرابع

(٣) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٩٨٧

الناس وخرج الكثير من الأعيان وغيرهم هارين من مصر تأخر المترجم عن الخروج ولم يبق بض كغيره عن المداخلة فيهم ، بل اجتمع بهم وواصلهم ، وانضم إليهم وسائرهم ولاطنهم في أغراضهم ، وأحبوه وأكرموه ، وقبلوا شناعته ، ووثقوا بقوله ، فكان هو المشار إليه في دولتهم مدة إقامتهم بمصر ، والواسطة العظمى بينهم وبين الناس في قضاء حوائجهم ، وأوراقه وأوامره نافذة عند ولاية أعمالهم حتى لقب عندهم وعند الناس ب«كاتب السر» .

ولا نعتد أن الجبرتي فيما قاله عن الشيخ المهدي متحامل أو صادر عن هوى ، لأن ميزة الجبرتي في تاريخه أنه يتحرى الصدق ولا يميل عن الحق ، وهو في تاريخه لم يفته أن يثنى على المهدي فيما يستحق الثناء ، اعتبر ذلك فيما ذكره عن اضطراب الأحوال في القاهرة أثناء غيبة نابليون في معركة أبو قير البرية ، وما كان للمهدي من موقف محمود ، فقد راجت الإشاعات بأن سكان القاهرة عاملون على إثارة الفتنة فاستدعى الجنرال دوجا الشيخ المهدي وأكله في هذا الصدد ، فحاجه المهدي ، ونفى التهمة عن المصريين ، وانعمت الديوان في اليوم التالي وكذب المهدي أقوال الوشاة ودافع عن سكان العاصمة ، وأثنى الجبرتي على المهدي في موقفه هذا وقال إن هذا المقام من مقاماته المحمودة ، فالجبرتي إذن يذكر ما للمهدي وما عليه ، بل أغلب الظن أنه كان يميل إليه بعض الميل ، فإنه لما ذكر منشور نابليون الذي أذاعه على لسان الديوان عقب عودته من سورية قال : « إنه من ترصيف وتمييق بعض الفصحاء » والإشارة هنا إلى الشيخ المهدي ، لأنه باتفاق المراجع الفرنسية هو الكاتب للمنشور ، فقدم إفصاح الجبرتي عن اسمه والاكتفاء بالإشارة إلى أنه من ترصيف وتمييق بعض الفصحاء دليل على ما يحتاج في قلبه من الميل إليه

وليس من شك في أن المهدي كان أكثر العلماء نفوذاً لدى الفرنسيين ، وهذا باتفاق الجبرتي والمراجع الفرنسية ، وذلك أنه لما أنشئ الديوان الأول كان سكرتيراً له ، وهو وإن لم يكن من أعضائه إلا أن نفوذه كان أكبر من نفوذ الأعضاء جميعاً ، ولما أعيد تنظيم الديوان في ديسمبر سنة ١٧٩٨ كان من ضمن أعضاء الديوانين العمومي والخصوصي وانتخب في هذه المرة أيضاً سكرتيراً للديوان فجمع بين العضوية والسكرتارية ، وكذلك كان عضواً في الديوان الذي أنشئ في عهد الجنرال منو وسكرتيراً له ، فاستقراره في سكرتارية الديوان في أدواره المتعاقبة دليل على ما ناله من ثقة الفرنسيين واحترامهم ، وقد كان في خلال تلك الأدوار يزداد انتفاعاً من مكانته لديهم ، قال الجبرتي : « ولما رتبوا الديوان الذي رتبوه كان هو المشار إليه فيه ، وخدمة الديوان الموظفون فيه تحت أوامره ، وإذا ركب أو مشى يمشون حوله وأمامه ، وبأيديهم العصي يوسعون له

الطريق ، وراج أمره في أيامهم جداً وزاد إرادته وجمته ، واحتوى بلاداً وجهات وأرزاقاً ، وأقاموه وكيلا عنهم في أشياء كثيرة ، وبلاد وقرى يجبي إليهم خراجها «
ولما ثارت القاهرة ثورتها الثانية وأخذها الفرنسيون واستعادوا سلطتهم وضرّبوا عليها
الغرامات النادرة وخصوا بعض كبار العلماء والأعيان بنصيب جسيم من الغرامة استثنوا
منها الشيخ المهدي والشيخ خليل البكري ، أما البكري فلما لقيه من اهانة العامة واعتدائهم
عليه خلال الثورة ، وأما المهدي فقد قال عنه الجبرتي في هذا الصدد : « أنه كان يستعمل
المداخنة وينافق الطرفين بصنائه وعادته »

وذكر الجبرتي أن انهماكّه في الأطماع الدنيوية قد صرفه عن التفرغ لما يجب على
العلماء ، قال في هذا الصدد : « إنه كان من فحول العلماء ، يدرس الكتب الصعاب في المقول
والمقول بالتحقيق والتدقيق ويقررها بالحاصل ، وانتفع عليه الكثير من الطلبة ، ومنهم الآن
مدرسون مشتهرون ويميزون بين نظرائهم من أهل العصر ، ولو استمر على طريقة أهل العلم
السابقين وبعض اللاحقين ولم يشتغل بالانهماك في الدنيا لكان نادرة عصره ، وقد أراه ذلك
إلى قطع الاشتغال ، فكان إذا شرع في الإقراء لآتم الكتاب في الغالب ويحضر الدرس
في الجمعة يوماً أو يومين ويهمل كذلك ، ولم يصنف تأليفاً ولا رسالة في فن من الفنون مع تأهله
لذلك ، ولم يعان الشعر ولا النظم ، ونثره في المراسلات ونحوها متوسط في بعض القوافي
السهلة » ، ذلك قول الجبرتي في المهدي ، وهو معاصره وصديقه ، وقد يكون للشيخ المهدي
عذره في مداراة الفرنسيين إذ كانوا أصحاب الحول والطول ، فرأى من الحكمة مسألتهم ،
والواقع أنه لم يؤد إليهم خدمة ما ، ولم يسألهم عن عقيدة ، بل كان يحرص كثيراً على الدفاع
عن مصالح مواطنيه أيام حكمهم ، ولعل أدق وصف لنفسيته من هذه الناحية ما ذكره المسيو
بوسليج مدير الشؤون المالية في رسالة إلى نابليون حيث قال : « إن الشيخ المهدي رجل يطمع في
الشهرة والتراف للجواهر وإنه يضحي بجميع الفرنسيين في سبيل الأيفقد شيئاً من منزلته بين
الناس » ، وهي شهادة حسنة للمهدي تدل على سلامة قصده في مسلكه

ولعل هذا المعنى هو الذي يقصده الجبرتي بقوله عن المهدي : « وبالجملة فكان لوجوده
وتصدره في تلك الأيام النفع العام ، وسد بعقله ثقباً واسعاً وخروقا ، وداوى برأيه جروحا
وفتوقا ، لا سيما أيام اليهازع ، والحصومات والتنازع ، وما يكدر الفرنسيات ، من مخارقي
الرعية ، فيتلافاه بمراهم كلماته ، ويسكن حذتهم بملاطفاته »
والظاهر أنه لم يستهدف لغضب المحتلين إلا مرة واحدة أو مرتين ، فالمرّة الأولى لما عاد

نايليون بعد انتصاره في معركة (أوقير) البرية ، فقد ساء ما عداه عن المهدي أنه كان يعارض محافظ المدينة في أحكامه وأظهر استياءه من سلوك المهدي والساوي وبقية أعضاء الديوان وعاتبهم على مسلكهم ، ولكنه ما لبث أمام حسن بيان الشيخ المهدي أن تجاوز عن عتابه قال الجبرتي : « فلما حضر عاتبهم في شأن ذلك فلاطفوه حتى انجلي خاطرهم وأخذ يمدحهم عما وقع له من القادمين إلى أبي قير وانصر عليهم وغير ذلك »

والمرّة الثانية في أواخر عهد الحملة الفرنسية حيث اعتقلوه بالقلمة ضمن من اعتقلوه من

أعضاء الديوان

وقد احتفظ الشيخ المهدي بمكانته بعد جلاء الفرنسيين فصار من المتقدمين والمتصدرين في الحركات الشمبية التي ظهرت على مسرح الحوادث السياسية ، واشترك مع السيد عمر مكرم والسادات والشرقاوي وغيرهم في تولية محمد علي حكم مصر ، وكان له في هذا الصدد فضل مشهود ومقام محمود ، وهو الذي تولى تحرير محضر اجتماع العلماء وقرارهم بعزل خورشيد باشا وهو موقف تاريخي يشرف المترجم ويخلد اسمه ، ولكنه بعد أن تم الأمر لمحمد علي باشا كان قوام الوقعة بالسيد عمر مكرم مما تراه مفصلا في الفصل الثالث من كتاب « عصر محمد علي » ، ولم يزل مرعى المقام عظيم المكانة ، إلى أن توفاه الله سنة ١٢٣٠ هجرية عن نحو خمس وسبعين سنة

السيد أحمد المحروقي

كبير تجار القاهرة ، بل كبير تجار مصر في ذلك العصر ، تختلف شخصيته عن الشخصيات المتقدمة بأنه نشأ في غير البيئة التي نشئوا فيها ، فلا هو تخرج من الأزهر ، ولا نال مكانته بانتسابه للعلم ، بل نشأ من بيت تجاري عريق ، ومارس التجارة فنال فيها منزلة سامية وأدرك بفضلها مركز اجتماعيا كبيرا لا يقل رفعة وسوا عن منزلة كبار الرؤساء والعلماء ، بل فاق بعضهم في المكانة والاعتبار ، وهذا يداك على مبالغ ما للتجارة والأعمال الانتصادية من الاحترام عند الشعب ، ولا غرو فقد كانت طبقة التجار هيئة ممتازة بين طبقات الأمة كما بينا ذلك في الفصل الأول من الجزء الأول

وصفه الجبرتي في ترجمته بعين الأعيان ، ونادرة الزمان ، شاه بندر التجار ، والرتقى مهمته إلى مقام الخار ، النبيه النجيب ، والحسب النسيب ، السيد احمد بن أحمد الشهير بالمحروقي وذكر عن منشئه ومرباه أن أباه كان من تجار الحرير بسوق المنبريين بمصر واشتهر بالصدق والأمانة والتدين والصلاح ، فأحسن تربية ابنه فلما ترعرع خلط الناس ومرن على الكتابة ، وكان على غاية من الحذق والنباهة ، وأخذ وأعطى ، وباع واشترى ، وشارك وتداخل مع التجار ، وحاسب على الأوف

وقد شارك المترجم في العمل تاجراً من كبار تجار الجملة بالقاهرة يسمى السيد أحمد بن عبد السلام ، ف ضرب في تجارة الصادرات واورادات بسهم وافر ، ولما مات السيد أحمد المذكور خلفه المترجم في مراكزه التجارية وفي منصبه (شاه بندر التجار) فصار كبير تجار القاهرة ، وإذا لاحظنا أن القاهرة عاصمة القطر التجارية كان المحروقي كبير تجار مصر قاطبة ، وقد ظهرت مواهبه ومزاياه في مراكزه الجديد « فزادت شهرته ، وعظم شأنه ووجهته ، ونفذت كلمته على أقرانه » ، واتصل بأمراء مصر من المهاليك مثل اسماعيل بك ثم مراد بك وإبراهيم بك وتصدى لقضاء مطالبهم وهم أصحاب الحل والقد ويبدم ساطة الحكم ، فكانوا يتناعون منه مطالبهم ومطالب الحكومة ، فاتسعت تجارته وذاع صيته في الأقطار البعيدة وصار أكبر تجار الصادرات واورادات ، وتمددت معاملاته التجارية مع سائر الأقطار الشرقية وبمض الأقطار الإفريقية ، قال الجبرتي في هذا الصدد ما خلاصته « ولم يزل طالعه يسمو ، وسمعه يزيد وينمو ، وعاد مراد بك والأمراء المصريون (المهاليك) بعد موت اسماعيل بك وانقلاب دولته إلى إمارة مصر ، فاختص المترجم بخدمته وقضاء سائر أشغاله ، وكذلك إبراهيم بك وباقي الأمراء ، وقدم لهم الهدايا والطرائف ، وواسى الجميع أعلامهم وأدنامهم بحسن الصنيع ، حتى جذب إليه قلوب الجميع ، ونافس الرجال وانطقت إليه الآمال ، وعامل تجار النواحي والأمصار ، من سائر الجهات والأقطار ، واشتهر ذكره بالأراضي الحجازية ، وكذا بالبلاد الشامية والرومية ، واعتمدوه وكتبوه ، وراسلوه وأودعوه الودائع وأصناف التجارات والبضائع »

فالمحروقي إذن هو نموذج صالح يصح أن يُقتدى به إلى اليوم في الاضطلاع بالأعمال التجارية والاقتصادية العظيمة المدى ، وفي إنماء ثروة مصر القومية

وبذلك على مبلغ مكانته بين الناس أنه لما اعتزم أداء فريضة الحج سنة ١٢١٢ هجرية « كان يوم خروجه يوماً مشهوداً اجتمع الكثير من العامة والنساء وجلسوا بالطريق للفرجة عليه » كما يقول الجبرتي

وذكر أيضاً أنه لمناسبة زواج ابنه السيد محمد أقام مهرجاناً فخماً وصفه بقوله : « وزوج ولده السيد محمد وعمل له مهمماً عظيماً افتخر به إلى النفاية ، ودعا إليه الأمراء والأكابر والأعيان وأرسل إليه إبراهيم بك ومراد بك الهدايا العظيمة المحملة على الجمال الكثيرة ، وكذلك باقى الأمراء ومعها الأجراس التي لها رنة تسمع من البعد ، ويقدمها جل عليه طبل نقارية ، وذلك خلاف هدايا التجار وعظماء الناس والنصارى الأروام والأقباط الكنبية وتجار الإفرنج

والأزراك والشوام والمناربة وغيرهم ، وخلع الخلع الكثيرة »
فهذا الوصف الذي نقلناه كما أورده الجبرتي يعطيك صورة عن منزلة المترجم بين عظه
عصره وما أدركه من المز والجاه

وظل على هذه المسكنة حينما جاء الفرنسيون إلى مصر ووقعت هزيمة امبابه أثناء رجوعه
من الأفطار الحجازية ، وقد جاء في قافلة نهبها العربان بالقرب من بلبليس ، وكان نابليون وقتئذ
يتعقب إبراهيم بك في الشرقية ، فقابله وعرف مكانته فأكرم مشواه ووعدته برد ما نهب منه
وأرسل يتعقب المعتدين ورد إليه ما أمكنه استخلاصه ورجع إلى القاهرة ، فكان لمنزلته
التجارية والمالية موضع احترام الفرنسيين ، وانتخب عن التجار ضمن أعضاء الديوانين
العمومي والخصوصي المدين انشأ في ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، واصطحبه نابليون في رحلته إلى
السويس ، ولما وقعت ثورة القاهرة الثانية كان من زعمائها والتصديرين لتنظيمها بماله وهمته
ونفرذه ، وإلى ذلك يشير الجبرتي بقوله :

« ووصل عرضي ^(١) العثمانية والأمراء المصرية (المهاليك) نخرج فيمن خرج لملاقاتهم ،
وحصل بعد ذلك ما حصل من نقض الصلاح ^(٢) والحروب ، واجتهد المترجم في أيام الحرب
وساعد وتصدى بكل همته وصرف أموالا حجة في المعات والمؤن »

يتبين مما تقدم أن السيد المحروق لم يكن متوفراً على أعمال تجارته الواسعة فحسب ، بل
كان يشترك في الحياة العامة فارتفع إلى مستوى زعماء الشعب ، فهو من هذه الناحية خير
مثال لكبار الأعيان والتجار يقتدى به في الجمع بين تنمية الثروة الشخصية وأداء الواجبات
الوطنية ، والواقع أن إنماء الثروة وتمهدها بالحزم وحسن التدبير ليس عملاً شخصياً فحسب ،
بل هو عمل قومي جليل لأنه إنماء للثروة القومية العامة ، والخير فيها يعم البلاد وأهلها

اشترك المترجم في ثورة القاهرة الثانية ، ولما أخفقت هاجر إلى سورية صحبة السيد عمر
مكرم نقيب الأشراف ، ولازمه في منفاه وهجرته ، وصادر الفرنسيون أملاكه في غيبته ، ولم
يعد إلى مصر إلا بعد جلاء الفرنسيين ، وازدادت مكانته وعظم جاهه بعد عودته من منفاه ،
وصار موضع الاحترام عند ولاة الأمور والجمهور ممأ ، وزاره الصدر الأعظم يوسف باشا ضيماً
في بيته تكريماً له ودامت الزيارة ساعة من الزمن ، وبكفيمك لتتعرف مبلغ ما وصل إليه من
النفوذ والجاه بعد جلاء الفرنسيين أن ترجع إلى قول الجبرتي عنه : « فصار المترجم هو المشار

(١) جيش

(٢) معاهدة العريش

إليه في الدولة، والتزم بالاقطاعات والبلاد، وحضر الوزير^(١) إلى داره وقدم إليه التقدام والهدايا، وبأشغال الأمور العظيمة، والقضايا الجسيمة، وما يتعلق بالدول والدواوين، والهيات السطانية، وازدحم الناس ببابه وكثرت عليه الانبعاث والأعوان والقواسمة والفراشون وعساكر رومية (تركية) و مترجمون وكلا رجمة ووكلاء، وحضرت مشايخ البلاد والفلاحون بالهدايا والتقدام والأغنام والجمال والخيول وضاق داره بهم فأنخذ دوراً بجواره وأنزل بها الوافدين « وعظم نفوذه في عهد خسرو باشا » فاختص به اختصاصاً كلياً وسلم إليه انقاليد الكلية الجزئية، وجملة أمين الضربخانة^(٢) وزادت صولته وشهرته، وطار صيته، واتسعت دائرته وصار بمنزلة شيخ البلد^(٣) بل أعظم، ونفذت أوامره في الإقليم المصري والرومي والحجازي والشامي، وأدرك من العز والجاه والعظمة ما لم يتفق لأمثاله من أولاد البلد، وكان ديوان بيته أعظم الدواوين بمصر، وتقرب وجهاء الناس لخدمته، والوصول إلى سدة، ووهب وأعطى، وراعى جانب كل من انتمى إليه وأندق عليه «

فالسيد المحروق قد نال إذن من المنزلة الاجتماعية والسياسية بفضل كفايته الاقتصادية والمالية ما سماه به إلى الصف الأول من الرؤساء والزعماء في فجر النهضة القومية، فلا غرو أن نعدده شخصية ممتازة من شخصيات ذلك العصر

وقد استهدف لمظالم طاهر باشا الذي تولى الحكم بعد الفتنة العسكرية التي انتهت بطرد خسرو باشا، فهب الجنود المتمردون داره بالاربيكية لما اشتهر عنه من ولانه لخسرو، واعتقله طاهر بالقلمة، فكان لا عنتاله وقع أليم في النفوس، وتوسط العلماء في أمره فأفرج عنه طاهر وأمره أن يلزم بيته وجعله رهن مراقبة الجنود وفرض عليه آتاوة كبيرة من المال يفتدى بها نفسه، ولم ينجح المحروق من شرور طاهر باشا إلا بعد مقتله، وقد جاء ذكره في تقرير للكولونل سباستيانى الذى أوفده نابليون إلى مصر في ١ أكتوبر سنة ١٨٠٢ ليتعرف أحوالها ويرقب موقف الانجليز فيها، مما سيجىء بيانه، فبعث إلى نابليون بتقرير عن الحالة في مصر ورد فيه أسماء بعض كبراء مصر في ذلك العهد فذكر السيد عمر مكرم والسيد محمد السادات

(١) الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا

(٢) مدير دار الضرب وكانت من أكبر مناصب الدولة في ذلك العصر وقد ذكر الجبرتي في حوادث ربيع الثانى سنة ١٢١٧ (اغسطس سنة ١٨٠٢) أن السيد المحروق لما تقلد أمانة الضربخانة أقام مهرجاناً ابتهاجاً بتقلده هذا المنصب « وفرق ذهباً كثيراً وعمل ليلة بالمشهد الحسينى ودعا الباشا (خسرو) والدفتردار (مدير الشؤون المالية) وأعيان الدولة والعلما، وأولم لهم وليمة عظيمة، وأوقد بالمسجد وقدة كبيرة وقدم للباشا تقديماً، وفي صباحها أرسل مع ولده هدية وتمييه أقمشة نفيسة، فخلع عليه الباشا فروة سمور »

(٣) هو اللقب الذى كان يعطى لكبير المالك في إبان سطوتهم وهو بمثابة أمير مصر

والشيخ سليمان الفيومي وذا النقار (الذي كان كمتخدا نابليون في عهد إقامته بمصر) والسيد المحروق ، وقال عنه إنه أكثر الأعيان نفوذاً عند خسرو باشا^(١) وظل محتفظاً بمكانته واسع الجاه عظيم المقام والاحترام إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٢١٩ هجرية

أولئك هم قادة الشعب وزعماءه في فجر النهضة القومية ، ومهما لاحظت في تراجم بعضهم من مواطن ضعف أو نقد ، فلا تنس أنهم رجال ظهروا على مسرح الحياة القومية منذ نيّف ومائة ومئتين عاماً ، أي قبل أن يسبقهم غيرهم إلى تمهيد سبيل العمل والجهاد في عندهم ، ففضلهم من هذه الناحية لا يصح أن يفكر ، وحقهم لا يجوز أن يغمط ، ولا تنس أيضاً أنك إذا طلبت إليهم أن يقدموا حساباً أمام التاريخ وأمام الأجيال المتعاقبة عن نصيبهم في الحركة القومية فحسبهم أنهم في مجموعهم أصحاب الفضل الأكبر واليد الطولى في الحركات الشعبية التي ظهرت في توجيه زيادة الأمة إلى مقاومة الحكم الفرنسي ، ثم مقاومة حكم المهاليك ، ثم مقاومة الحكم التركي ، ثم إحياء سلطة الأمة باختيار ولي الأمر وإجلاله على عرش مصر ، فهم إذا دعاء التطور السيامي الذي شهدته مصر في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وهم في تواضعهم وشمول ذكر الأكتثرين منهم قد قام على أكتتافهم وبارادتهم أكبر انقلاب في نظام الحكم ، فهم الذين أعلنوا حق الشعب في تقرير مصيره بخلمهم الوالى التركي وإسناد زمام الحكم إلى عبقرية محمد على العظيم ، ولا يعزب عن البال أن هذا الانقلاب كان فاتحة الخير والاستقلال لمصر والمصريين ، وهو الأساس الذى شيدت عليه دعائم الدولة المصرية في تاريخ مصر الحديث

ظهور محمد على الكبير

قلنا إن القوات الثلاث التى تنازعت السلطة في وادى النيل تجاهلت العامل القومى الذى ظهر في الميدان ولم تحسب له حساباً ، لكن رجلاً واحداً قد أدرك مبلغ تأثير هذا العامل الجديد في مصير البلاد ، ورأى بشاقب نظره أن النصر مكفول لمن يستمئن به ويضمن تأييده في ميدان الكفاح والنضال ، هذا الرجل هو محمد على الكبير

(١) تقرير الكولونل سباستيانى المنشور بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٨٠٣ والوارد في مجموعة معاهدات الباب العالى للبارون دى تستا الجزء الثانى

نشأ محمد على بمدينة (قوله) من ثغور مقدونية موطن الاسكندر الأكبر ، ولد سنة ١٧٦٩ في السنة التي أنجبت طائفة من عطاء الرجال ، فيها ولد نابليون وولنجتون (١) ، كان أبوه ابراهيم أغا رئيس الحرس المنوط به خفارة الطريق ببلده وكان له سبعة عشر ولداً لم يمش منهم سوى محمد على ، ومات عنه صغير السن يتيماً من الأبوين لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره فكفله عمه طوسون ، ثم توفي عمه بعد ذلك بمدة يسيرة ، فكفله حاكم المدينة (الشوريجي) وكان صديقاً لولده ، فلما بلغ محمد على أشده انتظم في سلك الجهادية ، وصرعان ما تجلت شجاعته في الميدان قبل أن يظهر نجمه في الأفق ، فقد حدث أن امتنعت إحدى القرى (٢) التابعة لتصرفية قوله عن دفع ما عليها من الضرائب ، فخار المتصرف في أى طريق يسلكه ، فعرض عليه محمد على أن يعهد إليه في إجبار أهل القرية على أداء ما عليهم ، فدهش المتصرف لهذه الجرأة لأن القرية كانت خالية من حامية عسكرية تهرب الأهالي وتكرههم على الدفع ، لكنه إزاء الحاح محمد على قبل أن يعهد إليه في هذه المهمة ، فسار محمد على إلى القرية مصطحباً عشرة من الجنود ، ولما بلغها ذهب رأساً إلى المسجد دون أن يبدو عليه أنه قادم لمهمة ذات شأن ، وأخذ يؤدي فريضة الصلاة فظنه الناس زائراً أو سائحاً ، وهناك أرسل يستدعي أربعة من أعيان القرية بحجة مقابلتهم في شأن يخصهم ، فجاء الأعيان دون أن يملوا أن في الأمر محظوراً ، وما هو إلا أن دخلوا المسجد حتى أمر محمد على رجاله فانقضوا عليهم وكبلوهم بالحديد وساقوهم إلى قوله ، فلما علم الأهالي بما حل بأعيانهم أقبلوا سراعاً لتجديتهم وفك أسارهم ، لكن محمد على سدّد الأسلحة على الأعيان الممتقلين وتوعد بقتلهم إذا هم أهل القرية بإطلاق سراحتهم ، فاشتوا عن قصدهم ووصل محمد على إلى (قوله) وفي ركابه الأعيان مأسورين ، وبهذه الوسيلة دفع الأهالي ما عليهم من الضريبة لينتدوا رؤساءهم ، فأعجب المتصرف بمهارة محمد على وبسالته في هذه الحادثة ورفاهه إلى رتبة بلوك باشي

وواقع ان هذه الحادثة تدل على ما جبلت عليه نفس محمد على منذ صباه من الجرأة والتحام المحاطر ، إذ كان من المحتمل أن يذهب ضحية مغامرته في هذه القرية النائرة ، فالشجاعة التي ظهرت عليه منذ نمومة أظفاره كانت من أخص صفات محمد على بل هي من أسباب نجاحه في تأسيس ملكه العظيم

وقد زوجه متصرف قوله بقرية له مطلقة ذات ثروة واسعة وهي التي أنجبت له ابراهيم

(١) ومنها ولد شاتو بريان الكاتب الفرنسي الشهير وكوفيه العالم الكيميائي وشر الشاعر الألماني

(٢) واسمها براوسطة



محمد علي باشا

في أوائل حكمه — أخذت هذه الصورة بالإسكندرية سنة ١٨١٨ وقلناها عن رسوم كتاب المسيو مانجان الذي ظهر في عصر محمد علي

وطوسون واسماعيل ، وتفرغ لتجارة الدخان فرح منها ، وكان لممارسته التجارة دخل كبير في تثقيف ذهنه وممرانه على معالجة الشؤون المالية ، ولعلها السبب فيما بدا عليه بعد أن تولى الحكم من الخندق في المسائل التجارية والاقتصادية ، وقد لازمه الميل إلى ممارسة التجارة والتطلع إلى أرباحها الوفيرة حتى أنه احتكر تجارة القطن المصري بأجمعها كما سيجيء بيانه

وكان في المدينة تاجر فرنسي يدعى السيو (ليون) عرف محمد علي في صباه وأخلصه الود والعطف ، وأفاده بخبرته في التجارة ، فلم ينس محمد علي بعد ما وصل إلى قمة المجد فضل ذلك التاجر ، فاستفسر عنه وعلم أنه عاد إلى مرسلينا فأرسل سنة ١٨٢٠ يستدعيه إلى مصر لكن المنية عاجلته في الوقت الذي اعزم تلبية دعوة الباشا فأسف عليه محمد علي وبعث إلى أخته بمشرة آلاف فرنك إعرابا عن أسفه على وفاة أخيها

مارس محمد علي تجارة الدخان ، وكانت تجارته ولم تزل من أهم موارد مقدونية ومن أعظم صادراتها ، على أنه ما لبث أن عاد إلى الحياة العسكرية التي مهر فيها قبل أن يمارس التجارة ، ذلك أنه لما أغار نابليون على مصر وشرع الباب العالي في تمهينة جيوشه لمحاربة الفرنسيين فيها صدر الأمر إلى متصرف قوله بتقديم ما لديه من الجنود فألف كتيبة من ثلثمائة جندي انظم محمد علي في سلكها وكان ابن الحاكم (علي أغا) رئيساً لها ومحمد علي معاوناً له ، جاءت هذه الكتيبة على ظهر العمارة التركية التي رست في ساحل أبو قير بقيادة حسين قبطان باشا في شهر مارس سنة ١٨٠١

جاء محمد علي إلى مصر ، فوجد الميدان خصبا لظهور مواهبه وعبقريته ، واشترك في المارك الأخيرة التي دارت رحاها بين الإنجليز والأتراك من جانب والفرنسيين من جانب آخر ، وظهر اسمه في هجوم الجيش التركي على الرماية إذ كان يدافع عنها الجنرال لاجرانج Lagrange ، وناط به حسين قبطان باشا مهاجمة القلعة واحتلالها فساعدته الحظ في مهمته بانسحاب الفرنسيين من قلعة الرمانية فاحتلها محمد علي دون عناء

وقد شهد انتهاء عهد الحملة الفرنسية وبقى في مصر وارتقى في غضون ذلك إلى مرتبة كبار الضباط فنال رتبة (بكباشي) قبل جلاء الفرنسيين ثم رقاہ خسرو باشا في أواخر سنة ١٨٠١ إلى رتبة سرجمه أي (لواء) ، وأخذ يرقب تطور الصراع بين القوات الثلاث التي كانت تتنازع السلطة في مصر ، ولح من خلال الأفق أن هذه القوات مصيرها إلى الزوال ، ووضع لنفسه خطة تدل على اصالة رأيه وبعد نظره ، خطة لم يسبقه إليها في ذلك العصر قائد أو حاكم

سياسي ، وهي أن يتحجب إلى الشعب ويستميل إليه زعماءه ويستعين به للوصول إلى قمة السلطة وفي الحق إن هذه الخطة كانت جديدة ، بل كانت غير مألوفة في ذلك العصر وخاصة في الشرق ، والقوات التي تنازعت السلطة في مصر كانت تعتمد على قوة الجند ولم تكن تحسب حساباً لإرادة الشعب ، أما محمد علي فهو أول من استعان بالعامل القومي الذي ظهر على مسرح الأحداث السياسية ، فهو من هذه الناحية ثمرة من ثمرات الحركة القومية ، وهو دور من أدوارها التاريخية ، اقترن ظهوره بظهور العامل القومي ، وكانت ولايته نتيجة اختيار وكلاء الشعب ومناداتهم به والياً مختاراً على مصر ، ولقد برهن بعد أن تولى الحكم على أنه أكبر ببناءً في صرح القومية المصرية

فمحمد علي هو غرس الإرادة القومية ، وأولاً تلك الإرادة لدفت عبقريته ومواهبه في ولاية من أفاضى السلطنة العثمانية أو في ناحية من نواحي « المابين »

الصراع بين القوات الثلاث

تلك كلمة اجمالية وصفنا بها حالة مصر السياسية خلال السنوات التي أعقبت جلاء الفرنسيين ، وآآن فلننتقل من الإجمال إلى التفصيل ولنستعرض الحوادث من بدء الصراع بين القوات الثلاث إلى أن تمت مبايعة محمد علي والياً على مصر بإرادة الشعب تعيين خسرو باشا والياً لمصر

أخذت القوات الثلاث يرقب بعضها بعضاً مدي شهرين كل منها بمرصدي للأخرى تتحين الفرص لتحقيق أطامعها ، وفي خلال هذه المدة ظل يوسف باشا ضيا (الصدر الأعظم) في معسكره بالقاهرة صاحب الحول والطول ينظم الإدارة ويهزل من شاء ويولي من شاء من صنائه ونقلد محمد خسرو باشا ولاية مصر ، وهو أول وال عثمانى عين بعد جلاء الفرنسيين ، وكان قبل توليته ككتخدا (وكيل) حسين قبطان باشا ومن خاصة أصدقائه وهو الذي سمى له في تقييده ولاية مصر^(١) وقد بقى الوالى بأبو قير بجانب رئيسه قبطان باشا واكتفى بإرسال خازن داره إلى القاهرة

(١) كان خسرو باشا من ممالك قبطان باشا قبل أن يكون وكيله ، وقد وقع خلاف بين حسين باشا والصدر الأعظم على هذا التعيين لأن الصدر الأعظم كان يرغب إسناد ولاية مصر إلى محمد باشا أبو صرق أحد رؤساء الجيش العثمانى الذى جاء بحجه الصدر الأعظم ودخل معه القاهرة على أن يكون والياً لمصر . لكن نفوذ حسين قبطان باشا تغلب على رغبة الصدر الأعظم إذ كان حسين باشا مقرباً إلى السلطان سلم وله عنده حرمه الود وقد تربى معه . وكان له فضلاً عن ذلك مكانة ممتازة نالها من كونه مجدد العمارة التركية ، ومدنى . معظم سفنها في ذلك العصر فاستنضع بنفوذ لدى السلطان أن يستصدر فرماناً بإسناد ولاية مصر إلى خسرو باشا .

كان الصدر الأعظم يتظاهر بالود للماليك ، فاعتره هؤلاء بظاهره على حين كان في الوقت نفسه يعمل على الموقعة وإيقاع الانقسام بينهم ليضربهم ببعض تمهيداً للقضاء عليهم جميعاً عند سفوح الفرصة ، فمينا محمد بك الأتقي أميراً على الصعيد وكان هذا المنصب مطمع كثير من البكوات الماليك فحقوا ونفسوا على الأتقي انفراد بهذه الإمارة ، واعترم الصدر الأعظم وحسين باشا القبطان أن يأخذارؤسا هم غيلة ، وكانت هذه الأساليب مألوقة في ذلك العهد ، فاتنقا أن يدعو كل منهما فريقاً من زعماء الماليك إلى الاجتماع به ، الأول في القاهرة والثاني في الاسكندرية بحجة تكريمهم وتقليدهم سلطة الحكم في البلاد ، فإذا ما اجتمعوا فتك بهم الجند أو غلاوهم في الحبوس وأرسلوهم إلى الاستانة لتقرر الحكومة التركية في مصيرهم ما تراه

المؤامرة على الماليك

في أوائل أكتوبر سنة ١٨٠١ أرسل حسين باشا يدعو كلا من عثمان بك الطنبورجي زعيم الماليك وخليفة مراد بك وعثمان بك البرديسي ومراد بك الصغير وغيرهم من البكوات من بيت مراد بك (أتباعه) إلى زيارته بمعسكره بأبو قير ، وأعلمهم أن الغرض من هذه الزيارة هو الاتفاق معهم على تخويلهم سلطة الحكم في القاهرة بدلا من ابراهيم بك وأنصاره ، فلبى الماليك الدعوة وساروا لمقابلته في معسكره وبالغ في الحفاوة بهم وظلوا في ضيافته أياما عدة ثم عقد اجتماعا تلا عليهم فيه فرمانا قل إنه صدر من السلطان بإعلان رضاه عن الماليك وأبقائهم في مناصبهم التي كانوا عليها من قبل في حكومة البلاد ، ثم دعاهم لهذه المناسبة إلى زيارة بارجته الراسية في خليج أبو قير ، فنزل البكوات في زورقه الخاص به لينقلهم إلى بارجة اتقبطان باشا ، وبعد أن ابتعد الزورق عن البر وأصبح في اللجة التقوا بمركب آت من عرض البحر وفيه جماعة من السعاة أخبروا أن لديهم رسالة باسم قبطان باشا فهض الباشا وتركهم بحجة الاطلاع على الرسائل وانقل إلى المركب الآخر وأمر أن يُدفع به وبقى الماليك وحدهم ، فكانت هذه العلامة نذيراً بإفناذ المؤامرة ؛ فاهى إلا لحظة حتى أخذ الرصاص ينهال عليهم من رجال قبطان باشا ، وعلوا أنهم وقعوا في الفخ الذي نصب لهم ، فدافع الماليك عن أنفسهم دفاعاً شديداً وقتلوا كثيراً من المساكين الذين عهد إليهم بالفتك بهم ولكنهم غلبوا على أمرهم أمام كثرة الجنود والبحارة فقتل في هذه المؤامرة من زعماء الماليك عثمان بك الطنبورجي

خليفة مراد بك وثمان بك الأشقر^(١) ومراد بك الصغير، وعلي بك أيوب، ومحمد بك المنفوخ
ومحمد بك الحسيني، وإبراهيم كتحدا السفاري (وكيل مراد بك)، وجرح كل من عثمان بك
البرديسي وحسين بك. وسليمان أغا جروحا بليغة، وسيقوا مع باقي المماليك إلى بارجة قبطان
باشا واعتقلوا بها

كان الإنجليز يجهلون تدبير المؤامرة، فلما علموا بها غضب الجنرال هتشنسون غضباً
شديداً واعتبرها عملاً عدائياً موجهاً ضد الإنجليز، وعدها وحشية، وكادت الحرب تنشب
بين الإنجليز والعثمانيين لولا أن سلم حسين باشا القبطان بإطلاق سراح المماليك المسجونين
وتسليم جثث القتلى منهم، وانتقل المماليك من معسكر أبو قير إلى الاسكندرية ليكونوا في حمي
الإنجليز، واحتفل هؤلاء بدفن قتلى المماليك احتفالا عظيماً بالاسكندرية وأرسل الجنرال هتشنسون
نبأ هذه المؤامرة إلى الجيش الإنجليزي الرابطة بالجيزة

رواية الجبرتي

وإليك ما ذكره الجبرتي من خبر هذه المؤامرة :

« وفيه^(٢) وردت الاخبار بأن حسين باشا القبطان لم يزل يتحيل وينصب الذخاخ للأمرء
الذين عنده وهم محترزون منه وخائفون من الوقوع في حباله فكانوا لا يأتون إليه إلا وهم
متسلحون ومحترزون وهو يلاطفهم ويبش في وجوههم إلى أن كان اليوم الموعود به فعزم
عليهم في الغليون الكبير الذي يقال له « ازج عنبرلي » فلما طلغوا إلى الغليون وجلسوا فلم
يجدوا القبودان فأحسوا بالشر . وقيل إنه كان بصحبتهم فحضر إليه رسول وأخبره أنه
حضر معه ثلاثة من السعاة بمكاتبة . فقام ليرى تلك الرسالة . فما هو إلا أن حضر إليهم
بعض الأمرء وأعلمهم أنه ورد خط شريف باستدعائهم إلى حضرة مولانا السلطان وأمرهم
بترع السلاح فأبوا ونهض محمد بك المنفوخ وسل سيفه وضرب ذلك الكبير فقتله فما وسع
البقية إلا أنهم فعلوا كفعله وقتلوا من بالغليون من العساكر وقصدوا الفرار . فقتل عثمان بك
المرادي الكبير، وثمان بك الأشقر . ومراد بك الصغير . وعلي بك أيوب . ومحمد بك
المنفوخ ومحمد بك الحسيني وإبراهيم كتحدا السفاري . وقبض على الكثير منهم وأنزلوهم

(١) هو من ممالك ابراهيم ومن تبوه إلى سورية بعد موقعة الاهرام وعاد معه صحبة الجيش العثماني
ثم سافر مع حسين باشا القبطان إلى أبو قير وقتل في المؤامرة .

(٢) الخميس ٢٠ جمادى الثانية سنة ١٢١٦ (١٢٨ أكتوبر سنة ١٨٠١)

المراكب ، وفر البقية مجروحين إلى عند الإنكليز . وكانوا واقمين عليهم من ابتداء الأمر فاعتاط الإنكليز وانحازوا إلى اسكندرية وطردها من مها من العثمانيين وأغلقوا أبواب الأبراج وحضر منهم عدة وافرة وهم طواير بالسلاح والمدافع واحتاطوا بقبطان باشا من البر والبحر قهياً عساكره لجرهم فمنهم . فطلب الإنجليز برونه بمساكره لجرهم ، فقال لم يكن بيننا وبينكم حرب . واستمر جالساً في صيوانه . فحضر إليه كبير الإنجليز (الجنرال هتشنسون) وتكلم معه كثيراً وصمم على أخذ بقية الأمراء المسجونين فأطلقهم له قتلهم وأخذ أيضاً للمقتولين . ونقل عرضي (ممسكراً) الأمراء من محطهم إلى جهة الإسكندرية ، وعملوا مشهداً للقتلى مشى فيه عساكر الإنجليز على طريقهم في موتى عظامهم »

مؤامرة القاهرة

وحدث للماليك القاهرة ما حدث لإخوانهم بالإسكندرية ، غير أن الصدر الأعظم كان أقل فظاعة من حسين باشا

ذلك أنه دعا إبراهيم بك والبكوات الماليك الذين كانوا في القاهرة وضواحيها إلى ديوان عقده بقصره وأمر بتلاوة فرمان يشبه فرمان الذي تلاه حسين باشا في مؤامرة أبو قير ، وزاد فيه أن إبراهيم بك عين « شيخ البلد » وهو اللقب الذي كان يعرف به رئيس حكومة مصر في عهد الماليك ، وبعد أن أعقد عليهم الهدايا ومداهم بالوعود الخلابية قلب لهم ظهر الجن وأمر بتلاوة فرمان آخر ينقض فرمان الأول ويقضى بالقبض عليهم وتغليطهم بالحديد وإرسالهم مخفورين إلى الاستانة ، وقد قبض عليهم فعلا وسيقوا إلى سجن القلعة ، وأصدر يوسف باشا أوامره للجنود العثمانية بالقبض على كل من يعثرون عليه من الماليك في القاهرة وضواحيها وتهديد من يؤويهم من الناس ، وأنفذ طاهر باشا أحد قواد الجند الألبانيين بطائفة من جنوده ليقبض على محمد بك الأتفي في الصميد ، وذهبت طائفة أخرى إلى سليم بك أبي دياب أحد زعماء الماليك وكان مقياً بالمنيل لاعتقاله ولكنها لم توفق إلى القبض عليه لهربه واحتمائه بالجيش الإنجليزى الذى كان مرابطاً بالجيزة وطلب سليم بك أبو دياب وباقي الماليك الذين لم يقبض عليهم حماية الإنجليز فحومهم وطلب الجنرال هتشنسون من الصدر الأعظم إطلاق سراح الأمراء الماليك وإلا أعلن الحرب على الجنود العثمانية ، وأنفذ لهذا الغرض الجنرال ستوارت Stuart فحضر إلى الجيزة يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٨٠١ ، فخشى الصدر الأعظم عاقبة القتال وأفرج عن السجناء

رواية الجبرتي

وإليك ما ذكره الجبرتي عن هذه المؤامرة :

« وفي يوم الثلاثاء (حدى عشر جمادى الثانية)^(١) عمل الوزير الديوان وحضر عنده الأمراء فقبض على إبراهيم بك الكبير وباقي الأمراء الصناجق وحبسهم ، وأرسل طاهر باشا بطائفة من العساكر الأرنأؤود إلى محمد بك الألفي بالصعيد وكان أشجع هروبه إلى جهة الواحات ، وذهبت طائفة إلى سليم بك أبي دياب وكان مقبلاً بالنيل فلما أخذ الخبر طلب الحرب وترك حملته . فلما حضر العسكر إليه ولم يجدوه نهبوا القرية وأخذوا جماله وهي نحو السبعين وهجنه وهي نيف وثلاثون هجيناً وذهبت إليه طائفة بناحية طرة فقاتلهم ووقع بينهم بعض قتلى ومجروح ثم هرب إلى جهة قبلى من على الحاجر ووقفت طائفة العسكر والأرنأؤود بالأخطاط والجهات وخارج البلد يقبضون على من يصادفونه من المهاليك والأجناد . ونودى في ذلك اليوم بالأمن والأمان على الرعية والوجاقلية . وأطلق الوزير (الصدر الأعظم) مرزوق بك ورضوان كتحدا إبراهيم بك وسليمان أغا كتحدها المسمى بالحنفي وأحاطت العسكر بالأمراء المعتقلين واختنق باقيهم ونودى عليهم وبالتواعد لمن أخفاهم أو آواهم وبتأويله كانت أسوأ عليهم من ليلة كسرهم وهزيمتهم من الفرنسييس (في معركة الأهرام) وخاب أملهم وضاع تعبهم وطمعهم . وكان في ظهم أن العثملى يرجع إلى بلاده ويترك لهم مصر ويعودون إلى حالتهم الأولى يتصرفون في الأقاليم كيفما شاؤوا . فاستمروا في الحبس ثم تبين أن سليم بك أبا دياب ذهب إلى عند الانجائز والتجأ إليهم بالجيزة »

هذا وقد ذهب المهاليك بعد إطلاق سراحتهم إلى الجيزة بصحبهم رجالهم وأتباعهم ، وهناك التقوا بمن فروا من إخوانهم وانضم إليهم المهاليك الناجون من مؤامرة أبو قير وبلغ عددهم جميعاً نحو ٢٥٠٠ مملوك وانفقوا على الانتقام من الأتراك

وقد كسب الانجائز بهذا التدخل جانب المهاليك وأصبحوا حمايتهم وصار القوم صنائع لهم في قضاء مآربهم ، على أن الحوادث السياسية خيبت آمل الفريقين فخلصت البلاد من المهاليك ومن الدسائس الانجائزية كما سيراه القارى فيما يلي

انتهت المؤامرة على المهاليك بالفشل ، وتخرج مركز حسين باشا القبطان أمام حلفائه الانجائز فلم يلبث أن سافر من أبو قير إلى الاستانة في أواخر نوفمبر سنة ١٨٠١ (رجب سنة ١٢١٦)

(١) سنة ١٢١٦ (يوافق ١٩ أكتوبر سنة ١٨٠١)

تغير وقتى في وجهة النظر الانجليزية

جمع المايك شملهم واجتمع زعمائهم الذين نجوا من مؤامرة الاسكندرية بمن نجوا من مؤامرة القاهرة ، وبقوا بالحيزة يمدون العدة لقتال الاتراك وينتظرون المدد والعون من الانجليز ، على أن السياسة الانجليزية اقتضت أن تتظاهر مؤقتاً بالترام الحياد وأن تدخرهم لوقت آخر ، ذلك أن فرنسا أخذت تقترب إلى الباب العالى بمد جلاء جيشها عن مصر وتسمى لإقامة روابط الصداقة القديمة التي كانت تصلها بتركيا وتراخت مدة الحملة الفرنسية ، فلما زالت أسباب الجفاء سعت في عقد معاهدة صالح من شروطها إعادة العمل بالمعاهدات القديمة بين الدولتين ، أبرمت هذه المعاهدة في باريس يوم ٩ أكتوبر سنة ١٨٠١^(١) ووقعها المسيو (تاليران) وزير خارجية فرنسا والسيد على افندى سفير تركيا في باريس ، فلما علمت بها الحكومة الانجليزية ساءها أن ترى فرنسا منافستها وعدوتها اللدود تسترد مركزها في الشرق بالاتفاق مع تركيا ، فأخذت تسعى لدى الباب العالى في منع التصديق على المعاهدة ، وقد وجدت بادى الأمر فتورا من الحكومة التركية لما بلفها من معاونتها للمايك العصاة وتأبيدها لمطالبهم ، فاضطرت إنجلترا أن تنكر هذه المعاونة وأنكرت موقف الجنرال هتشنسون والجنرال ستوارت واستدعت أولهما إرضاء لتركيا ، وسعى اللورد (إلجين) Elgin سفير إنجلترا في الاستانة سعياً متواصلاً ليحمل الباب العالى أن يعدل عن تصديق المعاهدة ، وكان لنفوذه الفعال على شاطىء البوسفور أثر كبير في نجاح مسعاه ، فلم يقبل الباب العالى من شروط المعاهدة إلا ما لا يتعارض مع مقدمات الصالح التي أبرمت بين فرنسا وإنجلترا في لندن بتاريخ أول أكتوبر سنة ١٨٠١^(٢) ، وهذا معناه عدم التصديق على المعاهدة

رحل الجنرال هتشنسون إداً عن مصر وخلفه في قيادة الجيش الانجليزى الماجور جنرال اللورد كافان Cavan وجاء إلى مصر المستر ستراتن Straton سكرتير السفارة الانجليزية في الاستانة يحمل تعليمات الحكومة البريطانية عن سياستها في مصر وأفهم اللورد كافان والمستر ستراتن زعماء المايك أن نصيحة الحكومة إلى « أصدقائها البكوات » أن يقبلوا شروط الصدر الاعظم ، ومعنى ذلك أنها تخلت وقتاً ما عن حمايتهم

رأى المايك أن ينتظروا إلى أن تحين فرصة جديدة تساعدهم فيها الحكومة الانجليزية ، فانتقلوا في أواخر يناير سنة ١٨٠٢ إلى الصعيد لينظموا قواتهم استعداداً لقتال الاتراك ،

(١) مجموعة معاهدات الباب العالى للبارون دى تستا الجزء الأول

(٢) هي المقدمات التي وضعت فيها قواعد معاهدة الصلح العروفة بمعاهدة ايمان انظر ص ٢٢٦

وأصبحت السلطة في القاهرة والوجه البحري في يد الأتراك لا يذاعهم فيها منازع ، واعتزم الصدر الأعظم الرحيل إلى الاستانة ، فاستدعى محمد خسرو باشا ليسلمه زمام الحكم قبل ارتحاله فحضر إلى القاهرة يوم ٢١ يناير سنة ١٨٠٢ واستقر في الحكم ثم ارتحل الصدر الأعظم إلى سورية يصحبه جزء من الجيش العثماني ، وصار محمد خسرو باشا صاحب الحل والعقد في العاصمة

استنجد المماليك بنابليون وإخفاقهم

ولما وجد المماليك أن حماهم الانجليز تخلوا عنهم وتركوهم لأعدائهم الأتراك ، وتلوا وجوههم شطر فرنسا ، فأنفذ ابراهيم بك وعثمان بك البرديسي رسولا يحمل إلى نابليون — وكان وتمتد قنصلا أول — كتابا يستنجدونه لتحقيق آمالهم ، وهذا الكتاب يعطيك صورة من نفسيهم قالوا فيه :

« لقد هدمتم سلطتنا التي كانت ثابتة في مصر من سنوات عديدة ، والآن يحق لنا أن نلجأ إلى عطفكم لتعيدوا لنا تلك السلطة ، لقد وقع الاقسام في صفوفنا بعد وفاة مراد بك ، وصرنا من ذلك إلى أحوال تعسة هي التي اضطررنا أن نلجأ إلى الحماية الانجليزية ، وان الأتراك قد أعلنوا علينا حربا ظالمة ، ولا غرو فإن الغدر من أخص صفاتهم ، وأن لدينا من القوة ما يمكننا من مقاومتهم ، ولكننا في حاجة إلى عضد يأتينا من الخارج ، فأليك نلجأ ، ومنك نطلب النجدة ، وفيك وضعنا كل ثقتنا ، فساعدنا بوساطتك لدى الباب العالي ، ونحن على استعداد لقبول الشروط التي تفرضونها علينا ، وعرفانا لجميلكم فإننا نتعهد بأن نخص تجارة الأمة الفرنسية بأعظم الزايا »

وقد سافر الرسول بهذا الكتاب إلى ثغر (ايفورن)^(١) وتسلمه منه الجنرال برون Bron حاكم الثغر فبعث به إلى باريس ليطلع عليه نابليون ، ولكنه لم يمره التفانا لأن سياسة فرنسا في ذلك الوقت كانت متجهة إلى كسب صداقة تركيا ، وكان السفير العثماني قد وصل إلى باريس منذ عهد قريب وابتدأت المفاوضات لإعادة العلاقات الودية بين الدولتين ، فلم يجد نابليون وجها لمعاوضة المماليك ، وأرسل إلى حاكم ايفورن يطلب إليه ألا يسمح لرسول المماليك بالذهاب إلى باريس

وهكذا كان المماليك يتحولون من ناحية إلى أخرى يبحثون عن من يهتمون به ليستعيدوا في البلاد سلطتهم المفقودة

(١) من ثغر إيطاليا وكانت وقتئذ تحت سيطرة فرنسا

جلاء الإنجليز عن الجزيرة

أخذ مركز خسرو باشا يبدو وطيداً في مصر وزاد في ثباته أن الحكومة الإنجليزية أرسلت إلى الجيش المرابط بالجزيرة تأمره بالعودة إلى الهند ، فانسحب الجيش الإنجليزي من مفسكره في شهر مايو سنة ١٨٠٢ ، وسلم الجزيرة إلى خسرو باشا ، ومضى إلى السويس فأقلت به السفن إلى الهند في أوائل يونيه ، ولم يبق من جيش الاحتلال الإنجليزي في مصر سوى القوة المرابطة بالاسكندرية

وإليك خلاصة ما ذكره الجبرتي في صدد الجلاء عن الجزيرة ، قال في حوادث ٩ محرم سنة ١٢١٧ (١) :

« أخذ الباشا (خسرو باشا) في الاهتمام بتشهيل الانكليز المسافرين إلى السويس والقصير وما يحتاجون إليه من الجمال والأدوات وجميع ما يلزم ولما حضر الانكليز إلى عند الباشا دعوه للحضور إلى عندهم فوعدهم ليوم الجمعة ، فلما كان يوم الجمعة نأث عشره ركب الباشا وصحبته طاهر باشا في نحو الخمسين ، وعدى إلى الجزيرة بعد الظهر ، ووقفت عساكر الانكليز صفوفاً رجالاً وركباناً وبأيديهم البنادق والسيوف وأظهروا زينتهم وأبهتهم وذلك عندهم من التعظيم للقادم ، فنزل الباشا ودخل القصر فوجدهم كذلك صفوفاً بدهلين القصر ومحل الجلوس ، فجلس عندهم ساعة زمانية ، وأهدوا له هدايا وتقادم ، وعند قيامه ورجوعه ضربوا له عدة مدافع على قدر ما ضرب لهم هو عند حضورهم إليه ، فقد أخبرني بعض خواصهم أن الباشا ضرب لهم سبعة عشر مدفعاً ، ولقد عدت ما ضرب به الانكليز للباشا ، فكان كذلك »

وذكر الجبرتي أن عددهم عند جلائهم نحو خمسة آلاف « واستمرت طائفة كبيرة من الانكليز بالاسكندرية حتى يريد الله »

وقال أيضاً في حوادث ١٤ محرم (٢) :

« شرع الانكليز المتوجهون إلى جهة السويس في تعديده البر الشرقي ونصبوا وطاقهم عند جزيرة بدران ، وبعضهم جهة العادلية ، وذهبت طائفة منهم جهة البر الغربي متوجهين إلى القصير ، واستمروا يمدون عدة أيام وبحضر أكارهم عند الباشا (خسرو باشا) ويركبون فيرمون لهم مدافع حال ركوبهم إلى أماكنهم وفي يوم الاثنين ثاني عشرينه عدى حسين بك وكيل القبطان إلى الجزيرة وتسلمها من الإنكليز وأقام بها وسكن بالقصر »

الحرب بين الأتراك والمهايك

كان خسرو باشا يعتمد في تأييد سلطته على الجيش التركي المؤلف من نحو سبعة عشر ألف مقاتل موزعين بين العاصمة والبنادر المهمة ، ومعظمهم من الجنود الألبانيين (الأرناؤد) ، ومن رؤسائهم طاهر باشا وحسن باشا ومحمد علي باشا ، على أن هذه السلطة لم تكن ثابتة وطيدة لأنها تركز على جيش لا نظام فيه مؤلف من جنود ميالين إلى التمرد والمصيان بدأ خسرو باشا حركته الحربية بتجريد حملة على المهايك في الصعيد للقضاء عليهم فأنفذ إليهم جزءاً من جيشه بقيادة حسن باشا وكان المهايك قد انتشروا في الفيوم وبنى سويف والمنيا

فلما علموا بزحف الجيش العثماني على الصعيد أرسلوا إلى خسرو باشا يطلبون إليه وقف القتال لمدة خمسة أشهر ربمّا يعرضون الأمر على الباب العالي ليؤكدوا له إخلاصهم ، ولكن خسرو باشا رأى في هذا الطلب دليل ضعف فأجابهم بأن لا كلام بينهم وبينه إلا أن يحضروا إلى مصر ويظهروا خضوعهم كما فعل زميلهم عثمان بك حسن من قبل ، وقد أعطاهم الأمان على ذلك مستثنياً إبراهيم بك وعثمان بك البرديسي ومحمد بك الأتفي وسليم بك أبا دياب

هزيمة الأتراك في هُو

كان هذا الجواب إذلالاً لزعماء المهايك ، فانسوا مؤقتاً أحقادهم واختلافاتهم القديمة واتحدوا على قتال الأتراك ، فالتقوا بهم على مقربة من (هو)^(١) وكان الترك بقيادة البكباشي أجدر بك ، فظهر المهايك عليهم وغلبوهم واستولوا على مدافعهم وقتلوا أجدر بك قال الجبرتي في هذا الصدد :

« وفيه^(٢) وردت الأخبار بوقوع حادثة بين الأمراء القبالي (المهايك) والعمانية وذلك أن شخصاً من العمانية يقال له (أجدر) موسوفا بالشجاعة والإقدام أراد أن يكبس عليهم على حين غفلة ليكون له ذكر ومنقبة في أقرانه ، فركب في نحو الألف من المسكر المدودين وكانوا في طرف الجبل بالقرب من هو فسبق المين إلى الأمراء وأخبرهم بذلك فلما توسطوا سطح الجبل وإذا بالمصرية (المهايك) أقبلت عليهم في ثلاثة طوابير فأحاطوا بهم فضرب العمانية بنادقهم طلقاً واحداً لا غير ، ونظروا وإذا بهم في وسطهم وتحت سيوفهم ففتكوا بهم

(١) (هو) قرية في الصعيد تابعة لمركز نجع حمادى الآن بمديرية قنا

(٢) (٩ جمادى الأولى سنة ١٢١٧) (٧ سبتمبر سنة ١٨٠٢)

وحصدوم ولم ينج منهم إلا القليل ، وأخذ كبيرهم أجدر المذكور أسيراً ، وانجلى الحرب بينهم وأحضروا أجدر بين يدي الأتني ، فقال له لأني شيء سموك أجدر ، فقال الأجدر معناه الأفعى العظيمة ، وقد صرت من أتباعك ، فقال لكن يحتاج الأمر إلى تطريحك وإخراجك منكم أولاً ، وأمر به فأخذوه وقلعوا أسنانه ثم قتلوه ، وأخذوا جميع ما كان معهم ومن جملة ذلك أربعة مدافع كبار ، (وفيه) قلدوا أحمد كاشف سليم إمارة أسيوط وعزل أميرها مقدار بك النماني بسبب شكوى أهل النواحي من ظلمه »

ويقول الجبرتي إن من أسباب هزيمة الجنود العثمانية في الصعيد كثرة المظالم التي ارتكبوها في البلاد والقرى التي فرضوها على الأهالي والنهب والتخريب ففقر منهم سكان الأرياف وانضموا إلى المماليك في محاربتهم ، على أن المماليك لم يقلعوا عن الأتراك في النهب وارتكاب المظالم

معركة دمنهور

٢٠ نوفمبر سنة ١٨٠٢

وفي أثناء ذلك تغير موقف الإنجليز في مصر وعادوا إلى خطتهم الأولى في معاونة المماليك ، ذلك أن الحكومة الفرنسية تقلبت على مساعي السياسة الإنجليزية وعقدت هي وتركيا معاهدة صلح بتاريخ ٢٦ يونيو سنة ١٨٠٢ صدق عليها السلطان في ٢٥ أغسطس من تلك السنة ، فسأها ذلك التقرب بين الدولتين ، وعادت تدس لتركيا في مصر واستخدمت لهذا الغرض صنائعها القدامى (المماليك) ، وعينت الجنرال ستوارت Stwart قائدا للقوات البريطانية في الإسكندرية بدلا من اللورد كانان ، وكانت خطته أن يؤيد المماليك في مطالبهم

سعى الجنرال ستوارت لدى حكومة الاستانة ثم لدى خسرو باشا في أن يعيد للمماليك امتيازاتهم القديمة في الحكم ، ولكن مساعيه لم تصادف إلا رفضاً ، وزحف المماليك على الوجه البحري وانصلوا اتصالاً وثيقاً بالجنرال ستوارت ، ومن المحقق أنهم لولا اعتمادهم على معونة الجيش الإنجليزي الرابط في الإسكندرية لما زحفوا على الوجه البحري ولبقوا ممتنعين بالصعيد

وصل المماليك في زحفهم إلى مديرية البحيرة ، فجرد خسرو باشا جيشين لمحاربتهم ، أولها بقيادة يوسف كتحدا (وكيل الباشا) ، والآخر بقيادة محمد علي ، وامتنع المماليك بقيادة عثمان بك

البرديسي ومحمد بك الأتني ، ففي ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٠٢ هجم جيش يوسف بك على المايليك بالقرب من دمنهور ، فانتصر عليه البرديسي انتصاراً عظيماً مع قلة عدد رجاله بالنسبة لعدد الجنود العثمانية ، وفقد الجيش العثماني في هذه المعركة نحو خمسة آلاف بين قتيل وأسير ، واستولى المايليك على مدافع الجيش العثماني وذخيرته

رواية الجبرتي

وإليك ما ذكره الجبرتي عن معركة دمنهور :

« وفي خامس عشرين رجب سنة ١٢١٧^(١) تواترت الأخبار بوقوع معركة بين العثمانيين والأسماء المصرية (المايليك) بأراضي دمنهور وقتل من المساكر العثمانية مقتلة عظيمة ، وكانت الغاية للمصريين وانتصروا على العثمانيين ، وصورة ذلك أنه لما تراءى الجمعان واصطفت عساكر العثمانيين الرجالة بينادقهم واصطف الخيالة بخيولهم ، وكان الأتني بطائفة من الأجناد نحو الثمانمائة قريباً منهم وصحبتهم جماعة من الاسكندر فلما رأوهم مجتمعين لحربهم قال لهم الاسكندر ماذا تصنعون ، قالوا نصددهم ، ونحاربهم ، قال الانكليز أنظروا ماتقولون ، إن عساكرهم الموجهين إليكم أربعة عشر ألفاً وأنتم قليلون ، قالوا النصر بيد الله ، فقالوا دونكم ، فساقوا إليهم خيولهم واقترحموا إلى الخيالة فقتل منهم من قتل ، فانهزم الباقون وتركوا الرجالة خلفهم ، ثم كروا على الرجالة ، فلم يتحركوا بشيء وطلبوا الأمان ، فساقوا منهم نحو السبعمائة مثل الأغنام ، وأخذوا الجببخانة (الذخيرة) والمدافع وغالب الحملة ، والانكليز وقوف على علوة ينظرون إلى الفريقين بالنظارات »

كان جيش محمد علي على مقربة من الواقعة ، لكنه لم يحرك ساكناً لئلا يجده يوسف كتحدا قائد الجيش الآخر ، ذلك أنه رأى من مصلحته أن يدع الترك والمايليك يتطاحنان ، فيفني بعضهم بعضاً ، وبذلك تخلص البلاد من الفريقين معاً ، ويتوصل هو بإرادة زعماء الشعب إلى الاستيلاء على زمام الحكم ، وقد تحقق خسرو باشا أن (محمد علي) تعتمد الامتناع عن مجدة يوسف بك ، فأزعم التنكيل به سراً ، وكتب إليه أن يوافيه في منتصف الليل لمخبرته في بعض الشؤون ، فأدرك محمد علي مراده ولم يجب الدعوة ، وبدأ الصراع من ذلك الحين بين الاثنيين ، وأخذ كل منهما يسعى للتخلص من خصمه ، وإلى ذلك يشير الجبرتي بقوله : « فكانت بينهم^(٢) واقعة عظيمة بجرأى من الاسكندر ، وكانت الغلبة له (لمحمد بك الأتني) على المسكر

وأخذ منهم بجملة أسرى ، وانهزم الباقون شر هزيمة ، وحضروا إلى مصر في أسوأ حال ، وهذه الكسرة كانت سبباً لحصول اوحشة بين الباشا (محمد خسر و باشا) والعسكر فإنه غضب عليهم وأمرهم بالخروج من مصر فطلبوا علائقهم (روانهم) فقل بأى شيء تستحقون الملائف ولم يخرج من أيديكم شيء فامتنعوا من الخروج ، وكان المشار إليه فيهم محمد علي ، فأراد الباشا اصطياده فلم يتمكن منه لشدة احتراسه »

جلاء الانجليز عن مصر

ورحيلهم عن الإسكندرية

في ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢ أبرم الصلح المعروف بصلح (أميان) Amiens بين فرنسا وانجلترا وهولندا وأسبانيا ، ومن شروطه جلاء الانجليز عن مصر ، لكنهم رغم عهودهم أخذوا يماطلون في الجلاء ويعملون باتفاقهم مع صفائهم الماهليك على إطالة أجل احتلالهم ، وقد كان نابليون ينظر بعين القلق إلى مماطلة انجلترا في الجلاء عن مصر لأنه رأى بثاقب نظره أن رسوخ قدمهم فيها يهدد السلام في البحر الأبيض المتوسط وما يليه وييسط نفوذ انجلترا وسيطرتها في نواحيه وفي البلاد المفضية إليه ويمسكها زمام التجارة في الشرق

فما رأى مماطلتها في الجلاء أنفذ إلى مصر الكولونل سباستياني Sebastiani ليتعرف نيات الانجليز ويدرس الحالة في مصر ^(١) ، والكولونل سباستياني هذا من خاصة رجالات نابليون الذين حاربوا تحت لوائه واعتمد عليهم في مهمات سياسية وقد عهد إليه برحلة سياسية إلى الشرق وخاصة في مصر وتركيا سنة ١٨٠٢ ، ورفعته إلى درجة قائد فرقة بعد واقعة « استرلنز » ثم عينه سفيراً لفرنسا في تركيا وبقى على هذا المنصب إلى سنة ١٨٠٧

جاء سباستياني إلى الاسكندرية خلال شهر اكتوبر سنة ١٨٠٢ ، وطالب الجنرال ستوارت قائد القوات البريطانية بالجلاء عنها ، لكنه رأى منه العزم على البقاء وألقى الانجليز غير مكترئين لهوهم ، وكذلك شأنهم في كل عهود الجلاء التي قطعوها على أنفسهم قديماً وحديثاً ، وما أشبه الليلة بالبارحة !

ولما علم المصريون أن الكولونل سباستياني قادم ليستمجد الانجليز في الجلاء عن البلاد قابله كبارؤمهم وعلمائهم بالحفاوة والإكرام ، وقد ألمع في تقريره الذي رفعه إلى نابليون بعد

(١) مراسلات نابليون الجزء الثامن وثيقة رقم ٦٢٧٦ و ٦٣٠٨

عودته إلى مبلغ مالمقيه منهم من كرم الوفادة ، وذكر أسماء كبراء مصر في ذلك العصر الذين قابل بعضهم ، كالسيد عمر مكرم والسيد محمد السادات والشيخ الشرفاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المسيرى والسيد أحمد المحروق^(١) ، وكذلك قول من خسرو باشا الوالى بالإكرام لأن العلاقات بين تركيا وانجلترا اعترافا وقتئذ شىء من الجفاء والفتور لتلكؤ الإنجليزية في الجلاء ومعاونتهم المالميك واتجاه الباب العالى إلى مصادقة فرنسا

أحدثت زيارة الكولونل سباستياني ضجة في مصر ، وأخذ الناس يخوضون في حديثها ، وقد أشار إليها الجبترى في حوادث شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٧ ، وهذا يدل على أنها من الحوادث البارزة في ذلك الحين ، وهو وإن لم يذكر اسم الكولونل إلا أن سياق العبارة وتاريخها وقراءتها تدل يقيناً على أنه يعنى الكولونل سباستياني ، قال : « وفيه ورد الخبر بورود مركب من فرنسا وبها إلىجى^(٢) وقنصل وصحبتهما عدة فرنسيس ، فعمل لهم الانكليز شنكا ومدافع بالاسكندرية ، فلما كان ليلة الثلاثاء نامن عشرته وصل ذلك الإلجى وصحبته خمسة من أكابر الفرنسيين إلى ساحل بولاق ، فأرسل الباشا لملفاتهم خازناره وصحبته عدة عساكر خيالة وبأيديهم السيوف المسلوطة ، فقابلوهم وضربوا لهم مدافع من بولاق والجيزة والأربكية ، وركبوا إلى دار أعدت لهم بحارة البنادقة وحضروا في صباحها عند الباشا وقابلوه وقدم لهم خيلا معددة وأهدى لهم هدايا وصاروا يركبون في هيئة وأبهة معتبرة ، وكان فيهم جبير^(٣) ترجمان بونابارته »

وقال في حوادث رجب سنة ١٢١٧ (نوفمبر ١٨٠٢) :

« وفي خامسه يوم الثلاثاء سافر الإلجى الفرنسيواى وأصحابه فنزلوا إلى بولاق وأمامهم مماليك الباشا بزيتهم وهم لابسون ازروخ والخوذ وبأيديهم السيوف المسلوطة وخلفهم العبيد المختصة بالباشا ، وعلى رءوسهم طراير سحر ، وبأيديهم البنادق على كواهلهم ، فلم يزالوا صحبهم حتى نزلوا بيت راشتو^(٤) ببولاق ثم رجعوا ثم نزلوا المراكب إلى دمياط ، وضربوا لهم مدافع عند تمويجهم السفن »

(١) تقرير الكولونل سباستياني المنشور بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٨٠٣ والوارد في مجموعة معاهدات الباب العالى للبارون دى تستا De Testa الجزء الثانى

(٢) كلمة إلىجى مأخوذة من الفارسية (ايلجى) ومعناها سفير

(٣) هو المسيو جوبير Jaubert أحد أعضاء لجنة الماوم والفنون التى اصطحبها نابليون في مصر مدة الحملة الفرنسية وقدماء في تقرير الكولونل سباستياني أنه جاء معه في رحلته إلى مصر ، وهذا يؤيد رواية الجبترى

(٤) هو المسيوروسنى Rosetti قنصل النمسا في مصر ، وقد ورد اسمه في تقرير الكولونل سباستياني

انتهى الكولونل سباستياني من رحلته بمصر وغادرها إلى بعض الثغور السورية ثم إلى الاستانة ثم رجع إلى فرنسا وقدم إلى نابليون تفريراً عن مهمته ، وما فتى نابليون يطالب إنجلترا بالجلاء حتى اضطرت أن تجلو عن مصر وأرسلت أوامرها بذلك إلى الجنرال ستوارت

موقف المالك بعد جلاء الانجليز

أبغ الجنرال ستوارت زعماء المالك أوامره حكومته بجلاء الجنود الانجليزية عن مصر ، فوقع هذا الخبر كالصاعقة على رؤوسهم لأنهم كانوا ينظرون إلى الانجليزية كحماة وأولياء لهم ، وقد نصحهم الجنرال ستوارت بالعودة إلى الصعيد في انتظار ما تبذله الحكومة الانجليزية من المساعي لصالحهم ، وكان ستوارت قد خبر نفسية المالك ، وعجزهم عودهم ، فاستيقن أنهم قوم آفاقيون لا يهتمهم إلا قضاء لباياتهم ولو باعوا في سبيلها حقوق مصر ومصالحها ، ورأى أن إنجلترا رغم جلائها عن مصر تستطيع أن تدخرهم في المستقبل لتحقيق أطعماها في وادي النيل وأن تتخدم أداة لبط نفوذها في البلاد ، فرغب إلى محمد بك الأتني أن يسافر إلى إنجلترا ليطلب منها مساعدة المالك على حكم البلاد ويساومها في هذا الشأن

ولم يكن الأتني أقل منه رغبة في الرحلة إلى إنجلترا ، فقد كانت هذه الرحلة تخرج في صدره منذ حين ، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى أنه هو الذي عرض على الجنرال ستوارت أن يأذن له باصطحابه إلى لندن ، وسواء أكان الأتني هو المبتكر لفكرة الرحلة أم أن الجنرال ستوارت هو الموعز بها إليه فما لا جدال فيه أنه رحل إلى لندن معتمداً على وعود الجنرال ستوارت وإغرائه ، قال (فولابل) في هذا الصدد (١) : « لقد دعا الجنرال ستوارت الأتني بك إلى مفادرة مصر والسفر إلى لندن ليبرهن للحكومة الانجليزية على سهولة الاستيلاء على مصر واستغلالها سياسياً واقتصادياً ، ولما كان عليه الأتني من الطمع والتطلع إلى المنافع اغتنم هذه الفرصة وعزم على استغلالها لصالح نفسه دون أن يتعرف الغاية من وراء هذه الحركة ، ولم يفهم أن الانجليزية إذا سمحوا له باصطحابهم فلن يكون لديهم رهينة لبقاء المالك على ولائهم ثم ليتخذوه آلة مسخرة في أيديهم يستخدمونه كيفما يريدون لمحاربة زملائه أو لمحاربة الأتراك ، وبدلاً من أن يبحث في هذه الناحية نظر إلى رحلته كفرصة للظهور بمظهر الأبهة في البلاد الأوروبية ووسيلة إلى تحقيق أطعماه في الحكم » اعترم الأتني إذاً أن يرحل إلى إنجلترا ليعرض عليها وولاء زملائه

(١) في كتابه (مصر الحديثة) وهو مفاصر لتلك الحوادث

وأتم الجنرال ستوارت معدات الجلاء ، ثم سَلِم قلاع الإسكندرية وأبراجها إلى خورشيد باشا محافظ المدينة يوم ١٤ مارس سنة ١٨٠٣ ، وأفلت العارة البريطانية من الثغر يوم ١٦ تقل الجنود الانجليز وعددهم ٤٤٠٠ مقاتل
وبذلك خلصت مصر من الاحتلال الإنجليزي الأول
سافر محمد بك الأنفي صحبة العارة الإنجليزية وأخذ معه أموالا طائلة مما نهبه في الوجه القبلي مدة امارته

قال الجبرتي : « وفي يوم الأربعاء ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢١٧ تحقق الخبر بنزول طائفة الانكليز وسفرهم من ثغر الإسكندرية في يوم السبت حادى عشر ونزل بصحبتهم محمد بك الأنفي وصحبته جماعة من أتباعه »

تجدد الحرب بين المماليك والأتراك

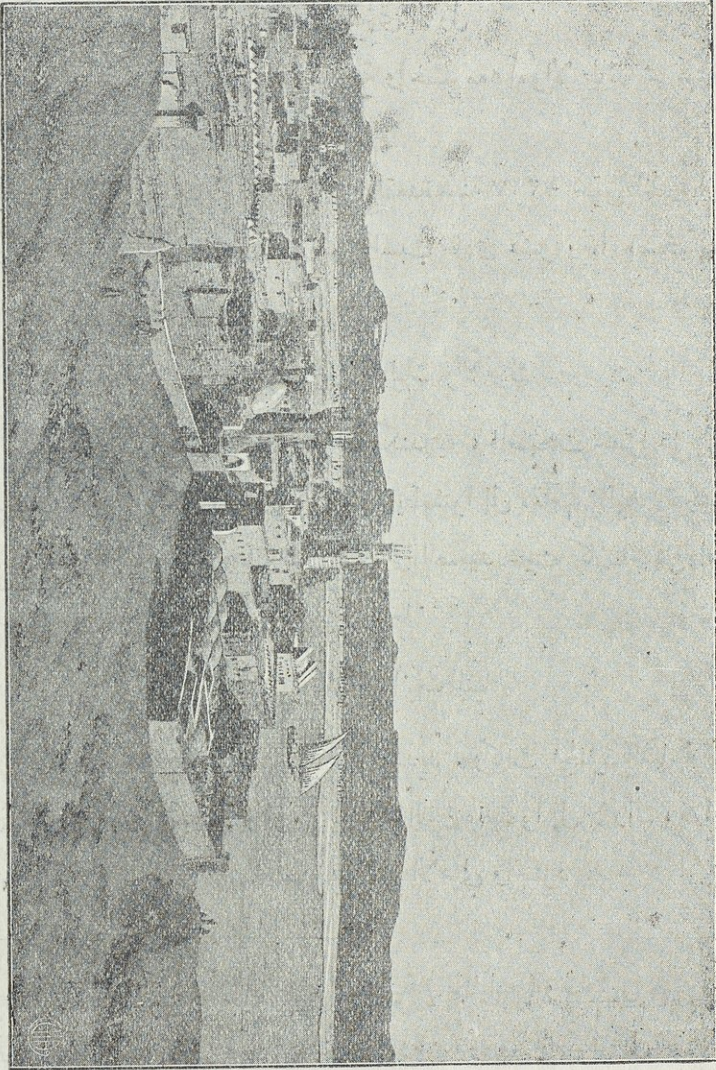
صار الأتراك أصحاب الحول والطول في الإسكندرية ، فأصبحت خطراً على المماليك بعد أن كانت ملجأ لهم مدة الاحتلال البريطاني ، ولم يطمئنوا إلى مقامهم بالبحيرة رغم انتصارهم في دمنهور فانسحبوا بقيادة عثمان بك البرديسي إلى الصعيد حيث كان الجيش التركي محتلاً بعض البنادر الكبيرة وأههما المنيا وأسيوط وجرجا

احتلال المماليك المنيا

فهاجم البرديسي المنيا واحتلها بعد قتال شديد ، وكانت الجنود العثمانية تدافع عنها بقيادة حاكم المدينة (سليم كاشف) وهو من المماليك الذين انضموا إلى الأتراك ، فلما تم للمماليك احتلال المنيا أعملوا فيها النار وقتلوا من فيها من الأهلى والجنود وإليك ما ذكره الجبرتي في هذا الصدد :

« وفيه^(١) وردت أخبار بأن الأمراء المصرية (المماليك) وصلوا إلى منية ابن خصيب ، فأرسلوا إلى حاكمها بأن ينتقل منها ويمدى هو ومن معه من العسكر إلى البر الشرقى حتى أنهم يقيمون بها أياماً ويقضون أشغالهم ثم يرحلون ، فأبوا عليهم وحصنوا البلدة وزادوا في عمل المتاريس ، وحاكمها المذكور سليم كاشف تابع عثمان بك الطنبرجى المرادى المقتول فإنه سالم العثمانيين وانضم إليهم فألبسوه حاكماً على المنية وأضافوا إليه عساكر فذهب إليها ولم يزل مجتهداً في عمل متاريس ومدافع حتى ظن أنه صار في منعة عظيمة ، فلما أجابهم بالامتناع

(١) يوم ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢١٧ (١٧ أبريل سنة ١٨٠٣)



البيجا كارت في أوائل القرن التاسع عشر

حضرُوا إلى البلدة وحاربهم أشد المحاربة مدة أربعة أيام بلياليها حتى غلبوا عليهم ودخلوا البلدة وأطلقوا فيها النار وقتلوا أهلها وما بها من المسكر ، ولم ينج منهم إلا من أتى نفسه في البحر (النيل) وعام إلى البر الآخر أو كان قد هرب قبل ذلك ، وأما سليم كاشف فإنهم قبضوا عليه حياً وأخذوه أسيراً إلى إبراهيم بيك ، فوبخه وأمر بضربه فضربوه علقه بالبايت « كان لاحتلال المنيا أثر كبير في سير القتال لأنه جعل الملاحة في النيل تحت رحمة المهالك واستطاعوا أن ينعوا وصول الغلال من الصعيد إلى القاهرة والوجه البحري ، وصارت الحاميات العثمانية في أسير وجرجا في خطر ، وقد أسرف الفريقان المتحاربان في ظلم الأهالي وسلب أموالهم ، فكلموا بالقرى طلبوا من أهلها دفع الاتوات والغرامات ووضعوا أيديهم قوة واقتداراً على ما يملكه الناس من مال وحاصلات ، فضج الناس من مظالم الفريقين وتمنوا الخلاص منهما

ثورة الجنود على الوالى

هال خسرو باشا استيلاء المهالك على المنيا ، وعزم على تجريد جيش يحاربهم ويقف تقدمهم فاستدعى قوات طاهر باشا ومحمد على ، فوصل الجيشان إلى القاهرة ودخل جنود طاهر باشا المدينة وبقي جنود محمد على في ضواحيها ، ورأى محمد على أن الفرصة سانحة للتخلص من خسرو باشا ، فأوعز هو وطاهر إلى الجنود - ومعظمهم من الأرنؤود - بالمطالبة برواتبهم المتأخرة ، فسرعان ما لبوا الدعوة وتمردوا وخاصة لما علموا بمشروع تجريدهم على الصعيد

تكررت حوادث تمرد الجنود حتى صارت القاهرة في فتنة مستمرة ، ففي ٢٣ أبريل سنة ١٨٠٣ ذهب جماعة من رؤساء الجند إلى خسرو باشا يطالبون برواتبهم المتأخرة فأحلمهم على الافتردار^(١) (مدير الشؤون المالية) فذهبوا إليه فأحلمهم هذا على محمد على ، فذهبوا إليه وكان قد وعدهم بدفع رواتبهم في ذلك اليوم ، لكنه اعتذر إليهم بأنه لم يقبض شيئاً ، فثار الجند أمام بيت محمد على ، ولم يخش شرمهم لأنه يعلم أن هذه الفتنة ليست موجّهة ضده وإنما وقعت بإيعاز منه ، وذاع خبر الفتنة في المدينة فتوجس التجار شراً مستطيراً لأن الجنود اعتادوا عند تمردهم للمطالبة برواتبهم المتأخرة أن يبيحوا لأنفسهم النهب والسلب ، فأقتل التجار حوائيتهم وأخذوا ينقلون منها إلى بيوتهم ما خف حمله ، نجاه به من النهب ، ثم رُعد الجنود بدفع رواتبهم بعد ستة أيام ، فسكنت الفتنة ، والظاهر أن هذا السكون لم يكن إلا وقتياً

(١) خليل افندى الرجائى

وأن الأيام الستة انقضت في العمل على استئلاف التمرد

ففي اليوم التاسع والعشرين من شهر ابريل احتشد الجنود المتمردون وقصدوا بمجموعهم إلى ميدان الأزيكية وحاصروا منزل الدفتردار وطالبوه برواتبهم ، فبعث إلى خسرو باشا يطلب أن يوافيه بالمال ليكمل ما عنده ويدفع ما يستطيع دفعه من رواتب الجند ، فكان جواب الباشا أن أمر بضرب الجند بالمدافع من القلعة ، فثارت نأرتهم ونهبوا منزل الدفتردار وعظمت الفتنة وتسامع الناس دوى المدافع والبنادق ، فساد الذعر في المدينة وأغلق التجار حوانيتهم ، ولم يعبأ خسرو باشا بهذه الفتنة وظن أن في استطاعته إخمادها بالقوة ، وجاء إليه طاهر باشا يتظاهر بالوساطة بينه وبين الجند فرفض خسرو باشا مقابلاته وأمره أن يلزم داره واستمر القتال إلى اليوم التالي (السبت الموافق ٣٠ ابريل — ٩ محرم) ناشباً بين الجند المتمردين والعسكر الموالين للوالى وتمكن طاهر باشا وجنوده من الاستيلاء على القلعة وأخذوا يضربون قصر خسرو باشا بالمدافع وأصبحت المدينة في قبضتهم

فأسقط في يد الباشا ، واستمرت الفتنة إلى يوم الأحد ، فاستولى الجنود الأرنأود على أهم مواقع المدينة وأضرموا النار في قصر الوالى^(١) وحاصروه ، فلم يسع خسرو باشا إلا أن يلوذ بالهرب وفر هو وعائنته وحاشيته وبقية من جنوده ، وخرج من المدينة وقصد إلى قايوب فالمنصورة فدمياط واستقر بها ، وأخذ يستعد لاسترجاع ولايته ، ومن غريب أمره أنه وهو في محنته وفي فراره ضرب الضرائب على البلاد التي مر بها وأخذ من الأموال ما استطاع نهبه ، ذكر الجبرقى أنه فرض على أهل المنصورة تسعين ألف ريال وضرب الضرائب على كثير من بلاد الدقهلية والقربية ، وبفرار خسرو باشا انتهت ولايته الفعلية ، فكانت مدتها سنة وثلاثة أشهر وواحداً وعشرين يوماً ، وكان كما يقول الجبرقى « سبي التدبير لا يحسن التعريف ، يميل إلى سفك الدماء ولا يضع شيئاً في محله » ، وقال عنه إنه في آخر مدته داخله الغرور وطاوع قرناء السوء المحذقين به والتفت إلى المظالم وفرض الضرائب على الناس وأهل القرى « حتى أنهم حرروا دقات فردة (ضريبة) على عامة الدور والأماكن بأجرة ثلاث سنوات ، وقيل أشنع من ذلك ، فأخذ الله عباده وسلط عليه جنده وعساكره وخرج مرغوماً مقهوراً »

(١) هو بيت محمد بك الألفى القديم بالأزيكية الذى سكنه نابليون ثم كبير ثم منو وكان كل منهم يدخل فيه تحسينات وعمارات جديدة وسكن به الوالى خسرو باشا وادخل فيه عمارة كبيرة وقد التهمت النيران مبانيه العظيمة حتى لم يبق منه إلا الجدران

تعيين طاهر باشا قائمقاماً

ثم مقتله

وفي مساء هذا اليوم كانت المدينة في يد قبضة طاهر باشا قائد الجنود الألبانيين (الأرناؤود) وصار منصب الولاية على مصر شاغراً ، فطلب طاهر باشا إلى المشايخ وكبار العلماء ، والوجالية أن يختاروا من يشغل هذا المنصب

فاجتمع المشايخ يوم الجمعة ١٤ محرم سنة ١٢١٨ (٦ مايو سنة ١٨٠٣) ببيت القاضي (دار المحكمة) وذهبوا صحبته إلى بيت طاهر باشا وأعلنوه باختياره «قائمقاماً» إلى أن تحضر له الولاية أو يعين وال آخر ، وطلبوا منه رفع المظالم التي كان الناس يشكون منها وفي هذا المجلس نفسه عرض المشايخ رسالة من البكوات الماهليك في الوجه القبلي أرسلوها قبل حدوث الفتنة العسكرية التي انتهت بخلع خسرو باشا يعرضون فيها الصلح والكف عن القتال ، ويلقون تبعة استمرار الحرب على عاتق الصدر الأعظم وخسرو باشا ، ويطلبون من المشايخ أن يتوسطوا لهم في الصلح ، فانهز طاهر باشا هذه الفرصة ليجتذب إليه الماهليك ، وكتب لهم جواباً يدعوهم إلى الحضور والاقتراب من القاهرة

ظهرت للمشايخ في هذا التعيين سلطة رسمية ، وإن كانت في الواقع اسمية ، لأن طاهر باشا إنما وصل إلى القائمقامية بحد السيف ، لكن مجرد استشعاره بضرورة اتفاق العلماء على اختياره هو تسليم منه بأن لهم شأنًا في حل الأزمات ، كما أن تدخلهم في الوساطة بين البكوات الماهليك والوالي أكسبهم نفوذاً على الفريقين ، ومساعدتهم في رفع المظالم أعلت مكانتهم وزادت في التفاف الناس حولهم

مظالم طاهر باشا

وقد كان للعلماء مقام محمود في مقاومة المظالم التي ارتكبتها طاهر باشا ، فإن أول عمل له أنه ألقى القبض على جماعة من كبار الموظفين والأعيان بحجة أنهم من أنصار خسرو باشا ، منهم السيد أحمد المحروقي كبير التجار ، ورئيس الانكشارية ، وكاتب خزانه خسرو باشا ، ومصطفى الوكيل وغيرهم ، وسجنهم في القلعة ، فتدخل المشايخ وتوصلوا إلى إطلاق سراح السيد المحروقي فنزل من القلعة في اليوم التالي لاعتقاله ، وتدخل السادات للافراج عن مصطفى الوكيل وأخذه معه إلى بيته وكان ذلك يوم الجمعة ٢١ محرم سنة ١٢١٨ ، فلما كان يوم الأحد

أرسل طاهر باشا يطلب مصطفى الوكيل من عند الشيخ السادات فذهب معه السادات إلى طاهر باشا ليحميمه من بطشه ، فلما رآه الجنود أقوا القبض عليه ثانية وأخذوه إلى القلعة ، فحنق السيد السادات من هذا الظلم ودخل على طاهر باشا واعترضه اعتراضاً شديداً أو كما يقول الجبرتي « تشاجر معه » ، فأطلعه طاهر باشا على خطاب مرسل إلى مصطفى الوكيل من خسرو باشا ليرهن له على أنه موال لخسرو وأن اعتقاله واجب ، فقال السادات إن هذا لا يؤاخذ به وإنما يؤاخذ إذا كان المكتوب منه إلى خسرو باشا ، وكان طاهر باشا مصمماً على قتله ، فانتهى الأمر على ألا يقتله وأن يبقى بيت السادات مشمولاً بمجايته ، وخشى طاهر باشا من تغير خاطر السادات بسبب هذه الحادثة فذهب إليه في بيته يسترضيه ويعتذر إليه) ومن مطالب طاهر باشا أنه أمر بقتل المعلم ملطى من كبار الكتبة الأقباط وهو الذى كان متولياً القضاء في زمن الفرنسيين ، وأمر كذلك بقتل المعلم حنا الصبحانى أحد التجار السوريين ، ولم يذكر الجبرتي سبب قتلها ، ولكن لا نزاع في أن مرجعه الطمع في أموالها ، وأمر أيضاً بقتل اثنين من كبار الوجاقلية (الجهادية) وهما أحمد كتحدا على باش اختيار وجاق الانكشارية ومصطفى كتحدا الرزاز كتحدا وجاق العزب

على أن طاهر باشا لم يدم له الأمر ، فقد اشتهر بالظلم والجبروت وأطلق لجنوده الألبانيين عنان السلب والنهب وضرب الغرامات الفادحة على التجار ، وكان الجنود الانكشارية الذين في المدينة قد قاموا يطالبون رواتبهم المتأخرة مقتدين بالجنود الأرنأود ، فرفض طاهر باشا طلبهم وظهر تحيزه إلى الأرنأود وتحماله على الانكشارية ، فبينما كان يفتدق المال على أولئك كان يضن به على هؤلاء ، وإذا طالبوه رواتبهم المتأخرة صارحهم بأن ليس لهم عنده رواتب إلا من عهد ولايته وأحلهم على خسرو باشا الوالى المطرود ، فحنقوا عليه ، وزاد من سخطهم أن الأرنأود أدلهم في عهده وكانوا يعتبرون انتصارهم على خسرو باشا فوزاً على الانكشارية أجمعين ، فشمخوا بأنوفهم وجعلوا ينظرون إليهم بعين الاحتقار والزراية ، فأوغر كل ذلك صدور الانكشارية وبيدّوا فيما بينهم أن ينتقموا من الأرنأود وعزموا على الفتك بطاهر باشا وتعيين أحد رؤساء الانكشارية بدله

فلما كان يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٠٣^(١) ذهب زهط منهم يبلغ عدده نحو ٢٥٠ في أساحتهم إلى طاهر باشا وعلى رأسهم اثنان من أغواتهم (رؤسائهم) وهما موسى أغا وسماعيل أغا ، فدخلوا على طاهر باشا وكلاه في الشكوى من تأخير دفع الرواتب ، فاتهرها ورفض أن

يسمع المشكواها واشتد الجدل والخصام بينهم فجرد أحدها سيفه وضرب طاهر باشا بقطع رأسه ورمىاه من الشباك ، فمادت السلطة مؤقتاً إلى الانكشارية وأحرقوا دار طاهر باشا ونهبوها ، وكانت مدة حكمه أياماً معدودة ، قال الجبرتي : « ولو طال عمره أكثر من ذلك لأهلك الحرث والنسل »

تعيين احمد باشا

كانت قوات المماليك وجنود محمد علي على أبواب القاهرة ، فرأى الانكشارية أن يبادروا إلى تعيين وال منهم يخلف طاهر باشا في الحكم ليضمو المماليك ومحمد علي أمام الأمر الواقع ، فوقع اختيارهم على أحمد باشا والى المدينة المنورة وكان موجوداً وقتئذ بالقاهرة فولوه الحكم وأرسل يستميل إليه محمد علي الذي احتل القلعة وأصبح بعد موت طاهر باشا قائد الجنود الألبانيين وعددهم نحو ٤٠٠٠ مقاتل

تحالف محمد علي والمماليك

لكن محمد علي رأى من مصلحته الاتفاق مع المماليك للتخلص من القوة التركية أولاً ، على أن يعود فيتخلص بعد ذلك من المماليك ، وكان محمد علي ملتزماً بالحيدة ظاهراً وإن لم يكن بعيداً عن حركة الألبانيين التي انتهت بعزل خسرو باشا ، وظل في القاهرة متظاهراً بالحيدة أثناء ولاية طاهر باشا ، يرقب الحوادث عن كسب ، وينتظر الفرصة السانحة ليحقق برنامجهم ، فلما عين الانكشارية أحمد باشا صمم على الخروج من حيدته وعزم على التحالف مع المماليك وأراد أحمد باشا أن يستميل إليه العلماء ويستخدم نفوذهم لتثبيت مركزه وإنقاذ محمد علي بقبول ولايته ، فأحضرهم وطلب إليهم أن يذهبوا إلى محمد علي ويخاطبوه في الإذعان للطاعة ، فذهبوا إليه وخاطبوه في ذلك فأجاب بأن أحمد باشا ليس والياً على مصر ، وإنما هو والى المدينة المنورة وليس له علاقة بمصر ، وقال : « إني أنا الذي وليت طاهر باشا لكونه محافظ الديار المصرية من طرف الدولة وله شبهة في الجملة ، وأما أحمد باشا فليس له شبهة فيجب أن يخرج من البلد ويأخذ معه الانكشارية ونجهزه ويسافر إلى ولايته » ، فقام العلماء على ذلك ، وطلب إليهم أحمد باشا أن يأمروا الرعية بالقيام على الألبانيين وقتلهم ، فلم يجيبوه إلى طلبه ، وقاموا من عنده ليتشاوروا في الأمر ، فطلب إليهم أحمد باشا أن يبقوا عنده وأن يرسلوا للناس بما يأمرهم به ، وكان غرضه أن يسكرهم فيملي عليهم فلا يمضوا له أمراً ، فقالوا : « إن عادتنا أن يكون جلوسنا في المهات بالجامع الأزهر نجتمع به ونرسل إلى الرعية فإنهم عند ذلك

لا يخالفوننا » ، ولم يزالوا به حتى تخلصوا وخرجوا من عنده

أما محمد علي فقد جاهر بتحالفه والماليك ، واجتمع إبراهيم بك في الجيزة ، وألقى في روعه أنه يؤيده وأنه أولى الناس بولاية مصر ، فدخل محمد علي وإبراهيم بك وعثن بك البرديسي وباقي زعماء الماليك القاهرة متحالفين وطردهوا أحمد باشا ، فكانت مدة ولايته يوماً وليلة ، وأعلنوا في المدينة تحالف الماليك والألبانيين واستولوا على زمام الحكم ، وقتل الارناؤود اسماعيل أغا وموسى أغا اللذين قتلا طاهر باشا ، وقتلوا أيضاً خليل افندي الرجائي الدفتردار السابق ويوسف كتحدا بيك وكيل خسرو باشا بمد أن نهبوا منازلها

بدأت سلطة محمد علي تظهر في الميدان ، ونادى المنادون في القاهرة « بالأمان حسب ما رسم إبراهيم بك حاكم الولاية وأفندينا محمد علي »

فكان هذا النداء في شوارع القاهرة إعلاناً باقتسام السلطة بين إبراهيم بك ومحمد علي ، وليذكر القاري هذا النداء ، فإن عبارة « حسب ما رسم به فلان » هي إعلان باسم من أصبح قابضاً على زمام السلطة في ذلك العصر

اتفق محمد علي وإبراهيم وعثمان البرديسي على التخلص من الأتراك ، فحاصر أتباعهم قلعة جامع الظاهر التي كان الانكشارية يقيمون بها ، ولم يزالوا بهم حتى أخرجوهم منها وزعوا أسلحتهم وطردهم من القاهرة ، وكذلك طردوا منها جميع الانكشارية والأتراك والبشناق ، ونادوا بتحذير الناس من إيوائهم

اعتقال خسرو باشا

كانت الصلات بين الماليك ومحمد علي في ذلك الحين على أتم صفاء ووثام ، لكن محمد علي ترك السلطة ظاهراً للماليك حتى يحتملوا تبعمة الأحداث التي تقع في البلاد ، وبالغ في التودد إليهم فسلمهم قلعة القاهرة ، واتفق وإياهم على تجريد حملة على دمياط للقضاء على سلطة خسرو باشا ، وحملة أخرى للقضاء على الحامية العثمانية في رشيد ، فسارت الحملة الأولى إلى دمياط بقيادة عثمان البرديسي واشترك محمد علي ، وجردها الحملة الثانية إلى رشيد بقيادة سليمان كاشف ، ففاز البرديسي على خسرو باشا في دمياط وانتهت الحملة بالقبض عليه وإرساله إلى القاهرة سجيناً ، وقد ارتكب الماليك والارناؤود في دمياط كثيراً من الفظائع والمظالم والنهب والسلب ، وابتهج الماليك لهذا النصر ابتهاجا عظيماً وظنوا أن مصر دانت لهم ، ونادى إبراهيم بك بنفسه « قائم مقام مصر »

تعيين على باشا الجزائرلى واليا

علمت الحكومة العثمانية بعزل خسرو باشا وفراره إلى دمياط ودخول البكوات المالميك القاهرة وعودة السلطة إليهم ، فها لها ما أصاب هيبتها من التصدع ، وعزمت على استرداد سلطتها ، فعينت على باشا الجزائرلى واليا لمصر بدلا من خسرو باشا وأوفدته إلى مصر ليعيد الحالة إلى نصابها ويكبح جماح المالميك

وعلى باشا الجزائرلى هذا كان مملوكا لمحمد باشا حاكم الجزائر ، ولذلك سمي الجزائرلى ، ويسميه الجبرتي على باشا (الطرابلسي) لأنه تقلد ولاية طرابلس الغرب ، وقد اشتهر فيها بالظلم وارتكاب الجرائم ، فثار به أهلها واضطر إلى الهرب وفر إلى مصر ولجأ إلى مراد بيك زعيم المالميك ، فظل في حماه وضيافته إلى أن جاءت الحملة الفرنسية فقاتل قايللا في صفوف المالميك ورحل خلال الحملة إلى سورية ومنها إلى الاستانة إلى أن اختاره الباب العالي لولاية مصر ، ولم يكن متصفاً بأى صفة تؤهله لهذا المنصب لا من جهة الأخلاق ولا من ناحية المواهب الإدارية أو الكفاية الحربية ، ولكنه بلغ هذا المنصب من طريق التقرب إلى الصدر الأعظم ووعده بأن يبذل الأموال الطائلة لخزانة الدولة إذا أسندت إليه ولاية مصر

جاء على باشا الجزائرلى إلى الاسكندرية في أوائل يوليه سنة ١٨٠٣ ومعه قوة من ألف جندي ، وكانت هذه القوة أضعف من أن توطد سلطته في البلاد وخاصة بعد انتصار المالميك وتحالفهم مع محمد علي ، فأخذ يكاتب البكوات المالميك ويدعوهم إلى الولاء لحكومة الاستانة ويلومهم على ما فعلوه من دخول القاهرة وطرده الأتراك والانكشارية منها ، فأجابه إبراهيم بك أن المالميك لم يدخلوا المدينة إلا بناء على دعوة المشايخ والعلماء لوضع حد للفوضى التي عصفت بها ، وأنهم يرفضون الخروج من مصر ويصرون على البقاء فيها

وقد فطن المالميك إلى أن الوالى الجديد إذا ترك وشأنه سار بجنوده إلى القاهرة ليعيد الحكم العثماني ، فاعتزموا محاربتة ، وسار البرديسي بجنوده محبة محمد علي إلى رشيد ليستردوها من يد الأتراك ، فاحتلوها وامتنعت الجنود التركية في قلعته بقيادة السيد علي القبطان أخى على باشا الجزائرلى ، فحاصرها المالميك وشددوا عليها الحصار حتى سلمها الأتراك (أغسطس سنة ١٨٠٣) وفرض المالميك على رشيد غرامة فادحة بلغت ثمانين ألف ريال ، ونهبوا المدينة ، وأقام البرديسي على رشيد مملوكه يحيى بيك ، وحصن فيها القلعة والبوغاز وعزم من ثم على مواصلة القتال ومطاردة الأتراك إلى أن يحتل الإسكندرية

موقف محمد علي

كان البرديسي موطداً عزمه على أخذ الإسكندرية لأنها كانت آخر موقع للأتراك في مصر ، لكن محمد علي رغب عن الزحف إليها ، ذلك أنه رأى استيلاء المماليك عليها يثبت قدمهم وبؤيد سلطانهم ويحول دون إنفاذ برنامجه ، وبرنامجه يقتضى إضعافهم ليمجّل بالتخلص منهم عند سnoch الفرصة ، ورأى أن بقاء الإسكندرية في يد الوالى التركى لا يضره شيئاً لأن سلطة الوالى التركى مزعومة مضطربة لا تحتاج إلى مجهود كبير للقضاء عليها والتخلص منها في الوقت المناسب ، فأثر العودة بجنوده إلى القاهرة ، وكم عن البرديسي غايته من هذا الرجوع ، وتظاهر بأن حجته في ذلك أن لجنوده رواتب متأخرة لم تدفع لهم ، فارتاب البرديسي في هذا الرجوع الفجائى وتغير موقفه تبعاً لذلك وعدل عن حصار الإسكندرية ، واعتزم هو أيضاً الرجوع إلى القاهرة ، ذلك أنه رأى قواته نقصت بما اصطحبه محمد علي من الجنود الأرنأؤود وعلم من جهة أخرى مناعة موقع الإسكندرية وصعوبة الاستيلاء عليها ، وزاد موقفه حرجاً نقص النيل في تلك السنة (أغسطس سنة ١٨٠٣) وما أفضى إليه من غلاء الأسعار وقلق الخواطر وتبليبل الأفكار ونقص الأقوات والمؤن في معسكره وتدمير جنوده المماليك من قلة الزاد ، وإلحاحهم في طلب رواتبهم المتأخرة ، وبالرغم من أنهم نهبوا الكثير من أموال الأهالى وحاصلاتهم فإنهم كانوا يدعون « أن ما يأخذونه من النهوبات لا يدخل في حساب رواتبهم !! »^(١) ، وكان المماليك في أثناء ذلك لا يفتأون يفرضون الضرائب والغرامات على البلاد « حتى خرب الكثير من القرى والبلاد وجلا أهلها عنها خصوصاً إقليم البحيرة فانه خرب عن آخره »^(٢) ، ومن ثم رجع البرديسي عن زحفه على الإسكندرية وعاد أدراجه إلى القاهرة (سبتمبر سنة ١٨٠٣)

حضور المسيو ماسيو دلسبس

وبين هذه الحوادث ، في يوايه سنة ١٨٠٣ ، حضر إلى الإسكندرية المسيو ماسيو دلسبس Mathieu Delesseps قنصل فرنسا في مصر^(٣) ، فاستقبله البرديسي أثناء حصار رشيد وذهب إلى القاهرة فتلقاء ابراهيم بيك بالرعاية والإكرام ، قال الجبرتى في هذا الصدد :

(١) و (٢) الجبرتى الجزء الثالث

(٣) هو والد المسيو فردينان دلسبس فاتح قناة السويس

« وفي ثالث عشر ربيع الثاني سنة ١٢١٨^(١) حضر (إلى القاهرة) قنصل الفرنسيين فعملوا له شنكا ومدافع وأركبوه من بولاق بموكب جليل وقدمه أغات الانكشارية والوالى (رئيس الشرطة) وأكابر الكشاف وحسين كاشف المعروف بالفرنجي وعساكره الذين مثل عسكر الفرنسيين وهيئته لم يتقدم مثلها بين المسلمين ، ونصب بنديرته في بركة الأربكية من ناحية قنطرة الدكة على صارى طويل مرتفع في الهواء ، واجتمع إليه كثير من النصارى الشوام والأقباط وعملوا جميات وولأم وازدحموا على بابه وحضر صحبته كثير من الذين هربوا عند دخول المسلمين مع الوزير وكان المحتفل بذلك حسين كاشف الافرنجي ، والجبرتي وإن لم يذكر اسم القنصل إلا أن التاريخ الذى أورده عن حضوره للقاهرة يدل على أنه يعنى المسيو ماسيو دلسبس

قطع سد أبو قير

وكان على باشا الجزائرلى مجدأ فى تحصين الاسكندرية ليدفع عنها هجوم المالميك ، ومما تدرع به فى هذا العمل أنه قطع سد أبو قير لتطفى المياه حوالى الاسكندرية وبنمع وصول المالميك إليها ، لكنها فكرة حمقاء ، لأنها حرمت الثمر من ورود المياه العذبة ، وهذا السد هو الذى قطعه الانجليز سنة ١٨٠١ كما مر بك بيانه^(٢) ، ويقول المسيو فيلكس مانجان^(٣) إن المهندس السويدي ردون Redon قد باشر إصلاحه بعد جلاء الفرنسيين ، لكن الجبرتي يقول إن الذى أصلح السد هو مهندس تركى لا سويدي يدعى صالح افندى أرسلته الدولة خصيصاً لإصلاحه وقضى سنة ونصفاً فى عمله إلى أن قطعه على باشا ثانية ، ويلوح لنا أن رواية المسيو مانجان أرجح من رواية الجبرتي إذ يؤيدها ماورد فى تقرير الكولونل سباستيانى الذى جاء مصر فى أكتوبر سنة ١٨٠٢ ، فهو يقول إن الذى تولى إصلاح السد هو مهندس سويدي أوفده الباب العالى لهذا الغرض^(٤)

وقد كان لقطع سد أبو قير أولاً وثانياً أسوأ الأثر فى حالة الاسكندرية وقسم عظيم من مديرية البحيرة ، فان البحر طغت مياهه على شمال البحيرة وخرّب كثيراً من القرى

(١) يوافق ٢ أغسطس سنة ١٨٠٣

(٢) ص ٢٥٢ من الطبعة الأولى

(٣) فى كتاب مصر تحت حكم محمد على

(٤) تقرير الكولونل سباستيانى إلى نابليون المنشور فى الجريدة الرسمية الفرنسية بتاريخ ٣٠ يناير

سنة ١٨٠٣ والوارد فى مجموعة معاهدات الباب العالى للبارون دي تستا De Testa الجزء الثانى

والأراضي وأتلف ترعة الاسكندرية (المحمودية الآن) التي كانت تروى الثغر بالمياه العذبة ، فانقطعت المياه عن الاسكندرية ، وتمطلت المواصلات إليها ، فأمعنت في التقهقر وزادت حالتها سوءاً واشتد الضيق بأهلها ، واضطر الكثيرون منهم إلى الهجرة مما أدى إلى تناقص عدد سكانها حتى بلغ عددهم في أوائل عهد محمد علي نحو ستة آلاف نسمة ، وقد ذكر الجبرتي ما أصاب الاسكندرية والبحيرة من الخراب بعد قطع السد على عهد الحملة الفرنسية وبعد انتهائها قال : « فسالت المياه المالحة على الأراضي إلى قرب دمنهور واختلطت بخليج (ترعة) الأشرفية ، وشرقت الأراضي ، وخربت القرى والبلاد ، فتلقت المزارع ، وانقطعت الطرق حول الاسكندرية من البر ، وامتنع وصول ماء النيل إلى أهل الاسكندرية فلم يصل إليهم إلا ما يصلهم من جهة البحر في النقاير (مراكب المياه) أو ما خزنوه من مياه الأمطار بالصهاريج وبعض العميون المستعذبة ، فلما استقر العثمانيون بمصر حضر شخص من طرف الدولة يسمى صالح أفندي معين لخصوص السد وأحضر معه عدة مراكب بها أخشاب وآلات ، وبذل المهمة والاجتهاد في سد الجسر ، فأقام العمل في ذلك نحو سنة ونصف حتى قارب الإتمام وفرح الناس بذلك غاية الفرح واستبشر أهل القرى والنواحي ، فما هو إلا وقد حصلت هذه الحوادث وحضر على باشا إلى الثغر وخرج الأجناد المصرية (المالك) وحاربوا السيد على القبطان^(١) على برج رشيد تخاف حضورهم إلى الاسكندرية ففتحه ثانياً ورجع التلف كما كان ، وذهب ما صنعه صالح أفندي المذكور في الفارغ بعدما صرف عليه أموالاً عظيمة ، وأما أهل اسكندرية فأنهم جلوا عنها ونزل البعض في المراكب وسافر إلى أزمير وبعضهم إلى قبرص ورودس والأضات وبعضهم أكثرى بالأيام وأقاموا بها على الثغر ولم يبق بالبلدة إلا الفقراء والمعواجز الذين لا يجدون ما ينفقونه على الرحلة وهم مستوفزون وعم بها الغلاء لعدم الوارد وانقطاع الطرق »

مقتل على باشا الجزائري

أما على باشا فانه بقى بالاسكندرية إلى أواخر سنة ١٨٠٣ ثم غادرها يوم ٢٢ ديسمبر قاصداً إلى القاهرة ليمتقلد منصب الولاية وذلك بناء على دعوة من الأمراء المالك تظاهروا فيها بالرغبة في الوفاق ، ولكن هذه الدعوة كانت فخاً نصبوه له للفتك به ، فلما وصل إلى شلقان^(٢) التقى به جماعة من أمراء المالك وعساكرهم ، وهناك أبلغوه أنهم يمنونهم من

(١) هو أخو على باشا الجزائري كما تقدم بيانه (٢) بمركز قلوب

دخول القاهرة وأركبوه صحبة جماعة منهم لحراستهم والذهاب به إلى حدود سورية ، ولم يكتبوا بذلك بل أغروا به حراسه فقتلوه في الطريق (يناير سنة ١٨٠٤)

موقف محمد علي

كان محمد علي هو الرأس المدبر للحملة على خسرو باشا ، ثم على أحمد باشا ، ثم على علي باشا الجزائري ، لكنه ظل بعيداً عن الميدان وترك عثمان بك البرديسي يأتمر بعلي باشا الجزائري ويتولى أمر قتله ليحتمل تبعة هذا العصيان الخطير في نظر الباب العالي إذا ما جاء وقت الحساب ، والواقع أن مقتل الجزائري كان فيه القضاء على مظهر السلطة العثمانية في مصر ، وبذلك تخلص محمد علي من إحدى القوتين اللتين كان يعمل على سحقهما ، ولم يبق أمامه إلا قوة الماليك ، فبدأ يعمل على التخلص منها ، وتمهيداً لهذه الغاية ترك لزعماء الماليك السلطة ظاهراً حتى يحملهم تبعة الحكم ومساوئهم ويجعلهم هدفاً لسخط الشعب

عودة محمد بك الألفي

وفشل خطته السياسية

علمت أن محمد بك الألفي سافر إلى إنجلترا حين جلاء الإنجليز عن الاسكندرية ، وغايته أن يطلب من الحكومة الإنجليزية معاناة الماليك على رجوعهم للحكم قضى الألفي في هذه الرحلة طويلاً من الزمن وقعت خلاله الحوادث الخطيرة التي تكلمنا عنها ، وكانت الرحلة على جانب كبير من الخطورة ، ولو نجح الألفي في مهمته لتغير وجه التاريخ المصري الحديث

فالألفي كان بلا نزاع أقوى زعماء الماليك شكيمة وأشدهم بأساً وأبعدهم نظراً ، وحسبك أن الجبرتي يقول عنه إنه « آخر من أدركنا من الأمراء المصريين شهامة وصراحة ونظراً في عواقب الأمور ، وكان وحيداً في نفسه ، فريداً في أبناء جنسه ، وبموته اضمحلت دولتهم وتفرقت جمعيتهم ، وانكسرت شوكتهم ، وزادت نفرتهم وما زالوا في نقص وإدبار ودلة وهوان وصغار ، ولم تقم لهم بعده راية وانقرضوا وطرودوا إلى أقصى البلاد في النهاية » فهذا الرجل البعيد النظر الذي بموته اضمحلت دولة الماليك لعب دوراً خطيراً على مسرح الحوادث المصرية ، والنقطة البارزة في تاريخه أنه يمثل خطة سياسية معينة رسمها واتبعها ودعا إليها زملاءه الماليك ، وكان لا ينفك يسعى لنجاحها ، تلك الخطة هي الاستقلال بحماية

انجلترا وتحويلها احتلال ثغور الاسكندرية ورشيد ودمياط مقابل مساعدتها المايك على الاستقرار في مصر والاستئثار بزمام الحكم فيها ، ولو نجحت هذه الخطة لوقعت مصر منذ نيف ومائة عام في قبضة الانجليز ، ولما تكونت الدولة المصرية العظيمة التي أسسها محمد علي إن (محمد علي) كان يمثل الاستقلال المصري ، أما الأتني فكان يمثل الحماية الإنجليزية ، ومن هنا تتبين لماذا ساعدت إنجلترا الأتني وحاربت محمد علي طوال مدة حكمه

كان محمد بك الأتني صنيمه السياسة الإنجليزية في مصر ورسول المايك لدى الانجليز في الاستقلال بحمايتهم ، وكان الانجليز كما قدمنا لا يفتأون يساعدون المايك على تولى زمام الحكم في مصر ، وقد بذلوا لهم فوق مساعدتهم في مصر نفوذهم السياسي في الاستانة ليضمنوا لهم الحكم وخاصة بعد أن أبرم صلح أميان Amiens الذي يقضى بجلاء القوات البريطانية عن مصر ، فانهم عزموا إذا هم جلوا عنها أن يتخذوا المايك صنائع وأولياء لهم في البلاد ليضمنوا بسط نفوذهم فيها واحتلالها يوماً ما ، فسعوا لدى الباب العالي لاستئثاره إلى المايك ولكنهم أخفقوا في مسعاهم ولم يرض السلطان رجوعهم إلى الحكم ، ومن ثم مجددت الحرب بينهم وبين الأتراك في الوجه القبلي فكان النصر حليفهم وزحفوا على الوجه البحرى وفازوا على الترك في معركة دمنهور كما قدمنا ، ولما جلا الانجليز عن الاسكندرية رحل معهم الأتني وولى وجهه قبلة الحكومة الإنجليزية يستمد منها المعونة والنجدة ليتولى المايك زمام الحكم في مقابل ولائهم وإخلاصهم لها واحتلالها ثغور مصر ، وهذا معناه طلب الحماية الإنجليزية

وصل الأتني إلى لندن بعد رحلة طويلة ، فأكرم الانجليز مشواه ورحبت به الصحف البريطانية ، وبقى في عاصمة الانجليز من أوائل اكتوبر سنة ١٨٠٣ إلى أواخر ديسمبر من تلك السنة ، وقابل خلال إقامته بها أقطاب السياسة الإنجليزية وحظى بمقابلة الملك جورج الثالث وولى عهده ، وعرض على الحكومة الإنجليزية كتابة أن تشمل المايك بمساعدتها وحمايتها ، وكانت إنجلترا وقتئذ تسمى في كسب ثقة تركيا لتحويل بينها وبين صداقة فرنسا فلم تشأ أن تغضب الحكومة التركية باعلان حمايتها للمايك وأهملت شأن الأتني زمناً ما ، لكنها ما لبثت أن غيرت خطتها حياله وأخذت توجه إليه عنايتها والتفتاتها ، ذلك حين توارت الأنباء الواردة من مصر بفوز المايك واستيلائهم على زمام الحكم وتضعف نفوذ الترك في مصر ، فتغيرت وجهة النظر البريطانية - والسياسة الإنجليزية دائماً تتغير بتغير الظروف وتقلب الأحوال - وأرادت أن تستخدم هذا الانقلاب الجديد لتشد أزر المايك

وتحقق ارتباطها معهم ، فكتبت وزارة الخارجية إلى الألفي رسالة^(١) وعدته فيها بالسمي
بوساطة سفيرها في الاستانة للتوفيق بين الباب العالي والماليك وأن تعمل كذلك على حماية
مصالح البكوات في مصر على قاعدة المزايا التي كانوا يتمتعون بها قبل الحملة الفرنسية
برّت الحكومة الإنجليزية بوعدها للألفي وأرسلت إلى القائم بأعمال سفارتها بالاستانة
مذكورة بوجهة نظرها ليفضى بفجواها إلى الباب العالي أعربت فيها عن رغبتها في توطيد
النظام والسكينة في مصر ، ونوهت بما بذلته من الجهود في سبيل إخراج الفرنسيين منها
وما أداه الماليك من الخدمات للجيش الإنجليزي بها ، وأن هذه الخدمات تحول لهم الحق في
استرداد امتيازاتهم القديمة في مصر ، وطلبت من الباب العالي تسوية علاقته مع الماليك على
قاعدة اعترافهم بسيادة تركيا وأدائهم الجزية السنوية لها في مقابل استرجاعهم زمام الحكم
وتمتعهم بالمزايا التي كانت لهم قبل الحملة الفرنسية ، وطلبت الحكومة الإنجليزية في مذكرتها
أن يتمهد لها الباب العالي بتنفيذ هذه التسوية

هذه هي مطالب الحكومة الإنجليزية من الباب العالي ، ومعناها أنها اعتبرت نفسها
صاحبة الحماية الفعلية على مصر ، وأنها انتحلت لنفسها حق التدخل في نظام الحكم فيها ،
وتأمل في تذرعها بالرغبة في توطيد النظام والسكينة في مصر ، تجد أن هذه الحججة ما فتئت
تتخذها وسيلة للتدخل في شؤون البلاد قديماً وحديثاً ، على أنها هي التي تخلق أسباب العيب
بالأمن والنظام ، ويعمرى أن إعادة الماليك لى الوسيلة الفعلية لنشر الفوضى والظلم في مصر
أخفقت إنجلترا في مساعها بالاستانة ، ولو أنها نجحت لوقعت مصر فريسة في أيدي
الماليك ولرذحت تحت نير الظلم والتأخر أحقاباً طويلة ولصارت على يدهم إلى الحماية البريطانية ،
لكن الحوادث خيبت ظنونهم فسلمت مصر من حكم الماليك ومن حماية الإنجليز معاً
رجع الألفي من إنجلترا نقله سفينة حربية جعلتها الحكومة الإنجليزية تحت تصرفه ،
عاد واثقاً من نجاح مسعى إنجلترا في الاستانة ممثلاً أملاً في أن يكون حاكماً لمصر مشمولاً
بحماية الدولة البريطانية

وصل إلى أبو قير يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٠٤ وسار من فوره إلى رشيد وهناك التقى
بالمستر بروتشي Petrucci نائب القنصل البريطاني وخلا به عدة ساعات ثم أقلته سفينة
القنصل في النيل يرفرف على مؤخرها العلم الإنجليزي وأبحرت به إلى القاهرة

(١) بتاريخ ١٥ ديسمبر سنة ١٨٠٣ ، انظر البحث المنشور في مجلة المجمع العلمي المصري الجزء السابع
سنة ١٩٢٥ للمسيو دوان Douin عن (سفارة الألفي بك في لندن)

علم (محمد علي) بعودة الأتقي إلى مصر ، فأوجس في نفسه خيفة ، لأن محمد علي كان يحسب للأتقي حساباً كبيراً وبعده أقوى خصومه وأشدهم بأساً وأصعبهم مراساً ، لكن الحظ ساعده بأن سخر له عثمان بك البرديسي ليخلصه من خصمه ، ذلك أن البرديسي قد دبت في نفسه عقارب الحسد من عودة زميله وصديقه القديم من إنجلترا ، وداخله الخوف من أن يرى الأتقي ينافسه النفوذ والسلطة مؤيد الجانب من إحدى الدول العظمى ، فاعتزم الفتك به والتخلص منه ، وكان في الواقع لا يخدم نفسه بل يخدم برنامج محمد علي ، وهكذا كان للحظ دخل أياً دخل في نجاح محمد علي باشا

أنفذ البرديسي رجاله للقبض على الأتقي وقتله ، وكاد الأتقي يقع في الشرك لولا أن لجأ إلى الاختفاء والفرار واستطاع أن ينجو بنفسه وذهب إلى الصميد حيث أخذ يسعى في تكوين حزب يناصره ، وهكذا انقسم المماليك وتفرقت أهواؤهم ، فكان ذلك من الأسباب التي عجلت بزوال دولتهم

لم يكن النزاع بين البرديسي والأتقي قوامه الفكرة السياسية ، بل كان منشؤه الحسد والتنافس على السلطة والحكم ، فما كان البرديسي أقل من خصمه رغبة في الاستقلال بالحماية الإنجليزية ، فقد ذكر المسيو مانجان^(١) والمسيو مورييه^(٢) أن البرديسي قد اتصل قبل أن يتخلص من خصمه بالماجور ميست Misset قنصل إنجلترا العام في مصر وتعددت بينهما المقابلات والاجتماعات الخاصة ، وكان موضوع الحديث فيها رغبة البرديسي في التحقق من الحماية البريطانية والثقة منها ، فوعده القنصل - كما يقول المسيو (مورييه) بتأييد الحكومة الإنجليزية إذا هو قبل الحماية البريطانية وأن تنفذ إلى مصر جيشاً يجيء من الهند ليشد أزره وأن يحجز منافسه (الأتقي) في إنجلترا حتى لا يزاحمه في الحكم ، وهكذا نجحت في اتخاذ زعماء المماليك على اختلاف مشاربهم وأهوائهم صنائع لها لكي تضمن نجاح سياستها الاستعمارية على يد أي منهم ، ولم يحبط هذه السياسة إلا انقراض دولة المماليك والقضاء عليهم

ثورة الشعب على المماليك

مارس سنة ١٨٠٤

تخلص عثمان بك البرديسي من منافسه وزميله القديم محمد بك الأتقي ، وأمن على سلطته

(١) في كتاب مصر تحت حكم محمد علي

(٢) في كتاب (تاريخ محمد علي)

في الحكم ، على أن هذه الحوادث انما خدمت سياسة محمد علي ، لأن البرديسي بدأ يحتمل تبعمة الحكم أمام الشعب ويواجه مقاومة قوية أخذت تشتد وتقوى حتى انتهت بسقوط دولة المماليك ، ذلك أن الحالة في القاهرة كانت تزداد تفاقماً بسبب تدمير الشعب من كثرة وقوع المظالم وإرهاقه بمختلف الضرائب والمغارم ، وكان المماليك لا يدعون فرصة إلا ويفرضون على الناس غرامة أو ضريبة جديدة ، فاشتد الضيق بالأهلين ، وزاد في سوء الحالة ما صر بك من نقص النيل في تلك السنة (أغسطس سنة ١٨٠٣) نقصاً فاحشاً ، فأثر هذا النقص في حالة الزراعة واستولى الذعر على الناس في القاهرة وازدهموا على شراء الغلال ، فارتفعت أسعارها وشحّ الخبز في الأسواق واشتد الضيق بالفقراء وأواسط الناس ، وهم السواد الاعظم من السكان ، واجتمع إلى هذا الضيق اعتداء المماليك والجنود الالبانيين على ما بأيدي الناس من الأموال والغلال والمتاع ، وفي خلال ذلك (نوفمبر سنة ١٨٠٣ — شعبان سنة ١٢١٨) شكوا الناس إلى كبار العلماء من ترادف هذا الاعتداء ، فذهب السيد عمر مكرم نقيب الاشراف والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير إلى البكوات المماليك وطلبوا إليهم منع اعتداء المساكر على الناس ، فوعدهم بالتدخل وركب الأغا (المحافظ) والوالى (رئيس الشرطة) وأمامه جماعه من عسكر الارناؤود والمنادى ينادى بالأمن والأمان للرعية وأنه إذا وقع من الجند اعتداء أو نهب فلنناس أن يضر بهم وإن لم يقدروا عليهم فليأخذوهم إلى رؤسائهم ، على أن مثل هذه الوعود والتنبيهات ذهبت عبثاً ، واستمر الجند والمماليك في اعتدائهم على الأهالى ، وأخذ جو المدينة يكفهر منذراً بوقوع حوادث خطيرة

بدأت هذه الحوادث بمطالبة الجنود برواتبهم المتأخرة ، وذهبوا إلى دار عثمان بك البرديسي يضحجون ويتوعدون ، ولم يكن محمد علي بعيداً عن تدبير هذه الحركة ، فاستنجد البرديسي بصديقه محمد علي ، فتدخل هذا في الأمر وهذا حركة الجنود في مقابل وعد من البرديسي بأن يدبر في بضعة أيام المال اللازم لدفع رواتبهم المتأخرة

كانت خزانة الحكومة خالية من المال بسبب سوء الإدارة وتلف الأراضي الزراعية وتعاقب الفتن وما أدى إليه الظلم من انقباض أيدي الناس عن العمل ، ففكر البرديسي في ابتداع الوسائل للحصول على المال ، ففرض على تجار القاهرة ضريبة جديدة ، لكنه لم يحصل على المال الكافي لسد حاجة الجنود الذين كانوا يزدادون كل يوم ضخماً ، فاعترم البرديسي في شهر مارس سنة ١٨٠٤ (ذى القعدة سنة ١٢١٨) أن يفرض ضريبة جديدة على جميع الأهالى بلا استثناء ، ضربها على المقارات والبيوت أجرة سنة موزعة على الأملاك

والمستأجرين ، وكلف عمال الحكومة بأن يحصلوها من كل فرد من أفراد القاهرة من ملاك ومستأجرين

كانت فداحة الضرائب من أهم أسباب الثورات في مختلف العصور والبلدان ، كذلك كانت هذه الضريبة الجديدة المنطوية على الإرهاق والظلم سبباً في ثورة القاهرة على المالك ، لأنها نزلت بالناس في وقت اشتداد الضيق ووقوف حركة الأعمال

أخذ عمال الحكومة وكتابها ، يعاونهم جنود المالك ، يجوبون أحياء المدينة وشوارعها وأحاراتها يكتبون أسماء الملاك والتجار والمستأجرين ويلزمون كل مالك وكل ساكن بدفع نصيبه من الضريبة على النحو الذي قرره الحكومة بالاتفاق مع رؤساء التجار والطوائف ، فبدأ الناس يتذمرون ، وامتنع كثير من الناس عن دفع المطلوب منهم إما لمجزم أو لاستنكارهم لهذا الظلم ، فوقعت الملاحاة بينهم وبين عمال الحكومة ، واشتد سخطهم وعلا صياحهم ، واحتشدوا يوم ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢١٨ وجاهروا باستنكار هذه المظالم وامتناعهم عن دفع الضرائب ، وخرج الناس من بيوتهم يضحجون وبصخبون ، واحتشدوا في الشوارع حاملين الرايات والدفوف والطبول ، وأخذوا يستمطرون اللعنات على الحكام ، وكانت صيحاتهم منصبة على الحكام المالك الذين بيدهم الحل والعقد ، فأخذت جموعهم تنادى : « ايش تأخذ من تقليسى ! يارديسى ! » ، وأغلق التجار وكالاتهم ودكاكينهم ، واتجهت جموع الناقمين إلى الأزهر لمقاومة المشايخ والاحتجاج لديهم على الضريبة الجديدة ، فقام المشايخ إلى الأمراء المالك يطلبون إلقاءها

كان احتشاد الجماهير وغضبهم وتجمهرهم من نذر الثورة والتمرد ، فأخذت روح الثورة تنتقل من حي إلى حي حتى عمت أنحاء المدينة ، فاضطرب عثمان بك البرديسى أمام رؤية الشعب الثائر يستولى على الميادين والشوارع ، وكانت الحركة موجهة ضد حكم المالك من جهة وضد مساوى الجنود الارناؤود من جهة أخرى

وخشى محمد على أن تصيب الثورة جنوده بالأذى ، فبادر إلى كشف المالك أمام الشعب وجعلهم وحدهم هدفاً لغضب الجماهير ، وجاهر بانضمامه إلى العلماء والمشايخ ، ونزل في الشوارع واختلط بالجماهير الصاخبة وقابل العلماء بالأزهر وتعهد لهم بأن يبذل نفوذه لرفع هذه الضريبة ، كما أنه أوصى جنوده الارناؤود بأن يحترموا الشعب ، فاختلطوا بالناس وأعلنوا عدم رضاهم عن الضريبة وجاهروا أنهم انما يطلبون رواتبهم من الحكومة لا من الأهالي ، قال الجبرتي في هذا الصدد : « وفي وقت قيام العامة كان كثير من المسكر منتشرين في الأسواق ،

فداخلهم الخوف ، وصاروا يقولون لهم إننا معكم سواء ، وأنتم الرعية ونحن العسكري ولم نرض
بهذه الضريبة ، وروايتنا على الميرى لا عليكم »

يتبين من رواية الجبرتي أن ثورة الشعب كانت على جانب من الخطورة وأن جنود محمد
على أوجسوا منها خيفة وحسبوا لها حساباً كبيراً ، ولولا ذلك لما « داخلهم الخوف » كما
يقول الجبرتي ، ولما ترضوا الشعب باعلان انضمامهم إليه في ساعة غضبه ، ويؤيد رواية الجبرتي
ما ذكره الميسو (فولابل) الذي عاصر تلك الحوادث ، قال ^(١) يصف حالة القاهرة وما وقع فيها :
« انتشر عمال الحكومة ومعهم طوائف من الجنود المالك في أحياء القاهرة وشوارعها
يطالبون كل مالك وكل تاجر بأن يدفع لنوره حصته في الضريبة التي فرضت عليهم ، وبدأت
المطالبة هادئة يعقبها الدفع ، ثم ما لبثت أن ثارت الاحتجاجات وامتنع كثير من التجار عن
دفع ما يطلب منهم إما لسكونهم أو أكثر احتياجاً من دفعوا الضريبة أو أكثر شجاعة منهم ،
فاشدت المناقشة وعلا الصخب ، واحتشد الجيران ، ثم لم يلبث الشعب أن احتشد بأجمه في
الشوارع ، وأنجھوا إلى المساجد التي اتخذوها ملتقى لاجتماعهم ، فسرعان ماغصت المساجد
بمجموع الشعب ، وأثار اجتماعه في نفوس الجماهير روح الحماسة والشعور بالقوة والحق ،
وقبضت الجماهير في ساعة الغضب الأولى على بعض جبهة الضرائب وقتلوه

» كان لهذا الموقف الجريء الذي ركبته الشعب أثر دهشة وروعة في نفوس الحزبين
الذين يتنازغان الساطة (المالك والأرناؤود) ، ولم يعلما عند أي حد تقف حركة الشعب
الثائر يستولى على الشوارع واليادين والمباني ويستمد للمقاومة العنيفة ، ولم يكن خافياً على
زعماء الأرناؤود أن جنودهم قد استهدفوا باعتداءاتهم وفضائهم لكراهة الأهالي مثلما استهدف
لها المالك سواء بسواء ، فلجأ المالك إلى وساطة العلماء ، أما محمد على فكان أكثر منهم
حزماً وإقداماً ، ولا غرو فقد امتاز بصدق النظر في الأمور ، فألمهته قريحته أن يبادر إلى
اغتنام الفرصة لخدمة برنامجه وأن يستفيد من الحوادث التي لا مفر من وقوعها ، فانضم إلى
الشاخ واتصل بالجماهير واختلط بالعامه وتمهد ببذل جهوده حتى يصل إلى رفع هذه الضريبة ،
فهدأت وعوده من روع الشعب الغاضب ، وتفرقت الجموع والسنتها تلهج بفضائل قائد
الجنود الألبانيين وحكمته ^(٢) »

كسب محمد على بهذه السياسة الحكيمة عطف الشعب وثقة زعمائه ، وبدأ الناس

(١) في كتابه مصر الحديثة

(٢) فولابل . مصر الحديثة

ينظرون إليه كرجل عادل يكره الظلم ويحب خير الشعب ، ونادى العلماء بإبطال الضريبة ورفعها ، أما عثمان بك البرديسي فقد قابل هذه الثورة بالفرسة والكبرياء ، ونقم على المصريين قيامهم في وجهه وخرجهم على حكمه ، وتوعدهم بالشر والنكال ، وفي ذلك يقول الجبرتي : « أظهر البرديسي الفيظ والابحراف من أهل مصر وخرج من بيته مغضباً إلى جهة مصر القديمة وهو يلمن أهل مصر ويقول لا بد من تقريرها (الضريبة) عليهم ثلاث سنوات ، وأفعل بهم وأفعل حيث لم يمتثلوا لأوامرنا »

فالبرديسي والبكوات نعموا من المصريين أنهم « لم يمتثلوا لأوامرهم » ، وكانوا يريدون منهم الطاعة العمياء والرضوخ للظلم والقهر ، ولقد جهلوا أن روحاً جديدة دبت في نفوس المصريين وحفزتهم إلى التطلع لحياة أرقى ومركر أسمى مما كانت البلاد تعانیه في ذلك العصر ، وأخذ المماليك يستعدون لمقاومة الثورة ويجمعون جموعهم ويستدعون رجالهم اللذين كانوا موزعين في الأقاليم ، ولكنهم أبطأوا في الحضور لانهما كهم في نهب القرى وتحصيل الجبايات ، وانتهز محمد علي فرصة غضب الشعب على المماليك وثورته عليهم وتوزع جنود المماليك في الأقاليم ليتخلص منهم ، فأمر جنوده فهاجوا المماليك الموجودين بالقاهرة^(١) وحاصروا بيت ابراهيم بك بيركة الفيل وبيت عثمان بك البرديسي بالناصرية وبيوت باقي المماليك في أنحاء العاصمة ، واستمر الحصار إلى اليوم التالي

أسقط في أيدي المماليك ورأوا أنفسهم حيال قوتين ، ثورة الأهالي من جهة وجنود محمد علي من جهة أخرى ، فلم يجدوا سبيلاً للنجاة سوى الفرار من القاهرة بعد أن قُتل منهم من قُتل ، وكان أول الفارين عثمان بك البرديسي وهو كان من قبل يشمخ بأنفه ويهدد ويتوعد ، ومع أن بيته^(٢) كان أشبه بقلعة تحيط بها الأبراج المحصنة وفيها الجنود وآلات الحرب والقتال إلا أنه لاذ بالفرار إلا مصر القديمة ومنها إلى ناحية البساتين ثم إلى حلوان ، وفر كذلك ابراهيم بك إلى الرميطة ثم إلى الصحراء ، وكان جنود المماليك يحتلون قلعة الجبل ويطلقون القنابل على الأزبكية ، فلما علموا بفرار زعيمهم عثمان بك البرديسي وإبراهيم بك وقع الرعب في قلوبهم وأبطأوا الرمي وأخلوا القلعة ونزلوا من باب الجبل ولحقوا بإبراهيم بك في فراره ، وتسلم القلعة جنود محمد علي ، وخرج المماليك من المدينة على أسوأ حال ، وذهبوا إلى أوجه القبلي

(١) يوم ٢٨ ذي القعدة سنة ١٢١٨ — ١١ مارس سنة ١٨٠٤

(٢) هو قصر حسن كاشف الذي كان من قبل داراً للمجمع العلمي في عهد الحملة الفرنسية (ومكانه

الآن المدرسة السنية)

يسعدون لاستئناف الحرب والقتال ، وبهبون القرى ويفرضون عليها الغرامات والأتاوات ، وكانوا في فرارهم من القاهرة على غير الشجاعة التي يتناخرون بها في أيام الرخاء ، وفي ذلك يقول الجبرتي : « غلب عليهم الخوف والحرص على الحياة والجن ، وخاب فيهم الظنون ، وذهبت نفختهم في الفارغ ، وجازاهم الله بغيرهم وظلمهم وغرورهم ، ونزل بهم ما نزل ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله »

قتل من المايك وأجنادهم في ذلك اليوم نحو ثلثمائة وخمسين ، وارتحل الباقون منهم عن المدينة ، وانتفض الشعب في رشيد ودمياط وسائر العواصم على الحكام المايك ، فهربوا إلى الصعيد ودالت دولتهم وانقضى حكمهم من البلاد ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة وفي اليوم التالي أبطلت الضريبة التي كانت سبباً في اشتعال نار الثورة

ثورة الشعب على الوالى التركى

مايو سنة ١٨٠٥

الحالة السياسية في القاهرة

كانت الفرصة سانحة ليحقق محمد على آماله ويتولى سلطة الحكم في مصر ، فلما ليك قد دالت دولتهم ، والقوة التركية قد تلاشت من البلاد ، والوالى التركى خسرو باشا في القلمة سجين ، وليس ثمة قوة حربية سوى الألبانيين (الأرنأود) الذين تحت قيادته ، ولكن محمد على كان طويل الأناة ، بعيد النظر ، فرأى ألا يصل إلى سلطة الحكم بقوة الجند ، وآثر أن ينتظر حتى يصل إلى تلك الغاية بإرادة الشعب ، وبذلك يبرهن أنه لم يفاوى المايك لمطامع شخصية بل لمحض الصالح العام ، فيزداد الشعب تملقا به

وهنا لا بد أن نعرض لرواية ذكرها بعض المؤننين الفرنسين وإليها يرجعون صعود مجم محمد على وتقلده ولايه مصر ، فيقولون ان الميسو ماسيو دلسيس لما عين قنصلا لفرنسا في مصر أخذ يبحث عن رجل تؤيده فرنسا وتشد أزره وتساعد على تقلده حكم مصر وانه لم يكن يعرف أحداً في مصر فسأل قواس القنصلية واسمه عمرأغا عن الرجل المنشود فدل على محمد على لأنه يعرفه من قبل ، فكتب دلسيس إلى حكومته يوصيها بشد أزر محمد على ومساعدته على تقلده ولاية مصر ، ويقنياً ان هذه رواية خيالية لا أصل لها ولا يؤيدها منطق الحوادث ، ولا تستند إلى مصدر موثوق بصحته ، ولم ترد في المصادر المعتمدة ككتاب الميسو مانجان

أو كتاب كلوت بك وكلاهما عاصر (محمد علي) وبهمهما وهما فرنسيان أن يذكرنا تلك الرواية
لو أن لها أصلاً ، على أن تسلسل الحوادث التي بسطناها تدل بجلاء على أن محمد علي لم يصل
إلى منصب الولاية إلا بفضل تحببه إلى الشعب المصري وزعمائه واختيارهم إياه والياً ، ولم يكن
للمسيو ماسيو دلسيس ولا لعمر أغاى دخل في وصوله إلى ذلك المنصب ، أما كون فرنسا
رأت من مصلحتها السياسية أن تشد أزر محمد علي بعد نقله الولاية وتؤيده ضد دسائس
السياسة الإنجليزية فهذه مسألة أخرى لا علاقة بينها وبين حكاية عمر أغا

والآن نعود إلى موضوع الحالة السياسية في القاهرة ، اختار محمد علي خسرو باشا الوالي
القديم الذي كان سجيناً منذ ثمانية أشهر ليبيده إلى مركزه ، ويتولى هو إدارة الشؤون باسمه ،
فذهب إلى القلعة وفكَّ إسار الباشا ونزل به المدينة معلناً أنه صاحب الولاية في البلاد ، ونادى
المنادى بالأمان « حسبما رسم محمد باشا خسرو ومحمد علي » ، فازداد الشعب تعلقاً بمحمد علي لما
رأى فيه من التعفف وعدم الرغبة في تولى سلطة الحكم ، وكسب محمد علي مغنماً آخر ، ذلك
أنه بإعادته الوالي التركي إلى ولايته يكسب عطف الباب العالي ويبرهن له أنه لم تكن له يد
في الفتن التي أدت إلى عزل خسرو باشا وقتل على باشا الجزائري ، على أن أقرباء طاهر باشا
لم يرضوا بتعيين خسرو باشا لأنهم لم ينسوا عدااء القديم لقبريهم فناروا عليه وعزلوه وأرسلوه
إلى رشيد ومنها إلى الاستانة ، فلم يعارضهم محمد علي في فعلهم ، ولكنه أصر على رغبته في أن
يجعل زمام الولاية بيد أحد الباشوات الأتراك ، ولذلك سعى في تعيين خورشيد باشا محافظ
الاسكندرية ^(١) والياً على مصر ، فاجتمع الشيوخ وزعماء الجند وأجمت آراؤهم على تعيين
خورشيد والياً وتعيين محمد علي قائماً ، وأوفدوا إلى الاسكندرية رسولا يدعوا خورشيد باشا
إلى الحضور للقاهرة ليتولى منصب الولاية

ولاية خورشيد باشا

وصل خورشيد باشا إلى بولاق في أواخر مارس سنة ١٨٠٤ ، وهو خامس من تقلد ولاية
مصر في نحو سنتين ، فأولم خسرو باشا وقد خلع ، ثم طاهر باشا وقد قتل ، ثم أحمد باشا
وقد طرد ، ثم علي باشا الجزائري وقد قتل ، ثم جاء خورشيد باشا وفي عهده قامت الثورة التي
سنتكلم عنها فيما يلي ، ولا جرم أن هذه التعمينات والتقلبات تدلك على مبالغ تزلزل النفوذ
التركي في البلاد وما آلت إليه سلطة الوالي من الضعف والانحلال ، والواقع ان الوالي العثماني

(١) كان محافظاً للاسكندرية منذ شهر ذي الحجة سنة ١٢١٦ في عهد ولاية خسرو باشا

لم تكن سلطته تتمدى حدود مدينة القاهرة وكانت أبداً عرضة لتمرّد الجنود وعصيانهم
لم يفقد المماليك أملهم في استعادة سلطتهم القديمة بالرغم من طردهم من القاهرة وعواصم
الوجه البحري وتشتمهم في الوجه القبلي ، فجمعوا شملهم وعادوا إلى الجزيرة بقيادة عثمان بك
البرديسي وإبراهيم بك يريدون فتح القاهرة ، وتفرقت جماعات منهم في الشرقية والقليوبية
والتنوفية والغربية يميثون في البلاد فساداً وينهبون حاصلات الأهالي ومواشيهم ويفرضون
عليهم الاناوت والغرامات ، وأصبحت القاهرة في شبه حصار واستمرت الحرب سجالات بين
المماليك وجنود الوالي ومحمد على عدة أشهر إلى أن ارتدوا عن القاهرة ، وكان فيضان النيل من
أهم أسباب ارتدادهم لأن المياه غمرت البلاد التي كانوا مرابطين فيها فاضطروا إلى الرحيل
عنها وانسحبوا ثانية إلى الصعيد ، وفي أثناء ذلك أخذ خورشيد باشا يدبر الوسائل للتخلص من
محمد على ، فاستصدر من الاستانة فرماناً بعودة الألبانيين ورؤسائهم إلى بلادهم ، وجاء الفرمان
يحمّله رسول إلى القاهرة ، فأدرك محمد على سر هذه المكيدة وعلم أن الغرض منها إبعاده عن
مصر ، على أنه تظاهر بالإذعان وأعد عدته للرحيل ، بيّئد ان العلماء لما علموا بأمر هذا الفرمان
طلبوا إلى محمد على البقاء بمصر لما عهدوه فيه من العدل والاستقامة وردع الجنود عن الاعتداء
على الأهالي ، واضطربت القاهرة لنبأ هذا الرحيل ، وأقفلت الأسواق والدكاكين ، وكاد حبل
الأمّن يضطرب ، فقبل محمد على طلب العلماء وأعلن بقاءه إرضاء للرأى العام ، فلما تحقق
خورشيد باشا عدول محمد على عن السفر أدرك أن مكيدته قد أخفقت واضطر للإذعان مؤقتاً
للأمر الواقع والاستماتة بمحمد على في محاربة المماليك بالصعيد ، ورأى في تكليفه هذه المهمة
ذريعة لإبعاده هو وجنوده عن القاهرة ليخلو له الجو فيها

سار محمد على من القاهرة على رأس جنوده الأرنؤد وعددهم نحو ثلاثة آلاف مقاتل يوم
١٧ أكتوبر سنة ١٨٠٤ (١٢ رجب سنة ١٢١٩) وكان يعاونه جيشان آخران جردها الوالي ،
الأول بقيادة سلحداره وعدده نحو أربعة آلاف ، والثاني بقيادة حسن باشا وعدده نحو ١٢٠٠
مقاتل ، فأخذت هذه القوات تطارد المماليك في الصعيد واستولت على المنيا يوم ١٥ مارس
سنة ١٨٠٥ بمد حصار دام ستة وخمسين يوماً

كان محمد على منهمكاً في قتال المماليك بالصعيد ، ولكنه علم بما كان يدبر ضده في القاهرة
من المكائد بتدبير خورشيد باشا ، ذلك أن خورشيد أراد أن يتخلص من منافسه في السلطة
فطلب من الحكومة العثمانية إمداده بقوات جديدة ، فصادف هذا الطلب هوى في نفسها

لأنها لم تنظر بعين الرضا إلى تضعف نفوذ ممثلها الرسمي في مصر فأنفذت إليه جيشاً من الدلاة^(١)، احتشد في سوريا وسار منها إلى مصر، فلما وصل إلى محمد علي نبأ وصول هذا الجيش ورأى بثاقب نظره أنه هو المنصود بقدمه عجل بالعودة هو وزميله حسن باشا إلى القاهرة ليحبط سياسة خورشيد باشا قبل أن ترسخ قدم الدلاة في البلاد كان غرض خورشيد أن يستعين بجيش الدلاة ليتغلب على محمد علي، لكن هذا الجيش كان السبب في القضاء المبرم على سلطة الوالي كما سيحيى بيانه

سوء سياسة خورشيد باشا ونفوذ العلماء

كان خورشيد باشا سيء الرأي فاسد التدبير ميالاً إلى الظلم غير مكترث بميول الشعب معتمداً على القوة العشوم، سكن القلعة من اليوم التاسع من صفر سنة ١٢١٩ (٢٠ مايو سنة ١٨٠٤)، فكان انتقاله إليها نذيراً بالتجائه إلى القوة المسلحة في إخضاع المدينة، تمددت مظلله فتدخل العلماء غير مرة لرفعها عن الناس، ومن أجل هذا عظم نفوذهم فكانوا موثلاً الشعب، يفزع إليهم عند وقوع المهمات، وكانت مساوى خورشيد باشا هي الباعثة على ذلك؛ ففي عهده قوى سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصى مداه حتى أثاروا الشعب واقتلموا بقوته اوالى عن كرسى ولايته وأجلسوا (محمد علي) مكانه، ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل، كما لم يخلص لهم مثله بعد انقضاء هذا العصر

مقدمات الثورة

فرض خورشيد باشا في شهر مايو سنة ١٨٠٤ اناوة جديدة على أرباب الحرف والصنائع، فضجّبوا منها لما كانوا فيه من الضيق وسوء الحال، واقفلوا حوانيتهم وحضروا إلى الجامع الأزهر يشكون أمرهم إلى العلماء، وكان إقفال الحوانيت من نذر الثورة، فر المحافظ ورئيس الشرطة في الأسواق ينادون بالأمان وفتح الحوانيت، فلم يفتح منها إلا القليل وظلت الخواطر في هياج يومي السبت والأحد (١٦ — ١٧ صفر سنة ١٢١٩)، وفي يوم الاثنين^(٢) اشتد الهياج، واقفلت جميع الدكاكين والأسواق، واحتشدت جموع الصناع وأرباب الحرف وجماهير الناس بالجامع الأزهر ومعهم الطبول، وصعد كثير منهم إلى

(١) جمع دبل وهو كلمة تركية معناها الجنون، وأطلقت كلمة دلالة أو دلانية على هذا الجيش الشهيرة رجاله بالتهور في البسالة، ومعظمهم من الأكراد

(٢) ١٨ صفر سنة ١٢١٩ الموافق ٢٩ مايو سنة ١٨٠٤

المنارات يصرخون ويدقون الطبول ، فوصل دوى نداءهم إلى نواح بعيدة في المدينة وسمعه الوالى وهو بالقلمة ، ووصله خبر التجهز ، فأرسل إلى السيد عمر نقيب الاشراف رسولا يئبته بأنه رفع الاتاوة عن الفقراء منهم ويطلب إليه فض الجمهير ، فقال السيد عمر مكرم : « ان هؤلاء الناس وأرباب الحرف والصنائع كلهم فقراء وما كفافهم ما هم فيه من الكساد وسوء الحال حتى تطلبون منهم مغارم لرواتب المسكر » ، ومعنى هذا أن السيد عمر مكرم طلب رفع الااوة عن الجميع ، فرجع الرسول بذلك إلى الوالى وحضر الأغا (محافظ المدينة) ومعه عدة من الجنود وجلس بالغورية يأمر الناس بفتح الدكاكين ، ويتوعد من يتخلف ، فلم يحضر أحد ولم يسمعوا لقوله ، فاضطر الوالى أمام هذه الحركة إلى رفع الااوة في ذلك اليوم ، وأعلن إبطالها ، ونادى المنادى بذلك فاطمأن الناس وتفرقوا

كان الشعب إذاً مستعداً للهياج متحزراً للانتفاض والثورة ، وقد كان لهذه الحركة أثرها في نفوس الناس لأنهم أيقنوا أن في استطاعتهم ، رفع المظالم باجتماعهم وتقرير الإضراب العام وامتناعهم عن دفع الضرائب ، فانظر ماذا جرى بعد ذلك وكيف تطورت الحوادث

فضائع الجنود الدلاة

وهياج الشعب

كان جيش الدلاة الذى جلبه خورشيد باشا مؤامراً من ثلاثة آلاف مقاتل من أردأ عناصر السلطنة العثمانية ، فأخذوا يعيشون في الأرض فساداً ويرتكبون الجرائم ويمتدون على الأموال والأرزق والأرواح ، قال الجبرتي : « ودخلوا بيوت الناس بمصر وبولاق وأخرجوا منها أهلها وسكنوها ، وكانوا إذا سكنوا داراً أخربوها وكسروا أخشابها وأحرقوها لو قودهم ؛ فإذا صارت خراباً تركوها وطلبوا غيرها ففعلوا بها كذلك ، وهذا دأبهم من حين قدمهم إلى مصر حتى عم الخراب سائر النواحي وخصوصاً بيوت الأمراء والأعيان وباقى دور بركة الفيل وما حولها من بيوت الأكاير وقصورهم » (١)

وقعت هذه المظالم وترادف اعتداء الجنود الدلاة ، واضطر الوالى إلى الإغضاء عن سيئاتهم ليستمعين بهم على محاربة محمد على ، ومد لهم في حبل السلب والنهب ، وعلم خورشيد أن محمد على راجع إلى القاهرة

سعى خورشيد باشا في استمالة العلماء إليه ، ولكنه أخفق في سమాه ، فأراد أن يجعلهم تحت رقابته ، فطلب السيد عمر مكرم والوجاقلية في اليوم الحادى عشر من شهر محرم سنة ١٢٢٠ (١١ ابريل سنه ١٨٠٥) فلما اجتمعوا به قال لهم ان محمد على وحسن باشا راجعان من الوجه القبلى من غير إذن وطالبان شراً ، فلما أن يرجعا من حيث أتيا ويقانلا المايليك ، وإما أن يذهبا إلى بلادها أو يتوليا ولايات ومناصب في غير مصر ، وقال إن لديه أمراً من السلطان « أعزل من أشياء وأولى من أشياء وأعطى من أشياء وأمنع من أشياء » ، وطلب إليهم أن يبقوا عنده (بالقلعة) يقيمون صحبة كبار الضباط ، ففهم العلماء أن الوالى يريد أن يبقوهم في القلعة ليكونوا رهائن تحت يده ، فاعتذروا بأن بعضهم وهم الشرفاوى والبكرى والمهدى غائبون عن مصر ، فقال إذاً نرسل لهم بالحضور ، وانتهى الاجتماع على أن يبيت بالقلعة كل ليلة اثنان من المشايخ ، واثنان من الوجاقلية (الجهادية) ، وأعدوا لهم مكاناً بالضربخانة (دار الضرب)

رجوع محمد على إلى القاهرة

وفما كان الوالى يستعد للائتمار بخصمه رجع محمد على وحسن باشا بجنودهما إلى طره ، وكان خورشيد باشا قد أنفذ إليها قوة من الدلاة لصددها عن التقدم ، لكن محمد على تمكن بدهائه وحسن سياسته من أن يجتاز هذا المدقل دون أن يلقى أية مقاومة ، ذلك أنه لما اقترب من قلعة طره طلب أن يقابل بعض ضباط الحامية للتحدث إليهم ، فأجابوه إلى طلبه ، فلما اجتمع بهم تبسط في الكلام معهم وحادثهم حديثاً ودياً ، وقال لهم إن الباشا لم يدفع للجنود رواتبهم المتأخرة وقد جئنا لتطالبه بها ، فهل يضركم ذلك ؟ فقالوا : كلا ، والحق ان حجة (محمد على) كانت قوية ومقنعة وقد ارتاح لها الضباط الدلاة لأنهم رأوا أن المطالبة بالرواتب لاتهم الجنود الألبانيين وحدهم ، بل تهم الدلاة أيضاً ، وأنه إذا وجب قتال جنود محمد على لأنهم يطالبون بمحقتهم ، فكذلك يفعل الوالى معهم إذا هم طالبوا برواتبهم ، فأجمعوا رأيهم ألا يعترضوا لجيش محمد على ، وأخلوا له الطريق ، فواصل سيره حتى بلغ القاهرة سالماً ، ونزل بداره بالأركبية يوم ١٩ ابريل سنة ١٨٠٥ ، فبدأ الصراع بينه وبين الوالى وجهاً لوجه ، وأخذ كل منهما يعد العدة لينتصر على خصمه

وجد محمد على أن القوة التى يستطيع أن يكسب بها المعركة ويصل بها إلى قمة السلطة هى قوة الشعب ، فبالغ في استمالة علماء المدينة وأعيانها واستنكار تصرفات الوالى ، وكان الشعب

يُعتبر اوالى مسئولوا عن فظائع الدلاة ومغالهم لأنه هو الذى جلبهم لتأييد سلطته ، فأخذ ثيار السخط العام ينحدر نحو اوالى ، وعَبَّ عبا به ، ولم يبق بين السخط والثورة إلا أن تقع حادثة تشمل نار البركان

أيام الثورة

أول مايو — ٩ يوليه سنة ١٨٠٥

فى يوم الأربعاء أول مايو سنة ١٨٠٥ اعتدى الجنود الدلاة على أهالى مصر القديمة وأخرجوهم من بيوتهم ونهبوا مساكنهم وأمتعتهم وقتلوا بعض الأهالى الآمين ، فعظم الهياج فى مصر القديمة وحضر جميع سكانها رجالا ونساء إلى جهة الجامع الأزهر ، وانتشر خبر الاعتداء والهياج بسرعة البرق فى أنحاء المدينة ، واجتمع العلماء وذهبوا إلى الوالى وخاطبوه فى وضع حد لفظائع الجنود الدلاة ، فأصدر الوالى أمراً للجنود بالخروج من بيوت الناس وتركها لأصحابها ، وكان هذا الأمر صورياً ، لأن الجنود لم يخضعوا ولم ينفذوه ، فخرط الوالى ثانياً فى الأمر ، فطلب مهلة ثلاثة أيام ليرحل الجنود من المدينة قاطبة ، فلما علمت الجماهير بهذا الجواب اشتد ضجيجهم وتضاعف سخطهم وتألبت جموعهم وبدأت علامات الثورة تلوح فى أفق المدينة ، وفى اليوم التالى (الخميس ٢ مايو) عمت الثورة أنحاء العاصمة ، فاجتمع العلماء بالأزهر وأضربوا عن إلقاء الدروس ، وأقفلت دكاكين المدينة وأسواقها ، واحتشدت الجماهير فى الشوارع واليادين يضجون ويصخبون ، فأدرك الوالى خطر الحالة ، وأرسل وكيله صحبة رئيس الانكشارية (المحافظ) إلى الأزهر لمقابلة العلماء ومفاوضتهم لوقف الهياج ، فلم يجدهم بالأزهر ، فذهب إلى بيت الشيخ الشرقاوى وهناك حضر السيد عمر مكرم وزملاؤه ، فأغلظوا له فى القول ، فانصرف على غير جدوى ، ومضى يقصد القلعة ، لكن الجماهير لم تكذبصره حتى انها لوالى عليه رجماً بالأحجار ، ورفض العلماء أن يتدخلوا لإيقاف الهياج ، وطلبوا جلاء الجنود الدلاة عن المدينة ، وكانت إجابة هذا الطلب صعبة التحقيق ، لأن الوالى يستحيل عليه أن يبعد الجنود عن القاهرة وهم من جهة عُدته فى القتال ومن جهة أخرى فإن لهم رواتب متأخرة والخزانة خالية من المال ، فظل العلماء مضربين عن إلقاء الدروس ، وبقيت الدكاكين والأسواق مقفلة أكثر من أسبوع ، وامتنع العلماء عن مقابلة الوالى طوال هذه المدة

نبين لك مما تقدم أن حركة شعبية قوية قامت تناوى سلطة الوالى التركى ، كانت هذه

الحركة قوامها الشعب وزعماءه ، ومن الخطأ أن يظن أحد أن محمد علي هو الموعز بهذه الحركة ، فإن منطق الحوادث يدل يقيناً على أنها نتيجة تدمر الجماهير وتبرمها من مظالم الحكم ، وإنما اغتتم محمد علي تلك الحركة لتحقيق وجهة نظره ، ورأى بثاقب رايه أن يؤيدها ويناصر الشعب وزعماءه ليكسب تأييدهم ، كما فعل في ثورة الشعب على حكم المهاليك ، وإليك ما قاله المسيو (فولابل) في هذا الصدد ، قال يسرد حوادث القاهرة في ذلك الحين وكلامه كما ترى لا يختلف في مجموعه عن رواية الجبرتي : « اجتمع العلماء بالأزهر وحو لهم الجوع الحاشدة من الناس فخشي خورشيد باشا أن يسفر هذا الاجتماع عن حركة ثورية وأراد أن يتلافى عواقبه ، فأوفد إلى الأزهر كمتخذه (وكيله) وأغا الانكشارية (المحافظ) ، ولكن سيلا من الأحجار انصب على الرسولين من كل صوب ، فاضطرا إلى الرجوع وتمكنا مع ذلك من المخابرة فيما جاء من أجله واتفقت جمعية العلماء على أن يضموا حداً لهذه الحركة بشرط أن يطرد خورشيد باشا الجنود الدلاة من القاهرة وضواحيها في مدة ثلاثة أيام ، وكان إننا هذا الشرط من الصعوبة بمكان ، لأن خزانة الوالي كانت خالية من المال والدلاة يطالبون برواتب ثلاثة أشهر متأخرة ، وكان العلماء يعلمون ذلك فانتظروا أن تنتهي المدة التي حدودها ، فالنزاع كما يتضح مما تقدم كان منحصراً بين خورشيد باشا والشعب ، وقد بقى الألبانيون بعيدين عنه ، لكن محمد علي اتبع في هذه الظروف الخطة التي سلكها منذ حين ، ذلك أنه في خلال فترة الانتظار لم يفتك يتردد على كبار الشيوخ ويضم صوته إلى شكواهم ويمدحهم ببذل جهوده ووساطته لتأييدهم » (١)

تعيين محمد علي والياً لجدة

ومحاولة إبعاده عن مصر

وأثناء ذلك ما فتى خورشيد باشا يبذل الوسائل لإقصاء محمد علي عن مصر ، وكان من قبل يسمى سميماً حثيثاً لدى الباب العالي لهذه الغاية ، وقد نجح في مسعاه إذ ورد فرمان سلطاني بتقليد محمد علي ولاية (جدة) ، وكان الغرض من هذا التعيين إبعاد محمد علي عن مصر بأية وسيلة ولو بترقيته ، فابتهج خورشيد باشا لورود هذا فرمان وظن أنه سيخلصه من خصمه اللدود ، وأرسل إلى محمد علي يستدعيه إلى القلعة ليسلمه فرمان ويخلع عليه خلمة الولاية

(١) فولابل ، مصر الحديثة

الجديدة ، لكن محمد علي أدرك ما في هذا التعمين من الدسيسة وخشى الغدر به إذا هو صعد إلى القلعة تلبية لدعوة الوالي ، فأرسل ينبئه أنه مستعد لتلقي أمر التعمين في أى منزل يختاره الوالي ، ففضض خورشد باشا من هذا الجواب ، وكاد الأمر يستفحل لولا تدخل الشيوخ ، فاتفقوا على أن يكون الاجتماع في منزل سعيد أغا وكيل دار السعادة وصديق محمد علي ، فرضى خورشد باشا بهذا الحل مرغماً ، وذهب في المياماد (٣ مايو سنة ١٨٠٥) إلى دار سعيد أغا بالأركبية ، وأمر بتلاوة فرمان القاضي بتعمين محمد علي والياً لجدة ، وكان ذلك بحضور علماء المدينة وكبرائها ، ولما انتهى الاجتماع خرج محمد علي ومضى إلى داره فرحاً مبتهجاً ، وعاد الوالي إلى القلعة بمد أن كاد الجنود المطالبون برواتبهم المتأخرة يفتكون به ، ولم ينل خورشد باشا من وراء هذه الدسيسة سوى الخيبة والنشل ، فإن محمد علي قد زادت مرتبته بتقلده الولاية دون أن يعتمد عن الميدان أو يذهب إلى جده

اجتماع زعماء الشعب ومطالبهم

١٢ مايو سنة ١٨٠٥

انتهت الفترة التي حددها العلماء لجلاء الجنود الدلاة عن المدينة يوم السبت ١١ مايو ، واستطاع الوالي أن يبعد رهطاً منهم تهديئة للخواطر الثائرة ، ولكن بقى منهم بالقاهرة نحو ألف وخمسمائة ، وعلم زعماء الشعب أنهم ممتنعون عن الجلاء حتى تدفع رواتبهم وأن الوالي لا يريد إخراجهم حتى تؤدى لهم تلك الرواتب وأنه لا سبيل إلى دفعها مع خلو خزانة الحكومة من المال إلا بفرض ضريبة جديدة على المدينة

أحدثت هذه الأنباء هياجاً عظيماً في الخواطر ، وبات الناس ليلة الأحد في هرج ومرج ، والزعماء يتشاورون فيما يمدونه للغد ، وعند ما تباج صباح يوم ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ (١٢ صفر سنة ١٢٢٠) اجتمع زعماء الشعب وانتفقوا رأياً على الذهاب إلى دار المحكمة الكبرى (بيت القاضي) لاختصاص الوالي وإصدار قراراتهم في مجلس الشرع

ولم تكف تلم الجماهير بما استقر عليه رأى الزعماء حتى احتشدت جموعهم وأتجهت إلى دار المحكمة وأقبلت الجوع من كل صوب على دار العدل ، واحتشدت بفتناً وحولها ، وبلغت عدتها أربعين ألف نسمة ، فكان اجتماع هذا البحر الزاخر من الخلائق هو الثورة بعينها ، وظهرت روح الشعب قوية نافحة على الوالي وعلى الحكم التركي ، وكفيك لتتعرف نفسية الشعب في ذلك اليوم العصيب أن تتأمل فيما ذكره الجبرتي عن صيحاتهم التي كانوا

ينادون بها فقد كانوا يضحون « يارب يامتجلى ، اهلك المشملى » فهذا النداء يدل على ما كان يجيش بنفوس المصريين من روح السخط على الحكم التركي واعتزام التخلص منه ، وهذا يعطيك صورة لما أحدثته الروح القومية من الأثر البالغ في النفوس اجتمع زعماء الشعب في دار المحكمة وطلبوا من القاضي أن يرسل باستدعاء وكلاء الوالى ليحضروا مجلس الشرع ، فأرسل يستدعيهم على عجل ، فحضروا ، وعندما انعقد المجلس عرض الزعماء ظلامة الشعب وحرروا مطالبهم وهى :

ألا تفرض من اليوم ضريبة على المدينة إلا إذا أقرها العلماء وكبار الأعيان
أن تجلو الجنود عن القاهرة وتنتقل حامية المدينة إلى الجيزة
ألا يسمح بدخول أى جندى إلى المدينة حاملا سلاحه
أن تماد المراسلات في الحال بين القاهرة والوجه القبلى

هذه هى المطالب التى أملاها وكلاء الشعب في اجتماع ١٢ مايو وسلموا صورتها إلى القاضي ، وقام وكلاء الوالى ليبلغوها إلى خورشيد باشا بالقلعة

نقلنا بيان هذه المطالب عن المسيو فولابل الذى دونها في كتابه وأسماها « وثيقة الحقوق » تشبيها لها « بوثيقة إعلان الحقوق » التى قررها البرلمان البريطانى سنة ١٦٨٨ وأيد فيها حقوق الشعب الإنجليزى وأهمها أن لا يجوز للملك أن يفرض ضريبة إلا بعد موافقة البرلمان

وقد رجعنا إلى الجبرقى فرأيناه يوردها بصيغة أخرى تحتلف قليلا عن رواية فولابل ، وإن كانت تتفق وإياها في مجموعها قال : « غضر الجميع وانفقوا على كتابة عرضحال بالمطوبات ، ففعلوا ذلك وذكر فيه تمدى طوائف المسكر والإيذاء منهم وإخراجهم من مساكنهم والمظالم والفرد (الضرائب) ، وقبض مال الميرى المجل ، وحق طرق المباشرين ، ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك وأخذوه (وكلاء الوالى) ووعدوا برد الجواب في ثانى يوم »

رأى الوالى أن الحركة خطيرة ، وأن الثورة تؤذن أن تقتله من مقره ، وكان السيد عمر مكرم تقيب الأشراف في مقدمة زعماء الحركة وأكبرهم نفوذاً ، وفي ذلك يقول فولابل : « إن السيد عمر مكرم ظهر في الصف الأول من صفوف الجاهدين الذين رأهم الشعب لأول مرة يدافعون عن مصالحه » ، فأراد الوالى أن يلقى القبض عليه ويمتقله بالقلعة ليشل الحركة القائمة في المدينة ، فلما وصلته رسالة القاضي أرسل إليه يستدعيه ويستدعى السيد عمر مكرم

والعلماء إلى القلعة ليتشاور معهم في الأمر ، لكن السيد عمر فطن إلى مقاصد الوالي وخشى
القدر ، فأشار برفض الذهاب إلى القلعة ، وكان محقاً في حذره لأنهم علموا بعد ذلك أن
الوالي أعد أشخاصاً لاغتيالهم في الطريق

خلع خورشيد باشا

والمناذاة بمحمد علي والياً لمصر

١٣ مايو سنة ١٨٠٥

لم يجب أحد من زعماء الشعب دعوة الوالي ولم يذهبوا إلى القلعة ، فحنق عليهم ، وعدّ
امتناعهم عن الذهاب إليه تمرداً وعصياناً ، وتلقاه ذلك رفض إجابة المطالب التي قرروها
كان هذا الرفض معجلاً لسير الحوادث ، فاجتمع وكلاء الشعب من العلماء وتقهاء
الصناع في اليوم التالي (الانثنين ١٣ مايو - ١٣ صفر سنة ١٢٢٠) بدار المحكمة ليتداولوا في
الموقف ، واحتشدت الجماهير في فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم ، وهناك انفقت كلمة
نواب الشعب وأجمعوا رأيهم على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد علي والياً بدله ، وعندئذ قاموا
وانتقلوا إلى دار محمد علي لتنفيذ قرارهم ، وأبلغوه ما انتقوا عليه وقالوا :

« إننا لا نريد هذا الباشا والياً علينا ولا بد من عزله من الولاية »

ونادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم وقال :

« إننا خلعناه من الولاية »

فقال محمد علي : « ومن تريدونه والياً »

فقال الجميع بصوت واحد : « لا نرضى إلا بك وتكون والياً بشروطنا لما نتوسمه فيك من
العدالة والخير »

فأظهر محمد علي تردداً وامتناعاً حتى لا ينسب إليه أنه المحرض على هذه الثورة ، وقال
إنه لا يستحق هذا المنصب وإن هذا التعمين قد يمس حقوق الساطان ، فألح وكلاء الشعب
عليه وقالوا جميعاً قد اخترناك برأى الجميع والكافة ، والعبرة برضا أهل البلاد ، وأخذوا عليه
المهود والتواثيق أن يسير بالعدل وألا يبرم أمراً إلا بمشورتهم

فقبل محمد علي ولاية الحكم ، ونهض السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى وألبسوا خلعاً

الولاية ، وكان ذلك وقت العصر

وبذلك تمت مبايعة نواب الشعب لمحمد علي ، وأمروا بأن ينادى به في أنحاء المدينة والياً لمصر

هذا هو اليوم المشهود الذي تولى فيه محمد علي باشا حكم مصر بإرادة الشعب ، وهو من الأيام التاريخية المدودة في تاريخ الحركة القومية ، ففيه تم انقلاب عظيم في نظام الحكم ، فيه وضعت مصر لنفسها أساس حريتها واستقلالها ، فيه أعلنت عن حقها في تقرير مصيرها ، فيه تجلت سلطة الأمة ممثلة في أشخاص زعمائها وذوى الرأي فيها ، تجلت سلطة الأمة في خلع الوالى الذى لم ترتض حكمه وإسناد ولاية الأمر إلى من انتخبه زعماء الشعب ووكلاؤه ، وتلك أول مرة في تاريخ مصر الحديث يمزل الوالى ويخار بده بقوة الشعب وإرادته ، لقد كان الولاية يُعزلون بقوة الجند وإرادة رؤسائهم من المالك ، لكن هذه المرة كان الانقلاب شعبياً ، فوقع بإرادة الشعب وبقوة الشعب ، تم انتخاب محمد علي للولاية على الرغم من صدور فرمان السلطان بإسناد ولاية جدة إليه ، وكان معروفاً أن الحكومة التركية تؤيد خورشيد باشا وتناصره في موقفه ، فخلع خورشيد باشا وانتخاب محمد علي والياً لمصر فيه معنى الاستقلال عن الحكومة التركية ومقاومة تدخلها في حكم مصر

ويمتاز هذا الانقلاب بأنه لم يكن مقصوراً على مجرد انتخاب وكلاء الشعب لولى الأمر ، بل كان مقروناً باشتراطهم أن يرجع إليهم في شؤون الدولة ، فوضعوا بذلك قاعدة الحكم الدستورى في البلاد ، وفي ذلك يقول الجبرتي عن ولاية محمد علي : « تم الأمر بعد المهادنة والمعاقدة على سيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع والإقلاع عن المظالم والأفعال أمراً إلا بمشورته ومشورة العلماء ، وأنه متى خالف الشروط عزلوه »

وتمتة ميزة أخرى أكتسبت ذلك الانقلاب بها ، وجلالا ، ذلك أنه تم في دار المحكمة ، في ساحة القضاء ، فاتخذ معنى الاحتكام إلى العدالة والتمسك بالحق ، وهي فكرة جليلة امتازت بها الثورة المصرية ، ولا نظن ثورة أخرى غربية أو شرقية تسامت إلى هذا المعنى البديع ، فالثورة إذاً كان قوامها المطالبة بالحق والاحتكام إلى العدل ، كان أساسها الحق ومن ورائه قوة الشعب تسنده وتؤيده ، وما أحوج الثورات والحركات القومية إلى أن تحافظ في كل أدوارها على معاني الحق والعدل والنزاهة ، فلها بذلك تسلم من الانحدار في مهارى الرذيلة والنساذ ، والفوضى والظنيان

القتال بين الشعب والوالي

أبلغ زعماء الشعب قراراتهم إلى خورشيد باشا ، وذهب وفد منهم إلى القلعة لمقابلته ، فأجابهم : « انى موالى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر من الفلاحين ، ولا أزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة »

ومعنى ذلك أنه رفض الإذعان لمطالب وكلاء الشعب وكبر عليه أن يصدر منهم أمر أو نهى ، وأكر عليهم هذا الحق بأسلوب يدل على مبالغ ما كان يشعر به الحكام من الازدراء بإرادة الشعب ، فلم يكن بد من نشوب القتال بين الشعب والوالي

وقد حرر نواب الشعب يوم اجتماعهم محضراً بعزل خورشيد باشا وتعيين محمد على بدله ، ولم يذكر الجبرتي أنهم حرروا محضراً إلا فى يوم ١٦ صفر (١٦ مايو) حينما طلب منهم خورشيد باشا سنداً شرعياً بالعزل ، لكن (فولابل) يقول إنهم حرروا محضراً يوم ١٣ مايو أى قبل المحضر الثانى ، ويقول إن الذى تولى تحريره هو الشيخ محمد المهدي ، واقتبس منه العبارة الآتية وقال عنها إنها جديرة بالتفات النظر إليها ، وهى « بن للشعوب طبعاً لما جرى به العرف قديماً ولما تقضى به أحكام الشريعة الإسلامية الحق فى أن يقيموا الولاية ولهم أن يزلوهم إذا انحرفوا عن سبيل العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة »

وأخذ الوالى بمحصن القلعة ويتزود من الميرة والذخيرة ويستعد للقتال لإخضاع المدينة وإخماد الثورة ، وأخذ زعماء الشعب من ناحيتهم بمدون الوسائل لحصار القلعة لإجبار خورشيد باشا على التسليم ، فدعوا الأهالى إلى حمل السلاح ، واحتشد الثائرون فى ميدان الأزبكية حتى ملأوه ، واعتزم الزعماء أن يعيدوا إبلاغ الوالى قرارهم ويطلبوا إليه احترامه منماً للفتنة وحقناً للدماء ، فبعثوا برسالة إلى عمر بك وصالح قوش^(١) يذكرون فيها « ما اجتمع عليه رأى الجمهور من عزل الباشا وأنه لا ينبغي مخالفتهم لما يترتب على ذلك من الفساد العظيم وخراب الإقليم^(٢) »

فأرسل عمر بك وزميله يطلبان سنداً شرعياً مثبناً لعزله ، فاجتمع الزعماء فى يوم الخميس (١٦ مايو - ١٦ صفر) بدار المحكمة (بيت القانجى) وحرروا محضراً فى شكل سؤال وجواب على نحو التناوى التى كانت تصدر بجمع السلاطين فى الاستانة ، ووقفوا على المحضر

(١) ها من خاصة مستشارى الوالى وكانا من ضباط الأرنأؤد

(٢) الجبرتي الجزء الثالث

وأرسلوه إلى الوالى ومستشاريه ، فلم يفتنموا به ولم يتقلوه ، واستمر الوالى على عناده ، فأخذ السيد عمر مكرم يمرض الناس على الاجتماع والاستعداد للقتال ، ولجى الأهالى الدعوة متطوعين حاملين ما وصلت إليه أيديهم من الأسلحة والمضى ، فأقاموا المتاريس والاستحكامات بأقرب من القلعة وتحصنوا بها « وحمل السلاح كل قادر على حمله ، وختل مخازن الأسلحة مما فيها من آلات الكفاح »^(١) ، واشتركت جميع طبقات الشعب فى حمل السلاح على اختلاف أعمارهم وصرا كثرتهم وطوائفهم ، وبلغ عدد الثوار أربعين ألفاً حاملين الأسلحة والمضى^(٢) « وكان الفقراء من العامة يبيعون ملابسهم أو يستدينون ويشتررون الأسلحة »^(٣)

وأرسل خورشيد باشا إلى القاضى بطاب الرواتب المتأخرة لجنوده وبقائه فى القلعة إلى أن يرد جواب الدولة ، وقال فى رسالته إن إقامته بالقلعة ليس فيها ضرر على الرعية ، فأجاب القاضى : « إن إقامتكم بالقلعة هى عين الضرر فإنه حضر يوم ناريخه نحو الأربعين ألف نفس بالمحكمة طالبين نزولكم أو محاربتكم ، فلا يمكننا دفع قيام هذا الجمهور ، وهذا آخر المراسلات بيننا وبينكم والسلام »^(٤)

هذا ما ذكره الجبرتى عن المفاوضات بين زعماء الشعب وخورشيد باشا ، ولم يذكر لنا فى هذه النقطة مركز محمد على خلال تلك المفاوضات ، لكن « فولابل » يلقى على هذه الناحية شيئاً من الضوء فيقول فى كتابه إن (محمد على) كان يميل بعد المناداة بمبايئته إلى أخذ خورشيد باشا بالحسنى ، لأن اقتراب الهايك من القاهرة فى خلال تلك الأيام قد أقلق باله ، وهذا فضلاً عن أنه لم يكن ينظر بعين الارتياح إلى استمرار الشعب ثاراً حاملاً السلاح ، لأنه رأى فى ذلك مصدر قلق على سلطته الجديدة ، فرغب إلى الشيوخ أن يفاوضوا خورشيد باشا فى طريقة سلمية ترضى الفريقين ، فأجاب خورشيد بأنه لا يسلم القلعة كما صرح بذلك من قبل إلا إذا جاءه أمر من السلطان ، على أنه مع ذلك يكف عن ضرب المدينة إذا تعهد له الشيوخ بأنهم لا يتمسكون بمحاسبتة على الأموال التى دخلت خزائنه وأن يمكنوه من تزويد القلعة بالمؤونة اللازمة لجنود الحامية ، ويقول فولابل إن الشيوخ قبلوا الشرط الثانى ، أما الشرط الأول فكان محمد على ميالاً إلى قبوله ، لكن زعماء الثورة رفضوه بتاتا وأصرروا على ضرورة محاسبة خورشيد على الضرائب التى جباها ، فلما علم بنتيجة المفاوضات أصر على رفض أى اتفاق

(١) الجبرتى الجزء الثالث

(٢) فولابل ، مصر الحديثة

(٣) و (٤) لجبرتى الجزء الثالث

على غير الأساس الذي عرضه ، فناد القريتان إلى استئذاف الحرب والقتال ، وبمك خورشيد
باشا إلى سلحداره ايغادر الصميد بجيشه ويحىء إلى القاهرة لنجدته

عمر مكرم

روح الحركة

كان للشعب زعماء عديدون يجتمعون ويتشاورون ويشتركون في تدبير الأمور ، ولكل
منهم نصيبه ومنزله ، ولكن من الإنصاف أن يُعرف للسيد عمر مكرم فضله في هذه الحركة ،
فقد كان بلا جدال روحها وعمادها ، كان أكثر الزعماء شجاعة وإقداما ، وأقوام إخلاصا
وإيماناً ، وأكثر عملا ، وأبعدهم نظراً ، كان يتقدم الصفوف ، ويشدد العزائم ، ويدعو إلى
مواصلة الجهاد ، ويتلا في أسباب الخلاف والانقسام ، تتجل شخصيته في كلماته ومواقفه وأعماله ،
فهو أول من دعا إلى الاجتماع في دار المحكمة الكبرى لإعلان خلع خورشيد باشا واختيار محمد
على باشا بدله ، وهو أول من دعا إلى محاصرة القلعة بعد أن أبى خورشيد النزول منها ، وأول
الثابتين في إيمانهم بعدالة قضية الشعب ، التقى يوما بممر بك أحد مستشاري خورشيد باشا ،
فوقع بينهما جدل طويل في صدد القرارات التي أصدرها زعماء الشعب ، ومن جملة ما قاله
عمر بك اعتراضاً على تلك القرارات : « كيف تمزلون من ولاء السلطان عليكم وقد قال الله
تمالئ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ؟ » ، فأجابه عمر مكرم على الفور : « أولو
الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم ، وقد جرت العادة من
قديم الزمان أن أهل البلد يمزلون الولاة ، وهذا شيء مأوف من زمان ؛ حتى الخليفة والسلطان
إذا سار في الناس بالجور فإنهم يمزلونه ويخلعونه » ، فقال عمر بك : « وكيف تحمروننا وتمنعون
عنا الماء والأكل وتقانوننا ؟ أنحن كفره حتى تفعلوا معنا ذلك ؟ » ، فقال عمر مكرم : « قد
أفتى العلماء والقاضي بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة »

فهذه الكلمات التي فاه بها بداهة تدل على ما يجيش في صدره من المبادئ
والأفكار المالية

وكان عمر مكرم قائماً على تنظيم حركة المقاومة ، يتعهدا ويتولى قيادة الصفوف فيها ،
فتاريخها مرتبط بجهاده وأعماله

حرض الجماهير على الاجتماع والاستعداد لحصار القلعة ، وركب هو وال علماء إلى بيت

محمد علي باشا بالأرمنية يتبهم الكثير من الوجافلية والعامية مساجين بالأسلحة والعصي ،
وواصلوا السير ليلا في الشوارع والحارات ، وأقاموا المناريس بالقرب من القلعة بجبهات الرميطة
والصلبية والحطابة والطرق النافذة إليها مثل باب القرافة والحصرية (درب الحصر) وغيرها ،
ومنعوا الصمود إلى القلعة والنزول منها ، وأخذ الفريقان يترامون بالبنادق ، وصعد جماعة
من الثوار إلى منارة جامع السلطان حسن يرمون منها القلعة ومن فيها

وصف الجبرتي وقائع الثورة في تلك الأيام وصف شاهد عيان ، فذكر ما خلاصته أنه في يوم
الأربعاء ٢٢ صفر (٢٢ مايو سنة ١٨٠٥) ركب السيد عمر مكرم والمشايخ ومعهم جمع كثير
من الناس إلى الأرمينية ، وبعد ركوبهم حضر اجتمع الكثير من العامة وطوائف الأجناد من
سائر النواحي وخاصة الحسينية والمطوف والقرافة والرميلة والحطابة والصلبية ومعهم الطبول
والبنادق حتى غصت بهم الشوارع وذهبوا إلى الجامع الأزهر ثم رجعوا إلى الأرمينية
وكان الغرض من هذه الحركات وما تخللها من ذهاب ومجيء إذكاء نار الحماسة في نفوس
الشعب ، ودعوة طبقاته إلى تأييد الثورة والانضواء تحت أوائها ، قال المسبوق (فلكس مانجان)
في هذا الصدد : « إن هذه الجولات الحربية وما بدا على الجموع من روح القوة أرتت في نفوس
جند الوالي الذين انكشوا أمام هذه المظاهرات »

ولحقت الجموع بالمشايخ وخرج هؤلاء من عند محمد علي واستمرت الحال كذلك إلى ليلة
الجمعة ٢٤ مايو سنة ١٨٠٥ ، وفي تلك الليلة فيما بين المغرب والعشاء خرج جنود الوالي من
القلعة يريدون الاستيلاء على متاريس الثوار ، فتبادل الفريقان إطلاق الرصاص إلى ما بعد
المساء ، ثم ارتد جند الوالي على أعقابهم إلى داخل القلعة ، ويقول الجبرتي إن العساكر
الأرناؤد من جنود محمد علي كانوا في هذه الملاحم يحاربون جنود الوالي بفتور مراعين أنهم
« من أجناسهم لأن غالبهم منهم » ، فهذه الشهادة قوية الدلالة على أن الثورة التي انتهت
باجلاس محمد علي على عرش مصر قامت على أكتاف الشعب دون جنود محمد علي أنفسهم ،
وملاحظة الجبرتي يؤيدها أن أكبر أعوان خورشيد باشا وأخص مستشاريه وهما عمر بك
وصالح قوش كانا من الرؤساء الأرناؤد يعملان بكل الوسائل لمناصرتهم وضم الأرناؤد إلى جانبه ،
فلو لم يجد محمد علي التأييد والإخلاص من زعماء الشعب وأفراده لما وصل إلى قمة السلطة ،
ويؤيد هذا المعنى قول الجبرتي في موطن آخر : « انتصر محمد علي بالسيد عمر مكرم النقيب
والمشايخ والقاضي وأهل البلدة والراعا » ، ويقصد الراعا جمهور الشعب
استمرت الحرب سجلا ، ففي يوم الجمعة ٢٤ مايو نزل عمر بك من القلعة وأشاع بين

الجاهير أن خورشيد باشا عزم على النزول من القلعة والتسليم ، ولم يكن ذلك القول الاخذعة أراد بها أن يفتّ في عضد الثوار ويضعف من عزائمهم وليتزود من الذخيرة والميرة ، فلما كان يوم الاثنين ٢٧ مايو تجدد القتال وشدد السيد عمر مكرم في حصار القلعة ، قال الجبرتي يصف مارآه في هذا الصدد :

« ركب السيد عمر مكرم وصحبته الواقلية وأمامه الناس بالأسلحة والعدد والأجناد ، وأهل خان الخليلي والغاربة شيء كثير جداً ، ومعهم ييارق ولهم جلبية وازدحام ، بحيث كان أولهم بالموسكى وآخرهم جهة الأزهر ، وانفصل الأمر على رجوع عمر بك إلى القلعة ونزول عابدى بك^(١) يعد أن قضوا (أى جنود خورشيد) أشغالهم وعبوا ذخيرتهم واحتياجهم من الماء والازاد والغنم ليلاً ونهاراً مدة ثلاثة أيام ، وقد كانوا أشرفوا على طلب الأمان وتبين أنهم إنما فعلوا ذلك من باب المكر والخديعة واتفق الحال على إعادة المحاصرة » ، ثم ذكر الجبرتي ما بذله السيد عمر مكرم في إعداد معدات الحصار ، قال : « ورجع السيد عمر إلى منزله وأخذ في أسباب الإحاطة بالقلعة كأول ذلك بعد العشاء ليلة الثلاثاء (٢٨ صفر) ووقع الاهتمام في صباحها بذلك ، وجمعوا الفعلة والعربجية وشرعوا في طلوع طائفة من العسكر والعرب وغيرهم إلى الجبل (المقطم) — لضرب القلعة — وأصعدوا المدافع ورتبوا عدة جمال لنقل الاحتياجات والخبز وروايا الماء تطلع وتنزل كل يوم مرتين ، وطلع إليهم الكثير من باعة الخبز والكمك والقهاوى وغير ذلك ، واستهل شهر ربيع الأول والأمر على ذلك مستمر من تجمع الناس وسهرهم بالليل في سائر الأخطاط »^(٢) ، أى أن حالة الثورة صارت حالة عادية ألقها الناس ، وكان القنور قد تسرب إلى جنود الأرنأؤد الذين يشاركون الثوار في القيام على المتاريس ، وطلبوا روايتهم من محمد على باشا فاستمهلهم حتى يسلم خورشيد باشا فأبوا « ولم يمثلوا وتركوا المتاريس التي حوالى القلعة وتفرقوا فذهب جماعة من الرعية وتترسوا في مواضعهم »^(٣) ، هذه شهادة الجبرتي ، وهى صريحة في أن الشعب هو صاحب اليد الطولى في تلك الثورة وأنه كان يسد الفراغ الذى يحدث في الصفوف بانصراف الجنود الأرنأؤد عن القتال

كان السيد عمر مكرم شديد اليقظة والحذر ، يرقب تطور الحوادث بنظر ثاقب وجنان ثابت ، رأى أن بعض المفسدين يسعون في الإيقاع بين الشعب وجنود محمد على لإحباط الحركة

(١) هو أخو حسن باشا أحد قواد الجنود الألبانيين وقد ذهب إلى القلعة موفداً من قبل أخيه

لإقناع خورشيد باشا بالكف عن المقاومة فلم يوفق

(٢) و (٣) الجبرتي الجزء الثالث

لأن هؤلاء الجنود لم يكتفوا بالتقاعد عن القتال بل كان كثير منهم يهاجمون الثوار في منازلهم وينهبون ويمتدون ، فسعى جهده في إحباط الفتنة وحال دون استفحال الشر ، وكان له الصوت المسموع والكلمة التي لا تُرد في تلك الأيام التاريخية ، تعقد الاجتماعات في داره وينادي باسمه في الأسواق وتعلن الأوامر منسوبة إليه ، قال الجبرتي في حوادث يوم السبت عشرة ربيع الأول سنة ١٢٢٠ (٨ يونيو سنة ١٨٠٥) : « حضر حسن نجاتي المحتسب وأمر الأفندي بالمناداة ، فر وأمامه المنادي يقول : حسبنا رسم السيد عمر الأفندي والعلماء ، لجميع الرعايا بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ويحترسوا في أماكنهم وأخطاطهم » ، من ذلك يتبين أن سلطة الحكم في تلك الأيام التاريخية كانت في يد السيد عمر مكرم والعلماء ، وكان هو المرجع لحل المضلات في تلك الحركة ، فكان محمد علي يتوود إليه ويراسله ويتردد على بيته ويرجع إليه في مهمات الأمور

وحدث أن خورشيد باشا بعث برسالة إلى الجنود الدلاة يستنجد بهم و « يطلبهم للحضور ويذكر لهم أنه يجب عليهم معاونته صيانة لعرض السلطنة وإقامة لنا موسها وناموس الدين وأن الفلاحين محاصروه ومانعون عنه الأكل والشرب » ، فلما وصلت الرسالة إلى الدلاة في قلوب أعرضوا عن تلبية الدعوة وبعثوا بالرسالة إلى محمد علي فأرسلها إلى السيد عمر مكرم النقيب

وقال الجبرتي عن الاجتماعات التي عقدت في داره : « وفي ليلة الأربعاء رابع عشر ربيع الأول (١٢ يونيو سنة ١٨٠٥) حضر كتحدا (وكيل) محمد علي وجرجس الجوهري (كبير المباشرين الأقباط) إلى بيت السيد عمر وحضر أيضاً الشيخ الشرفاوي والشيخ الأمير والقاضي ، وتشاوروا على أمر ورأى رآه محمد علي باشا » ، ولم يذكر الجبرتي ذلك الرأي الذي كان موضوع الاجتماع والتشاور ، ولعله كان سرّاً لم يبيح به المجتمعون ، فلم يصل إلى علم الجبرتي ، على أن المسمو (فلنكس مانجان) قد ذكره في كتابه^(١) فقال إنهم اتفقوا في هذا الاجتماع على مضاعفة الجهد لإجبار خورشيد باشا على تسليم القلعة ، فمن ذلك أنهم قرروا زيادة عدد المخافر في الاستحكامات والتاريس ، وعهدوا إلى السيد عمر إرسال المؤونة والماء كل يوم إلى المقاتلة المرابطين بالمقطم

وكان ليقظة السيد عمر مكرم وانتباهه فضل كبير في نجاح الحركة ونجاتها من الفشل ،

(١) تاريخ مصر في عهد محمد علي . الجزء الأول

فقد حدث في مدة الحصار أن حضر على باشا السلحدار^(١) بجنوده من (النميا) لتنجدة خورشيد باشا وربط بمصر القديمة وما جاورها ، وأمكته أن يتصل بالقلعة من طريق الجبل وأن يمد حاميتها بالمؤونة والذخيرة ، وأخذ يعمل من جهة أخرى على الاتصال بجنود محمد علي ليفسدهم ويصرفهم عن تأييد الحركة ، فانضم إليه فعلا كثير منهم ، واعتزم أن يركب فيمن معه من الجنود ويهجم على متاريس الأهالي جهة الصليبية ، فأرسل ليلة السبت ١٥ يونيه (١٧ ربيع الأول) إلى خورشيد باشا ينبئه بعزمه ويطلب إليه في حالة هجومه من تلك الناحية أن يساعده هو من القلعة بضرب المدينة والمتاريس بالمدافع ، فيزعج الناس ويدب في صفوفهم الرعب ويستولى جنود والي على المتاريس ويتم ما دبره ، وأراد أن يحكم تديره بالمكر والخداع ، فأوعز إلى اثنين من كبار ضباطه أن يكتبا إلى السيد عمر مكرم خطابا مضمونه أنهما يريدان الحضور إلى جهة القلعة ليسعيا في الصلح ، وأنهما يطلبان الإذن لها بالذهاب إلى القلعة ويلتمسان إصدار الأمر إلى المرابطين في المتاريس من الأهالي بإخلاء الطريق لهما ، ولكن رجلا صادقا أميناً من رجال عمر مكرم علم بهذه المكيدة وجاءه بعد الفجر وأخبره بها فأخذ أهبطه لإحباطها قال الجبرتي : « فأرسل السيد عمر أفندي إلى من بالنواحي والجهات وأيقظهم وحذرهم ، فاستعدوا وانتظروا وراقبوا النواحي ، فنظروا إلى ناحية القرافة فأروا الجمال التي تحمل الذخيرة الواصلة من على باشا السلحدار إلى القلعة ، ومعها أنفار من الخدم والعسكر ، وعدتها ستون جملا ، فخرج عليهم (حجاج الحضري) ومن معه من أهالي الرميلة فضر بهم وحاربهم وأخذوا منهم تلك الجمال وقتلوا شخصين من العسكر وقبضوا على ثلاثة وحضروا بهم وبرءوس القتولين إلى بيت السيد عمر ، فأرسلهم إلى محمد علي باشا ، فأمر بقتل الآخرين ، فلما رأى من بالقلعة ذلك فعندها رموا بالمدافع والقنابل على البلد وبيت محمد علي وحسن باشا وجهة الأزهر ولم يزالوا يرسلون الرمي من أول النهار إلى بعد الظهر فلم ينزعج أهل البلد من ذلك لما ألقوه من أيام الفرنسيين وحروبهم السابقة »

و (حجاج الحضري) الذي ورد ذكره في هذه العبارة هو شيخ طائفة الحضرية في ذلك العصر ، وإليه تنسب البوابة المعروفة ببوابة حجاج ، وتسمى أيضاً بوابة الخلاء قبلي مسجد السيدة عائشة بشارع باب القرافة ، وقد ذكره الجبرتي غير مرة ، فقال عنه إنه : « الشهير بنواحي الرميطة ، وكان مشهوراً بالإقدام والشجاعة طويل القامة عظيم الهمة وكان

(١) قائد الجيش التركي في الصعيد

شيخاً على طائفة الخضرية صاحب صولة وكلمة ومكارم أخلاق بتلك النواحي ، وهو الذي بنى البوابة بأخر الرميطة عند عرصة الغلة أيام الثورة ، وشُنق مظلوماً ، وقال عنه إنه خرج من القاهرة عقب رحيل خورشيد باشا خوفاً على نفسه من اعتداء العسكر (الارناؤد) وذهب إلى بلده (المنوات) ثم عاد وأرسل إلى السيد عمر مكرم « فكتب له أماناً من الباشا (محمد علي) فحضر بذلك الأمان وقابل الباشا وخلع عليه ونادوا له في خطته بأنه علي ماهو عليه في حرفته وصناعته ووجاهته بين أقرانه فصار يمشى في المدينة وصحبته عسكري ملازم له » ثم ذكر الجبرتي أنه أختفى بعد ذلك بسبب ما داخله من الوهم والخوف من العسكر ، والظاهر أنه اعتقد أنهم ينوون قتله غيلة

وقد ذكره المسيو (فلكس مانجان)^(١) وقال عنه إنه كان يتولى القيادة في الاستحكامات القريبة من القلعة وإنه علم من أحد أعوانه بقدوم الحملة التي بعث بها السلحدار إلى خورشيد باشا ، وقال لهذه المناسبة إنه اشتهر ذكره في حصار القلعة وإنه جمع رجاله وهجموا على الحملة واستولوا على الجمال ، وروى الواقعة كما ذكرها الجبرتي

استمر القتال متراسلاً بين الشعب والوالى إلى أوائل شهر يولييه سنة ١٨٠٥ ، وفي غضون ذلك أشار محمد علي على السيد عمر مكرم أن يأمر رجاله بنقل مدفع كبير من طابية قنطرة الليمون^(٢) وتركيبه بالجبل لضرب أسوار القلعة كي يكون الضرب أشد أتراً من المدافع التي كان الثوار يستعملونها في القتال ، فجمع السيد عمر رجاله وجلب الأبقار جرت هذا المدفع الثقيل ونقلوه من مكانه وأخرجوه من باب البرقية وركبوه عند باب الوزير ، واستمروا في جره يومين كاملين ، وبعد أن تم تركيبه أخذ القواد يضربون به القلعة واستمر الضرب من الجانبين شديداً متراسلاً ، وحاول بعض جنود الوالى أن يهجموا على ذلك المدفع لتمطيله فردهم الثوار وضربهم وقتلوا كبيرهم ، وكانت مدافع القلعة تصوب قنابلها على حى الأزهر وعلى بيت محمد علي باشا وبيت حسن باشا

يتبين من الحوادث المتقدمة أن السيد عمر مكرم هو المنظم للثورة الشعبية في ذلك العصر ، وقد شهد له بذلك كتاب الافرنج فيما دونوه من وقائع تلك الثورة ، قال (فولابل) في هذا الصدد :

« كان من الصعب أن يسود النظام وتدبر التدابير المحكمة بين الجنود الذين اعتادوا

(١) في كتابه مصر تحت حكم محمد علي

(٢) من القلاع التي أنشأها الفرنسيون بالقاهرة انظر الجزء الأول ص ٣١٢ من الطبعة الأولى

عيشة الفوضى ، والأهالي الذين لم يألفوا من قبل حركات القتال ومتاعبه ، ولكن السيد عمر مكرم قد سد هذا النقص من جميع النواحي بهمته ونشاطه وشجاعته ، فكان دائماً دائب العمل واليقظة ، يحرك الجموع ويرتب مواقفهم ويبعث الحمية في نفوسهم ويشعل في كل لحظة نار الحماسة كلما خدمت جذوتها أو دب إليها ديب الفتور» (١)

سرد الجبرتي حوادث الثورة الشعبية وصر عليها كأنها حوادث عادية لا تختلف عن الوقائع والأبناء التي كان يدونها في تاريخه العظيم ، ومع أنه كان دقيقاً في تدوينها وفاق في بيانه واستقرائه جميع الكتاب والمؤرخين الأفرنج الذين كتبوا عنها سواء أكانو ممن شهدوها أم سمعوا بها ، فانه لم يلفت نظر قارئه إلى ما تنطوى عليه من السمو والعظمة ، على أنها مجموعة وقائع تاريخيه رائعة ، ولاغرو فهي تمثل نفسية جديدة للشعب المصري ولدتها الحركة القومية التي ظهرت في أفق البلاد أواخر القرن الثامن عشر ، ولقد كانت هذه الحوادث رابع ثورة قام بها الشعب في تاريخ مصر الحديث في فترة من الزمن لا تتجاوز تسع سنوات ، فالثورة الأولى قاوم بها نابليون ، والثورة الثانية قاوم بها كليبر ، والثالثة قام بها في وجه المماليك ، والرابعة في وجه الوالي التركي ، كل ذلك يدل على مبلغ حيوية الشعب في تلك الحقبة من الزمن ولقد فطن الكتاب الأفرنج إلى ما في ثورة مايو سنة ١٨٠٥ من معان سياسية كبيرة ، فلم يفهم أن ينوهوا بها فيما كتبوه عن وقائعها ، قال (فولابل) (٢) في هذا الصدد :

« إن الحوادث التي سردناها تسترعى النظر ، فلأول مرة وقع تعبير سياسي خطير في ولاية من ولايات السلطنة العثمانية بإرادة الشعب وباسم الشعب ، ولا جدال أن المطالب التي فرضها الشيوخ على خورشيد باشا تدل على ما يجيش بصدورهم من الإحساس بالحرية وما يشعرون به من الحاجة إلى أخذ الضمانات الكافية التي تكفل مراقبة الحكومة ، ولقد كان هذا الشعور إلى ذلك العصر مجهولاً في الشرق ، وإذا كانت أنظار الشعب قد اتجهت في تلك الآونة إلى محمد علي وأجمعت آراء زعمائه على تقليده سلطة الحكم فما ذلك إلا لأن (محمد علي) قد دعا إلى مبادئ الحرية وأعلن في كل لحظة دفاعه عن حقوق الشعب ومصالحه ونادى بأن علة المحن التي حلت بالبلاد راجعة إلى سوء سياسة الولاة الأتراك وعدم وجود أية رقابة على الحكومة »

هذا ما كتبه (فولابل) ، وفيه كما ترى إطرأ للثورة الشعبية وتمجيد لها ، ولذلك

(١) فولابل . مصر الحديثة

(٢) في كتابه (مصر الحديثة)

لم يفت الكاتب أن يفوه بأن ظهور هذا الشعور الجديد يرجع الفضل فيه إلى إقامة الفرنسيين في مصر وما نشره فيها من مبادئ الحرية

ونحن من ناحيتنا نفهم هذا الفضل بمعنى آخر غير المعنى الذي قصده المسيو (فولابل)، نفهم أن هذا الشعور المجيد يرجع الفضل في ظهوره إلى روح المقاومة الشعبية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر، فإن المقاومة الأهلية من شأنها أن تثير في نفوس الشعب روح التطلع إلى الحرية وإبء الضيم، والأخذ بأسباب الحياة القومية والنظم السياسية، فالروح التي حفزت الأمة إلى مقاومة الاحتلال الفرنسي هي التي أهابت بها إلى مقاومة حكم المالك ثم مقاومة الحكم التركي

ويقول كلوت بك^(١) وهو من أصدقاء محمد علي وأخص مستشاريه: «لقد أغرى الشيوخ (محمد علي) يتقلد زمام الأحكام، وهم بما لهم من النفوذ الأدبي والديني والسلطة التقليدية كانوا بالبداية نواب الأمة ووكلاءها، وغنى عن البيان أنه لو لم يستوثق محمد علي من تأييد الجمهور له لسقطت تحت أعباء المهمة التي أخذ على نفسه القيام بها»

ختام الثورة

ظلت الحرب بين الشعب والوالي سجالا إلى أن جاء القاهرة من الاستانة يوم ٩ يوليه سنة ١٨٠٥ (١١ ربيع الثاني سنة ١٢٢٠) رسول يحمل فرمانا يتضمن الخطاب لمحمد علي باشا «والى جدة سابقاً» بتثنيته واليا على مصر «حيث رضى بذلك العلماء والرعية وان خورشيد باشا معزول عن ولاية مصر»

فبطل الضرب من القلعة، وأبطل الثوار الضرب من الجبل مع استمرار الحصار وبقاء المتاريس ومرابطة الثوار بالجبل إلى أن اذعن خورشيد باشا وسلم القلعة يوم الاثنين ٥ أغسطس سنة ١٨٠٥ (٩ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠) ونزل منها ثم رحل عن البلاد، فكان آخر وال عثماني حكم مصر بإرادة الاستانة وأوامرها وبذلك توجت الثورة بفوز إرادة الأمة، واستقر في الحكم من اختاره نواب الشعب وليا للأمر، ولله عاقبة الأمور

(١) في كتابه (لمحة عامة إلى مصر)

الفصل الرابع عشر

وثائق تاريخية

وثيقة رقم ١

منشور نابليون بإعادة الديوان

(انظر ص ١٥)

«بسم الله الرحمن الرحيم . من أمير الجيوش الفرنسية خطاباً إلى كافة أهالي مصر الخاص
والعام ، نعلمكم أن بعض الناس الضالين العقول الخالين من المعرفة وإدراك العواقب سابقا
أوقعوا الفتنة والشروع بين القاطنين بمصر فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة ، والبارى
سبحانه وتعالى أمرني بالشفقة والرحمة على العباد ، فامتثلت أمره وصرت رحياً بكم شفوفاً
عليكم ، ولكن كان حصل عندي غيظ وغم شديد بسبب تحريك هذه الفتنة بينكم ، ولأجل
ذلك أبطلت الديوان الذي كنت رتبته لنظام البلد وصلاح أحوالكم من مدة شهرين ، والآن
توجه خاطرنا إلى ترتيب الديوان كما كان لأن حسن أحوالكم ومعاملتكم في المدة المذكورة
أنسانا ذنوب الأشرار وأهل الفتنة التي وقعت سابقاً ، أيها العلماء والأشراف أعلموا أمتكم
ومعاشر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره ،
فلا يجد ملجأ ولا مخلصاً ينجيه مني في هذا العالم ، ولا ينجو من يدي الله لمعارضته
لمقادير الله سبحانه وتعالى ، والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وإرادته وقضائه ،
ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة ، وأعلموا أيضاً أمتكم أن الله قدر في الأزل
هلاك أعداء الإسلام وتكسير الصليبان على يدي ، وقدر في الأزل أني أجيء من المغرب إلى
أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذي أمرت به ، ولا يشك العاقل أن هذا
كله بتقدير الله وإرادته وقضائه ، وأعلموا أيضاً أمتكم أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة
بوقوع الذي حصل وأشار في آيات أخرى إلى أمور تقع في المستقبل ، وكلام الله في كتابه
صدق وحق لا يتخلف ، إذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات في آذانكم فلترجع أمتكم جميعاً
إلى صفاء النية وإخلاص الطوية فإن منهم من يمتنع عن الغي وإظهار عداوتي خوفاً من سلاحي

وشدة سطوتي ، ولم يعلموا أن الله مطلع على السرائر يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ،
والذي يفعل ذلك يكون معارضاً لأحكام الله ومناقفاً وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب ،
واعلموا أيضاً أني أقدر على إظهار ما في نفس كل أحد منكم لأنني أعرف أحوال الشخص وما
انطوى عليه بمجرد ما أراه وإن كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذي عنده ولكن يأتي وقت
ويوم يظهر لكم بالمعينة أن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لا يرد ، وإن اجتهد
الإنسان غاية جهده ما يمنعه عن قضاء الله الذي قدره وأجراه على يدي ، فطوبى للذين يسارعون
في تحادهم وهمتهم مع صفاء النية وإخلاص السريرة والسلام^(١) »

وثيقة رقم ٢

منشور الديوان الخصوصي إلى الشعب لمناسبة إعادة الديوان

(انظر ص ١٩)

« الحمد لله وحده . هذا خطاب إلى جميع أهل مصر من خاص وعام ، من محفل الديوان
الخصوصي من عقلاء الأنام علماء الإسلام والوجاقات والتجار الفخام ، نعلمكم معاشر أهل
مصر أن حضرة ساري عسكر الكبير بونابرتة أمير الجيوش الفرنساوية ، صفح الصفح الكلي
عن كامل الناس والرعية ، بسبب ما حصل من أراذل أهل البلد والجمعيدية ، من الفتنة والشر
مع المساكر الفرنساوية ، وعفا عفواً شاملاً ، وعاد الديوان الخصوصي في بيت قائد أغا
بالأزبكية ، ورتبه من أربعة عشر شخصاً أصحاب معرفة وإتقان ، خرجوا بالقرعة من ستين
رجلاً كان انتخبهم بموجب فرمان ، وذلك لأجل قضاء حوائج الرعايا وحصول الراحة لأهل
مصر من خاص وعام ، وتنظيمها على أكمل نظام واحكام ، كل ذلك من كمال عقله وحسن
تدييره ، ومزيد حبه لمصر وشفقته على سكانها من صغير القوم قبل كبيره ، رتبهم بالمنزل
المدكور كل يوم لأجل خلاص المظلوم من الظالم ، وقد اقتنص من عسكره الذين أساءوا
بمنزل الشيخ محمد الجوهري^(٢) وقتل منهم اثنين بقراميدان ، وأزل طائفة منهم عن مقامهم

(١) نشر يوم ١٦ رجب سنة ١٢١٣

(٢) هم جماعة من الجنود الفرنسيين تسللوا ليلاً إلى دار الشيخ محمد الجوهري أحد علماء مصر الأعلام
في ذلك العصر وكانت داره بالأزبكية ولم يكن بها سوى الخدم من رجال ونساء ، فشعر الخدم بدخول
الجنود واستيقظ النسوة فصرهن الجنود وقتلوا واحدة منهن وأرادوا هتك عرض فتاة أخرى ففرت منهم
وسرقوا ما وصلت إليه أيديهم من متاع الدار ، وقد وقعت هذه الحادثة أثناء رحلة نابليون بالسويس وكان =

العالي إلى أدنى مقام ، لأن الحياة ليست من عادة الفرنسيين ، خصوصاً مع النساء الأرامل فإن ذلك قبيح عندهم لا يفعله إلا كل خسيس ، ووضع القبض بالقلمة على رجل نصراني مكاس ، لأنه بلغه أنه زاد المظالم في الجرك بمصر القديمة على الناس ، ففعل ذلك بحسن تدييره ليمتنع غيره من الظلم ومراده رفع الظلم عن كامل الخلق ويفتح الخليج الموصل من بحر النيل إلى بحر السويس لتخف أجرة الحمل من مصر إلى قطر الحجاز الأثم وتحفظ البضائع من اللصوص وقطاع الطريق وتكثر عليهم أسباب التجارة من الهند واليمن وكل فج عميق ، فاشتغلوا بأمر دينكم وأسباب دنياكم ، واطر كوا الفتنة والشور ولا تطيعوا شيطانكم وهو لكم ، وعليكم بالرضا بقضاء الله وحسن الاستقامة لأجل خلاصكم من أسباب العطب والوقوع في الندامة ، رزقنا الله وإياكم التوفيق والتسليم ، ومن كانت له حاجة فليأت إلى الديوان بقلب سليم إلا من كان له دعوى شرعية فليتوجه إلى قاضي العسكر المتولى بمصر الحمية ، بخط السكرية ، والسلام على أفضل الرسل على الدوام (١) »

وثيقة رقم ٣

منشور نابليون إلى أعضاء الديوان

عن انتخاب قاضي قضاة مصر (انظر ص ٦٠)

(١) نص المنشور كما عربناه عن الأصل الفرنسي الوارد في مراسلات نابليون

الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٢٢٤

« المسكر العام بالقاهرة في ٩ مسيدور من السنة السابعة (٢٧ يونيو سنة ١٧٩٩)

« تلقيت رسالتكم صباح اليوم ، واخبركم أنني لم أعزل القاضي ، بل القاضي نفسه هو الذي نقض عهده بعد أن أوليته المعروف والإحسان ونسى واجباته فانفصل عن شعبه وغادر مصر ذاهباً إلى الشام ، وقد رضيت أن ينيب عنه ابنه ليقوم مقامه مؤقتاً أثناء مهمته التي كان عليه أن يقوم بها في الشام ، لكنني ما قبلت قط أن يتولى هذا الشاب منصب القاضي على الدوام لصغر سنه وعدم كفايته ، وعلى ذلك صار منصب قاضي القضاة شاغراً ، فإذا كان

= للشيخ الجوهري منزلة كبيرة لدى أعضاء الديوان لما اشتهر عنه من العلم والتقوى ، فلما عاد نابليون شكوا إليه أمر هذا الاعتداء فأمر نابليون بإعدام اثنين من المعتدين عقاباً لها على ما اقرتاه ، وكانت وفاة الشيخ محمد الجوهري سنة ١٢١٥ هجرية

(١) نشر يوم ٢١ شعبان سنة ١٢١٣

ينبغي على عمله اتباعا لتعاليم القرآن الصحيحة؟ رأيت من الواجب أن أعهد إلى جمعية العلماء اختيار القاضى، وهذا ما قمت به، والآن وقد نال الشيخ العريشى ثقتكم فإن مقصدى أن تتم توليته ويتقلد منصب القضاء، وليس ذلك بدعا فإن الخلفاء الراشدين كانوا يتولون الخلافة بانتخاب جمعية المؤمنين عملا بتعاليم القرآن

« وأخبركم أنى عند ما جاء ابن القاضى للقائى قد تلقيته بالرعاية والإكرام، ولا أبغى أن يناله أذى ما، وإذا كنت قد أمرت باعتقاله بالقلمة - حيث يلتقى بها من حسن الوفاة والإكرام مثلما يجد فى بيته، فإنى لم أفعل ذلك إلا محافظة على الأمن ومنعاً للفتنة، وفى عزمى بعد تنصيب القاضى الجديد وتوليه أعباء عمله أن أطلق سراح ابن القاضى السابق وأردله أمواله وأسهل له ولعائلته الذهاب أنى شاء والأنى قد جعلت هذا الشاب فى أمانى وحمايتى الخاصة وأنا على يقين أن أباه الذى عرفته صفاته وفضائله لم يفعل فعلته إلا مسوقا بعامل التضليل والغواية « وعليكم يا أعضاء الديوان أن تهدوا الناس الحسنى القصد إلى الصواب، وأن تعرفوا أهل مصر كافة أن قد آن الوقت لانهاء حكم العثمانيين، فإن حكومتهم أشد قسوة من حكومة المماليك، وهل يوجد إنسان يمتقد أن علماء مصر المولودين بها ليس فيهم من تؤهله كفايته وفضائله إلى الاضطلاع بمنصب قاضى القضاة!

« أما الذين تسوء مقاصدهم وتحديثهم أهواؤهم بالخروج على إرادتى فعليكم أن تعرفونى عنهم لأقتض منهم فإن الله قد وهبى القوة على معاقبتهم ويجب أن يعرفوا أن يدي قوية ليس بها ضعف ولا وهن

« ومرادى أن يجد الديوان ويجد الشعب المصرى فى خطى هذه دليلا قائماً على ما يمكنه فؤادى من عواطف الخير وتمنيات السعادة والرخاء لهم، وإذا كان النيل هو أكبر أنهار الشرق فجدير بالشعب المصرى أن يكون تحت حكمى أسعد الشعوب وأعظمها

« بونابرت »

٢ - نص المنشور كما عبره ترجمة نابليون وتلى فى الديوان ونشر فى الجبرتى الجزء الثالث « جواب إلى محفل الديوان من حضرة سارى عسكر الكبير بونابرتة أمير الجيوش الفرنسية لمحبة أهل الملة المحمدية خطابا إلى السادات العلماء، انه وصل لنا مکتوبكم من شأن القاضى نخبكم أن القاضى لم أعزله وإنما هو هرب من إقليم مصر وترك أهله وأولاده وخان صحبتنا من المعروف والاحسان الذى فعلناه معه، وكنت استحسننت أن ابنه يكون عوضا عنه فى محل الحكم فى مدة غيبته ويحكم بدله، ولم يكن ابنه قاضيا متوليا للأحكام على الدوام

لأنه صغير السن ليس هو أهلاً للقضاء ، فعلمتم أن محل حكم الشريعة خال الآن من قاض شرعى يحكم بالشريعة واعلموا أنى لأحب مصر خالية من حاكم شرعى يحكم بين المؤمنين ، فاستحسنتم أن يجتمع علماء المسلمين ويختاروا باتفاقهم قاضياً شرعياً من علماء مصر وعقلائهم لأجل موافقة القرآن العظيم بإتباع سبيل المؤمنين ، وكذلك مرادى أن حضرة الشيخ العريشى الذى اخترتموه جميعاً أن يكون لابسا من عندى وجالساً فى المحكمة ، وهكذا كان فعل الخلفاء فى العصر الأول باختيار جميع المؤمنين ، وأخبركم أنى تلقيت ابن القاضى بالحبة والإكرام لما حضر لى وقابلنى ولم أزل لهذا الوقت أكرمه ولم أحب أن يضره أحد حكم أماننا له ، ولما رفعناه إلى القلعة لم يزد ضرره بل رفعناه مكرماً مثل ما يكون فى بيته بالراحة والإكرام ، وسبب ما رفعناه إلى القلعة سكون الفتن والإصلاح بين الناس ، وبعد لبس القاضى الجديد وجلوسه فى محل الحكم مرادى أن أطلق ابن القاضى وأنزله من القلعة وأردله كامل تعلقاته وأطلق سبيله هو وعياله يتوجهون حيث أرادوا باختيارهم ، لأنه فى أمانى وتحت حمايتى ، وأعرف أن أباه ما كان يكرهنى ولكنه ذهب عقله وفسد رأيه وأتم يا أهل الديوان تهدون الناس إلى الصواب والنور من جنابكم لأهل العقول ، وعرفوا أهل مصر أنه انقضت وفرغت دولة العثمانيين من أقاليم مصر ، وبطلت أحكامها منها ، وأخبروهم أن حكم العثمانيين أشد تعبا من حكم الملوك^(١) وأكثر ظلماً والعامل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتديير وكفاية وأهلية للأحكام الشرعية يصلحون للقضاء أكثر من غيرهم فى سائر الأقاليم ، وأنم يا أهل الديوان عرفونى عن المناقنين المخالفين أخرج من حقهم لأن الله تعالى أعطانى القوة العظيمة لأجل ما أعاقبهم فإن سيفنا طويل ليس فيه ضعف ، ومرادى أن تعرفوا أهل مصر أن قصدى بكل قلبى حصول الخير والسعادة لهم مثل ما هو بحر النيل أفضل الأنهار وأسعدها ، كذلك أهل مصر يكونون أسعد الخلائق أجمعين بإذن رب العالمين والسلام »

(١) المراد المالك كما هو أصل المنشور بالفرنسية ولعل هذا التحريف من ناقل نسخة الجبرقى الأصلية

وثيقة رقم ٤

معاهدة العريش (١)

٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ (أنظر ص ١١٥)

« معاهدة للجلاء عن مصر محررة بين السمتويان^(٢) (ديزيه) قائد فرقة والستويان (بوسليج) مدير الشؤون المالية المفوضين عن الجنرال كليبر القائد العام للجيش الفرنسي ، وبين مصطفى رشيد أفندي الدفتردار ومصطفى راسخ أفندي رئيس الكتاب المفوضين عن المصدر الأعظم

» إن الجيش الفرنسي في مصر رغبةً منه في الإعراب عن مقاصده في حقن الدماء ووضع حد للمنازعات الضارة التي قامت بين الجمهورية الفرنسية والباب العالي قد قبل أن يجلو عن مصر طبقاً لشروط هذه المعاهدة آملاً أن يكون ذلك تمهيداً للصالح العام في أوروبا

المادة ١

ينسحب الجيش الفرنسي بأسلحته وأتمته ومنقولاته إلى الإسكندرية ورشيد وأبو قير ومن هناك ينتقل إلى فرنسا على سفنه أو السفن التي يقتضى أن يقدمها الباب العالي لهذا الغرض، ويرسل الباب العالي إلى قلعة الإسكندرية بعد شهر من التصديق على هذه المعاهدة مندوباً (قوميسيرا) يصحبه خمسون شخصاً لتمجيل تهيئة هذه السفن للنقل

المادة ٢

تعقد الهدنة ثلاثة أشهر في مصر ابتداءً من يوم التوقيع على المعاهدة وإذا انقضت هذه المدة قبل أن يعد الباب العالي السفن فتتم الهدنة إلى أن يتم نقل الجنود بحراً ، ويلاحظ الطرفان أن يبذلا كل الوسائل لعدم الإخلال بطائفة الجيش والأهالي وراحتهم خلال الهدنة

المادة ٣

يتبع في نقل الجيش الفرنسي النظام الذي يضعه مندوبون يختارهم الباب العالي والجنرال

(١) صرفنا النظر عن الترجمة العربية الواردة في الجبرتي لكثرة ما حوته من أغلاط وعبارات ركيكة غير مفهومة ، وعربنا المعاهدة عن الأصل الفرنسي الوارد في مجموعة المعاهدات لدى مارتانس الجزء السابع

(٢) كلمة فرنسية تؤدي معنى (مسيو) وهي من مصطلحات الثورة الفرنسية

كليبير لهذا الغرض وإذا حصل خلاف بين المندوبين أثناء انتقال الجنود إلى السفن فيختار الكومودور السرسدني سميت مندوبا من قبله ليفصل في الخلاف طبقا للوائح البحرية البريطانية

المادة ٤

تخلى الجنود الفرنسية موقعى (قطية) و (الصالحية) في اليوم الثامن وعلى الأكثر في اليوم العاشر بعد التصديق على المعاهدة ، ومدينة (المنصورة) في اليوم الخامس عشر ، و (دمياط) و (بلبيس) في اليوم العشرين ، والسويس قبل إخلاء القاهرة بستة أيام ، والبلاد الأخرى الواقعة بالبر الشرق للنيل في اليوم العاشر ، وتخلى بلاد الدلتا بعد خمسة عشر يوما من إخلاء القاهرة ، ويبقى البر الغربى للنيل وملحقاته في يد الفرنسيين إلى حين الجلاء عن القاهرة ، وبما ان هذه الجهات يحتلها الجيش الفرنسى إلى أن تخرج الجنود الفرنسية من الوجه القبلى فيجوز أن تبقى محتلة إلى تمام الهدنة إذا لم يتيسر إخلاؤها قبل ذلك ، وتسلم الجهات التى يصير إخلاؤها إلى الباب العالى بالحالة التى هى عليها الآن

المادة ٥

يصير إخلاء القاهرة بعد أربعين يوما أو على الأكثر خمسة وأربعين يوما من التصديق على المعاهدة

المادة ٦

يتمهد الباب العالى بأن يبذل كل عنايته ليضمن للجنود الفرنسية التى تخلى مواقعها بالبر الغربى وتنسحب بأسلحتها وبأمتعتها نحو معسكر الجيش العام أن لا تضار ولا تؤذى فى أشخاصها ولا فى أموالها وكرامتها سواء من أهالى مصر أم من العسكر السلطانى العثمانى

المادة ٧

تنفيذا للمادة السابقة ومنعا لكل خلاف وخصام تتخذ الوسائل اللازمة لتكون الجنود التركية بعيدة البعد الكافى عن الجنود الفرنسية

المادة ٨

بمجرد التصديق على المعاهدة يطلق سراح الترك والرعيا العثمانيين على اختلاف أجناسهم المحجوزين أو المحبوسين فى فرنسا أو الذين اعتقلتهم السلطة الفرنسية فى مصر ، وكذلك يطلق سراح الفرنسيين المحجوزين أو المحبوسين فى مدن السلطنة العثمانية وثغورها والأشخاص التابعين للوكالات والقنصليات الفرنسية على اختلاف أجناسهم

المادة ٩

الأشخاص الذين صودرت أموالهم وأملاكهم من الجانبين يستردون هذه الأملاك والأموال أو ترد لهم قيمتها ، ويبدأ بذلك فوراً بعد الجلاء عن مصر ، وتم تسوية ذلك في الاستانة بوساطة لجان تؤلف لهذا الغرض من الجانبين

المادة ١٠

لا يضرَّ أحد من سكان مصر من أى دين كان ولا يؤذى في ملكه ولا في شخصه بسبب اتصاله أو ارتباطه بالفرنسيين مدة احتلالهم مصر

المادة ١١

تعطى للجيش الفرنسى جوازات سفر وعهود بعدم التعرض لأفراده في الطريق من تركيا وحلفائها أى إنجلترا والروسيا وكذلك تقدم له السفن اللازمة لرجوعه إلى فرنسا

المادة ١٢

عند ما ينزل الجيش الفرنسى بالسفن يتعهد الباب العالى وحلفاؤه أن لا يحصل له أى تعرض حتى يصل من فرنسا ، ويتعهد الجنرال كليبر والجيش الفرنسى من ناحيتهما أن لا يحصل منهما خلال هذه المدة أى تحرش أو عمل عدائى ضد أساطيل تركيا أو حلفائها أو أى بلد من البلدان التابعة لها وأن لا ترسو السفن المقلدة للجيش في أى جهة عدا الشواطىء الفرنسية ما لم تقض بذلك الضرورة القصوى

المادة ١٣

ينتج عن الهدنة التى تقرر عقدها لمدة ثلاثة أشهر لجلاء الجيش الفرنسى عن مصر أنه إذا وصلت خلال هذه المدة بعض السفن الفرنسية إلى الإسكندرية بغير علم قواد أساطيل الحلفاء فقد اتفق الطرفان على أن تقلع منها بعد أن تزود مما يكفيها من الماء والمؤونة وتعود إلى فرنسا مزودة بجوازات مرور من الحكومات المتحالفة ، وفي حالة احتياج بعض هذه السفن إلى الترميم فلها دون سواها أن تبقى إلى أن يتم ترميمها ومن ثم تقلع فوراً إلى فرنسا حينما تطيب لها الريح

المادة ١٤

للجنرال كليبر أن يرسل من فوره نبأ معاهدة الجلاء عن مصر إلى الحكومة الفرنسية ويعطى للمركب المقلدة للرسالة جواز المرور اللازم للوصول إلى فرنسا

المادة ١٥

نظراً لما اتضح من حاجة الجيش الفرنسى إلى المؤونة اليومية مدة الثلاثة الأشهر التى يجب أن يتم فيها جلاؤه عن مصر وثلاثة أشهر أخرى ابتداء من يوم نزوله السفن فقد تم الاتفاق على أن يقدم الباب العالى الكميات اللازمة من القمح واللحم والأرز والشعير والتبن وذلك بموجب القوائم التى تقدم من المفاوضين الفرنسيين مما يكفي لمدة إقامة الجيش فى مصر ومدة سفره ويخصم من ذلك ما يأخذه الجيش من المخازن بعد التصديق على المعاهدة

المادة ١٦

لا يسوغ للجيش الفرنسى ابتداء من يوم التصديق على المعاهدة أن يجبى أى ضريبة فى مصر ، وعليه بالعكس أن يترك للباب العالى قيمة الضرائب العادية التى يحل موعد تحصيلها لغاية يوم رحيله ، وكذلك الجمل والهجى والنخائر والمدافع وغير ذلك من الأشياء التى يملكها ولا يرى أن يأخذها معه ، وكذلك شون الغلال التى جُمِيت نوعاً من ضرائب الأطنان ومخازن الماء كولات ، فجميع هذه الأشياء يصير حصرها وتقدير قيمتها بمعرفة مندوبين يرسلهم الباب العالى لهذا الغرض على يد قائد القوات البريطانية بالاتفاق مع وكلاء الجنرال كليبر القائد العام ويتسلمها المندوبون المذكورون بقيمتها لغاية ثلاثة آلاف كيس وهو المبلغ المتفق على أدائه للجيش الفرنسى بمثابة نفقات لازمة لتعجيل الجلاء والرحيل فاذا لم تف تلك الأشياء بهذه القيمة فعلى الباب العالى أداء الفرق بصفة سلفة تردها الحكومة الفرنسية طبقاً لسندات الاستلام التى تحرر بقيمتها من وكلاء الجنرال كليبر

المادة ١٧

بما ان الجيش الفرنسى يلزمه إنفاق المصاريف اللازمة للجلاء فيتسلم بعد التصديق على المعاهدة المبالغ المتفق عليها لهذا الغرض على النحو الآتى : خمسمائة كيس فى اليوم الخامس عشر بعد التصديق على المعاهدة ، وخمسمائة أخرى فى اليوم الثلاثين ، وثلثمائة كيس فى اليوم الأربعين ، وثلثمائة أخرى فى اليوم الخمسين ، وثلثمائة أخرى فى اليوم الستين ، وثلثمائة أخرى فى اليوم السبعين ، وثلثمائة أخرى فى اليوم الثمانين ، وخمسمائة فى اليوم التسعين ، بواقع الكيس خمسمائة قرش عثمانى وتودى هذه المبالغ بصفة سلفة بواسطة مندوبين يوفدهم الباب العالى لهذا الغرض ، وتسهيلاً لتنفيذ هذه العهود يرسل الباب العالى بعد تبادل التصديق على المعاهدة فوراً مندوبين عنه إلى القاهرة والمدن الأخرى التى يحتلها الجيش الفرنسى

المادة ١٨

الضرائب التي يمكن أن يجيها الفرنسيون بعد التصديق على المعاهدة وقبل إذاعة هذه المعاهدة في أنحاء القطر المصري تخضع قيمتها من الثلاثة آلاف كيس المنصوص عنها آنفا.

المادة ١٩

تسهيلا وتعجيلا لإخلاء المدن والمواقع تحول لسفن النقل الفرنسية التي توجد بالثغور المصرية حرية الانتقال والملاحة من دمياط ورشيد إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية إلى رشيد ودمياط مدة الثلاثة أشهر المتفق على جعلها مهلة للجلاء.

المادة ٢٠

بما ان سلامة أوروبا من الأوبئة تقتضى اتخاذ الاحتياطات التامة لمنع انتشار عدوى الوباء إليها فلا يباح لأى شخص مصاب بالطاعون أو مشتبه في إصابته به النزول إلى السفن ، والجنود الموبوءون أو المصابون بأى مرض آخر يحول دون إمكان نقلهم في الموعد المحدد للجلاء يبقون بالمستشفيات التي يعالجون بها في أمان الصدر الأعظم وحمائته وبعالجهم أطباء من الجيش الفرنسى يبقون لهذا الغرض بجانبهم إلى أن يتم شفاؤهم ويتسنى لهم السفر بحيث يتم ذلك في أقرب وقت ممكن ، وتسرى عليهم أحكام المادتين ١١ و١٢ من هذه المعاهدة كما تطبق بالنسبة لباقي الجند ، ويتمهد القائد العام للجيش الفرنسى بأن يصدر تعليماته المشددة إلى ضباط الفرق التي تنزل بالسفن بأن لا يسمح لسفن النقل بالسفر في غير الثغور التي يعينها أطباء الجيش ويتوخون في اختيارها أن تتوافر فيها الوسائل الضرورية للحجر الصحى

المادة ٢١

كل ما يحدث من المشا كل مما لا تناوله أحكام هذه المعاهدة يحسم بالطرق الودية بمعرفة مندوبين يعينهم لهذه الغاية الصدر الأعظم والقائد العام الجنرال كليبر بالطريقة التي تؤدي إلى تسهيل وتعجيل الجلاء

المادة ٢٢

لا تسرى أحكام هذه المعاهدة إلا بعد التصديق عليها من الجانبين ويتم تبادل التصديق في خلال ثمانية أيام ، وعندئذ يتحتم على الطرفين مراعاة تنفيذ أحكامها بتمام الدقة « محررت هذه المعاهدة ووقع عليها بأختامنا الخاصة بنا بالمسكر الذى وقعت به المفاوضات بالقرب من العريش يوم ٤ بلوفيز من السنة الثامنة للجمهورية الفرنسية الموافق ٢٤ يناير

سنة ١٨٠٠ ميلادية و٢٧^(١) من شهر شعبان سنة ١٢١٤ هجرية
« امضاءات (ديزيه) قائد فرقة ، (بوسليج) المفوضين عن الجنرال كليبر ، و (مصطفى
رشيد) الدقتردار و (مصطفى راسخ) رئيس الكتاب المفوضين عن الصدر الأعظم »
« طبق الأصل المحرر بالفرنسية والمسلم إلى المفوضين الترك في مقابل النسخة التركية
المسلمة منهما : إمضاء ديزيه ، بوسليج »

تصديق كليبر^(٢)

أنا الموقع أدناه القائد العام للجيش الفرنسى فى مصر أوافق وأصدق على أحكام المعاهدة
الذكورة أعلاه لتنفيذ بفتحها ومعناها ، وللتحقق من مطابقة الصيغة التركية المدون فيها
الاثنان وعشرون شرطا للترجمة الفرنسية الموقع عليها من مفوضى الصدر الأعظم والمصدق
عليها من سموه فسيصير الرجوع إلى صيغة الترجمة الفرنسية فى حالة وجود أى خلاف
المعسكر العام بالصالحية يوم ٨ بلوفيزوز من السنة الثامنة (٢٨ يناير سنة ١٨٠٠)
إمضاء « كليبر »

وثيقة رقم ٥

معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك

(انظر ص ١٤٠)

بسم الله القدير

نظرا لما أبداه الأمير سامى المقام الحائز لكمال الشرف والاعتبار مراد بك محمد من الرغبة
فى أن يعيش فى سلام ووافق مع الجيش الفرنسى بمصر ، ولما يرغب القائد العام كليبر من
الإعراب عماله فى نفوس الفرنسيين من الاحترام الذى استوجبته شجاعته واقتضاه مسلكه
حيالهم ، فقد تم الاتفاق على ما يأتى :

(١) جاء فى الجبرتي أن تاريخ المعاهدة ٢٨ شعبان لا ٢٧ ، وكذلك فى مجموعة المعاهدات لدى
مارتانس ، ولكن يلوح لنا أن هذا تحريف فى النقل لأنه مما لا نزاع فيه أن التاريخ الميلادى للمعاهدة
هو ٢٤ يناير ١٨٠٠ ، وهذا يطابق ٢٧ شعبان سنة ١٢١٤ لا ٢٨ ، فضلا عن أن النسخة الواردة فى
كتاب ريبو (التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء السابع) فيها أن التاريخ العربى ٢٧ شعبان
لا ٢٨ .

(٢) لم ترد صيغة هذا التصديق فى مجموعة (دى مارتانس) فرجعنا فيها إلى ريبو الجزء السابع

المادة ١

يعترف القائد العام للجيش الفرنسي بالنيابة عن الحكومة بمراد بيك محمد أميراً وحاكماً للوجه القبلي ويخوله بهذا الوصف سلطة الحكم والانتفاع في البلاد الكائنة بالبر الشرق والبر الغربي للنيل ابتداء من ناحية بلصفورة بمديرية جرجا إلى أسوان في القابل أن يؤدي للجمهورية الفرنسية الخراج الواجب دفعه عن تلك الجهات لصاحب الولاية على مصر

المادة ٢

يحدد هذا الخراج السنوي بمبلغ ٢٥٠ كيس بواقع الكيس ٢٠ر٠٠٠٠ باره بلاوة على ١٥ر٠٠٠٠ أردب قمح و٢٠ر٠٠٠٠ أردب شعير وغلل أخرى

المادة ٣

الخراج الذي يدفع نقداً يؤدي على أربعة أقساط متساوية كل ثلاثة أشهر قسط ، وتبدأ السنة بحساب التقويم الفرنسي ، أما الخراج الذي يؤدي نوعاً فيورد في شون القاهرة من أول فلوريال إلى ٣٠ فركتيدور ، وبحاسب مراد بك على مصاريف نقل الغلال بواقع الأردب أربعين بارة وتخصم من الخراج الذي يدفع نقداً

المادة ٤

يكون لمراد بك دخل جمرق القصير وجمرق إسنا ، وتحتل ميناء القصير حامية فرنسية لا تقل عن مائتي جندي وعلى مراد بك أن يؤدي نفقات هذه الحامية ويصرف لها ضعف ما يدفع عادة للجند ، وعليه أن يخصص كتبية من المالك ترابط في القصير لمساعدة الحامية الفرنسية ، وما يدفعه لنفقات الحامية يخصم له من الخراج المذكور في المادة الثانية

المادة ٥

بما أن أمير الوجه القبلي ليس له إلا الدخل الناتج من الضرائب فليس له أن يتصرف في ملكية أي بلد إلى حاشيته للتصلين به ، ولكن له إدارة هذه البلاد بالطريقة التي يراها مرضية ، والحكومة الفرنسية تضمن للأهالي ملكية الأراضي التي يملكونها بالطرق المشروعة وتمنع وقوع أي اعتداء عليها

المادة ٦

على كل طرف أن يرد إلى الطرف الآخر الجنود اللاجئيين إليه من جيش الطرف الآخر ، وليس لمزارعي القرى التابعة لأي من الفريقين أن يلجأوا إلى البلاد التابعة للفريق الآخر بقصد التخلص من أداء الضرائب أو لأي سبب آخر من هذا النوع

المادة ٧

يجمع الأمير حاكم الصعيد مدينة (جرجا) مقرآله ، وعليه أن يرسل للقائد العام جرسا من خمسة وعشرين مملوكا ، عليه أن يوفد أحد البكوات من أتباعه مندوبا مفوضا عنه يقيم باستمرار في القاهرة

المادة ٨

يضمن قائد الجيش الفرنسى لمراد بك الانتفاع بدخل حكومته ويتمهد بحمايته في حالة مهاجمته
وإذا استهدفت الجهات التي تحتلها الجنود الفرنسية لهجوم عدائي أيا كان نوعه فعلى مراد بك أن ينفذ عدداً من جنوده يبلغ على الأكثر نصف قواته لمعاونة القوات الفرنسية ، وعليه أن يقدم بالثمن الممتاد أدوات النقل المطلوبة ، ومؤونة الجنود التي ينفذها تكون على نفقة الحكومة الفرنسية

المادة ٩

يعد القائد العام كليبر بأن لا يوافق على أى اقتراح أو اتفاق يحرم مراد بك من المزايا الميينة أعلاه وعليه أن يبلغ المعاهدة الحالية إلى الحكومة الفرنسية لترعى مصالح مراد بك في المعاهدات التي قد تبرم بشأن مصر

المادة ١٠

إن الشروط الواردة في المعاهدة الحالية والتي تقررت بمعرفة كل من الجنرال داماس قائد فرقة ورئيس أركان الحرب العام والمستويان جلوتييه قوميسير الحكومة (لدى الديوان) ومدير الشؤون المالية المفوضين عن القائد العام كليبر ، وعمان بك البرديسي المفوض عن مراد بك بصير التوقيع عليها من القائد العام كليبر ومن الأمير المعظم والملاذ الأنخم مراد بك محمد

وثيقة رقم ٦

وثيقة زواج الجنرال منو بالسيدة زبيدة المصرية

كما اكتشفها العلامة على بك بهجت في دفتر خانة محكمة رشيد الشرعية (انظر ص ١٧٨)
» بمحضر كل من مولانا العلامة السيد أحمد الخضرى المفتى الشافعى ، ومولانا الشيخ محمد صديق النائب والمفتى الحنبلى ، ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكي ، والسيد أحمد بدوى تقيب الأشراف حالا ، والأمير محمد بدوى جوريجى سردار مستحفظان ، وأحمد

أبي جويش مستحفظان ، والحاج أحمد جويش العسال ، والحاج محمود اللومي الغربي ،
وإبراهيم الجبال الرزاز ، والحاج محمد ميتو ، وعبد الله بريير ، والحاج بدوي الشناوي ، وازون
اسماعيل السلانكلي ، وعلى جويش كتبخدا البيك دام كالمهم

بعد أن أقر واعترف منو باشا صاري عسكر بالقطر المصري حالا بصريح لفظه وفصيح
نطقه بكلمتي الشهادتين وهما أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله عارفاً معتقداً
معناها ومصداقاً بمضمونها تاركا لدين النصرانية والأديان الرديئة على الترتيب والولاء وإعادة
التشهد واستيفاء الشروط المعتبرة فيهما شرعاً طائماً مختاراً من غير إكراه ولا إجبار وبمقتضى
ذلك صار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وظهر منه الرغبة والحب للمسلمين والميل إليهم وسمى
نفسه عبد الله باشا وأشهد على نفسه الجماعة المذكورين بجميع ذلك إشهداً شرعياً ثم بعد ذلك
رغب عبد الله باشا المذكور في تزوجه بامرأة مسلمة فخطبها خطبة شرعية وأجيب إلى ذلك بعد
إرازه لفتياً شريفة لفظ سؤالها ما قولكم دام فضلكم في رجل أحب الإسلام وأهله ورغب
فيهما تاركا لدين النصرانية ناطقاً بكلمتي الشهادتين مصداقاً على الوجه الأكل ثم أراد
أن يتزوج امرأة مسلمة على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم فهل يجوز له حينئذ التزوج
بها والعقد عليها بشروطه الشرعية أفيدوا الجواب وبأدناه الحمد لله حيث كان الحال ما شرح
في السؤال فيجوز للرجل المسلم المذكور خطبة المرأة المسلمة والعقد عليها بشروطه الشرعية
والله أعلم كتبه العبد الفقير أحمد الخصري الشافعي لطف الله به وبأدناه الحمد لله حيث أقر
الرجل المذكور بالشهادتين بشروطهما الشرعية فيجوز له أن يعقد على المرأة المسلمة عقداً
شرعياً مستوفياً لشرائطه الشرعية والله سبحانه وتعالى هو الموفق كتبه الفقير محمد صديق
الحنبلي عفي عنه وبأدناه الحمد لله حيث رغب الرجل المذكور في الإسلام ونطق بكلمتي التوحيد
جاز له أن يتزوج المرأة المسلمة وأن يعقد عليها العقد الشرعي بشروطه الشرعية والله أعلم كتبه
الفقير محمد غرا المالكي غفر له وعفي عنه ، فبمحض كل من ذكر أعلاه تزوج عبد الله باشا
المذكور بمخطوبته زبيدة المرأة بنت محمد البواب التي كانت زوجاً لسليم أغانعمة الله وطلقها
وانقضت عدتها منه شرعاً على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم وصدق جملته ألفا ريال
اثنتان معاملة ومائة دينار ذهباً محبوباً فالحال لها من ذلك المائة دينار المذكورة أقبضها لوكيلها
الحاج حسين بن السيد محمد الموقت فقبض منه ذلك عدداً بالمجلس بمعاينة من ذكر أعلاه وعليه
الخروج من عهدة ذلك لها شرعاً والباقي ألفا ريال الاثنان يخلان لها عليه بموت أو فراق
زوجها له بذلك ، وعقد نكاحها عليه وكيلها الحاج حسين الموقت المرقوم بإذنها له في ذلك

بشهادة كل من أخيها لأمها السيد علي الحامى بن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد إبراهيم المكلف كل منهما ابني السيد سليمان النقرزان تزويجاً شرعياً قبله للزوج المرقوم وكيله الحاج أحمد شهاب حسباً وكله صريحاً بالجلس بشهادة شهوده المذكورين ، وعلى عبد الله باشا الزوج المذكور القيام لزوجه المذكورة في كل سنة تمضى من تاريخه أدناه بقضاء كسوة أمشاة شتاء وصيفاً لاثنين بحالهما القيام الشرعى ، وثبت ذلك لدى مولانا أفندى بعد أن ثبت لديه معرفة زبيدة المذكورة المعرفة الشرعية التي لاجهالة معها شرعاً بشهادة كل من شهود وكيلها المذكورين ثبوتاً شرعياً وحكم بموجبه حكماً شرعياً في الخامس والعشرين من رمضان سنة ثلاثة عشرة ومائتين وألف «
(نسختان متطابقتان)

صورة عقد الاتفاق

بين منو وزوجه

ولديه بمحضر كل من مولانا الشيخ أحمد الخضرى المفتى الشافعى ومولانا الشيخ محمد صديق النائب المفتى الحنبلى ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكي والسيد أحمد بدوى نقيب الأشراف والأمير محمد بدوى جريجي سردار مستحفظان وأحمد آيق جاويش مستحفظان والحاج أحمد جاويش العسال والحاج محمود اللوى المغربى وإبراهيم الجمال الرزاز والحاج محمد ميتو وعبد الله بريير والحاج بدوى الشناوى وأوزن اسماعيل السلانكى وعلى جاويش كتحدا البيك ولوى جوسف ويكتور جليان صارى عسكر حاكم ولاية الثغر ولوى أوجست دورى رئيس طائفة عسكرية وكتخدا صارى عسكر الآتى ذكره فيه وجان فرانسوا لوى لويكه مهندس وميقانى الجيش الفرنساوى ولوى باش حكيم القرنطينة دام كالم صدر التوافق والتراضى بين الحاج حسين بن السيد محمد الميقاتى الوكيل الشرعى عن زبيدة المرأة بنت السيد محمد البواب الثابت معرفتها وتوكيله عنها فيما يذكر فيه بشهادة كل من أخيها لأمها السيد علي الحامى بن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد إبراهيم ابني السيد سليمان النقرزان الثبوت الشرعى وبين الحاج أحمد شهاب الحاضر معه بالجلس القائم في ذلك بوكالته الشرعية عن عبد الله باشا منو صارى عسكر القطر المصرى حالا الثابتة صريحاً بالجلس وبتصديقه على ذلك التصديق الشرعى وهو زوج زبيدة الموكلة بموجب كتاب الزوجية المسطر بمحكمة الثغر المؤرخ بخامس عشرين شهر تاريخه أدناه على شروط تكون وتوجد بين عبد الله باشا منو وبين زوجته زبيدة بإقرار الوكيلين المذكورين

الشرط الأول منها أن زبيدة الزوجة أقامت وأذنت زوجها المذكور وكيلا عنها في سائر ما تملكه يدها الآن وفيما يوجد لها من المال يتصرف لها في ذلك بحسن نظره السعيد (الثاني) أن عبد الله باشا منو الزوج المذكور أقر بأن كامل ما هو تحت يدها من متاع

ومصاغ وحلي فهو ملك لها بمفردها

(الثالث) عبد الله باشا منو الزوج المرقوم أعطى لوكيله الحاج أحمد شهاب المذكور مائة محبوب كل واحد منها بمائة وثمانين نصفاً فضة في نظير صداق زوجته المذكورة وأن الحاج أحمد شهاب سلم جميع ذلك ليد وكيلاها الحاج حسين المذكور فسلمها ذلك عدداً بالمجلس وذلك على حسب عادة عقود المسلمين

(الرابع) أن الزوج المذكور شرط على نفسه أنه إن حصل بينه وبين زوجته فراق يدفع لها ألفاً ريال اثنان معاملة في نظير فراقه لها وكل ما كان تحت يدها وقت ذلك يكون جميعه ملك لها حسب عادة دفع مؤخر صداق المسلمين

(الخامس) أن زبيدة الزوجة المذكورة إن كانت تطلب طلاقها من زوجها المذكور بحسب شرع المسلمين لم يكن لها من الألفين ريال المذكورة ولا نصف فضة ما عدا ما تحت يدها من مصاغ وغيره فهو لها

(السادس) زبيدة لم تزل وارثة في كل ما كانت ترثه شرعاً

(السابع) أن زبيدة أقرت بنفسها أنه إن مات زوجها المذكور وهي في عصمته تأخذ من ماله الألفين ريال المذكورة وليس لها مقارشة ولا طلب في تركته وذلك في نظير إرثها الشرعي حسب رضاها بذلك

(الثامن) أنه إن مات الزوج المذكور وخلف أولاداً من زوجته المذكورة وهم قصر يقام عليهم رجلان ناظران ووصيان واحد فرنساوي والثاني ابن عرب يتصرفان في أموالهم بحسب المصلحة في طريقة الفرنساوية وطريقة المسلمين

(التاسع) أن الزوجة المذكورة إن ماتت وخلفت أولاداً من زوجها المذكور في حياته يكون أبيهم هو الوكيل الشرعي على أولاده وعلى ما لهم

(العاشر) الناظر الوصي الفرنساوي المذكور في الشرط الثامن يقام من طرف حكام الفرنساوية الموجودين في مصر وقت ذلك والناظر الوصي الثاني يقام بحسب عادة المسلمين وإن حصل تداعي بسبب اختلاف تقام على يد الحاكم الشرعي إن كان يبر مصر أو يبر الفرنسوية (الحادي عشر) عبد الله باشا منو وزوجته إن ماتا جميعاً وخلفا أولاداً تكون أولادها

تحت حماية جمهور الفرنسية والزوجين المذكورين يقصداً فضل الحكام الخمسة التي ببلاد فرنسا
يكونوا نظاراً على أولادها وأن الزوج والزوجة أقرا واعترفا برضاها على هذه الشروط المذكورة
على يد وكيلهما الاقرار والاعتراف الشرعيين الصادرين منهما بالمجلس بمحضرة من ذكر أعلاه
وأهما التزما بهذه الشروط ليفعلانها وقت الاحتياج إليها من غير إكراه ولا إجبار التزاماً
مرضياً وثبت ذلك لدى مولانا أفندي ثبوتاً شرعياً وحكم بموجبه في سابع عشرين رمضان
سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف
نسختان متطابقتان (١)

وثيقة رقم ٧

معاهدة الجلاء عن مصر (انظر ص ٢١٧)

(أمرها الجنرال بليار قائد الجيش الفرنسي في القاهرة)

٢٧ يونيو سنة ١٨٠١

« معاهدة جلاء الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال بليار عن مصر ، أبرمت بين كل من
البريجادييه جنرال هوب Hope بالنيابة عن القائد العام للجيش الإنجليزي في مصر ، وعثمان
بك بالنيابة عن الصدر الأعظم ، وإسحق بك بالنيابة عن قبطان باشا ، والجنرال دنزلو
Donzelot والجنرال موران Morand والسكولونيل تارير Tarayre بالنيابة عن الجنرال بليار
قائد فيلق الجنود الفرنسية ومن يتبعه ، اجتمع المندوبون المذكورون أعلاه في مكان المفاوضات
وبعد تبادل الصفات والسلطات المخولة لهم اتفقوا على الشروط الآتية :

المادة ١

ان الجنود الفرنسية من كافة الأسلحة والملحقين بهم بقيادة الجنرال بليار يحلون عن
القاهرة والقلمة وحصون بولاق والحيزة وعن كل الجهات التي يمتثلونها الآن في القطر المصري

المادة ٢

ينتقل الجنود الفرنسيون والملحقون بهم بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم إلى رشيد
بطريق البر الغربي للنيل ومن هناك يبحرون إلى الثغور الفرنسية بالبحر الأبيض المتوسط

(١) وقدراجنا الوثيقتين على الأصل الموجود في دفتر خانة محكمة رشيد الشرعية ونقلناهما عنه حرفياً

بما فيهما من الاغلاط اللغوية والتجوية

ومعهم أسلحتهم ومدافعهم ومنقولاتهم على نفقة الدول المتحالفة ، ويتم إقلاعهم في أقرب ما يمكن من الوقت بحيث لا يتأخر عن الخمسين يوماً التالية لتاريخ التصديق على هذه المعاهدة ومن المتفق عليه أن ينقل الجنود المذكورون إلى الثغور الفرنسية بأقرب وأسرع طريق

المادة ٣

تقف الأعمال العدائية من الجانبين بمجرد التوقيع والتصديق على هذه المعاهدة وتسلم قلعة سلكوسكي^(١) وباب مدينة الجزيرة المسمى باب الأهرام إلى جيش الحلفاء ، ويحدد خط المخافر الأمامية لجيوش الطرفين بمعرفة مندوبين يعينون لهذا الغرض وتمطى الأوامر المشددة للجنود بأن لا يجتازوا هذا الخط وذلك معنا لكل اصطدام بين جنود الطرفين ، وإذا وقع أى اصطدام فيحسم بالطرق الودية

المادة ٤

يخلى الجنود الفرنسيون والملحقون بهم مدن القاهرة والقلعة وبولاق وقلعها في اليوم الثانى عشر بعد التصديق على هذه المعاهدة ، وينسحبون إلى قصر العيني والروضة والجزيرة ، ومن هناك يرحلون إلى الثغور المدة لإقلاعهم ويكون هذا الرحيل في أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد عن خمسة أيام ، ويتكفل قواد الجيوش البريطانية والتركية بنفقات نقل الجنود الفرنسيين بطريق النيل من الجزيرة

المادة ٥

تنظم طريقة رحيل الجنود الفرنسيين باشتراك قواد جيوش الطرفين أو ضباط أركان الحرب الذين ينتدبون لهذا الغرض من الجانبين ، ولكن من المتفق عليه أنه طبقاً لهذه المادة يكون لقواد جيوش الحلفاء تحديد عدد الأيام التى يقتضيها احتشاد الجيش الفرنسى ورحيله وبناءً على ذلك يصحب الجيش الفرنسى فى رحيله مندوبون من الإنجليز والتركي يكلفون تقديم المؤن اللازمة له أثناء الرحيل

المادة ٦

تمهد حراسة الأمتعة والأنتقال والنخائر وسائر المهمات التى ينقلها الجنود الفرنسيون بطريق النيل إلى شراذم من الجيش الفرنسى وإلى السفن المسلحة التابعة لدول الحلفاء

المادة ٧

تقدم المؤن الكافية للجنود الفرنسيين والملحقين بهم من يوم رحيلهم من الجزيرة إلى

(١) جامع الظاهر ببيرس

حين وصولهم إلى فرنسا وتتبع في هذا الصدد لوائح الجيش الفرنسي في المسافة بين الجزائر
والنفر الذي يقلعون منه ، واللوائح البحرية البريطانية في طريقهم بجزراً لغاية وصولهم
إلى فرنسا

المادة ٨

يقدم قواد القوات البرية والبحرية الإنجليزية والتركية مرآكب النقل اللازمة لنقل
الجنود الفرنسية إلى ثغور فرنسا الواقعة على البحر الأبيض المتوسط وكذلك لجميع الفرنسيين
والأشخاص الآخرين الملحقين بالجيش الفرنسي ، ويمهد في هذه المهمة وفي تدبير المؤن
الكافية إلى مندوبين يعينهم لهذا الغرض الجنرال بليار وقواد الحلفاء البرين والبحريين بعد
التصديق على هذه المعاهدة مباشرة ، ويتوجه هؤلاء المندوبون إلى رشيد وأبو قير لتدبير
الوسائل اللازمة للنقل

المادة ٩

يقدم الحلفاء أربع سفن (أو أكثر من هذا العدد عند الإمكان) خاصة لنقل الجياد
والمياه والعلف الكافي لمدة السفر

المادة ١٠

يعود الجنود الفرنسيون والملحقون بهم إلى فرنسا في حراسة سفن الحلفاء ، وتضمن
الدول المتحالفة للذين يركبون السفن منهم أن ألا يصابوا بأذى ما إلى أن يبلغوا الشواطئ
الفرنسية ويتعهد الجنرال بليار هو والجنود الذين تحت قيادته بأن لا يصدر عنهم أثناء رحلتهم
أى عمل عدائى ضد السفن أو البلاد التابعة لصاحب الجلالة البريطانية أو الباب العالي وحلفائهما
ولا يجوز للسفن المقلدة للجنود أو للرعايا الفرنسيين أن ترسو في أى ثغر آخر غير الثغور
الفرنسية مالم تقضى بذلك الضرورة القصوى

ويتعهد قواد القوات البريطانية والتركية والفرنسية بالمعهد المينة أعلاه مدة إقامة الجيش
الفرنسى في مصر من يوم التصديق على المعاهدة إلى حين نزوله إلى السفن ويتكفل الجنرال
بليار قائد القوات الفرنسية بالنيابة عن حكومته بأن السفن التي تقل الجنود الفرنسية أو تتولى
حراستها في البحر لا تحجز ولا تضبط في موانئ فرنسا بعد نزول الجنود منها وأن يكون لقباطيتها
الحق أن يشتروا على حسابهم حاجتهم من الزاد والمؤونة مما يكفيهم للعودة ويتكفل الجنرال

بليار أيضاً بالنيابة عن حكومته أن لا تضارّ هذه السفن في عودتها إلى نفور الحلفاء ما دامت لا تحاول القيام بحركات حربية عدائية أو المشاركة فيها بأى وسيلة ما

المادة ١١

جميع الرجال الإداريين وأعضاء لجنة العلوم والفنون وبالجملة كل الأشخاص الملحقين بالجيش الفرنسى يتمتعون بالمزايا المخولة في هذه المعاهدة لأفراد الجيش ورجال الإدارة وأعضاء لجنة العلوم والفنون أن يأخذوا معهم الأوراق المتعلقة بوظائفهم وأعمالهم وأوراقهم الخاصة والأشياء الأخرى التى تتعلق بهم

المادة ١٢

يحق لأى من سكان مصر على اختلاف أجناسهم إذا رغب اللحاق بالجيش الفرنسى في رحيله أن يرحل معه ولا يجوز بعد رحيله أن تؤذى عائلته أو تصادر أملاكه

المادة ١٣

لا يضارّ أحد من سكان مصر من أى دين كان ولا يؤذى في شخصه ولا في ماله بسبب علاقته أثناء الاحتلال الفرنسى بالسلطات الفرنسية ما دام يخضع من الآن لتوانين البلاد^(١)

المادة ١٤

المرضى الذين لا يستطيعون السفر يبقون في مستشفى حيث يتولى علاجهم أطباء من الفرنسيين أو أشخاص من مواطنيهم إلى أن يتم شفاؤهم وعندئذ يرسلون إلى فرنسا طبقاً للأحكام التى تسرى على الجنود ، وعلى قواد الحلفاء أن يقدموا لهم حاجتهم في ذلك المستشفى وعلى الحكومة الفرنسية أن ترد قيمة هذه الحاجات

المادة ١٥

عند تسليم المواقع والقلاع المقتضى تسليمها طبقاً لهذه المعاهدة يعين مندوبون لتسلم المدافع والذخائر والمخازن والأوراق والمحفوظات والرسوم وغير ذلك من الأشياء والنقولات التى يجب على الفرنسيين تركها للحلفاء

(١) فى النص المنشور فى مجموعة دى مارتانس أن هذه المادة تنصرف إلى الأشخاص الذين يرحلون مع الجيش الفرنسى ، لكن هذه الاضافة لم ترد فى النص الوارد فى ريبو وقد اعتمدنا على الصيغة التى فى ريبو لأن الاضافة لا تستقيم مع المعنى المستفاد من ختام المادة

المادة ١٦

يرسل قائد القوات البحرية للحلفاء سفينة تبحر في أقرب وقت إلى طولون وعليها ضابط
ومندوب من الجيش الفرنسي يعهد إليهما إبلاغ الحكومة الفرنسية نص هذه المعاهدة

المادة ١٧

جميع ما ينشأ من الخلاف في شأن تنفيذ هذه المعاهدة بحسب بالطرق الودية على يد مندوبين
يعينون لهذا الغرض من الجانبين

المادة ١٨

بعد التصديق على هذه المعاهدة يصير الإفراج فوراً عن الأسرى الإنجليز والعثمانيين
المحبوسين في القاهرة وعلى قواد الحلفاء أن يفرجوا من ناحيتهم عن الأسرى الفرنسيين الذين
في معسكراتهم

المادة ١٩

يتبادل الحلفاء والفرنسيون الرهائن لضمان تنفيذ هذه المعاهدة من الجانبين وتكون
الرهائن من ضباط من الطرفين متساوين في الرتبة ويطلق سراح الرهائن بمجرد وصول الجنود
الفرنسية إلى موانئ فرنسا

المادة ٢٠

يبلغ أحد الضباط الفرنسيين هذه المعاهدة إلى الجنرال منو بالإسكندرية ، ولهذا الأخير
أن يقبلها بالنسبة للجنود الفرنسيين ومن يلحق بهم ممن تحت إمرته براً وبحراً في تلك المدينة
وعليه في حالة القبول أن يبلغ ذلك إلى قائد القوات البريطانية المرابطة أمام الإسكندرية في مدة
اليومين التاليين لتبليغه نص المعاهدة

المادة ٢١

يصير تبادل التصديق على هذه المعاهدة من قواد الطرفين في مدة أربع وعشرين ساعة
بعد التوقيع عليها

حرر من هذه المعاهدة أربع نسخ بالمكان الذي حصلت فيه المفاوضات بين مندوبي
الطرفين ظهر يوم ٢٧ يونيه سنة ١٨٠١ الموافق ١٦ صفر سنة ١٢١٦ هجرية أي ٨ مسيدور
من السنة التاسعة للجمهورية الفرنسية

إمضاءات : هوب Hope بريجاديه جنرال . عثمان بك وكيل الصدر الأعظم . إسحق بك
وكيل حسين قبطان باشا . دنزلو Donzelo قائد لواء . موران قائد لواء . تارير Tarayre
كولونل

نوافق ونصدق على هذه المعاهدة ، ٩ مسيدور (٢٨ يونيو سنة ١٨٠١) : بليار قائد فرقة
نوافق : هلي هتشنسون القائد العام (للجيش الإنجليزي) — نوافق بالنيابة عن اللورد كيت :
ستفنسن قبطان بالبحرية الملكية — صدقنا على مواد هذه المعاهدة : الحاج يوسف ضيا .
حسين باشا قبطان

ملحق إضافي وتفسيرى للمعاهدة

١ — ان مدافع الميدان التي يسوغ للجيش الفرنسي تحت إمرة الجنرال بليار أن ينقلها
معه في انسحابه من القاهرة ويأخذها لفرنسا هي : مدفعان من مدافع الميدان عن كل طاوور
ومدفع عن كل سرية وما يتبعها من العربات والذخيرة

٢ — من المتفق عليه أيضاً أن الجنود الفرنسيين الذين يركبون سفناً حربية من سفن
الحلفاء يودعون أسلحتهم وذخيرتهم في الأماكن المخصصة لها على ظهر تلك السفن تحت رقابة
قباطينها ثم تسلم للجنود الفرنسيين عند نزولهم من السفن في الموانئ الفرنسية ، أما الجنود الذين
يركبون سفناً غير حربية وغير مسلحة فيستبقون أسلحتهم وذخيرتهم مدة رحلتهم ويكونون
تحت رقابة ضباطهم

٣ — تنتقل زوجة الجنرال منو وابنه وياوره من القاهرة إلى الإسكندرية بطريق النيل
على سفينة يعدها الحلفاء لهذه الغاية وترسل معهم منقولات الجنرال منو

٤ — بما أنه يوجد بالقاهرة الآن بعض زوجات الضباط والجنود وباقي الفرنسيين
المرابطين في الإسكندرية فلهن كامل الحرية في الانتقال إلى تلك المدينة ، وتعد لهن وسائل
الانتقال اللازمة لهذا الغرض وفي حالة عدم قبولهن في الإسكندرية ينتقلن إلى فرنسا عند
إقلاع الجيش الفرنسي الذي تحت قيادة الجنرال بليار أو في أى وقت ممكن ، ويحولن جميع
المزايا المنصوص عنها في هذه المعاهدة

٥ — الفرنسيات من نساء ضباط الجيش الفرنسي وجنوده أو نساء الموظفين الفرنسيين
الملحقين بهذا الجيش ينتقلن مع أزواجهن إلى فرنسا ويعطين المؤونة الكافية ويحولن المزايا
المبينة في هذه المعاهدة وتتبع في ذلك اللوائح البحرية البريطانية

- ٦ — إذا وجد بالقاهرة منقولات وأمتعة تابعة لأفراد الحامية الفرنسية المرابطة في الإسكندرية تفعل وتودع في رشيد أو ترسل إلى فرنسا إذا أمكن ذلك
- ٧ — يجوز لمدير الإيرادات العامة للجيش الفرنسي أن ينتقل إلى الإسكندرية أو يرسل إليها مندوباً عنه ويعطى كل التسهيلات الممكنة لهذا الغرض
- ٨ — إذا كان من بين الرهائن التي تعطى من الجانبين ضباط من الجيش البري فلقواد الجيوش الثلاثة أن يستبدلوا بهم عند نزول الجيش الفرنسي إلى السفن ضباطاً بحريين من مرتبهم
- ٩ — الخيول والجمال التي يتركها جيش الجنرال بليار في مصر تسلم عند الجلاء إلى مندوبين يعينهم قواد جيوش الحلفاء
- ١٠ — من المتفق عليه أن الحصون التي يصير تسليمها تسلم بحالتها دون أن يمسهأى هدم أو تخريب ويلقت نظر الضباط والمهندسين إلى الألفام التي بها
- حرز في معسكر المفاوضات يوم ٨ مسيدور من السنة التاسعة (٢٧ يونيو سنة ١٨٠١
- ١٦ صفر سنة ١٢١٦) (الإمضاءات السابقة)

وثيقة رقم ٨

معاهدة الجلاء عن الإسكندرية (انظر ص ٢٢٥)

« شروط التسليم المعروضة يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٨٠١^(١) من عبد الله جاك فرنسوا منو القائد العام للجيش الفرنسي بالإسكندرية على قواد القوات البرية والبحرية التابعة لصاحب الجلالة البريطانية ولللباب العالي

الشرط ١

ابتداءً من اليوم لغاية ٣٠ فركتيدور (١٧ سبتمبر سنة ١٠٨١) تمتد الهدنة بين الجيش الفرنسي والجيوش الإنجليزية والتركية بالشروط المتبعة الآن وتحدد خطوط المخافر الأمامية بين الجيشين تحديداً جديداً بمقتضى اتفاق ودى يبرم بين قواد الجانبين منعاً لوقوع أى تصادم بين الجنود (الجواب) — مرفوض

(١) عرضت الشروط يوم ٣٠ أغسطس وتم الاتفاق يوم ٣١ أغسطس كما بينا ذلك ص ٢٢٥

الشرط ٢

إذا لم يصل المدد الكافي للجيش الفرنسي قبل الميعاد المحدد في المادة السابقة ينسحب من الإسكندرية وقلاعها واستحكاماتها بالشروط الآتية
(الجواب) - مرفوض

الشرط ٣

ترد الجنود الفرنسية يوم ١٨ سبتمبر إلى داخل الإسكندرية والقلاع المجاورة لها، وتسلم إلى الحلفاء الماقل والاستحكامات الواقعة أمام سور المدينة وكذلك قلعتي لتورك ودفيفيه^(١) وما فيها من المدافع والذخائر

(الجواب) تسلم جميع الاستحكامات وقلعتا لتورك ودفيفيه إلى قوات الحلفاء بعد التوقيع على معاهدة التسليم بثمان وأربعين ساعة أى ظهر يوم ٢ سبتمبر وكذلك يسلم ما بها من المدافع والذخائر وينسحب الجنود الفرنسيون من الإسكندرية وباقي قلاعها وملحقاتها بعد التوقيع على المعاهدة بعشرة أيام بحيث ينزل الجنود الفرنسيون في هذا الموعد إلى السفن المعدة لرحيلهم

الشرط ٤

كل فرد من أفراد الجيش الفرنسي أو الملحقين به من العسكريين والملكيين وكذلك أفراد الجنود على اختلاف أجناسهم وبلدانهم وأديانهم ممن كانوا بمصر قبل مجيء الحملة الفرنسية يستبقون ممتلكاتهم وأمتعتهم وأوراقهم بحيث لا يسوغ فحصها وتفقيشها
(الجواب) - مقبول ، بشرط أن لا يأخذوا شيئاً من أملاك حكومة الجمهورية الفرنسية عدا المنقولات والأمتعة والأشياء الأخرى ملك الفرنسيين والتابعين لهم ممن اشتغلوا في خدمة الجيش الفرنسي مدة ستة أشهر وكذلك الأشخاص الملحقين بخدمة الجيش الفرنسي في الوظائف الملكية أو العسكرية على اختلاف أجناسهم وبلدانهم وأديانهم

الشرط ٥

تنزل القوات الفرنسية ومن يتبعها من الأشخاص المشار إليهم في البند السابق إلى السفن في ثغر الإسكندرية بين ٥ و ١٠ من شهر فاندميمير من السنة العاشرة للجمهورية (من ٢٧ سبتمبر إلى ٢ أكتوبر سنة ١٨٠١) على الأكثر بأسلحتهم وذخائرهم وأمتعتهم

(١) هما قلعتا القمرية والركنه أنظر ص ٧١

ومنقولاتهم وجميع ما يمتلكونه من الأوراق الرسمية والودائع ، ويلحق بكل طاوور وسرية مدفع من مدافع الميدان وذخيرته ، وتقلع السفن بكل ذلك إلى ميناء فرنسية بالبحر الأبيض المتوسط يعينها قائد الجيش الفرنسي

(الجواب) - ينزل الجنود الفرنسيون ومن يتبعهم من الجنود والأشخاص المشار إليهم في البند الرابع إلى السفن من ثغر الإسكندرية إلا إذا تم الاتفاق الودي على إقلاع جزء منهم من أبو قير ، ويكون نزولهم إلى السفن عقب إعداد السفن لهم ، وتتهمد دول الحلفاء بنقل الجنود في عشرة أيام بعد التوقيع على معاهدة التسليم إذا أمكن ذلك ، ويؤدي إلى الجيش الفرنسي الاحترام العسكري ، ويأخذ معه أسلحته وأمتعته ولا يعتبر أفراده أسرى حرب ، ويأخذ معه كذلك عشرة مدافع من عيار ٤ بوصات ومن الذخيرة ثمانى طلقات أو عشر لكل مدفع ويقلع إلى أحد الثغور الفرنسية بالبحر الأبيض المتوسط

الشرط ٦

تقلع السفن الحربية الفرنسية كاملة الأسلحة مع الجيش الفرنسي وكذلك السفن التجارية مهما اختلفت جنسية أصحابها ولو كانوا من رعايا الدول المعادية للحلفاء أو كانوا من التجار أو البحارة التابعين لدول الحلفاء قبل مجيء الحملة الفرنسية بحيث تعاد السفن الحربية إلى الحكومة الفرنسية وتعاد السفن التجارية لأصحابها

(الجواب) - مرفوض وتسلم جميع السفن إلى الحلفاء بالحالة التي هي عليها

الشرط ٧

كل سفينة فرنسية تصل الإسكندرية ابتداء من اليوم لغاية ٣٠ فركتيدور (١٧ سبتمبر) قادمة من ثغور فرنسا أو حلفائها تسرى عليها أحكام هذه المعاهدة ، والسفن الحربية أو التجارية التابعة لفرنسا أو حلفائها التي تصل في مدة العشرين يوما التالية للجلاء عن المدينة لا تعتبر غنيمه حربية بل يطلق سراحها هي وركبها وحمولتها وتعطى جواز مرور من الحلفاء

(الجواب) - مرفوض

الشرط ٨

الجنود الفرنسيون والموظفون العسكريون والملكيون التابعون للجيش وجميع الأشخاص المنوه بهم في البنود السابقة يبحرون على ظهر السفن الفرنسية الراسية في ثغر الإسكندرية

إذا كانت صالحة للسفر أو على ظهر السفن الإنجليزية أو التركية في المواعيد المحددة
بالبند الخامس

(الجواب) - يختار الأدميرال الإنجليزي ما يشاء من هذه السفن

الشرط ٩

يعين مندوبون من الجانبين لوضع نظام النقل من جهة عدد السفن اللازمة ومقدار حمولتها
من الرجال وبالجملة تسوية كل ما يمكن أن ينشأ من الصعوبات في تنفيذ هذه المعاهدة ويعهد
إلى هؤلاء المندوبين تحديد مواقع السفن الموجودة في الميناء والسفن التي يقدمها الحلفاء بحيث
تكون الوسائل التي تتبع كافية لمنع وقوع أى نزاع بين البحارة المختلفة أجناسهم

(الجواب) - كل هذه التفاصيل تعهد تسويتها إلى الأدميرال الإنجليزي وإلى ضابط
بحرى فرنسى يختاره القائد العام للجيش الفرنسى

الشرط ١٠

التجار وأصحاب السفن على اختلاف أجناسهم وأديانهم وكل من يرغب من سكان مصر
أو من رعايا البلاد الأخرى المقيمين الآن في الاسكندرية كالسوريين والأقباط والأروام والعرب
واليهود الخ في مصاحبة الجيش الفرنسى في رحيله يركبون السفن مع الجنود الفرنسية وتسرى
عليهم الزايا المقررة للجيش الفرنسى ولهم الحق في أن يأخذوا معهم ما شاءوا من أموالهم من
أى نوع كانت وأن يوكلوا من شاءوا في التصرف فيما لا يستطيعون نقله وتحترم تصرفاتهم
ومعاملاتهم والمقود الصادرة منهم بشأن ممتلكاتهم ويضمن قواد الحلفاء نفاذها ، والذين
يفضلون منهم البقاء في مصر فترة من الزمن لتسوية معاملاتهم يسمح لهم بذلك ويكونون
مشمولين بحماية الحلفاء ، أما الذين يؤثرون الإقامة في مصر إلى ما شاء الله فيتمتعون بكافة
الحقوق والمزايا التي كانت لهم قبل الحملة الفرنسية

(الجواب) - جميع المتاجر التي توجد في الاسكندرية أو على ظهر السفن الراسية في
الميناء تسلم مؤقتاً إلى الحلفاء إلى أن يبت في شأنها طبقاً للقواعد المرعية ولأحكام القوانين
المتبعة بين الدول ولن يشاء من الأفراد أن يصحبوا الجيش الفرنسى أو يبقوا في مصر في
أمن وطأ نينة

الشرط ١١

لا يضار أحد من سكان مصر أو من رعايا أمة أخرى مهما كان مذهبه بسبب مسلكه

مدة الاحتلال الفرنسي وخاصة لمحاربته في صفوفهم أو استخدامهم إياه
(الجواب) - مقبول

الشرط ١٢

مؤونة الجنود والملحقين بهم في البحر لغاية الوصول إلى فرنسا تكون على نفقة الحلفاء وطبقاً للوائح البحرية الفرنسية وعلى الحلفاء أن يقدموا كل ما يلزم لتسهيل النزول إلى السفن
(الجواب) - مؤونة الجنود ومن يركب السفن معهم تكون على حساب الحلفاء لغاية بلوغهم فرنسا وتتبع في ذلك القواعد المرعية في البحرية البريطانية

الشرط ١٣

القناصل والمثولون للدول المتحالفة مع فرنسا وكذلك الموظفون القنصليون التابعون لتلك الدول يستمر تمتعهم بالزايا والحقوق الخولة لموظفي السلك السياسي طبقاً للقواعد المتبعة بين الدول المتمدنة وتكون أملاكهم ومنقولاتهم وأوراقهم موضع الرعاية والاحترام في كفالة دول الحلفاء ولهم الحرية في أن يرحلوا أو يبقوا في البلاد كما يشاءون
(الجواب) - للقناصل ولباقي الموظفين القنصليين التابعين لحلفاء الجمهورية أن يرحلوا أو يبقوا في البلاد حسبما يرغبون وتحفظ لهم أملاكهم ومنقولاتهم على اختلاف أنواعها وكذلك أوراقهم ما داموا يسرون سيرة صادقة ويتبعون القواعد المقررة في القانون الدولي

الشرط ١٤

المرضى الذين تقرر اللجان الصحية للجيش أن في استطاعتهم السفر يركبون السفن مع باقي الجنود ، وتخصص لهم سفن مستشفيات تتوافر فيها الأدوية الكافية والأغذية وكل ما يلزم للمرضى ويتبعهم صيدليون فرنسيون ، أما المرضى الذين لا تسمح حالتهم بالسفر فيبقون في رعاية دول الحلفاء وعنايتهم ويبقى معهم بعض الأطباء الفرنسيين . وتخصص لهم وسائل العناية الكافية وتكون نفقاتهم على حساب دول الحلفاء ، وعلى هذه الدول أن تبعث بهم إلى فرنسا عندما تسمح لهم صحتهم بالسفر ، ولهم أن يأخذوا معهم كل ما يعلكون من المنقولات طبقاً للقاعدة المتبعة بالنسبة لباقي الجنود

(الجواب) - مقبول وتعد بعض السفن لتكون مستشفيات ينتقل إليها الجنود الذين يطرأ عليهم المرض في مدة السفر وعلى اللجان الصحية لجيوش الطرفين أن تتفق على الوسائل الواجب اتخاذها بالنسبة للمرضى المصابين بأمراض معدية بحيث يمنع اتصالهم بباقي الجنود

الشرط ١٥

تخصص بعض سفن النقل لحمل الخيول بحيث تسع كل سفينة ستين جواداً والعلف الكافي لهذه الجياد مدة السفر
(الجواب) - مقبول

الشرط ١٦

يحق لأعضاء المجمع العلمى المصرى ولجنة العلوم والفنون ان يأخذوا معهم جميع الأوراق والرسوم والمذكرات ومجاميع التاريخ الطبيعى وجميع آثار الفنون والماديات القديمة التى جمعوها فى مصر

(الجواب) - أعضاء المجمع لهم أن يأخذوا معهم جميع الآلات الفنية والعلمية التى جاءوا بها من فرنسا ، ولكن المخطوطات العربية والنماثيل وباقى المجاميع التى جمعت للجمهورية الفرنسية تعتبر من الأملاك العامة ومن ثم تسلم لقواد الحلفاء
(وقد اعترض الجنرال منو على هذا التعديل ولكن الجنرال هوب صرح أنه لا يمكن العدول عنه واتفق القائدان على عرض الأمر على القائد العام للجيش الانجليزى)

الشرط ١٧

مراكب النقل التى ستخصص لنقل الجيش الفرنسى ومن يتبعه تسير بحراسة السفن الحربية التابعة للحلفاء وتتمهد هذه الدول أن لاتضار هذه المراكب مدة سفرها ، أما المراكب التى قد تنفصل عن عمارة النقل بفعل المواقف أو لأى حادثة ما فعلى قواد الحلفاء أن يضمنوا سلامتها ، وعلى المراكب التى تنقل الجيش الفرنسى أن لا ترسو بأى شاطئ غير شواطئ فرنسا ما لم تقض بذلك الضرورة القصوى

(الجواب) - مقبول ، وعلى القائد العام للجيش الفرنسى أن يتعهد من ناحيته أن لا تضار أى سفينة من سفن الحلفاء أثناء إقامتها فى فرنسا فى عودتها وأن تزود فى فرنسا بكل ما يلزمها طبقاً للعرف الجارى بين الدول الأوروبية

الشرط ١٨

عندما تسلم القلاع والاستحكامات طبقاً لنص الشرط الثالث بصير إطلاق سراح الأسرى من الجانبين
(الجواب) - مقبول

الشرط ١٩

بميين مندوبون لتسلم المواقع الموجودة في المدينة والقلاع وكذلك الذخائر والمخازن والمدافع والأشياء الأخرى التي تترك للحلفاء وتحرق قواهم بكل ذلك يوقع عليها مندوبون من الطرفين كما يجري تسليم القلاع والمخازن للحلفاء
(الجواب) - مقبول، وعلى الفرنسيين تسليم الخراط المحتوية على تخطيط مواقع الإسكندرية وقلاعها وتخطيط مدن القطر المصري إلى المندوبين الإنجليز وتسلم البطاريات والشكنات والمباني العامة الأخرى بالحالة التي هي عليها الآن

الشرط ٢٠

يُعطى جواز سفر لسفينة حربية فرنسية تبحر إلى طولون بعد تسليم المدينة وقلاعها نقل الضباط الذين يعهد إليهم القائد العام للجيش الفرنسي إبلاغاً نبأ هذه المعاهدة إلى الحكومة الفرنسية
(الجواب) - مقبول ولكن إذا كانت السفينة فرنسية فلا تكون مسلحة

الشرط ٢١

عند تسليم القلاع والاستحكامات المنوه بها في المواد السابقة يجري تبادل الرهائن من الجانبين لضمان تنفيذ هذه المعاهدة ويُختارون من بين ضباط الجيش من مرتبة واحدة بحيث يكون عددهم أربعة من ضباط الجيش الفرنسي واثنين من ضباط الجيش الإنجليز واثنين من الجيش التركي وينزل الضباط الفرنسيون الأربعة ببارجة الأميرال قومندان عمارة الحلفاء والضباط الإنجليز، والترك بإحدى السفن المقلّة للقائد العام أو نواب القائد العام للجيش الفرنسي ويجري تبادل أولئك الضباط عند وصولهم إلى فرنسا
(الجواب) - يسلم للقائد العام للجيش الفرنسي أربعة ضباط كرهائن أحدهم من ضباط البحرية الإنجليزية والثاني من الجيش الإنجليزى والثالث والرابع من الجيش التركي وعلى القائد العام للجيش الفرنسي أن يسلم قائد الجيش الإنجليزى أربعة ضباط من مرتبة الضباط المذكورين وتسلم الرهائن وقت نزول الجنود إلى السفن

الشرط ٢٢

إذا قام أى خلاف أثناء تنفيذ هذه المعاهدة فيحسم بالطرق الودية على يد مندوبين
من الطرفين

(الجواب) - مقبول

توقيعات : هلى هتشنسون لفتنتت جنرال قائد عام ، حسين قبطان باشا ، عبد الله جاك
فرنسوا منو القائد العام للجيش الفرنسى ، جيمس كيمت Kempt لفتنتت كولونل وسكرتير

فهرست الجزء الثانى

صفحة		
٣	مقدمة الطبعة الثانية
٥	مقدمة الطبعة الأولى
٧	خلاصة الجزء الأول

الفصل الأول

١٠	إعادة الديوان	
١٤	منشور نابليون بإعادة الديوان	١٠ أسباب إعادة الديوان
١٥	نظام الديوان الجديد	١٢ احتلال السويس ورحلة نابليون إليها
١٥	الديوان العمومى وأعضاؤه	١٣ رواية الجبرتى عن احتلال السويس
١٧	الديوان الخصوصى وأعضاؤه	١٤ رواية الجبرتى عن رحلة نابليون إليها

الفصل الثانى

٢٠	الحملة على سوريه	
٢٧	احتلال يافا	٢٠ مقدمات الحملة وأسبابها
٢٩	المصريون فى يافا	احتياطات نابليون وسياسته إزاء الشعب المصرى
٣٠	حصار عكا والارتداد عنها	٢٣ اجتماع نابليون بأعضاء الديوان
٣٣	خسائر الفرنسيين فى الحملة على سورية	٢٤ الاحتفال بروية رمضان
٣٤	موقف نابليون بعد هزيمة عكا	٢٥ سير الحملة
٣٦	انسحاب الجيش الفرنسى إلى مصر	٢٧ احتلال العريش

الفصل الثالث

٣٨	الحالة فى مصر أثناء الحملة على سوريه	
٤٠	احتفال الفرنسيين بانتصاراتهم	٣٨ حالة الشعب النفسية
٤١	حالة القاهرة فى شهر فبراير سنة ١٧٩٩	٣٩ مركز الديوان

٤٨	رواية الجبرتي	٤٢	بوادر الثورة في الأقاليم
٤٩	إخماد الثورة	٤٢	الثورة في الشرقية
٥٠	معركة كفور نجم	٤٢	واقعة بردين
٥٠	إحراق ميت غمر	٤٤	ثورة أمير الحج
٥٠	الثورة في غرب الدلتا	٤٥	رواية الجبرتي
٥٢	الثورة في البحيرة	٤٦	امتداد الثورة
٥٣	معركة سنهور	٤٦	رواية الجبرتي
٥٤	احتلال الفرنسيين دمنهور	٤٧	خطورة الثورة
٥٥	النهب والفظائع في دمنهور	٤٨	عزل أمير الحج

الفصل الرابع

سياسة نابليون في مصر

٥٧	بعد عودته من سوريه		
٦٤	مقتل الجنرال دومارتان	٥٧	عودة نابليون إلى القاهرة
٦٤	نزول الجنود الممانيه في أبو قير	٥٨	منشور أعضاء الديوان
٦٥	احتلال الأتراك قلعة أبو قير		تغيير نظام القضاء وانتخاب قاضي قضاة
٦٥	تعليمات نابليون	٥٩	مصر
٦٧	معركة أبو قير البرية	٦١	عود إلى الجمع العلمي
٧٠	حصار قلعة أبو قير	٦٢	خرطة مصر (١)
٧٠	رواية الجبرتي عن معركة أبو قير	٦٢	اكتشاف الآثار المصرية القديمة
٧١	حالة الأفكار في القاهرة والأقاليم	٦٣	الموقف السياسي وتجدد القتال
٧٥	رجوع نابليون إلى القاهرة		

(١) راجع الجزء الأول ص ١٢٨ من الطبعة الأولى و ٩٨ من الثانية و ١٠٦ من الثالثة

الفصل الخامس

س

اضطراب الأحوال في فرنسا ورحيل نابليون

٧٦		٧٨	الاستعداد للرحيل
٨٥	رأى نابليون في الجلاء عن مصر	٨٠	سفر نابليون من القاهرة
٨٥	رأيه في حالة مصر الداخلية	٨١	عرض الصلح على تركيا
٨٦	حصون مصر	٨٢	من القاهرة إلى الاسكندرية
٨٦	الإدارة المالية ومشروعات أخرى	٨٣	رسالة نابليون إلى الديوان
٨٧	ختام الرسالة	٨٣	رسالته إلى الجيش
٨٨	إقلاع السفن	٨٤	رسالته إلى الجنرال كليبر عن الحالة في مصر
٨٨	الاحتفال بوفاء النيل بعد سفر نابليون		

الفصل السادس

قيادة الجنرال كليبر

٩٠		٩٠	شخصية كليبر
٩٩	حقيقة الموقف الحربي في مصر	٩٠	الجفاء بين كليبر ونابليون
١٠١	الحالة المالية والاقتصادية	٩٤	موقف كليبر بعد إسناد القيادة العامة إليه
١٠٦	حالة الشعب النفسية	٩٥	مقابله لأعضاء الديوان
	مساعي كليبر في عقد الصلح ورأيه في	٩٦	أعضاء الديوان في عهد كليبر
١٠٧	مركز مصر السياسي	٩٧	التقسيم الإداري للمديريات
	تجدد القتال وهزيمة الأتراك في	٩٧	الحالة في القاهرة والأقاليم
١٠٩	عزبة البرج		
١١٠	أعمال كليبر العلمية		

الفصل السابع

معاهدة العريش

١١١		١١٢	مفاوضات الصلح في دمياط وغزة
١١٤	المجلس الحربي الفرنسي لإقرار الصلح	١١٣	زحف الجيش العثماني واحتلال قلعة العريش
١١٥	التوقيع على المعاهدة		

صفحة		صفحة	
١١٨	الاستعداد للجلاء	١١٦	شروط المعاهدة
١١٩	مظالم الحكم التركي	١١٧	نظرة في معاهدة العريش

الفصل الثامن

١٢١	نقض المعاهدة ومعركة عين شمس		
١٢٥	رواية الجبرتي عن معركة عين شمس	١٢١	نقض الانجليز للمعاهدة
		١٢٣	معركة عين شمس

الفصل التاسع

١٢٧	ثورة القاهرة الثانية		
١٤٥	الوساطة في الصلح واخفاؤها	١٢٨	بدء الثورة
١٤٧	مأساة بولاق	١٢٩	هجوم الثوار على معسكر الفرنسيين
١٤٩	المهجوم على مواقع الثوار	١٣١	اشتداد الثورة
١٥٠	فظائع الفرنسيين في إخماد الثورة	١٣٢	اعتداءات يوسف لها
١٥١	المفاوضة في التسليم	١٣٤	وصول الجنرال كليبر
١٥٢	عودة السلطة إلى الفرنسيين	١٣٤	خطة كليبر في إخماد الثورة
	بعد إخماد الثورة — غرامات فادحة —	١٣٥	إخضاع الوجه البحري
١٥٤	اعتقال واضطهاد	١٣٧	الانفاق مع مراد بك
١٥٦	اضطهاد الفرنسيين لاسيد السادات	١٤٠	معاهدة الصلح بين كليبر ومراد بك
١٥٩	موقف كليبر بعد إخماد ثورة القاهرة	١٤٣	إخماد ثورة القاهرة

الفصل العاشر

١٦١	مقتل الجنرال كليبر		
١٦٣	القبض على القاتل واعترافه	١٦١	تفاصيل الواقعة
١٦٥	قضية مقتل كليبر	١٦٣	رواية الجبرتي

صفحة		صفحة	
١٧٠	الحكم	١٦٦	تأليف المحكمة العسكرية
١٧١	جنازة كليبر	١٦٦	التحقيق مع المتهمين
١٧٢	إفقال الأزهر	١٦٩	المحاكمة

الفصل الحادى عشر

١٧٤	قيادة الجنرال منو		
١٨٨	مشروعات منو	١٧٤	شخصية منو
	استعداد الإنجليز والأتراك للزحف	١٧٥	سياسة منو إزاء الجيش الفرنسى
١٩٠	على مصر	١٧٧	مسألة إسلام منو وزواجه
١٩٠	سياسة إنجلترا إزاء مصر	١٧٩	سياسة منو إزاء المصريين
١٩١	مساعى نابليون فى إمداد الحملة الفرنسية	١٧٩	ضرائب واثاوات فادحة
١٩٣	موقف منو	١٨٠	نهب وإرهاق وتخريب
	وصول الحملة الإنجليزية العثمانية إلى	١٨٤	إعادة الديون
١٩٤	أبو قير	١٨٤	تأليف الديوان
١٩٥	نزول الإنجليز إلى البر	١٨٥	موظفو الديوان
١٩٥	معركة سيدى جابر	١٨٥	سلسلة التاريخ
١٩٧	ارتباك الجنرال منو	١٨٦	دار الديون
١٩٨	حالة الأفكار فى القاهرة	١٨٦	وصف إحدى جلسات الديوان
١٩٩	اعتقاد واضطهاد	١٨٧	اختصاص الديوان

الفصل الثانى عشر

٢٠٢	هزيمة الفرنسيين وجلاؤهم عن مصر		
	استطراد إلى قلعة رشيد وأهميتها	٢٠٢	معركة كانوب
٢٠٦	التاريخية	٢٠٥	اختلال رشيد

صفحة	صفحة
	٢٠٨ قطع سد أبو قير وعزلة الإسكندرية
٢١٦	٢٠٩ معركة الرحمانية والزحف على القاهرة
٢١٧	٢١٠ انتقام منو من خصومه
٢١٨	٢١٠ رواية الجبرتي
٢١٩	زحف الجيش العثماني — معركة
٢٢٠	٢١١ الزوامل
٢٢١	٢١٢ تخرج موقف الفرنسيين في القاهرة
٢٢٢	٢١٢ موت مراد بك
٢٢٤	٢١٢ انتشار الوباء
٢٢٥	٢١٣ اجتماع الجنرال بليار بأعضاء الديوان
٢٢٥	٢١٥ تقدم الحلفاء
	٢١٥ جلاء الفرنسيين عن الإسكندرية

الفصل الثالث عشر

نتائج ظهور العامل القومي

صفحة	صفحة
٢٢٨	٢٢٨ الحالة السياسية في مصر بعد جلاء الفرنسيين
٢٤٤	٢٢٩ الأتراك
٢٤٦	٢٢٩ الإنجليز
٢٤٧	٢٣٠ المماليك
٢٥١	٢٣٢ العامل القومي
٢٥٥	٢٣٣ قادة الشعب وزعماءه
٢٥٩	٢٣٥ السيد عمر مكرم
٢٥٩	٢٣٧ السيد محمد السادات
٢٦٠	٢٣٩ الشيخ عبد الله الشراوي
٢٦١	٢٤٣ الشيخ محمد الأمير
٢٦٢	
٢٦٣	

صفحة		صفحة	
٢٨٣	قطع سد أبو قير	٢٦٤	تغير وقتي في وجهة النظر الإنجليزية
٢٨٤	مقتل علي باشا الجزائري	٢٦٥	استنجد الماهليك بنابليون وإخفاقهم
٢٨٥	موقف محمد علي	٢٦٦	جلاء الإنجليز عن الجزيرة
	عودة محمد بك الألقى من لندن وفشل	٢٦٧	الحرب بين الأتراك والماهليك
٢٨٥	خطته السياسية	٢٦٧	هزيمة الأتراك في هو
٢٨٨	ثورة الشعب على الماهليك	٢٦٨	معركة دمهور
٢٩٣	ثورة الشعب على الوالي التركي	٢٦٩	رواية الجبرتي
٢٩٣	الحالة السياسية في القاهرة		جلاء الإنجليز عن مصر ورحيلهم عن
٢٩٤	ولاية خورشيد باشا	٢٧٠	الإسكندرية
	سوء سياسة خورشيد باشا ونفوذ	٢٧٠	حضور الكولونل سباستيانى إلى مصر
٢٩٦	العلماء	٢٧٢	موقف الماهليك بعد جلاء الإنجليز
٢٩٦	مقدمات الثورة	٢٧٣	تجدد الحرب بين الماهليك والأتراك
٢٩٧	فظائع الجنود الدلاة وهياج الشعب	٢٧٣	احتلال الماهليك النيا
٢٩٨	رجوع محمد علي إلى القاهرة	٢٧٥	ثورة الجنود على الوالي
٢٩٩	أيام الثورة	٢٧٧	تعيين طاهر باشا قائم مقاماً ثم مقتله
	تعيين محمد علي والياً لجدة ومحاولة إبعاده	٢٧٧	مظالم طاهر باشا
٣٠٠	عن مصر	٢٧٨	مقتل طاهر باشا
٣٠١	اجتماع زعماء الشعب ومطالبهم	٢٧٩	تعيين أحمد باشا
	خلع خورشيد باشا والناداة بمحمد علي	٢٧٩	تحالف محمد علي والماهليك
٣٠٣	والياً لمصر	٢٨٠	اعتقال خسرو باشا
٣٠٥	القتال بين الشعب والوالي التركي	٢٨١	تعيين علي باشا الجزائري والياً
٣٠٧	السيد عمر مكرم روح الحركة	٢٨٢	موقف محمد علي
٣١٤	ختام الثورة	٢٨٢	حضور السيو ماسيو دل سبس

الفصل الرابع عشر

وثائق تاريخية

- وثيقة رقم ١ - منشور نابليون بإعادة الديوان ٣١٥
- وثيقة رقم ٢ - منشور الديوان الخصوصي إلى الشعب لمناسبة إعادة الديوان ٣١٦
- وثيقة رقم ٣ - منشور نابليون إلى أعضاء الديوان عن انتخاب قاضي قضاة مصر ٣١٧
- (١) نص المنشور كما عرّفناه عن الأصل الفرنسي ٣١٧
- (٢) نص المنشور كما عرّفناه من ترجمة نابليون ٣١٨
- وثيقة رقم ٤ - معاهدة العريش ٣٢٠
- وثيقة رقم ٥ - معاهدة الصلح بين الجنرال كليبر ومراد بك ٣٢٥
- وثيقة رقم ٦ - وثيقة زواج الجنرال منو بالسيدة زبيدة المصرية ٣٢٧
- عقد الاتفاق بين منو وزوجته ٣٢٩
- وثيقة رقم ٧ - معاهدة الجلاء عن مصر - أبرمها الجنرال بليار قائد الجيش الفرنسي
في القاهرة ٣٣١
- وثيقة رقم ٨ - معاهدة الجلاء عن الإسكندرية ٣٣٧
- فهرست الجزء الثاني ٣٤٥
- فهرست الخرائط والرسوم ٣٥٣

مراجعات تاريخية

سياسة إنجلترا إزاء مصر

ص ١٠٨ و ١٢١ و ١٢٢ و ١٩٠ و ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٦٤ و ٢٦٦ و ٢٧٠

فهرست الخرائط والرسوم

صفحة

٤٣	بين بلميس والصالحية
٤٣	مصطفى بك أمير الحج
٥٢	بين رشيد وشبراخيت (تخطيط سنة ١٨٠٠)
٦٩	بين الإسكندرية وأبو قير - (تخطيط سنة ١٨٠١)
١٢٣	بين القاهرة وبلبيس (تخطيط سنة ١٨٠٠)
١٣٠	معسكر الفرنسيين بالأزبكية سنة ١٨٠٠ -
١٨٣	بركة الفيل بالقاهرة في أواخر القرن الثامن عشر
١٩٦	خرطة معركة سيدي جابر
٢٠٥	خرطة معركة كانوب
٢١٤	سراى عثمان بك الطنبورجى خليفة مراد بك بالقاهرة
٢٣٤	قادة الشعب وزعماءه في فجر النهضة القومية
٢٥٧	محمد على باشا
٢٧٤	المنيا كما كانت في أوائل القرن التاسع عشر

للمؤلف

حقوق الشعب

كتاب وضعناه سنة ١٩١٢ ، يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان في قالب محاضرات لتعليم الشعب حقوقه

نقابات التعاون الزراعية

كتاب بسطنا فيه تاريخ التعاون الزراعي ومنشآته ونظمه في أوروبا ، والثمرات التي عادت منه على البلاد الأوروبية ، وتناولنا فيه نشأة التعاون في مصر وتاريخه ونظامه ونقاباته ومنشآته ومزايه ، وعلاقته بالهضة الاقتصادية والاجتماعية ، طبع سنة ١٩١٤

كتاب الجمعيات الوطنية

يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية في طائفة من البلدان ، مع شرح أصول الدساتير والنظم البرلمانية فيها ، والمقارنة بينها ، طبع سنة ١٩٢٢

تاريخ الحركة القومية

وتطور نظام الحكم في مصر

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث ، وبيان الدور الأول من أدوارها ، وهو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر ، وتاريخ مصر القوي في هذا العهد

الجزء الثاني : من إعادة الديوان في عهد نابليون إلى انتهاء الحملة الفرنسية ، ومن جلاء الفرنسيين إلى ارتقاء محمد علي أربكة مصر بإرادة الشعب

عصر محمد علي

يتناول تاريخ مصر القوي في عهد محمد علي

عصر إسماعيل

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل
الجزء الثاني : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل

الثورة العراقية والاحتلال الإنجليزي

مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال

تاريخ مصر القوي من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢

مصطفى كامل

باعت الحركة الوطنية

تاريخ مصر القوي من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨

محمد فريد

رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القوي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩

ثورة سنة ١٩١٩

تاريخ مصر القوي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١

الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية

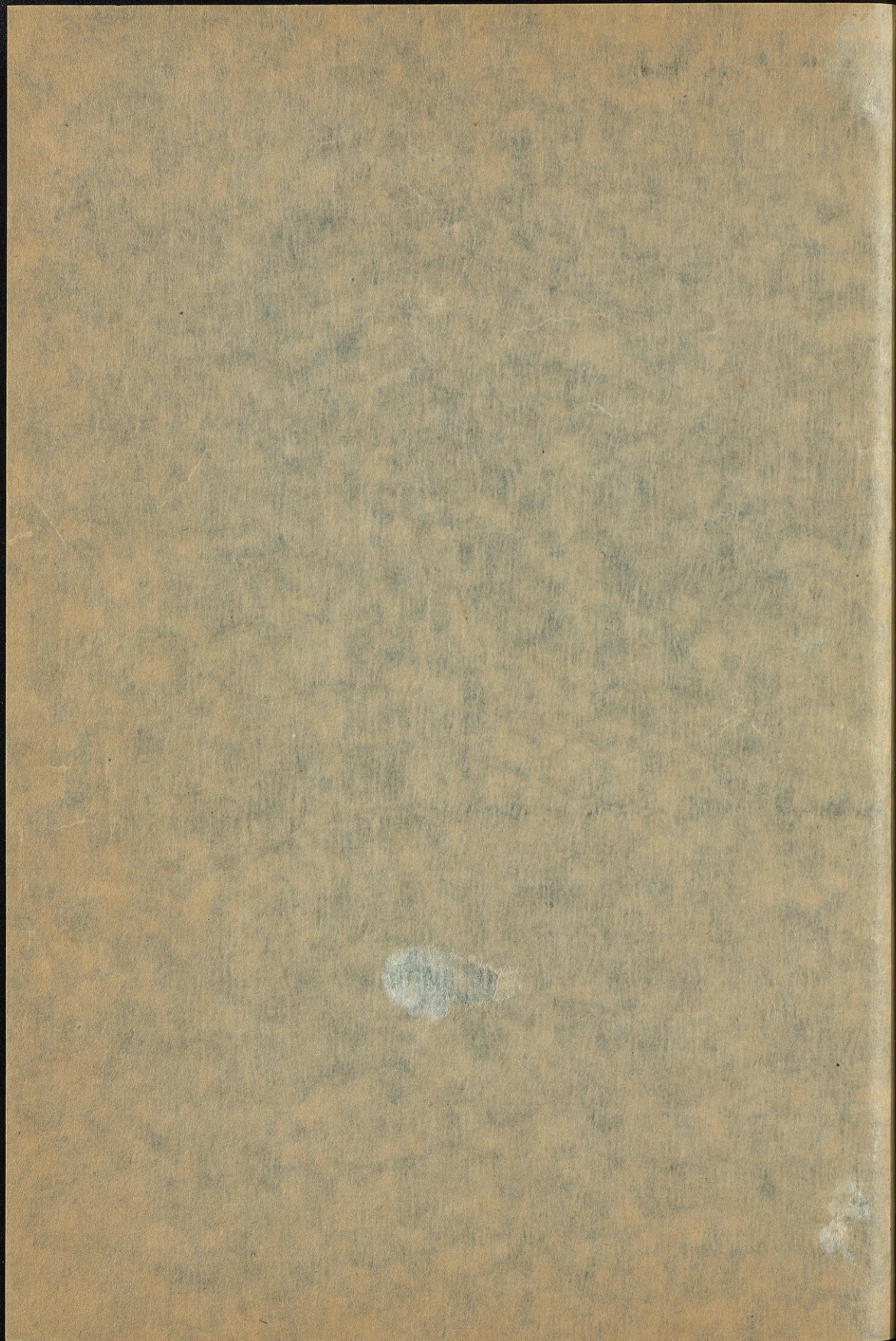
الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ، وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة ،
وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شيوع الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ، ثم وقائع
الثورة في القاهرة والأقاليم

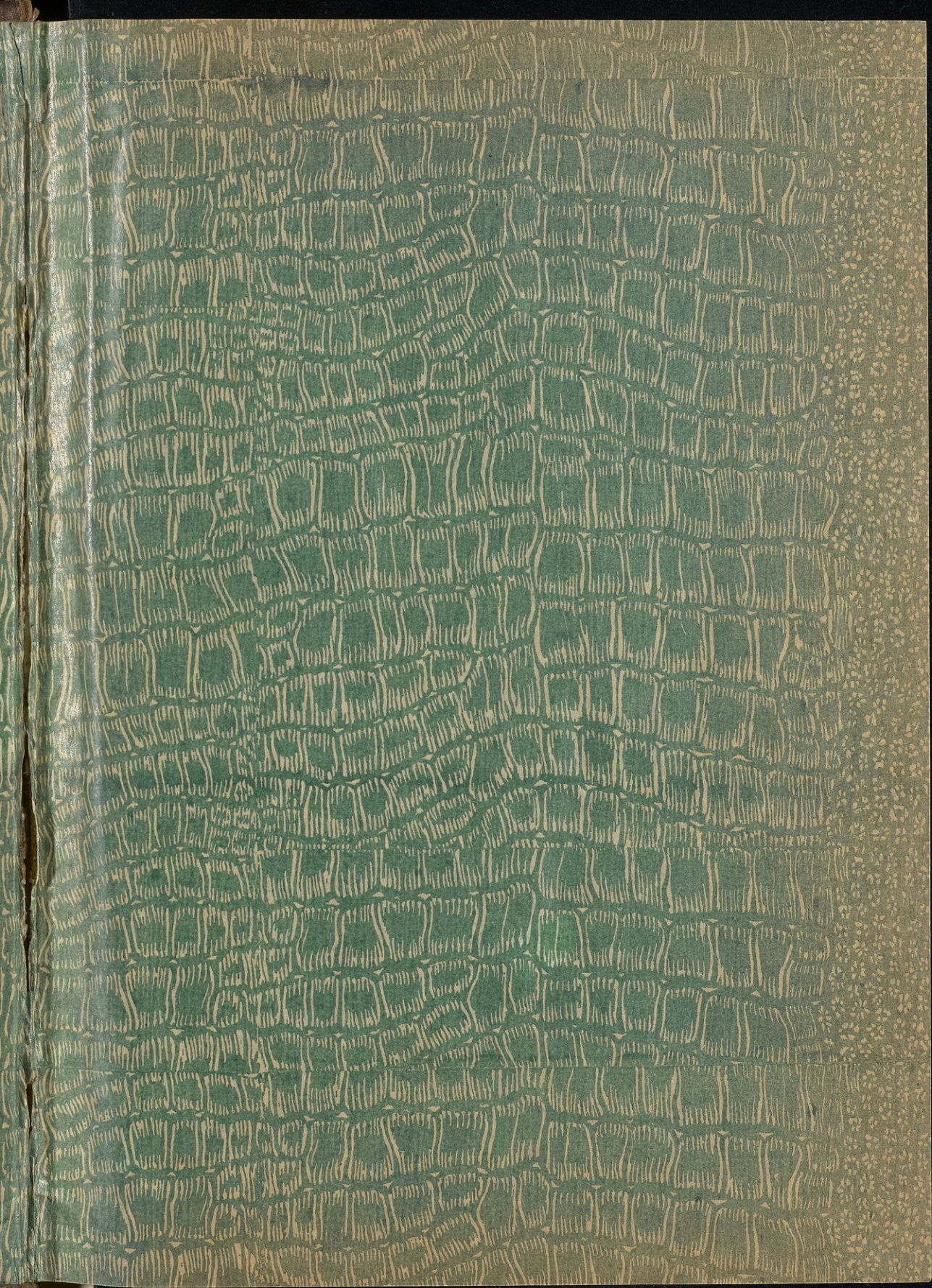
الجزء الثاني : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة ، واستمرارها . ومحاکمات الثورة . ولجنة
ملئ والحوادث التي لا بستها . ومفاوضات ملئ . واستشارة الأمة في مشروع ملئ . والتبليغ
البريطاني بأن الحماية علاقة غير مرضية ، ونتائج الثورة في حياة مصر القومية

في أعقاب الثورة المصرية

الجزء الأول : تاريخ مصر القومي من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة المغفور له « سعد
زغلول » في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ .

vol II





COLUMBIA UNIVERSITY



0026812347

962
R123
v.2

07146809

962.
R123 V2 C1

TARIKH ALHARAKA

1957

